د. عبد الوهاب المسيري

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ



دار الشروق

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ

رؤية حضارية جديدة

الطبعـة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ

رؤية حضارية جديدة

د . عبد الوهاب المسيري

تقديم

الأستاذ محمد حسنين هيكل

دار الشروق

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾
[المائدة : ٣٢]

« وليس الغرض مسك دفاتر حسابية مؤلمة ومفجعة . فقتل إنسان بريء ، سواء أكان يهودياً أم لم يكن ، هو جريمة ضد الإنسانية »

رجاء جارودي : **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**

تقديم

للأستاذ محمد حسنين هيكل

أظن أننا في حالة الحرب وفي حالة السلام معاً نحتاج إلى معرفة أكثر بإسرائيل . فليس هناك من يستطيع أن يحارب طرفاً لا يعرفه ، وليس هناك من يستطيع أن يسالم طرفاً لا يعرفه أيضاً .

ولعل المعرفة بالآخر تكتسب لنفسها أهمية أكثر في حالة من نوع ما هو قائم الآن بين العرب وإسرائيل .

* فلا هي الحرب - لأن الطرف العربي لا يملك الضرورات الأساسية للحرب : *تحديد الهدف بوضوح . * وامتلاك الوسائل بثقة . * وتهيئة الظروف داخل مجال الصراع وخارجه بكفاءة . * والتحصن بالإرادة والتفرقة بينها وبين أحلام اليقظة بحزم .

* وفي نفس الوقت فإن السلام لم يجئ لأن السلام له اشتراطات : * الرضا الاختياري بصلاحية الفرصة المناسبة لصنعه ، وليس الجري تحت فرقعة السياط إلى موائده . * والإحساس بأن ما هو مطروح على المائدة يوفر توازناً في الأمن والمصالح . * والتأكد من أن أحداً لا يملك ميزة احتكارية يفرض بها إرادته إلى حد طلب الإذعان . * والرضا عن اتساق نتائجه مع الطبيعة والتاريخ دون شذوذ .

الحرب إذن بعيدة ، والسلام أبعد منها .

لكن هناك ثالثة ، لا هي السلام ولا هي الحرب ، لا هي الإذعان لأحكام الواقع ولا هي القدرة على تحدي هذه الأحكام . وفي وقت من الأوقات كان يطلق على شيء من هذا النوع وصف حالة «اللاسلم واللاحرب» ، لكن هذا الوصف في الأحوال المستجدة يحتاج إلى مراجعة لأن الواقع أكثر تعقيداً منه وأشد التباساً !

* * *

كان تعبير «اللاسلم واللاحرب» يعبِّر عن ظرف معيَّن بدا فيه السلام بعيداً ، لكن

الاستعداد للحرب كان حاضراً يواصل تجهيز نفسه لاختبار السلاح . أما الآن فإن السلام لم يدخل بعد إلى الميادين ، لكن السلاح غادرها حاملاً الذخائر والخرائط أيضاً !

أي أن هناك ما يمكن أن نسميه حالة غياب ـ تكاد تكون غياباً عن التاريخ ذاته ، ماضيه وحاضره والمستقبل !

إن حالات الغياب التاريخي التي تعتري الأمم في بعض اللحظات من تجاربها ـ ليست فراغاً ، لأن هناك فارقاً بين الغياب والفراغ .

وفي حالة الغياب فإن هناك دائماً إحساساً بأن كل غياب تعقبه عودة بصرف النظر عن المواقيت . وهكذا فإن حالة الغياب كثيراً ما تكون فرصة ملائمة لتهيئة ظروف العودة وشروطها بما فيها : إلى أين بعد العودة ؟

ويصبح الغياب في هذه الحالة عملية احتكاك وتفاعل مع الأفكار ومع احتمالات لم تظهر بوادرها بعد ، وهي مفتوحة لمختلف العوامل والمؤثرات . وفي هذه الحالة تدخل إلى الساحة توجهات متعارضة لا تحدث فرقعة ولا تسفك دماً لأن العملية تكون حتى الآن عناصر كيمياء تتخلق داخل عقول الناس وفي فكرهم – تدور حول فكرة العودة وأشكالها وسبلها .

وفي الوضعية العربية الراهنة ـ والحرب مع إسرائيل بعيدة وكذلك السلام ـ فهناك بالفعل توجهات متعددة :

* توجه يرى أن الحضور في التاريخ شرطه الاعتراف بالأمر الواقع كما هو . والأمر الواقع كما هو لصالح إسرائيل . وإذن فلنقبل بالحقبة الإسرائيلية وإلا فنحن غير عمليين وغير واقعيين ـ وهذا توجه يتكفل بحقائق الأشياء وبتحويل الغياب إلى غيبوبة تخرج بأصحابها من التاريخ أكثر مما تعود بهم إلى مجاريه !

* توجه يرى أن الحضور في التاريخ شرطه مسايرة التيار الغالب . والتيار الغالب كما يقول أصحاب هذا التوجه نظام عالمي جديد تسيطر عليه وتحركه الولايات المتحدة . ولما كانت إسرائيل هي الصديق الأهم لسياسات الولايات المتحدة في المنطقة ، فإن المستقبل مضمون بأن نتنافس أو نتعاون مع إسرائيل في صداقة الولايات المتحدة وسياساتها ـ وهذا توجه ينسى أن التاريخ يصنعه الشجعان ولا تصنعه القطعان !

* ثم توجه آخر لعله أصعب التوجهات جميعاً لأنه يجعل من العودة إلى النفس مقدمة ضرورية للعودة من الغياب إلى الحضور التاريخي الحي والفاعل .

* * *

وظني أن أصحاب هذا التوجه أقرب من غيرهم إلى الحقيقة إذا اتفقنا أن الحق أقرب الطرق إلى الحقيقة ، حتى وإن كان ـ وهو كذلك بالفعل ـ أصعبها وأشدها مشقة .

أصحاب هذا التوجه يُقدِّرون :

ـ أن الاعتراف بالأمر الواقع ترسيخ للغياب من حيث هو اعتراف بالآخر وحده .

ـ ثم إن الالتحاق بالغالبين في موقف حيرة وضعف إنكار لدوافع ومحركات التطور والتقدم ، ثم هو في أحسن الأحوال استبدال الغياب بالاغتراب .

وهكذا ـ في تقدير أصحاب هذا التوجه ـ أن العودة إلى النفس وفي التاريخ والعصر وليس خارجهما هي باب العودة الوحيدة الضروري والممكن .

لكن الأخذ بهذا التوجه الأصعب والأشق يقتضي معرفة واسعة تستطيع أن تساعد على القياس والتحديد والضبط بما يجعل رسم الخرائط لمسارات العودة من الغياب متاح ممكن .

* * *

وهنا يجيء دور رجال من نوع الدكتور عبد الوهاب المسيري يملكون حكمة تجاوز اللحظة ، وجسارة البحث عن الحقيقة ، وشجاعة الاقتراب من آفاقها والمشي بالفعل على تخومها وتضاريسها .

وفي وقت من الأوقات كانت هناك محاولات لمعرفة إسرائيل تحت شعار «إعرف عدوك» ـ لكن هذه المعرفة كانت نوعاً من التعبئة المشحونة فات وقته ، ولعل المحاولة منذ البداية كانت متخلفة من الأساس .

ثم جاء بعد ذلك وقت انقلبت فيه الآيات جميعاً ، فإذا محاولة التعريف بإسرائيل عملية تسويق خاطفة الأضواء ، باهرة الألوان ، عالية الأصوات ـ مؤداها أن إسرائيل نموذج يُحتذى للتقدم إذا كنا نريده وللعصر إذا كنا نقصده ـ هكذا قيل لنا ولا يزال يقال !

وفي التعبئة السابقة وفي التعليب الجديد أظهر التسطيح أنه لا يصلح أداة للمعرفة .

والشاهد أن المعرفة التي يقدمها الدكتور عبد الوهاب المسيري في هذا الكتاب وفي غيره مما كتب تجربة مختلفة بالكامل . فمنذ الستينيات أخذ عبد الوهاب المسيري على نفسه مهمة أعطاها عقله وقلبه وأحلى سنوات عمره ، وهي مهمة دراسة الدين اليهودي

والتواريخ والهويات اليهودية ، حتى وقع ذلك الانحراف الخطير الذي أدخلته الحركة الصهيونية على الدين والتاريخ والهوية كلها معاً .

لثلاثين سنة والرجل شبه منقطع لهذه المهمة حتى أوشك أن يصبح موسوعة حية للموضوع ، بل استقر أخيراً على أن يودع ما يعرفه في موسوعة بالفعل أوشكت أن تصل مطبوعة إلى عامة المهتمين والقراء .

وإذ يتقدم عبد الوهاب المسيري بهذا الكتاب الذي اختار له عنوان **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ** ـ فإنه بذلك يشير إلى عمل عظيم على الطريق يستحق جهده ، ويستحق الذين ينتظرونه .

محمد حسنين هيكل

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى زيادة المعرفة ، الإنسانية والعربية ، بقضية إنسانية شائكة للغاية وخلافية إلى أقصى حد ، وهي قضية الإبادة النازية ليهود أوربا . وقد أصبحت مثل هذه الدراسة مسألة ضرورية ومُلّحة بسبب الخلط والفوضى الفكرية والأخلاقية التي تحيط بالقضية . فالخطاب الحضاري الغربي يحاول اختزال الإبادة النازية وفرض منطق ضيق متحيِّز عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي الحديث حتى تتحول من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد جماعة إثنية ودينية تعيش في كنف واحد من أكثر المجتمعات الغربية «تقدماً» ، ومن تعبير عن نمط إبادي عام بدأ منذ عصر النهضة (في الغرب) في أمريكا الشمالية ولا يزال مستمراً في فيتنام والشيشان ، تتحول إلى مجرد جريمة ارتكبها الألمان على وجه الخصوص ، ضد اليهود وضد اليهود وحدهم . بل يُلاحَظ أن الإبادة النازية تتحول في كثير من الأدبيات الغربية ، خصوصاً الصهيونية ، إلى أيقونة تشير إلى ذاتها ، وسر من الأسرار التي يعجز العقل عن الإحاطة بها .

ومع التسليم بأن ظاهرة الإبادة النازية لليهود (أو الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية) لها تفردها ، ومع التسليم أيضاً بأن هذه الظاهرة مركبة إلى حدٍّ كبير وبأن تفسيرها الكامل والتام أمر مستحيل (وهي في هذا لا تختلف كيفيًا عن معظم الظواهر الإنسانية الأخرى) ، فإننا نذهب إلى أن من الممكن ، رغم كل هذا ، حصر كثير من العناصر التاريخية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي قد تساهم إلى حدٍّ كبير في تفسير جوانب كثيرة مما حدث وفي إلقاء الضوء عليه ، دون أن نزعم بالضرورة أننا أتينا بالتفسير الكلي والنهائي للظاهرة .

وستحاول هذه الدراسة إنجاز هذا الهدف عن طريق تحديد المصطلحات والمفاهيم التي تم خلطها ، وعن طريق إبراز الكثير من الحقائق السياسية والحضارية التي تم تجاهلها ، وعن طريق التأكيد على أهمية بعض الشخصيات اليهودية أو غير اليهودية التي تم تهميشها في

التواريخ المتداولة . وهي عملية نأمل أن تؤدي إلى « مراجعة » الرؤية التاريخية المهيمنة والنماذج التفسيرية السائدة وإلى فهم الظاهرة موضع الدراسة فهماً أعمق ، الأمر الذي قد يتيح تحديد حجم الجريمة وموضع المسئولية بشكل أكثر تركيبية .

ومعظم الدراسات في موضوع الإبادة النازية في العالم العربي تلجأ إلى عملية السرد التاريخية المباشرة ومراكمة المعلومات والحقائق بطريقة موضوعية متلقية . كما أنها ذات طابع سياسي مباشر ، مرتبط تمام الارتباط بالصراع العربي الإسرائيلي ، منحصرة داخل نطاقه ، لا تتجاوزه . وإن حدث وتجاوز الدارس نطاق الممارسة السياسية وتناول الأفكار الكامنة وراء النازية ، فإنه عادةً يتعامل معها باعتبارها أفكاراً منفصلة ، لا باعتبارها أجزاءً من منظومة فكرية حضارية متكاملة . وعادةً ما تركز مثل هذه الدراسات على مجموعة من القضايا والإشكاليات دون غيرها مثل : ما هو عدد ضحايا الإبادة النازية من اليهود ؟ هل تم حرق اليهود بالفعل في أفران الغاز ؟ كيف توظف إسرائيل الإبادة لصالحها ؟ وطريقة السرد التاريخية المباشرة ومراكمة المعلومات والحقائق والتعامل مع الظاهرة النازية على المستوى السياسي أو باعتبارها مجموعة أفكار هي طريقة ولا شك لها مقدرتها التفسيرية ، ولكنها ـ في تصوري ـ ضعيفة إلى حد كبير ، بالمقارنة بمناهج أخرى . كما أن الإشكاليات التي تثيرها لا تتسم بالتركيب أو الرِّحابة أو العمق ، وهي علاوة على هذا تستبعد قدراً كبيراً من القضايا والأسئلة المهمة .

وهذا الكتاب يتناول الظاهرة النازية ، انطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي ، يتجاوز السرد التاريخي والمستوى السياسي المباشر ومنطق مراكمة المعلومات والحقائق ، ويتعامل معها مستخدماً منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية (انظر الملحق) التي تتبدَّى من خلالها الأسس والمعايير الحضارية والأهداف والغايات النهائية التي تساهم في تحديد سلوك الإنسان (فالإنسان ، في تصورنا وتصور الكثيرين ، ليس مادة صماء تعكس حركة المادة بشكل مباشر ، حتمي آلي أبله) . في هذا الإطار طرحنا إشكالية علاقة النموذج المهيمن على الحضارة الغربية الحديثة بالإبادة النازية لليهود وغيرهم ، وإشكالية العلم المنفصل عن القيمة والضمير ، والتجريب المنفصل عن العقل .

ويعود اهتمامي بالأبعاد الحضارية والمعرفية للظاهرة النازية إلى أوائل السبعينيات حين وضعت كتاب **نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (١٩٧٢)** الذي تناولت فيه أطروحة نهاية التاريخ وبيَّنت مركزيتها في الفكر الغربي الفاشي : الصهيوني والنازي .

وفي قسم بعنوان : «الصهيونية والنازية : رؤوس موضوعات» (ص ١١٩ - ١٢٥) بيَّنت العلاقة بين الأيديولوجيتين على المستوى المعرفي .

ثم عُدت للقضية مرة أخرى عام ١٩٨٠ حين وضعت كتاب **الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** من جزأين (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) حيث عمقت البُعد المعرفي والحضاري لدراستي للصهيونية وأشرت إلى ضرورة دراسة الظاهرة النازية بالطريقة نفسها بحيث يُنظر إلى كل من الصهيونية والنازية باعتبارهما جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الفكر الغربي والحضارة الغربية ومن ثم لا يمكن دراستهما بمعزل عن التيارات الفكرية والحضارية الغربية المختلفة بمعزل عنهما . وقد أشرت في الجزء الثاني من الكتاب في قسم بعنوان « الصهيونية والنازية » إلى أن الدراسات الغربية في الموضوع قلما تتجاوز البُعد السياسي الاعتذاري . فهذه الدراسات (كما بيَّنت في صفحة ٣٦ ـ ٤٠) قد أخفقت في أن تبيِّن أن النازية لم تكن انحرافاً عن الحضارة الغربية ، وإنما هي تيار أساسي فيها كالصهيونية تماماً :

* فالحضارة الغربية حضارة تكنولوجية تُعلي من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدم مهما كان الثمن المادي والمعنوي المدفوع فيها ، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائماً ، وتهمل كثيراً من القيم التقليدية «البالية» ، مثل البر بالضعفاء والشهامة والتقوى ومساعدة الآخرين . والنازية حينما أبادت اليهود والعجزة كانت تفعل ذلك لأنهم «غير نافعين» . وموضوع تحويل اليهود إلى شعب منتج ـ كما بيَّنا من قبل ـ كان مطروحاً في أوربا ، في شرقها ووسطها بخاصة . وكان عدد كبير من يهود ألمانيا «إيست يودين» ، أي من يهود شرق أوربا الذين لفظهم الجيتو ، والذين لم تستوعبهم مجتمعاتهم أو أي من المجتمعات الأوربية الأخرى ، نظراً لتخلفهم الحضاري والاقتصادي يُعَد فائضاً بشرياً لا نفع له . وقد حاولت ألمانيا التخلص من هذا الفائض الإنساني غير النافع بإرسالهم في قطارات إلى بولندا التي رفضتهم ، كما رفضهم كثير من الدول الأخرى ، ومنها الولايات المتحدة التي لم توافق على فتح أبواب الهجرة أمامهم . إن العالم الغربي ، برفضه هؤلاء اليهود ، أيَّد ضمنياً الجريمة النازية ووافق على منطلقاتها الفلسفية ، حتى وإن لم يوافق على الشكل المتطرف الذي اتخذته .

* ويجب أن نتذكر أن الحل النازي للمسألة اليهودية لا يختلف كثيراً عن الحلول الغربية الإمبريالية المطروحة للمشاكل المماثلة . فالنازية والإمبريالية تَصدُران عن الإيمان بتفوُّق الجنس الآري على الأجناس الأخرى ، وأن هذا التفوق يعطي الحق للآريين في أن

يتخلصوا من مشاكلهم عن طريق تصديرها للبلاد الأخرى ، حتى ولو أدَّى هذا إلى إبادة السكان الأصليين . والحل النازي لا يختلف عن ذلك ، فهو محاولة لتصدير المسألة اليهودية إلى الدول الأوربية الأخرى (حيث إن المجال الحيوي للاستعمار النازي كان في أوربا) . فالنازيون ، حين وجدوا أن الطريق مسدوداً أمامهم ، قاموا بتصدير اليهود (والغجر والسلاف) لمعسكرات الاعتقال لإبادتهم هناك . إن الجريمة النازية هي نتاج منطقي للحضارة الغربية الحديثة ، وليست استثناءً .

* وثمة ظاهرة مشتركة بين النازيين والصهاينة (وهي أيضاً سمة أساسية للحضارة الغربية) هي عقلانية الإجراءات والوسائل ، ولاعقلانية الهدف ، وقد أشار ماكس فيبر لهذه الظاهرة في كتاباته . فعملية العقلنة ، أو الترشيد التي يتحدث عنها تنصب على الوسائل والأدوات فحسب ، أما الأهداف فهي أمر متروك لاختيار الأفراد . ومعسكرات الاعتقال والتعذيب ، سواء في ألمانيا النازية أم في إسرائيل الصهيونية ،هي مثال جيد على هذا الجانب في الحضارة الغربية . فهذه المعسكرات منظمة بطريقة «منهجية» تُحْسب فيها حسابات المكسب والخسارة ، وتُحْسب المدخلات والمخرجات . حتى التعذيب لا يتم بشكل عشوائي فردي وإنما يتم بشكل مؤسسي منظم . ويُقال إنه حتى حينما كان اليهود في طريقهم إلى غرف الغاز لم يكن مسموحاً للجنود الألمان بإساءة معاملتهم ، فعملية الإبادة ، هذا النتاج الرائع لحضارة العلم والتكنولوجيا ، يجب أن تتم بحياد علمي رهيب ، يشبه الحياد الذي يلتزمه الإنسان تجاه المادة الصماء في التجارب المعملية التي تتخطى حدود الخير والشر . أما الهدف من معسكرات الاعتقال والإبادة والتعذيب ، والمضمون الأخلاقي لهذه الأشياء ومدى عقلانيتها من منظور إنساني (لأن فكرة العقل والعقلانية لا وجود لهما خارج فكرة الإنسان) ، فكل هذا متروك للزعيم أو للدولة أو للأهواء الشخصية أو للأسطورة الدينية القومية . ولعل هذا التزاوج بين العقلانية واللاعقلانية ناجم عن أن الحضارة الغربية الحديثة نتاج حركة التنوير العقلانية ، والحركة اللاعقلانية المعادية للتنوير في الوقت نفسه ، وهي أيضاً نتاج انفصال النزعة الإمبريقية عن النزعة العقلية ، فالتجريب لا يؤدي بالضرورة إلى انتصار العقل والقيم الإنسانية .

ولعل أكبر دليل على أن النازية جزء أصيل من الحضارة الغربية هو أن الرد الغربي على معسكرات الاعتقال والإبادة لليهود لم يكن مغايراً ، في بنائه وفي سماته الجوهرية ، للجريمة النازية . فالغرب يحاول حل المسألة اليهودية بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين ، وكأن جريمة أوشفيتز يمكن أن تُمحَى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت . والغرب الذي أفرز هتلر وغزواته هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو

الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي ، وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية للجريمة التي ارتُكبت والتي تُرتكب يومياً ضد الشعب الفلسطيني . إن الحضارة الغربية الحديثة قد أفرزَت الإمبريالية والنازية والصهيونية ، وهي إذ تتنكر الآن للنازية فهذا أمر مفهوم ، لأن أبعاد الجريمة والفضيحة ضخمة (خصوصاً أن الجريمة ارتُكبت ضد الشعوب الأوربية) . ولكن يجب ألا يَخفي هذا الوضع عن أنظارنا ، او عن أنَظار الآخرين ، الحقيقة الأساسية التي تؤكد أن النازية جزء أساسي من الحضارة الغربية " .
كما أشرت في الكتاب نفسه (ص ٣٦ - ٤٠) إلى أن الدراسات الغربية للظاهرة النازية تهمل التشابه الفكري والتعاون الفعلي بينها وبين الصهيونية .

وقد ظل الخطاب التحليلي الخاص بالظاهرة النازية في العالم العربي يدور في الإطار السياسي المباشر . وقد لاحظت أن الوضع بدأ يختلف في العالم الغربي . ومن أوائل الدراسات الغربية التي تتجاوز نطاق السياسي المباشر دراسة جورج موس George Mosse **الأصول الفكرية للرايخ الثالث** الذي صدر في الستينيات . حيث يصدر المؤلف عن مقولته الشهيرة « لا يوجد شيء في تاريخ أوربا غريب عن الهولوكوست » . ولكن بدلاً من أن يرى الإبادة في إطار حضاري عريض فإنه يضعها داخل إطار طبقي محدد . فالإبادة - في تصوره - هي تعبير عن أولويات البورجوازية ومحاولتها خلق حواجز صلبة بين الذات والآخر .

ولكن منذ منتصف الثمانينيات ، مع بداية اهتزاز ثقة الإنسان الغربي بمشروعه التحديثي ، ومع اكتشافه كثير من الجوانب المظلمة للاستنارة الغربية، ظهرت العديد من الدراسات التي ترى الظاهرة النازية باعتبارها تعبيراً متبلوراً عن هذه النقائص . ففي كتابه **الحداثة والهولوكوست** (١٩٨٥) يذهب زيجمونت باومان Zygmunt Bauman إلى أنه لا يوجد أي تناقض بين الحداثة والإبادة ، فالإبادة - في رأيه - هي تَحقُّق لإحدى الإمكانات الجوهرية الكامنة في الحداثة . « لقد نبعت الإبادة من كل ما نعرفه عن حضارتنا الحديثة أو أولوياتها ورؤيتها الجوهرية للعالم » .

ويذهب جويتس ألي Goetz Aly وسوزان هايم Susanne Heim في دراستهما بعنوان «اقتصاديات الحل النهائي» (١٩٨٨) إلى أن فكرة الحل النهائي ليست نتاج الأساطير النازية الخاصة بالدم والتربة ، وإنما هي نتاج تفكير علمي رشيد يتصل بالاعتبارات الاقتصادية والسياسات السكانية .

أما بيريل لانج Berel Lang فقد أكد في دراسته **الفعل والفكرة في الإبادة النازية** (١٩٩٠) العلاقة الوثيقة بين النازية وفكر حركة الاستنارة . فالعقلانية بنزوعها نحو الكلية

والعالمية وعدم تسامحها المبدئي مع الخصوصية بشكل عام (وضمن ذلك الخصوصية اليهودية) خلقت أرضية خصبة أو سببية احتمالية للإبادة . فمفاهيم الاستنارة الأساسية ـ في تصوره ـ تشكل الإطار الفكري للإبادة .

ويُلاحَظ أن كل واحد من هؤلاء المؤلفين قد ركز على عنصر واحد بعينه (أخلاقيات البورجوازية ـ فكر الاستنارة ـ العقلانية التكنولوجية . . . إلخ) ، ولم يحاول أحد منهم أن يرى القضية في إطارها الحضاري الكلي ، كما أن أياً منهم لم ير علاقة النازية بالإمبريالية أو الصهيونية .

وهذا ما حاولنا إنجازه في مؤلفنا هذا حيث ندرس البنية العميقة للنازية ونضعها في سياقها الحضاري الغربي ونبيِّن علاقتها بالصهيونية على مستوى الخطاب المعرفي العميق ونستعيد الإمبريالية كمقولة تحليلية أساسية في كل الظواهر الغربية الحديثة . فنحن نذهب إلى أنه لا يمكن فصل الحضارة الغربية الحديثة بعلمانيتها الشاملة ورؤيتها العقلانية المادية عن نزعتها الإمبريالية .

هذا لا يعني أننا أهملنا المستوى السياسي أو البُعد المعلوماتي في التحليل . فتناولنا معظم ، إن لم يكن كل ، الموضوعات الشائعة المطروقة ، وإن كنا حاولنا مع هذا أن نتناولها بطريقتنا . وقد بذلنا جهداً كبيراً في أن نأتي بمعلومات وحقائق جديدة أتاحت لنا إمكانية إثارة موضوعات جديدة أو غير مطروقة مثل إشكالية تعاون الصهاينة مع النازيين .

وستلجأ هذه الدراسة إلى ما نسميه «التوثيق المضاد» ، أي أننا سنكتفي ـ إلى حدٍّ كبير ـ بالجهد التفكيكي فنورد من الحقائق والقرائن ما يجعل قبول النموذج التفسيري الغربي الصهيوني المهيمن للإبادة النازية أمراً صعباً ، إن لم يكن مستحيلاً . سنفعل هذا دون أن نبذل جهداً تركيبيّا كبيراً يوضح ماذا حدث بالفعل داخل المجتمع النازي وداخل معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) ، باعتبار أن مثل هذا الهدف يقع خارج نطاق ما نود تحقيقه . ومع هذا يجب أن نشير إلى أننا سنقوم بهذا الجهد التركيبي في محاولة فهم الإطار الحضاري والتاريخي والاجتماعي والسياسي العام لظاهرة الإبادة النازية ، كما أننا سنشير طي الدراسة لبعض الدراسات التي قامت بمثل هذا الجهد التركيبي .

وستحاول الدراسة أن تنجز أهدافها بدون التقليل بأية حال من فداحة الجُرم النازي ضد اليهود (والسلاف والغجر وغيرهم) ، ولكن دون السقوط ، بقدر ما هو ممكن إنسانيّا ، في التحيزات والرؤى والمقولات السائدة في الخطاب الغربي بشأن الإبادة

النازية . فالتقليل من حجم الجريمة النازية يُشكل فشلاً معرفيًا وأخلاقيًا ، أما من الناحية المعرفية فهو يعني فشل المرء في إدراك واحدة من أهم سمات الحضارة الغربية الحديثة ، أي نزعتها الإبادية . أما الفشل الأخلاقي فهو فشل الإنسان المسئول أخلاقيًا الذي رأى جريمة تُرتكب ضد مجموعة بشرية فآثر الصمت وَزيَّف الحقائق حتى لا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . ونحن نؤكد هذا رغم معرفتنا بأن الصهاينة وَظَّفوا واقعة الإبادة في خدمة أهدافهم الإعلامية ، وفي ابتزاز الحكومات ، وفي تبرير الغزو والاستيطان والإرهاب . ولكن هذه جميعاً اعتبارات عملية غير معرفية وغير أخلاقية . ونحن نذهب إلى أن إيضاح الحقيقة المركبة كفيل في حد ذاته بأن يُفشل محاولات الصهيونية توظيف الجريمة الغربية النازية لخدمة الجريمة الصهيونية التي تُعتبر تجليًا آخر للحضارة نفسها وللنمط نفسه .

وتأمل هذه الدراسة أن تكون جزءاً من اتجاه فكري جديد في الحضارة العربية والإسلامية الحديثة بدأت تظهر معالمه في أواخر الأربعينيات وبدأ في التبلور مؤخراً ، وهو الاتجاه نحو الإسهام في الحضارة البشرية من خلال الانطلاق من الخصوصية الحضارية والمعرفية ، العربية والإسلامية . (ومن أهم رواد هذا التيار في مصر أنور عبد الملك وحسن فتحي ، ومن أهم أقطابه جمال حمدان وحامد ربيع وعادل حسين وطارق البشري وجلال أمين وفهمي هويدي وعبد الحليم إبراهيم عبد الحليم وعاصم الدسوقي وقاسم عبده قاسم وممدوح الموصلي ورفيق حبيب وجميل مطر وغيرهم . ولهذا التيار رواده وأقطابه في بقية أنحاء العالم العربي والإسلامي) . ونحن نذهب إلى أن المشروع الحضاري العربي والإسلامي دخل طريقاً مسدوداً من البداية حين عرَّف هدفه بأنه « اللحاق بالغرب » . فهذا الشعار كان يعني أن يصبح «الآخر » هو الغاية وأن نصبح نحن الوسيلة فنتحول إلى بشر من الدرجة الثالثة في معظم الأحوال ومن الدرجة الثانية في أحسنها (لأن من يصل إلى الدرجة الأولى ينضم « إليهم » بطبيعة الحال) . وفي محاولة تحقيق هدف اللحاق هذا كان علينا أن نُسكت إبداعنا ونُسقط قيمنا ونمحو ذاتيتنا ورؤانا بحلوها ومرها ، لنتقبل ذاتيتهم ورؤاهم بحلوها ومرها . وتحت شعار الموضوعية أصبحت مهمتنا نقل كل ما يأتي لنا من الغرب ، خصوصاً « آخر صيحة» ، ابتداءً بالمدارس الفلسفية وانتهاءً بالسيارات والأزياء ، وبذلك سقطنا في شكل من أشكال السلفية الغربية التقدمية ووقعنا ضحية إمبريالية المقولات ، أي أن نتبنى مقولات الآخر التحليلية ثم نراكم المعرفة ، وننظر للعالم ، بل ولأنفسنا ، من خلالها .

وقد أصاب هذا الوضع الإبداع العربي في مقتل ، وبدأ فرز الأجيال من خلال معيار اللحاق هذا ، فمن أظهر مقدرة على الركض والهرولة نحو الغرب وصل إلى القمة

وانضم إلى النخبة وصناع القرار ، وتم تهميش كل من أصابه القلق وبدأ يجتهد ويتعثر (فطريق الإبداع طريق وعر وليس سهلاً أو معبداً مثل طريق « النقل » السريع) . وظهر ما يُسمَّى «جيل الرواد» الذي جعل همه أن ينقل دون أن يبدع أو ينقد . فظهرت العديد من الدراسات (تواريخ فلسفة ـ تواريخ للفنون ـ تلخيص للنظريات الاقتصادية والسياسية ـ تواريخ العالم) هي في واقع الأمر رؤى الآخر تم وضعها بلغة عربية فصيحة أوركيكة وتم توثيقها بعشرات المراجع ، التي لا مرجعية لها، في واقع الأمر ، سوى الرؤية المعرفية والحضارية الغربية . ويظن الكثيرون الآن أن أي كلام موثق هو «تأليف» ، بينما هو في واقع الأمر مجرد رص . وثمة فارق شاسع بين الرص والرصانة ، وبين التحديق والتحليق ، كما يقول العبقري جمال حمدان ، الذي لم يركض قط إلا نحو خصوصيتنا ولم يهرول قط إلا نحو الحقيقة . ولحسن حظنا كان بعض هؤلاء الرواد يشعر أحياناً بالقلق فيُجرب ويُبدع وينقد ويُفكك ويُركِّب . ولكن النموذج السائد (بين كل الليبراليين ومعظم الماركسيين والإسلاميين) ظل مع هذا هو اللحاق بالغرب .

وقد قال رجاء جارودي ، المفكر الفرنسي المسلم ، إن المشروع الاشتراكي قد لقي حتفه حينما أعلن خروشوف أن هدف العالم الاشتراكي هو اللحاق بالعالم الرأسمالي وتحقيق المعدلات الاستهلاكية نفسها . وكلمات جارودي تنطبق علينا بشكل أكثر قسوة ، فنحن لم "ننحدر" نحو هذه الهوة ، وإنما بدأنا منها ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ولتكن هذه الدراسة دعوة إلى الأجيال الشابة ألا تلحق بأحد وألا تسير في ركاب أحد وألا تهرول نحو أحد وأن تنفض عن نفسها غبار الهزيمة ووهم الموضوعية المتلقية المنكسرة وأن ترفع لواء النصر والموضوعية الاجتهادية ، حتى يمكن أن نعود للإبداع والإسهام في تراث البشرية .

ولنا أن نُذكِّر القارئ بأن هذه الدراسة هي اجتهاد أولي في قضية خلافية ، ولذا فهي لا تحاول الوصول إلى درجة عالية من اليقينية ، وكل ما ترمي إليه هو أن تفتح باب الاجتهاد حتى تظهر الحقيقة وحتى يتضح الحق، على أمل أن يؤدي هذا إلى تحقيق العدل .

وسنقوم في الفصل الأول من هذه الدراسة بتعريف الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها ، وبوضع ظاهرة الإبادة (بالمعنى العام الذي نطرحه) في سياقها الحضاري العام الغربي ثم في سياقها الحضاري السياسي والألماني . وسنتناول في الفصل الثاني بعض الإشكاليات التي تثيرها الإبادة النازية ليهود أوربا (إشكالية انفصال العلم عن القيمة ـ توظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها ـ إشكالية الحل النهائي ـ قضية عدد ضحايا الجريمة النازية ـ ملاحقة مجرمي الحرب النازيين ـ العرب والمسلمون والإبادة) . أما

إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة) والنازيين فستتناولها في الفصل الثالث. وستتناول في الفصل الرابع الإبادة النازية في الوجدان (الفلسفي والديني والأدبي) الغربي. وسنحاول في الملحق أن نوضح بعض المصطلحات التي نستخدمها في هذه الدراسة (النموذج ـ الطبيعة/ المادة ـ العقلانية المادية واللاعقلانية المادية ـ الحلولية الكمونية الواحدية ـ الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة ـ ترشيد ـ حوسلة ـ داروينية اجتماعية ـ ترانسفير . . . إلخ). ولكن لعل أهم المصطلحات هو مصطلح «نهاية التاريخ» (الذي نبيِّن علاقته الوثيقة بفكرة الحل النهائي). وسيُلاحظ القارئ أن هناك بعض التكرار ولكننا قبلناه حتى يمكن أن يستقل الملحق الأخير(النظري والمنهجي) عن بقية الكتاب بل وحتى يمكن أن تستقل الأجزاء المختلفة لكل باب، الواحد عن الآخر. فالأطروحات النظرية والمنهجية الأساسية موجودة بشكل موجز للغاية في الدراسة نفسها، وهي موجودة بقدر من التفصيل في الفصل الأخير. ويستطيع القارئ أن يبدأ بقراءة الملحق قبل أن يبدأ قراءة الكتاب نفسه (وبذا ينتقل من العام إلى الخاص، ومن دراسة النموذج إلى دراسة الحالة). ويمكن أن يفعل العكس؛ ولكل قارئ مزاجه، ولكل إنسان أسلوبه.

وقد قابلت المفكر المبدع الشجاع رجاء جارودى، صاحب كتابى **حوار الحضارات** **والأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة، التى نظمها الأستاذ سعد الدين وهبه واتحاد الفنانين العرب، ولخصت له أطروحة هذا الكتاب واستأذنته أن أهديه إليه، فوافق مشكورا.

وفي الختام أحب أن أتوجه بالشكر للصديق الأستاذ محمد رمضان، المؤلف الفلسطيني، الذي استفدت بكثير مما كتب عن قضية الإبادة النازية (رغم الاختلافات في الرؤية والمنهج). والصديق الأستاذ محمد هشام، المدرس المساعد بجامعة حلوان، الذي قرأ مخطوطة هذا الكتاب وأدخل الكثير من التعديلات الأسلوبية واللغوية وناقش مع المؤلف بعض القضايا الفكرية. كما أتوجه بعميق الشكر للصديق العزيز الأستاذ سيد طه الذي بذل جهداً يفوق كل التصور في نسخ هذه الدراسة على الحاسب الآلي (وفي نسخ **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد**، التي استُخلص هذا الكتاب من مداخلها)، فله مني جزيل الشكر، وعند الله الجزاء. والله أعلم.

عبد الوهاب المسيرى

دمنهور ـ القاهرة

١٠ يناير ١٩٩٧ م ـ غرة رمضان ١٤١٧ هـ

الفصل الأول
الإبادة النازية والحضارة الغربية

هناك الكثير من الإشكاليات التي أُثيرت حول الإبادة النازية ليهود أوربا ، ولكني أعتقد أن أهمها طراً إشكالية علاقة هذه الظاهرة بالتشكيل الحضاري الغربي الحديث وبالتشكيل الحضاري الألماني باعتباره جزءاً ممثِّلاً للحضارة الغربية الحديثة . ولكن قبل أن نتناول هذه القضية ، سنبدأ هذا الفصل بمناقشة قضية المصطلح .

مشكلة المصطلح :

يُستخدم مصطلح «الإبادة» في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاء كاملاً . ويُطلَق مصطلح «إبادة اليهود» (بالإنجليزية : إكستيرمينيشن أوف ذا جــوز extermination of the Jews) في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوربية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسدياً (من خلال أفران الغاز) . وتُستخدم أيضاً كلمة «جينوسايد genocide» وهي من مقطعين «جينو» من الكلمة اللاتينية «جيناس genus» بمعنى «نوع» و«كايديس caedes» بمعنى «مذبحة» .

وتُستخدَم أيضاً عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود ، أي تصفيتهم جسدياً» .

ويُشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة «هولوكوست» وهي كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» (وتُترجم إلى العبرية بكلمة «شواه» ، وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة») . وكانت كلمة «هولوكوست» في الأصل مصطلحاً دينيًا يهوديًا يشير إلى القربان الذي يُضحَّى به للرب ، فلا يُشوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدَّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على

القرابين المقدمة للرب . ولذلك ، كان الهولوكوست يُعَدّ من أكثر الطقوس قداسة ، وكان يُقدَّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء . ومن ناحية أخرى ، كان الهولوكوست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدموه .

ومن العسير معرفة سر اختيار هذا المصطلح ، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه « الشعب اليهودي » بالقربان المحروق أو المشوي وأنه حُرق لأنه أكثر الشعوب قداسة . كما أن النازيين ، باعتبارهم من الأغيار ، يحق لهم القيام بهذا الطقس . أو ربما وقع الاختيار على هذا المصطلح ليعني أن يهود غرب أوربا أُحرِقوا باعتبارهم قربان الهولوكوست في عملية الإبادة النازية ولم يبق منهم شيء ، فهي إبادة كاملة بالمعنى الحرفي . ولكن حينما تستخدم الجماعات المسيحية الأصولية (الحرفية) في الولايات المتحدة كلمة «هولوكوست» فهي تركز على جريمة الكبرياء ، إذ ترى أن الإبادة عقاب عادل حاق باليهود بسبب صلفهم وغرورهم وكبريائهم .

ويُشار إلى الإبادة أحياناً بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تُستخدَم للإشارة إلى «هدم الهيكل» ، فكأن الشعب اليهودي هنا هو الهيكل ، أو البيت الذي يحل فيه الإله ، والإبادة هي تهديم بيت الإله . وهذه الكلمة تُدخل حادثة الإبادة التاريخ اليهودي المقدَّس .

وفي الوقت الراهن ، تُستخدَم كلمة «هولوكوست» في اللغات الأوربية للإشارة إلى أية كارثة عظمى . فيشير الصهاينة ، على سبيل المثال ، إلى «الزواج المختلط» بين اليهود بأنه «الهولوكوست الصامت» (بالإنجليزية : سايلانت هولوكوست silent Holocaust) . وحينما يُصعِّد العرب من مقاومتهم للمستوطنين الصهاينة فإنهم ـ حسب المصطلح الصهيوني ـ يهددونهم بالهولوكوست . واستخدمت إحدى الصحف هذا المصطلح للإشارة إلى إحدى صفقات أسلحة الميراج بين ليبيا وفرنسا . كما استخدم أحد المتحدثين الصهاينة كلمة «هولوكوستي » وهي اسم صفة مشتق من هولوكوست فأشار إلى أحد الأفلام بأنه ليس «هولوكوستي Holocausty» بالقدر الكافي . وهذا الاستخدام المستمر والمجوج للمصطلح يؤدي إلى نتائج كوميدية أحياناً . إذ تساءل أحد دعاة حماية البيئة في نبرة جادة قائلاً : « كيف يمكن أن نستنكر الهولوكوست ضد اليهود ، ونحن نذبح ستة مليون دجاجة يومياً ؟ » ، أي أنه ساوى بذلك بين الطبيعي والإنساني وبين الدجاجة واليهودي ودفع بالنموذج العلماني الشامل إلى نتيجته المنطقية وأطلق استنكاره هذا .

ويتم في الوقت الحاضر الاتجار بالهولوكوست وتوظيفها بشكل ممجوج لخدمة الأهداف الصهيونية والتجارية . وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات المشتقة من كلمة

«هولوكوست» والتي تعبِّر عن الاستياء العميق من عملية التوظيف هذه . فنحت أحد الكُتّاب كلمة «هولوكيتش Holokitsch» لوصف الكُتب والأفلام عن موضوع الهولوكوست والتي تُنتَج وتُنشَر بهدف تحقيق الربح ، حيث إنها تحاول إثارة العواطف واستغلالها على أسوأ وجه . وكلمة «كيتش» في اللغة الألمانية تعني الأعمال الفنية الشعبية الرديئة . كما ظهرت عبارة «هولوكوست بيزنس Holocaust business» أي «مشروع الهولوكوست التجاري» ، بمعنى توظيف الهولوكوست تجارياً لتحقيق الأرباح العالية . ومن العبارات الأخرى المتواترة عبارة «هولوكوست مانيا Holocaust mania» أي «الانشغال الجنوني أو المرضي بالإبادة» .

ومن المعروف أن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة شعوب أخرى أو على الأقل بإبادة أعداد كبيرة منها . ووردت في العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم . ولكن من الثابت تاريخيًا أن العبرانيين والكنعانيين تزاوجوا ، وأن معظم ادعاءات الإبادة قد تكون من قبيل التهويلات التي تتواتر في كثير من الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي . وربما يكون قد تم فعلاً إبادة سكان مدينة أو اثنتين ، لكن هذا لم يكن النمط السائد نظراً لتدني المستوى العسكري لدى العبرانيين ، كما أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الغزو دفعة واحدة وإنما عن طريق التسلل أيضاً . ويستند الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الغربي إلى الإبادة ، فهذا ما فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين ، وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وفي تصورنا أن ما يميِّز تجربة الإبادة النازية عن التجارب السابقة أنها تمت بشكل واعٍ ومخطط منظَّم شامل ومنهجي ومحايد عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً ، منفصلة عن القيمة) . وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيد والعلمنة الشاملة وتحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة ، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي ، وهو ما نسميه في مصطلحنا «الحوسلة» ، أي تحويل كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان ، إلى وسيلة . ومن ثم فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية ، إذ كانت المذابح تتم عادةً بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط .

ويمكن في هذا المضمار أن نذكر «ليلة الزجاج المحطم» (بالألمانية : كريستال ناخت Kristallnacht) حينما قامت الجماهير الألمانية في العديد من مدن ألمانيا بالهجوم على

أعضاء الجماعة اليهودية . ويُقال إن الغضب الشعبي لم يكن تلقائيًا وإنما تم بتخطيط من القيادات النازية التي كانت مجتمعة في ميونخ . كما أن إلقاء القبض على أعداد من اليهود بعد الحادث يدل على أن الأمر لم يكن تلقائيًا تماماً .

ويصف بعض الدارسين ليلة الزجاج المحطم بأنها هجوم شعبي منظم على اليهود (بوجروم) ، ولكن نظراً لضآلة عدد الضحايا ، لم يكن بوسع الدولة النازية أن تتخلص من ملايين اليهود باستخدام هذه الآلية البدائية التقليدية التي تعتمد على إثارة غضب الجماهير . ولذا ، كان لابد من اللجوء إلى آليات أخرى أكثر حداثة ، ووجد النازيون ضالتهم في مؤسسات الدولة الحديثة مثل التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها ، وأجهزة الإعلام التابعة لها ، وأساليب الإدارة الحديثة الرشيدة . ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الدولة النازية ما كان بوسعها أن تحقق غرضها بهذه السرعة وبهذه الكفاءة بدون هذه الآليات المتقدمة !

ونستخدم في هذه الدراسة مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوربا» ، وهو ـ في تصورنا ـ مصطلح أكثر تفسيرية وحياداً من المصطلحات المستخدمة في اللغات الأوربية والعبرية ، فكلمتا «هولوكوست» و «شواه» تحملان إيحاءات دينية . ومصطلح «الحل النهائي» حُدِّد مجاله الدلالي بشكل قاطع لا يتفق مع مضمونه الحقيقي . أما مصطلحنا فقد حَدد الظاهرة النازية من حيث هي ظاهرة أوربية داخل سياق التاريخ الألماني والأوربي ، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي . كما أنها تُضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى .

وكلمة «إبادة» كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية ، وإنما تعني «استئصال شأفة اليهود» بجميع الطرق وضمنها التهجير القسري (الترانسفير) وغيره من الطرق . ولذلك فنحن نشير أحياناً «للإبادة بالمعنى الخاص والمحدد للكلمة» ، أي «التصفية الجسدية المتعمدة» ، كما نشير «للإبادة بالمعنى العام للكلمة» وهي عملية «إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة ، وأخيراً التصفية الجسدية المتعمدة» . كما أننا لا نهمل ما نسميه «اختفاء اليهود» من خلال عوامل طبيعية مختلفة تقع خارج نطاق الإبادة النازية ، بالمعنى العام أو الخاص .

الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة :

لابد أن نؤكد ابتداءً أن التحولات الاقتصادية والسياسية في أي مجتمع لا تتم في فراغ

مهما يكن مستوى هذه التحولات عمقاً وضحالة. فالمناخ الفكري والثقافي والنفسي يساعد على تحقيق بعض الإمكانات الكامنة في الواقع المادي وإجهاض البعض الآخر، وعلى تحديد المسار النهائي لهذا الواقع إلى حدٍّ كبير. وتبني ألمانيا النازية لسلاح الإبادة كوسيلة لحل بعض المشاكل التي واجهها المجتمع الألماني لم يكن لينبع من الاعتبارات الاقتصادية أو السياسية وحدها، فهو أمر مرتبط تماماً بإطار ثقافي وحضاري ونفسي أوسع.

ويمكننا القول بأن ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه وليست مجرد مسألة عرضية، وولّدت داخله استعداداً للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط. وتحققت هذه الإمكانية بشكل غير متبلور في لحظات متفرقة، ثم تحققت بشكل شبه كامل في اللحظة النازية النماذجية. وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا على الرغم من حضارته الغربية وحداثته، وإنما بسببها.

ولكن قبل أن نتوجه لقضية النزعة الإبادية في الحضارة الغربية، لابد أن نشير إلى وضع اليهود داخل الحضارة الغربية حتى عصر النهضة. فالمسيحية الغربية لم تُطوِّر مفهوماً واضحاً خاصاً بالأقليات في المجتمع الغربي ولم تُشرِّع لهم ولم تحدد وضعهم القانوني، واكتفت بمفهوم المحبة إطاراً عامّاً. وقد صنَّفت الكاثوليكية الغربية اليهود باعتبارهم شعباً شاهداً، يقف في تدنيه وضعَته "شاهداً" على عظمة الكنيسة وانتصارها. ولم يكن الأمر مختلفاً كثيراً على المستوَيين الاجتماعي والاقتصادي، حيث تحوَّل اليهود إلى جماعة وظيفية، وهي جماعة تُعرَّف في ضوء وظيفتها وفائدتها ونفعها (فهي مادة استعمالية) لا قداسة لها. وهذه الرؤية تعني «حوسلة» اليهود، ولكنها في الوقت نفسه تعني ضرورة الحفاظ عليهم وحمايتهم من الهجمات الشعبية. فالكنيسة الكاثوليكية كانت تحتاج إلى هذا الشاهد الأزلي على عظمتها. كما أن الطبقات الحاكمة (النبلاء الإقطاعيون والملوك) كانت في حاجة إلى اليهود كأداة طيعة من أدوات الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير (كان يُطلَق على اليهود كلمة «الإسفنجة»، لأنهم يمتصون فائض القيمة من الجماهير ثم يقوم الحاكم الإقطاعي باعتصار ما جمعوه من ثروة من خلال الضرائب). ولذا، وعلى عكس ما يتصور البعض، كان العداء لليهود حركة شعبية موجهة ضد الطبقات الحاكمة وضد الكنيسة مُمثَّلين في الرمز المحسوس المباشر اليهود، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ومعها النبلاء هم حماة اليهود.

وتغيَّر الوضع مع ظهور عصر النهضة وبداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث بشكل جوهري . إذ ظهرت البروتستانتية التي رفضت فكرة الشعب الشاهد ولكنها تبنت بدلاً منها العقيدة الألفية الاسترجاعية التي ترى أن المسيح سيعود مرة أخرى للأرض ويؤسس ملكته على الأرض لمدة ألف عام ، وكان كل هذا مشروطاً بعودة اليهود إلى أرض الميعاد وتنصيرهم . فكأن اليهودي ظل مجرد أداة (كما هو الحال في الرؤية الكاثوليكية) ولكنه أداة لا يتم الحفاظ عليها وإنما لابد من نقلها (ترانسفير) إلى فلسطين وتذويبها في المنظومة المسيحية . وتزامن هذا مع ظهور البورجوازيات المحلية والدولة القومية التي اضطلعت بكثير من وظائف الجماعة الوظيفية اليهودية التي لم يعد لها نفع . ولذا ، كانت المسألة اليهودية في أوربا تُناقش في إطار مدى نفع اليهود ، فكان أعداء اليهود يبينون أنهم لا فائدة لهم ، أما المدافعون عنهم (ومنهم المتحدثون باسم اليهود) فكانوا يركزون على «فائدة» اليهود ونفعهم . وطُرِح تصور مفاده أنه يجب زيادة حقوق اليهود زيادة طردية مع زيادة نفعهم ، فإن زاد الواحد زاد الآخر (وهو ما يعني أن تَناقُص نفعهم يعني تفاقم مشاكلهم) . وقد قُسِّم اليهود إلى أقسام مختلفة تم تنظيمها بشكل هرمي . ففي أعلى الهرم كان يوجد أكثر اليهود نفعاً ، وهؤلاء كانوا يتمتعون بكافة الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن ألماني ، وفي قاعدة الهرم كان يوجد اليهود غير النافعين الذين لا يتمتعون بأية حقوق ولذا كانوا يُصنَّفون ضمن من يجب التخلص منه وذلك بترحيلهم (بالإنجليزية : ديسبوزابل ترانسفيرابل disposable transferable) .

وساهمت كل هذه العناصر ولا شك في خلق الاستعداد الكامن والتربة الخصبة والتبادل الاختياري (بالإنجليزية : اليكتيف أفينيتي elective affinity في مصطلح ماكس فيبر) بين الحضارة الغربية وعملية إبادة اليهود . ولكن العنصر الحاسم ـ في تصورنا ـ في ظهور النزعة الإبادية (ضد اليهود وغيرهم من الأقليات والجماعات والشعوب) هو الرؤية الغربية الحديثة للكون . وهي رؤية يمكن وصفها بإيجاز شديد بأنها رؤية مادية واحدية (حلولية كمونية) تعود جذورها إلى عصر النهضة في الغرب . وقد اتسع نطاقها وازدادت هيمنتها إلى أن أصبحت هي النموذج التفسيري الحاكم مع منتصف القرن التاسع عشر ، عصر الإمبريالية والداروينية والعنصرية . وقد بدأت هذه الرؤية بمرحلة إنسانية هيومانية وضعت الإنسان في مركز الكون وتبنت منظومات أخلاقية مطلقة ، تنبع من الإيمان بالإنسان باعتباره كائناً مختلفاً عن الطبيعة/ المادة، سابقاً عليها، له معياريته ومرجعيته وغائيته الإنسانية المستقلة عنها (وهذا شكل من أشكال العلمانية الجزئية) . ولكن هذه الرؤية الإنسانية المادية تطورت من خلال منطق النسق المادي الذي يساوي بين الإنسان

والطبيعة ومن خلال تَصاعُد معدلات الحلولية والعلمنة وانفصال كثير من مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد ـ السياسة ـ الفلسفة ـ العلم) عن المعيارية والمرجعية والغائية الإنسانية إلى أن فقد الإنسان مركزيته ومطلقيته وأسبقيته على الطبيعة/ المادة وتحول إلى جزء لا يتجزأ منها وأصبح هو الآخر مادة ، منفصلة عن المرجعية والغائية والمعيارية الإنسانية (وهذه هي العلمانية الشاملة) .

وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تُعفي الإنسان من المسئولية الأخلاقية ، فهي مستمدة من الطبيعة/ المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغائيات والأخلاقيات الإنسانية . ومن ثم تَحرَّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم « الإنسان ككل » أو «الإنسانية جمعاء » أو « صالح الإنسانية » ، كما تحرر من القيم المطلقة مثل «مستقبل البشرية» و «المساواة » و « العدل » ، وجعل من نفسه المركز والمطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والغائيات الإنسانية العامة ، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وأصبح مرجعية ذاته ، وقانون ذاته ، ومعيارية ذاته ، وغائية ذاته ، ومن ثم أصبح من حقه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرَّفه هو . وبذا تحوَّلت الإنسانية (الهيومانية) الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية ، وانقسم البشر إلى سوبرمن supermen إمبرياليين يتحكمون في كل البشر والطبيعة ، وإلى سبمن submen دون البشر أداتيين يذعنون لإرادة السوبرمن ولقوانين الطبيعة والمادة . وهذا ما نسميه «النفعية الداروينية» وهي المنظومة التي تذهب إلى أن من يملك القوة له «الحق» في أن يوظِّف الآخرين لخدمة مصالحه ، مستخدماً في ذلك آخر المناهج العلمية وأحدث الوسائل التكنولوجية ، متجرداً من أية عواطف أو أخلاق أو أحاسيس كلية أو إنسانية باعتبار أن الإنسان إن هو إلا مادة في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، ومن ثم فمثل هذه الأحاسيس هي مجرد أحاسيس ميتافيزيقية أو قيم نسبية مرتبطة بالزمان والمكان، وليس لها أية ثبات أو عالمية .

وتتبدَّى مادية هذه المنظومة وواحديتها في عدد من المصطلحات التي حققت قدراً من الذيوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أخذت المنظومة في التبلور وحينما تحددت معالم المشروع الإمبريالي الغربي والنظرية العرْقية الغربية . ومن أهم هذه المصطلحات ، من منظور هذه الدراسة ، ما يلي : «المادة البشرية» (بالإنجليزية : هيومان ماتيريال human material) ـ «الفائض البشري» (بالإنجليزية : هيومان سيربلاس human surplus) ـ «مادة استعمالية» (بالإنجليزية : يوسفول ماتر useful matter) . فكان يُشار إلى

البشر باعتبارهم «مادة بشرية» يمكن توظيفها ، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة» (وأحياناً «غير نافعة») . وهذه المادة الفائضة كان لابد أن تُخضع لشكل من أشكال المعالجة ، فكانت إما أن تُصدَّر (ترانسفير) أو تُعاد صياغتها أو تُباد إن فشلت معها كل الحلول السابقة . وترد هذه المصطلحات (وغيرها) في كتابات مفكري العنصرية الغربية مثل ماكس نوردو (قبل اعتناقه الصهيونية) وفي الأدبيات النازية (كان أيخمان يشير إلى اليهود المُرحَّلين إلى فلسطين باعتبارهم «من أفضل المواد البيولوجية»). وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هرتزل **دولة اليهود**) . ولنلاحظ أن كل المصطلحات تُضمر البُعدين الإمبريالي والأداتي ، الدارويني والبرجماتي ، فالإنسان مادة تُوظَّف ، مجرد موضوع ، ولكن هناك أيضاً من يُوظِّف ، فهو ذات نشطة فعالة . لكن كلاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدية . فالسوبرمن والسبمن ينتميان إلى عالم وثني ، حلولي كموني .

ولا يزال هذا هو المفهوم السائد للنفس البشرية ، رغم تواري المصطلحات التي تعبِّر عن المفهوم بشكل متبلور . ومع هذا يُفصح النموذج عن نفسه بشكل فاضح ، وتعاود المصطلحات الشفافة الظهور . ففي عام ١٩٩٦ تكشفت فضيحة تَخلِّي حكومة الولايات المتحدة عن بعض عملائها من الفيتناميين ممن تم تجنيدهم ليعملوا لحسابها كجواسيس ، وممن قبضت عليهم المقاومة الفيتنامية ، إذأنها بدلا من أن تحاول العمل على الإفراج عنهم ، آثرت الراحة وأعلنت أنهم لاقوا حتفهم حتى يُغلق ملفهم ولا تصدع رأسها . وقد برر أحد الجنرالات الأمريكيين موقف حكومته بقوله إن هؤلاء العملاء أصبحوا بعد القبض عليهم مجرد « ممتلكات لا قيمة لها » (بالإنجليزية : أن فايابل أستس unviable assets) ، أي مادة بشرية فائضة لم يعد لها نفع بالنسبة للسوبرمان الذي قام باستخدامها .

وهذه هي النواة المعرفية والأخلاقية الأساسية للحضارة الغربية الحديثة . وهي نواة نمت وترعرعت وعبَّرت عن نفسها من خلال ثنائية الإمبريالي والأداتي ، والسوبرمان والسبمان ، فتزايدت معدلات اليقينية العلمية من ناحية ، الأمر الذي أدَّى إلى تَزايُد إحساس الإنسان الغربي بذاته وبقوة إرادته ومقدرته على البطش (خصوصاً بين النخبة الإمبريالية الحاكمة) . كما تزايدت في الوقت ذاته معدلات النسبية المعرفية والأخلاقية ، الأمر الذي أدَّى إلى ضمور حس الإنسان الغربي الخُلقي وضمور قدرته على اتخاذ القرار ، كما عَمَّقت قابليته للإذعان للقانون الموضوعي العام المجرد (اللاإنساني) كقيمة مطلقة لابد من العمل بمقتضاها والسير بهديها دون تساؤل (خصوصاً بين الجماهير) .

وسنورد فيما يلى بعض العناصر التى ساعدت على تعميق هذا الإتجاه العام فى

الحضارة الغربية . وتجدر ملاحظة أن كثيراً من العناصر التي سنوردها قد يكون لها وجهان، أحدهما إمبريالي (بالنسبة للسوبرمن) والآخر أداتي (بالنسبة للسبمن)، فالوجهان متداخلان، وإن كان هناك من يُوظِّف فلابد أن يوجد من يُوظَّف :

١ ـ تصاعدت معدلات المشيحانية (أو المهدوية) العلمية أو العلموية، أي التبشير بأن التراكم المعرفي العلمي والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية)، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستمدة من عالم الطبيعة/ المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني، فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجيّاً) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه). فهذا الإنسان الكامل يتحكم في نفسه تماماً، ويبرمجها، أو يمكن برمجته. ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل (والهندسة الوراثية). ومن هنا العداء الشديد للتشوهات الخلقية وللأمراض النفسية، بل وفكرة المرض نفسها باعتبارها تعبيراً عن الانحراف عن المعيار الطوباوي النهائي. ولكن حينما يُهيمن هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي، اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية، دولة النعيم المقيم في الأرض المؤسس على العلم والتكنولوجيا، وتُعلَن نهاية التاريخ والإنسان كما نعرفه. وهذا الحل النهائي سيعفي الإنسان من مسئولية الاختيار الأخلاقي إذ أن كل شيء سيكون مخططاً مبرمجاً، خاضعاً لهندسة اجتماعية صارمة، وتحت السيطرة السياسية والتكنوقراطية الكاملة. ولنا أن نلاحظ أنه سيكون هناك دائماً نخبة من السوبرمن تقرر طبيعة الحل أو البرنامج النهائي ومتى يمكن إعلان نهاية التاريخ وكيفية اتخاذ الإجراءات اللازمة للوصول لتلك اللحظة، وإلى جانب النخبة ستوجد قاعدة عريضة من السبمن يُدْفَع بها دفعاً نحو اليوتوبيا .

٢ ـ ظهور أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) ذات طابع مشيحاني قوي، وذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل، وتنطلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم. هذا لا يعني أن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى ترفض العلم مصدراً وحيداً للوصول إلى المعرفة ولتوليد القيم فهذا هو إطارها المرجعي الوحيد، ولكن ما يحدث مع أيديولوجيات مثل النازية والماركسية (في نزعتها الستالينية) أن منطق العلمانية الشاملة يعبِّر عن نفسه بشكل كامل يتسم بدرجة عالية من التبلور، خصوصاً حينما يسانده جهاز الدولة المركزية الحديثة .

٣ ـ مع تَزايُد معدلات العلمنة الشاملة ، لم يعد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني (متجاوز للقوانين الطبيعية/ المادية) ، فلم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن (حالّ) فيهم ، وليس مفارقاً لهم . ولهذا ، طُرح الأساس البيولوجي العِرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم . وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية أخر شبه علمية وهي الداروينية الاجتماعية ، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني . وتُقسِّم هذه النظرية الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكل منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً . ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليًا : الآريون وبخاصة النورديين ، وأعراق دنيا : الزنوج والعرب واليهود . وتَفوُّق العنصر الآري الأبيض على كل الشعوب الأخرى يعطيه حقوقاً مطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قيمية وأي حديث عن المساواة . وكلمة «آريان Aryan» ، أي «آري» ، مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها «سيد» . وقد استُخدم المصطلح في بداية الأمر للإشارة إلى مجموعة من اللغات الإيرانية ثم الهندية الأوربية ، إذ طرح العالم الألماني ماكس مولر (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠) نظرية مفادها أن هناك جنساً يُسمَّى «آرياس» كانَ يتحدث اللغة الهندية الأوربية التي تفرعت عنها اللغات الهندية الأوربية الأخرى جميعاً ابتداءً بالهندوستانية وانتهاء بالإنجليزية . كما استُخدم المصطلح للإشارة إلى الشعوب الهندية الأوربية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة . وكان جوزيف جوبينو (١٨١٦ـ ١٨٨٢) من أهم المفكرين الذين أشاعوا هذه الفكرة ، فكان عادةً ما يضع الآريين مقابل الساميين ، وكان ثمة تَرادُف مُفترَض بين الآرية والهيلينية مقابل السامية .

وقام المفكرون العِرْقيون الغربيون بتطوير المفهوم فذهبوا إلى أن هذا الجنس الآري انتشر من شمال الهند وإيران عبر الإستبس ، إلى أوربا ، وهو جنس يتسم ـ حسب نظريتهم ـ بالجمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقدرة على التنظيم السياسي ، وبأنه المؤسس الحقيقي للحضارة وبتفوقه على الساميين والصفر والسود . ونبه هيوستون ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥ ـ ١٩٢٧) إلى أن النورديين هم أرقى الآريين ، فهم الجنس السيد ، أما اليهود والسود والعرب فيشغلون أدنى درجات السلم العرقي . بينما ذهب دعاة النظرية العِرْقية إلى أن التزاوج بين أعضاء الأجناس المختلفة يؤدي إلى تدهور العِرْق الأسمى الذي يجب أن يحتفظ بنفسه قوياً نقياً حتى يضمن لنفسه البقاء والتماسك العضوي . وبطبيعة الحال ، صُنِّف أعضاء الأجناس الأدنى باعتبارهم غير نافعين من منظور المطلق العِرْقي (الشعب العضوي) لأنهم خطر على تماسك الشعب (أو العِرْق) وعلى تجانسه ، وعدم التماسك يؤذي المصلحة العليا للدولة لأن التماسك يؤدي إلى زيادة الكفاءة الإنتاجية ، وإلى زيادة قوة الدولة في مقدرتها على البقاء والانتشار والهيمنة .

٤ ـ مع تَصاعُد معدلات العلمنة ظهرت كذلك فكرة الفولك أو الشعب العضوي الذي تربطه بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تنفصم عراها ، وهنا تحل الرابطة الإثنية محل الرابطة العِرْقية ، ولكنها لا تختلف عنها في كمونيتها وحتميتها وفي تحولها إلى أساس تأكيد التفاوت بين الشعوب . ويُلاحَظ أن الشعب العضوي باعتباره قيمة مطلقة ومرجعية ذاته يتجاوز كل القيم ، ولكن صفة المطلق هنا لا تنسحب على الإنسان باعتباره فرداً قادراً على الاختيار الأخلاقي الحر وإنما على مجموعة من البشر لها سماتها الجماعية ومصالحها المشتركة وحقوقها المطلقة !

٥ ـ تزايدت معدلات النسبية المعرفية ، فعالم الطبيعة/ المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود ، بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية . وهذا الشك لا ينصرف إلى الحقيقة وحسب وإنما إلى الموضوع ثم إلى الذات . وقد انتهى الأمر بالفلسفة الغربية إلى إنكار الكليات والميتافيزيقا وأي شكل من أشكال الثبات ، بما في ذلك ثبات الطبيعة البشرية وظهرت الفلسفة المعادية للفلسفة والميتافيزيقا ، وهي فلسفة النسبية المعرفية الكاملة التي تصل إلى حالة من السيولة الكاملة وتنكر الذات والموضوع والمركز ومفهوم الطبيعة البشرية وإمكانية المعرفة والأخلاق وأي شكل من أشكال المعيارية (ما بعد الحداثة) . ورغم أن النازية تسبق ظهور ما بعد الحداثة بعدة أجيال إلا أن كثيراً من العناصر التي أدَّت إلى ظهور ما بعد الحداثة كانت قد تشكلت وتبلورت وكانت الفلسفة الغربية قد دخلت عصر السيولة . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن هايدجر ، بنزعته النيتشوية ، والذي خرجت ما بعد الحداثة من تحت عباءته ، أيَّد النازية بلا تحفظ ، وكان النازيون يعتبرونه فيلسوفهم .

٦ ـ تَزايُد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة ، والتجريب عن العقل ، بحيث أصبح التجريب ، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية ، هدفاً في حد ذاته . وترجم هذا نفسه إلى ما يُسمَّى العلم المحايد ، المتجرد تماماً من القيمة . ولكن هناك دائماً من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستُجرى .

٧ ـ تعاظمت قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلق ، ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالمة كانت أم مظلومة) مسألة لا تقبل النقاش ولا تخضع لأية معيارية ، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق هو الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام . ويُلاحَظ أن مصطلحات مثل «مصلحة الدولة العليا» ليس لها مضمون أخلاقي ، وتَقبُّلها يعني تَقبُّل المجردات غير الإنسانية .

٨ ـ ظهرت مؤسسات بيروقراطية قوية (حكومية وغير حكومية) تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي ، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد الأمر الذي يعني تَزايُد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يُسمَّى «رقعة الحياة الخاصة» .

٩ ـ كانت هذه المؤسسات ترى نفسها ذاتاً مطلقةً تعبِّر عن مصلحة الدولة (التي تعبِّر عن إرادة الشعب) وقد جعلت جل همها أن تنفِّذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة ، دون أخذ أية اعتبارات خُلقية في الاعتبار .

١٠ ـ تزايدت معدلات الترشيد والتنميط والميكنة وهيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية على المجتمع بكل ما ينجم عن ذلك من ترشيد للبيئة المادية والاجتماعية وترشيد للإنسان من خارجه وداخله .

١١ ـ تَصاعَد نفوذ مؤسسات الدولة المركزية " الأمنية " البرانية والجوانية وزادت مقدرتها على قمع الأفراد وتوجيههم " وإرشادهم " من الداخل والخارج . ورغم أهمية مؤسسات القمع المباشر البراني مثل المخابرات والبوليس السري ، إلا أن المؤسسات الأمنية الجوانية ، مثل المؤسسات التربوية والإعلام ، كانت تفوقها في الأهمية . فإذا كانت المؤسسات البرانية تقوم بتوجيه الفرد بغلظه من الخارج ، فالمؤسسات الثانية تقوم بترشيده من الداخل ببطء وبشكل روتيني يومي لا يشعر هو به حتى يصل به الأمر إلى تَمثُّل ، ثم استبطان ، رؤية الدولة تماماً ، فينظر إلى الواقع من خلال عيونها دون حاجة إلى قمع خارجي ، ويحيِّد ذاته وحسه الخلقي ، ويصبح المجتمع أو الدولة أو العلم الطبيعي المصدَر الوحيد للقيمة المطلقة . وفى نهاية الأمر ينظر الإنسان إلى نفسه باعتباره جزءاً من آلة كبرى ، وتصبح مهمته الأساسية ، وربما الوحيدة ،هي التكيف البرجماتي مع دوران الآلة .

١٢ ـ تزايدت معدلات التجريد في المجتمع ، ومن المعروف أن عمليات التجريد والترشيد هما عمليتان متلازمتان ، إذ لا يمكن الترشيد دون تجريد ، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية . ويؤدي التجريد إلى ابتعاد الواقع الحي بحيث لا يدركه المرء بشكل مباشر متعين له قيمة ، إذ يصبح شيئاً له مواصفات محددة يمكن تقسيمه إلى أجزاء يمكن استبدال بعضها ، وينطبق هذا على البشر انطباقه على الأشياء . ويرى أورتيجا جاسيت أن عملية التجريد مرتبطة تمام الارتباط بعملية نزع الصبغة الإنسانية (بالإنجليزي : دي هيومانايزيشن dehumanization) .

وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر . ولنضرب مثلاً من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة : تُقسَّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة ، كل وظيفة تُشكل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب . ولأنها مجرد حلقة ، فهي محايدة تماماً ولا معنى لها ، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر . ومن ثم ، تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة للغاية . والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية ، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس ، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر، إذ أن مسئولية العامل أو الموظف مسئولية فنية تكنوقراطية وليست مسئولية أخلاقية .

١٣ ـ ومن المظاهر الأخرى للتجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق مؤسسات متخصصة تقوم بتحقيق أهدافها بشكل مؤسسي رشيد (أي مقنن) ومنظم لا دخل فيه للعواطف . وعادةً ما تتم عمليات التعذيب وغيرها من أعمال العنف بعيداً عن الناس في أطراف المدينة ، داخل مكاتب أنيقة تم تقسيمها بعناية فائقة . وعادةً ما يتم التعذيب بأساليب علمية بحيث لا يترك أثراً على جسد الضحايا . وإن تم قتلهم فعادةً ما يمكن التخلص من جثثهم بطريقة نظيفة عالية الكفاءة .

١٤ ـ تظهر عمليتا التجريد والترشيد في استجابة البشر للعنف والإبادة، إذ تحل الحسابات الرشيدة محل الاستجابة التلقائية والعواطف بحيث يمكن للإنسان أن يكبت أية أحاسيس بالشفقة أو الانفعال الغريزي داخله أو الإحساس التلقائي المباشر ويَحل محل ذلك كله قدر عال من الانضباط والتخطيط .

ويمكن القول بأن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خُلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثم فهي شخصية تعيش في ثنائيات وتعددية) وحلَّت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة ، التي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات والتي تحررت من أية قيم أو غائية ، فهي تعيش في عالم الواحدية المادية المعقم من القيم المتجاوزة . هذه الشخصية يمكن أن تتبدّى من خلال إمبريالية داروينية مليئة باليقينية العلمية توظِّف الكون (الطبيعة والإنسان) لصالحها ، ويمكن لها أن تتبدّى من خلال إذعان أداتي فتصبح شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بُعد واحد ، تستبطن تماماً النماذج السائدة في المجتمع والتي تروجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام ، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها ولذا يتحدد تَوجُّهها حسب ما

يصدر لها من أوامر تأتي لها من عل ، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنيًا وقوميًا وعلميًا وموضوعيًا (من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن) ومن ثم يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية . وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب ، وفي أحسن السبل لإنجاز ما أوكل لها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني .

وحينما ظهرت هذه الشخصية ، أصبح من الممكن أن تقرر الدولة وأعضاء النخبة إبادة عناصر غير نافعة في المجتمع (الفائض البشري) أو في وطن آخر أو قارة بأسرها تشكل مجالاً حيويًا للدولة صاحبة القرار . ولم يعد هذا جريمة إذ لا توجد قوانين مطلقة خارجة عن الدولة ، أو هي « جريمة قانونية مشروعة » ، إن صح القول ، تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها ، بل وتشجع عليها وتضرب على يد كل من يعارضها أو يحجم عن اقترافها .

وهناك على كلٍّ المؤسسات المتخصصة لتنفيذ الجريمة ، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة ، تتجاوز الخير والشر ، ولا تسأل عن السبب وإنما عن الوسيلة (أي أنها ملتزمة بالترشيد الإجرائي وأخلاقيات الصيرورة) ، والعاملون في مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرار قتل الأطفال ، على سبيل المثال ، بأنفسهم ، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم فاللجان المتخصصة التي تضم السوبرمن تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام . ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر ، لا بالقتل أو التصفية الجسدية وإنما بالقيام بعمليات «التطهير العرْقي» أو «الحل النهائي» أو خدمة «مصلحة الدولة العليا» . ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال والفلاحين والمهنيين الذين لن يشعروا بهذا الطفل الذي سيُقتل في غابات فيتنام أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أو في معسكرات الاعتقال النازية .

وحتى إذا شعر الإنسان في أعماق أعماقه بلا أخلاقية القرار ، فسوف يكون قد تعلم من الآليات ما يجعله قادراً على إسكات حسه الخُلقي . فالإنسان الحديث أصبح بوسعه ، بحسه العملي ، ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويغ العلمي الموضوعي المحايد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية ، تبرير أي شيء وقبول أي وضع ، فتمكن التضحية بالجزء في سبيل الكل ، وبالأقلية في سبيل الأغلبية ، وبالمرضى في سبيل الأصحاء ، وبالعجزة في سبيل الشباب . ومع سيطرة حب البقاء ، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة ، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر (إذ

لا توجد قيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحاكم البشر والأمم كافة من منظورها) . ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية " متخلفة " تشكل ثنائية لا تريد أن تختفي .

وبهذا المعنى يمكن القول بأن الحضارة الغربية الحديثة (في جانب هام من جوانبها) هي تعبير عن التراجع التدريجي والمستمر للفلسفة الإنسانية الهيومانية التي تؤكد استقلالية الإنسان عن الطبيعة/ المادة ومقدرته على تجاوزها وعلى تطوير منظومات قيمية ومعرفية تضعه في مركز الكون . هذا التراجع يقابله تَصاعُد مستمر ومطرد للحلولية الكمونية المادية (أي الواحدية المادية أو وحدة الوجود المادية أو العلمانية الشاملة) التي تُهمِّش الإنسان ومنظوماته المعرفية والأخلاقية جميعاً وتُسوِّيه بالظواهر الطبيعية وترده إلى عناصره الأولية المادية ، أي تقوم بتفكيكه وتذويبه تماماً في الطبيعة/ المادة ، فتلغيه وتبيده ككائن له قيمة مطلقة ، مستقل عن قوانين الحركة الطبيعية/ المادية .

وقد يكون من المفيد والطريف في ذات الوقت أن نربط مصطلحي «الإبادة» (بالإنجليزية : إكسترمينيشن extermination) و«التفكيك» (بالإنجليزية : دي كونستراكشن deconstruction) بمجموعة من المصطلحات الأخرى التي استخدمها علم الاجتماع الغربي لوصف بعض الجوانب السلبية للحداثة الغربية ، وكلها تفيد تهميش وتفكيك وتَراجُع وضمور وذبول وغياب الإنساني والأخلاقي لصالح ما هو غير إنساني ومحايد ومتشيئ :

١ ـ «دي سنترينج مان decentering man» أي «إزاحة الإنسان عن المركز» ، بمعنى «إفقاد الإنسان مركزيته في الكون» .

٢ ـ «دي برسونالايزيشن depersonalization» أي «إسقاط السمات الشخصية» .

٣ ـ «ديس انتشانتمنت أوف ذي ورلد disenchantment of the world» أي «تحرير العالم من سحره وجلاله» ، بمعنى أن يصبح العالم مادة محضة لا أسرار فيها ، يمكن للعقل الإحاطة بها ومعرفة قوانينها والتحكم فيها .

٤ ـ «دي سانكتيفيكيشن desanctification» أو «دي ساكرالايزيشن desacralization» أي «نزع القداسة عن الظواهر كافة [ومنها الإنسان] بحيث تصبح لا حرمة لها وينظر لها نظرة مادية لا علاقة لها بما وراء الطبيعة» .

٥ ـ «دي ميستفيكيشن demystification» أي «نزع السر عن الظواهر [بما في ذلك الإنسان]» .

٦ ـ «دي نيـودينج denuding» أي «تعرية كل الظواهر من أية مثاليات [ومنها الإنسان] حتى تظهر على حقيقتها المادية» .

٧ ـ «دي هيـومـانايزيشن dehumanization» أي «تجريد الإنسـان من خصائصه الإنسانية».

وهكذا تبدأ عملية العلمنة الشاملة (بعد المرحلة الإنسانية الهيومانية الأولى) بإزاحة الإنسان عن المركز ثم نزع الجوانب الشخصية عنه بحيث يصبح شيئاً ليست له خصوصية أو تفرُّد . ثم « يُحرِّر » العالم من سحره وجماله فيصبح الإنسان والطبيعة مادة محضة، ثم تنزع عنه كل قداسة وتهتك كل أسراره ويُعرَّى من أية مثاليات لنصل إلى نوع من أنواع الإباحية الأخلاقية المعرفية إذ يصبح الإنسان لحماً يُوظَّف في مزارع البيض في الجنوب الأمريكي أو مصانع الرأسماليين في لندن أو يُرسل إلى معسكرات السخرة والإبادة في ألمانيا أو يُصوَّر في مجلات إباحية في كل أو أي مكان . والمحصلة النهائية لكل هذا هي نزع الصفة الإنسانية عن الإنسان وتحويله إلى مادة محضة، قابلة للحوسلة . وهذه هي قمة العلمنة الشاملة والتفكيك الكامل .

ونحن نربط كل هذه المصطلحات وغيرها بمصطلح «نهاية التاريخ» باعتبار أن نهاية التاريخ هي النقطة التي يتم التحكم فيها في كل شيء وينتهي الإنسان كما نعرفه ، أي الإنسان الذي يشغل مركز الكون متجاوزاً النظام الطبيعي .

ونحن لا نزعم أن الرؤية الواحدية المادية تؤدي حتماً وبشكل مطلق إلى الإبادة والتفكيكية . كل ما نؤكده أن مثل هذه الرؤية تخلق التربة الخصبة لانتشار الآراء النفعية الداروينية المادية التي تترعرع فيها الاتجاهات والأفكار الإبادية والتفكيكية وتتحقق .

تحوُّل الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية :

هذه القابلية أو الإمكانية الكامنة للإبادة ، ولتفكيك الإنسان لعناصره المادية الأساسية لاستخدامها على أكمل وجه ، تحققت أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيها الاستيطاني والإمبريالي . فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة ، وحَوَّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان مطلق له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر ، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام ، طبيعية أو بشرية . فاعتُبرت شعوب آسيا وأفريقيا (الصفراء والسوداء المتخلفة) مجرد

سبمن ، مادة بشرية تُوظَّف في خدمته ، كما اعتُبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظَّف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة ، واعتُبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدِّر له مشاكله . بل ولم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي ، فالجميع مادة بشرية ، نافعة أو غير نافعة ، ضرورية أو فائضة . فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة ، ومصدراً لفائض القيمة ، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة . وصُنِّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى ، المعوقون والمسنون) مادةً بشريةً غير نافعة . وهذه المادة يجب أن «تُعالج» ، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد « الحلول الأخرى » إن استلزم الأمر) .

وكانت أولى عمليات " المعالجة " هي نقل الساخطين سياسيًا ودينيًا (البيوريتان) إلى أمريكا ، والمجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتماعي في أوطانهم إلى أمريكا وأستراليا . وتبعتها عمليات ترانسفير أخرى تهدف جميعاً إلى تحقيق صالح الإنسان الغربي :

ـ نَقْل سكان أفريقيا إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية رخيصة .

ـ نَقْل جيوش أوربا إلى كل أنحاء العالم ، وذلك للهيمنة عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظَّف لصالح الغرب .

ـ نَقْل الفائض البشري من أوربا إلى جيوب استيطانية غربية في كل أنحاء العالم ، لتكون ركائز للجيوش الغربية والحضارة الغربية (فيما يُعد أكبر حركة هجرة في التاريخ) .

ـ نَقْل كثير من أعضاء الأقليات إلى بلاد أخرى (الصينيين إلى ماليزيا ـ الهنود إلى عدة أماكن ـ اليهود إلى الأرجنتين) كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني ، إذ أن هذه الأقليات تشكل جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها .

ـ نَقْل كثير من العناصر المقاتلة من آسيا وأفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة في الجيوش الغربية الاستعمارية ، مثل الهنود (خصوصاً السيخ) في الجيوش البريطانية . وفي الحرب العالمية الأولى ، تم تهجير ١٣٢ ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين ، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرةً للقتال (وهذه هي أول "هجرة" لسكان المغرب العربي ، وقد استمرت بعد ذلك تلقائيًا) .

ـ مع ظهور فكر حركة الاستنارة في الغرب تم تعريف الناس حسب نفعهم للمجتمع

والدولة وقد طُبِّق هذا المعيار على كل المواطنين بخاصة أعضاء الأقليات . فتم تقسيم اليهود في كثير من البلاد الغربية ـ كما أسلفنا ـ بحيث أصبح غير النافعين قابلين للترحيل .

ـ في هذا الإطار المعرفي الترانسفيري ، تمت عملية الاستيطان الصهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية (المسألة اليهودية) إلى الشرق . فيهود أوربا هم مجرد مادة (فائض بشري لا نفع له داخل أوربا يمكن توظيفه في خدمتها في فلسطين) ، والعرب أيضاً مادة (كتلة بشرية تقف ضد هذه المصالح الغربية) ، وفلسطين كذلك مادة فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة تُطلَق عليه كلمة «الأرض» . فتم نقل العرب من فلسطين ونُقِل اليهود إليها ، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربي .

ـ تمت عمليات ترانسفير ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى ، فنُقل سكان يونانيون من تركيا إلى اليونان ، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيا ، كما نُقل سكان ألمان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى بولندا . وهذه العمليات هي التي أوحت لهتلر بعمليات نقل اليهود خارج الرايخ . بل إنه في السنين الأخيرة من حكم الرايخ طوَّر هملر جنرال بلان أوست Generalplan Ost لنقل ٣١ مليوناً " غير ألمان " من أوربا الشرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم .

وما يهمنا في هذا كله هو نزع القداسة عن البشر كافة (في الشرق والغرب) وتحويلهم إلى مادة استعمالية ليست لها قيمة مطلقة ، ولا علاقة لها بأية معيارية . ولكن لنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم ، خصوصاً في أمريكا الشمالية ، وهي تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كأداء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي . وقد قبلت الجماهير الأوربية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد ، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها ، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج .

وتُعدُّ العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية) ، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية ، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة . فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب» . وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين» ، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية ، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء) .

وكـان كل هذا يعني في واقع الأمـر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة ! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر ، أو نقل الأمراض المختلفة (كأن تُترك أغطية مصابة بالجدري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماماً) . وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله . واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا ، بل وتصاعدت بعد عام ١٨٣٠ حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود ، والذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفاً من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم (ترانسفير) أثناء فصل الشتاء سيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصص لهم في أوكلاهوما . وقد مات أغلبهم في الطريق (وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير [ترانسفير] ، فهو شكلاً ترانسفير من مكان لآخر ولكنه فعلاً ترانسفير من هذا العالم للعالم الآخر) . ووصلت العملية الإبادية إلى قمتها في معركة ونديد ني Wounded Knee (الركبة الجريحة) عام ١٨٩٠ . وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبق سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يُقدر بنحو ٦,٥ مليون عام ١٥٠٠ لدى وصول الإنسان الأبيض ، أي أنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي (وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه الأيام) ، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي (يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين) . وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢ مليون عند استيطان البيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبق منهم سوى ٣٠٠ ألف . ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة) .

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة . وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً ، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما من خلال أسباب " طبيعية " بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض .

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة . ففي كتابه **رحلة إلى الكونغو** (١٩٢٧) ، يُبيِّن أندريه جيد كيف أن بناء السكة الحديد بين برازفيل والبوانت السوداء (مساحة طولها ١٤٠ كيلو متر) احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة . ويمكن أن نتذكر أيضاً حفر قناة السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وبنفس التكلفة البشرية .

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العِرْقي والإبادة داخل أوربا (إما كضحايا أو كجزارين) يصل إلى مائة مليون ، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد لابد أن يتضاعف .

ولكن الإمكانية الإبادية الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية ، تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النماذجية» في الحضارة الغربية ، أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور فاضح ، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع ، وضمنهم المدافعون عن النموذج في صوره الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً) .

وكان النازيون يُدركون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية إنما هي ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الغربي الحديث . وقد بيَّن ألفريد روزنبرج ، أثناء محاكمته في نورمبرج ، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الكولونيالي ، فأشار مثلاً إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر ، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج ، وأن رؤيته العِرْقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية ، فالنازية ـ كما أكد روزنبرج لمحاكميه ـ هي جزء من الحضارة الغربية .

ولعل أكبر دليل على أن الإبادة إمكانية كامنة ، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية الحديثة ، أنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكر وسلوك الحلفاء ، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب ! فإرنست همنجواي ، الكاتب الأمريكي ، كان يُطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني . وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها. وقد عبَّر كاتب يُسمَّى كليفتون فاديمان عن هذا الموقف الإبادي بشكل متبلور . ولم يكن فاديمان هذا شخصية ثانوية في المؤسسة الثقافية الأمريكية فقد كان محرر مجلة **النيو يوركر** (وهي من أهم المجلات الأمريكية) ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبان الحرب بغرض الحرب النفسية . وقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان (تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي يشنها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) وجعل الهدف منها « إضرام الكراهية لا ضد

القيادة النازية وحسب ، وإنما ضد الألمان ككل . . . فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم . . . فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة . . . وإنما هو التعبير النهائي عن أعمق غرائز الشعب الألماني ، فهتلر هو تَجسُّد لقوى أكبر منه ، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها ٢٠٠٠ عام» . ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر .

وقد اشترك بعض الزعماء والكُتَّاب اليهود في هذه الحملة ، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا ، « فالشعب الألماني بأسره يُشكِّل تهديداً لنا » . ولكن يمكن القول بأن كتاب الكاتب الأمريكي اليهودي تيودور كاوفمان بعنوان **لابد من إبادة ألمانيا** هو من أهم الكتب المحرضة على الإبادة ، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية وبيَّنت أبعاد المؤامرة الإبادية ضد الألمان ، وهو ما شكَّل تبريراً لفكرة الإبادة النازية نفسها . وقد ورد في هذا الكتاب أن كل الألمان ، مهما كان توجههم السياسي (حتى لو كانوا معادين للنازية ، أو شيوعيين ، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة ، ولذا لابد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنى إبادة الجنس الألماني تماماً خلال ستين عاماً !

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة « هدم ألمانيا » ، وعن « تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية »(بالإنجليزية : باستوراليزيشن patsoralization) ، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي) . ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة . وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل . كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب ، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد ، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهي اختصار عبارة «ديس آرميد إنيمي فورسيز dis-armed enemy forces» أي «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب» . وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب ، وبالفعل قضى ٧٩٣,٢٣٩ جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥ ، كما قضى ١٦٧ ألف نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجةً للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك James Bacque) ، وفي الوقت ذاته كان يوجد ١٣,٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر ، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم .

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية ، فقد قام الحلفاء بما سُمِّي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية : دي نازيفيكيشن denazifica-tion) للقضاء على النازيين في الحياة العامة ، فأُقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً . وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين) ، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف ، أُجريت لهم محاكمات عاجلة . وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم ، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٦٩,٢٨٢ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي . وأصدر البريطانيون ٢٢,٢٩٦ حكماً والفرنسيون ١٧,٣٥٣ حكماً ، والروس ثمانية عشر ألف حكم . وبحلول عام ١٩٤٥ ، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية ، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن .

وتَظْهر النزعة الإبادية نفسها في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية ، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ . فخلال عشرة أيام في مارس ١٩٤٥ ، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها ١١,٦٠٠ ، تم خلالها إغراق ٣٢ ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل ، وهو ما أدَّى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل ١٥٠,٠٠٠ . أما الغارات الجوية على طوكيو يوم ٢٥ مايو ١٩٤٥ ، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى أن قائدي الطائرات المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام . وأدَّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل .

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان " يخشى " ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه قنابله ويدمره . ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب ، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات اليوم) . كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين ، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم . ومن ثم ، كان لابد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير . وكان الجنرال جروفز " محظوظاً " (كما تقول بعض

الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها ٢٨٠ ألف نسمة ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوِّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة . وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار ٧٠ ألف مدني ومات ١٣٠ ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع . وكأن هيروشيما لم تكن كافية ، فأُلقيت قنبلة أخرى على ناجازاكي، أدَّت هي الأخرى إلى مقتل ٧٠ ألف آخرين ، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مصرعهم فيما بعد . فما بين ألمانيا واليابان تم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين .

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام القيصري، ومن بعده النظام الستاليني ،ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) . وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا ، أما الآن فهو لا يكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة ، ومصيره بهذا لا يختلف كثيرا عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية . وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة « لأعدائه الطبقيين » مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية ،بل وتم إباده كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور . وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة . وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليون مات منهم ١٢ مليون على الأقل في معسكرات الجولاج : هذا حسب التقديرات المحافظة ، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً ! وقد رُفع النقاب أخيراً عن مساهمة النظام الستاليني في إبادة أعضاء النخبة الثقافية والسياسية في بولندا، وهي سياسة لا تختلف كثيراً عن سياسة النظام النازي . وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياد غير عادي .

إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية ، ومع هذا تظل الإبادة النازية لليهود لها مركزية خاصة ، فكيف نفسِّر هذا ؟ تعود هذه المركزية، فيما أعتقد ،إلى حداثة الإبادة النازية ومنهجيتها ، الأمر الذي جعلها تقض مضجع الإنسان الغربي ، فمشروعه الحضاري يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن في الترشيد المتزايد . كما أن الإبادة الاستعمارية كانت تتم دائماً « هناك » بعيداً عن أوربا ، في آسيا وأفريقيا، أما الإبادة النازية فتمت « هنا » على أرض الحضارة الغربية ، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين . كما أن العناصر

التي أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء، وإنما « مثلنا تماماً » . وأخيراً يشغل اليهود مكانة خاصة في الوجدان الغربي الديني والحضاري ، فاليهودي يقف دائماً على الهامش، موضع تقديس وكُره عميقين ، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبه الإنسان الغربي إلى الإمكانية الكامنة ، التي تقف فاغرة فاهها ، في قلب حضارته الحديثة .

السياق الحضاري الألماني للإبادة :

تناولنا في الجزء السابق الإطار الحضاري الغربي العام للإبادة ، ويمكننا الآن أن نترك المنظور العام لنركز على حالة محددة وهي الإبادة الألمانية النازية ليهود أوربا . ويمكن القول بأن المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية اكتسبت حدةً خاصة في ألمانيا لأسباب عديدة من بينها تقاليد وحدة الوجود (الحلولية الكمونية) القوية التي تعود إلى جيكوب بومه والمعلم إيكهارت ، وهي تقاليد ورثتها الفلسفة المثالية الألمانية وعمقتها ووصلت إلى ذروتها في فلسفة فخته الذي جعل من الذات مركز الكون وتصورها قادرة على خلق العالم . ولكن فخته في الوقت نفسه طالب بالقضاء على الفرد (الشخص الإمبريقي) وكان يحلم « بجمهورية الألمان » التي يُجنَد كل ذكر فيها من سن العشرين حتى موته ، فهي جمهورية جنود لا مواطنين . وقد ربطت الفلسفة الألمانية المثالية الإنسان الفرد بالمطلق الذي يمكن أن يتجسد في الفرد ، كما يمكن للفرد أن يذوب فيه . وحتى يصل الفرد إلى المطلق أُعيد تعريف العقل وتم توسيع نطاقه ولم تَعُد هناك حدود تفصل بين عقل الفرد والعقل المطلق، ففقد العقل هويته وأصبح لاعقلانياً . وقد وصلت الحلولية الألمانية إلى قمتها في منظومة هيجل الشاملة التي تساوي بين المقدَّس والزمني ، ثم يبلغ الحلول منتهاه في فلسفة نيتشه وفلسفات الحياة .

في هذا الإطار تم تعيين « مطلقات » مختلفة تكون هي موضع الحلول والكمون . وكان أول المطلقات هو الشعب الألماني العضوي (فولك) موضع الحلول والكمون ، وصاحب الرسالة . وقد وُلدت القومية الألمانية في أتون الحروب وتحت شعار الوحدة والمركزية ، وصاحب ذلك تعميق مفهوم الشعب العضوي ، والإصرار على الانتماء الكامل غير المشروط مقياساً وحيداً للولاء ، وطُرح شعار " ألمانيا فوق الجميع " الذي تبناه أعضاء الشعب الألماني ، وبُذلت المحاولات لإعادة صياغة الشخصية الألمانية لضمان ولائها للدولة المطلقة .

وقد بلغت سطوة هذا المفهوم حداً جعلته يبتلع المنظومة الدينية نفسها، فاختلطت

الديباجات الدينية بالقيم القومية بحيث تطلَّب الانتماء للشعب العضوي الألماني الانتماء إلى المسيحية البروتستانتية . ولكن مما يجدر ذكره أن هذه البروتستانتية كانت بروتستانتية ثقافية أو إثنية (" عقيدة أبائنا ") تركز على المشاعر الدينية دون العقيدة الدينية ، ولذا كان بوسعها أن تتصالح ببساطة مع النيتشوية والداروينية (يشير المفكر البروتستانتي الأماني بول تيليخ إلى نيتشه باعتباره مفكراً بروتستانتياً كبيراً) . وقد نتج عن ذلك تَنصُّر أعداد هائلة من يهود ألمانيا حتى يندمجوا « ثقافياً » في مجتمعهم الألماني . ووصلت نسبة هؤلاء أحياناً إلى ما يزيد عن ٥٠٪ من مجموع يهود برلين (الذين كانوا يشكلون معظم يهود ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر) .

ولكن في إطار مفهوم الشعب العضوي يصبح مثل هذا التنصر عملية «تسلل » و «تآمر» ، فصفات الشعب العضوي صفات موروثة تجري في العروق وفي أرض الأجداد. وبالفعل لوحظ تصاعد معدلات العداء لليهود في الفكر الألماني العلماني . فكتب ولهلم مار (١٨١٨ - ١٩٠٤) كتابه المهم **انتصار اليهودية على الألمانية : من منظور غير ديني** (١٨٦٢) . وكان مار مواطناً ألمانيًا (يُقال إنه كان يهوديًا) ، ثم انضم إلى جماعة فوضوية إلحادية في سويسرا بعد فشل ثورة ١٨٤٨ . وقد طُبعت من الكتاب اثنتا عشرة طبعة حتى عام ١٨٧٩ . وتحل في كتابه كلمتا «سامي» و«سامية» ، محل «يهودي» و«يهودية» . وهو الذي أشاع مصطلح «أنتي سيميتزم» ، أي «معاداة السامية»، في اللغات الأوربية ، وبيَّن في دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة ، كما أسس جماعة تضم أعداء اليهود عام ١٨٧٩ .

ومن أهم الشخصيات التي أضفت كثيراً من الاحترام على النظريات العْرقية المعادية لليهود الموسيقار الألماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) ، وكان صديقاً للكونت جوبينو ، وتأثر بكتابات مار . وقد طبع فاجنر كتابه **أضواء على اليهود في الموسيقى** (١٨٥٠ ، ثم ١٨٦٩) ، مصوراً اليهود باعتبارهم تجسيداً لقوة المال والتجارة ، ومنكراً عليهم أي إبداع في الموسيقى والثقافة . ثم نشر سلسلة مقالات بعنوان : « الفن الألماني والسياسة » طرح فيها فكرته الخاصة برسالة الشعب الألماني (الخالص) المعادية للمادية الفرنسية واليهودية . وقد اتهم فاجنر اليهود بالهيمنة على الحياة الثقافية في ألمانيا وطالب بحرمانهم من حقوقهم السياسية ، كما تحدث عن دمار أو إبادة أو اختفاء (بالألمانية : أونترجانج Untergang) اليهود ، أي تخليص الحياة الثقافية من اليهود بالقوة ، أو دمجهم تماماً عن طريق الفن والموسيقى . وقد تركت أفكار فاجنر أثراً عميقاً في هتلر ، ومن ثم

كانت لها مكانة خاصة في التجربة النازية (ولهذا ، كانت موسيقى فاجنر ممنوعة حتى عهد قريب في إسرائيل) .

وكان لإسهام المفكر السياسي والمستشرق الألماني بول أنطون دي لاجارد (١٨٢٧ - ١٨٩١) أبعد الأثر في تعميق الهالة الثقافية والعلمية حول معاداة اليهود . كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التيوتونية الخالصة (العضوية) ، كما كان يؤمن بالشعب العضوي (فولك) الألماني وتفوقه على الشعوب الأخرى ، ويرفض مبدأ المساواة. بل وكان يرى أن الليبرالية مؤامرة عالمية خطيرة . ولم يشأ التعبير عنها بأي من اللونين الأحمر أو الأسود ، فهما لونان لهما شخصيتهما ، بل وقع اختياره على الرمادي ، وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأممية الرمادية التي استنكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها " نحو العالم " ، على حد قوله ، ولأنها تقطع الطريق على الأماني والأطماع الجرمانية الرامية إلى إخضاع أوربا الوسطى للسيطرة الألمانية ، وإلى التخلص من إمبراطورية هابسبورج ، وإلى إجلاء السلاف عن البلاد بالقوة لأنهم ليسوا من سكانها الأصليين. وبطبيعة الحال ، ربط لاجارد بين الليبرالية الأممية الرمادية واليهود ، الذين وصفهم بأنهم يشكلون عبئاً كريهاً ولا مغزى تاريخي لهم ، يهدِّدون رسالة ألمانيا ووحدتها القومية . ولم تكن أفكار لاجارد عنصرية سوقية وإنما كانت عصرية أكاديمية تستخدم ديباجات علمية ، فقد كان يؤكد أنه لا يكِّن أي عداء لليهود كأفراد وإنما يعادي أمة سامية وثنية غريبة يعرقل وجودها (الموضوعي) اتحاد أوربا الوسطى تحت قيادة ألمانيا ، ولذا فلابد من طرد أعضائها أو ترحيلهم بالقوة .

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية لليهود على أساس عرْقي ، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) الذي كان يُعدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره ، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصداقية والاحترام . وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي ، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب (الشعب العضوي في مواجهة الشعب العضوي المنبوذ) ، ثم طرح الشعار المشهور « اليهود مصيبتنا » . وحذر الألمان من التدفق اليهودي من الخزان البولندي (إشارة إلى الانفجار السكاني بين يهود بولندا) ، وهو تدفق لا ينضب ، « جمع من الشباب الطموحين بائعي الملابس القديمة الذين سيسيطر أطفالهم وأطفال أطفالهم يوماً ما على سوق الأوراق المالية والصحف في ألمانيا » . وقد تبدَّى هذا الرفض لليهود في شكل تعاطف مع المشروع الصهيوني .

ومن الشخصيات الأخرى التي أشاعت الفكر العرْقي المعادي لليهود هيوستون ستيوارت تشامبرلين الذي أسلفنا الإشارة إليه ، وهو بريطاني المولد فرنسي النشأة ، ألماني بالاختيار ، كان معجباً بالثقافة الألمانية إعجاباً عميقاً . وقد تصادق مع فاجنر وتزوج ابنته ، وتأثر بأفكار جوبينو ولاجارد ، وألَّف أهم كتب العنصرية الغربية **أسس القرن التاسع عشر** (١٨٩٩) . وقد آمن تشامبرلين بتفوق الإنسان النوردي الأشقر ، وبأن قَدَر التيوتونيين هو قيادة الإنسانية جمعاء ، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعهم . وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس هو سبب التخلف . واليهود ، بحسب رأي تشامبرلين ، يشكلون عرقاً هجيناً متحركاً هامشيًا طفيليًا لا جذور له . وهم غير قادرين على الإبداع ، ولا يوجد لديهم إحساس ديني ، بل إن وجودهم نفسه جريمة ضد الإنسانية . وذهب تشامبرلين إلى أن الشخصيات المهمة في بدايات التاريخ اليهودي ، مثل داود والأنبياء والمسيح ، من أصل ألماني ! وتنبأ بالمواجهة الحتمية بين الساميين والآريين .

وقد عرضنا لفكر بعض المفكرين الألمان المعادين لليهود . ومع هذا ، لا يمكن إنكار أن معاداة اليهود ظاهرة غربية تشمل شتى دول العالم الغربي ، شأنها في هذا شأن الصهيونية . ولهذا ، لم تقتصر كُتب معاداة اليهود على ألمانيا . فهناك كتابات الكونت جوبينو الفرنسي ، التي أسلفنا الإشارة إليها . ويمكن أن نشير الآن إلى إدوارد أدولف درومون (١٨٤٤ - ١٩١٧) ، وهو أيضاً فرنسي ، وقد ضَمَّن أفكاره كتاب **فرنسا اليهودية** (١٨٨٦) الذي طُبِع أكثر من مائة طبعة ، وكان من أكثر الكتب الأوربية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر . وقد ألف درومون كتباً أخرى تتضمن الأفكار والرؤية نفسها .

ومن المفكرين الإنجليز الذين بادروا إلى معاداة اليهود ، المؤرخ والمصلح التربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ - ١٩١٠) ، فقد نشر عام ١٨٧٨ ، مع بدايات هجرة يهود اليديشية من روسيا إلى إنجلترا ، عملاً حاول فيه أن يبرهن على استحالة أن يصبح اليهود مواطنين في دول أوربا المضيفة ، كما حاول أن يبرهن على أن وجودهم يشكل خطراً سياسيًا على بلده . ولهذا السبب ، نادى سميث بحل صهيوني للمسألة اليهودية . فالعداء العنصري لليهود ليس ظاهرة ألمانية ، وإنما هي ظاهرة غربية عامة ، اكتسبت حدة خاصة في ألمانيا .

ثم نأتي لأهم المفاهيم في الحلولية الكمونية المادية وهو مفهوم الدولة ، التي تشغل مكاناً خاصاً في التفكير الرومانسي الألماني . وكما تم ربط الفرد بالمطلق ، ثم ربط مفهوم الحرية بالدولة ، بحيث لا تتحقق الحرية إلا من خلال الدولة (ومن هنا جنود فخته الأحرار !) .

ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) في فلسفة هيجل حيث تصبح الدولة هي المطلق ، بل وتجسيداً له ، وهي الإطار السياسي الذي يمكن للشعب العضوي أن يعبِّر عن نفسه من خلاله . إن الدولة أصبحت هي المطلق مجازياً وحرفياً ولذا طالب هيجل الإنسان بأن يعبد الدولة كما لو كانت إلهاً سماوياً ، وهذه هي قمة الحلولية الوثنية (التي ستعبِّر عن نفسها بشكل سوقي من خلال النازية والصهيونية فيما بعد) .

وقد تزامن هذا مع تزايد النزعة التاريخانية (تحت تأثير هيجل وغيره) بحيث لم يعد من الممكن أن يسأل الإنسان هل هذا الفعل خيِّر أم شرير ، إذ أصبح السؤال الوحيد الممكن هو : هل يتفق هذا مع اللحظة التاريخية أو لا ؟ كما انتشرت الأفكار الداروينية بشكل متطرف ، التي تُهمِّش الإنسان الفرد تماماً .

وقد واكب هذه النسبية الأخلاقية تزايد الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغائية الإنسانية ، فتعقيم المعوقين كان أمراً مقبولاً في الطب الألماني مع بداية القرن العشرين (الأمر الذي يعني أن أعداداً كبيرة من الأطباء الألمان اليهود كانوا متورطين في هذه الرؤية . ومن المعروف أن الأطباء اليهود لم يُطردوا من مهنة الطب في ألمانيا إلا في عام ١٩٣٣) . كما عرف الألمان أسلوب الانتفاع من الجثث البشرية قبل ظهور النازي ، أي أن تزايد إطلاق الدولة واكبه تهميش الفعل الأخلاقي الفردي والمسئولية الفردية فتم استيعاب الفرد في الكل الشامل .

وكان الشاعر هايني من أكثر المفكرين إدراكاً لخطر الحلولية الكمونية التي تجعل الإنسان إلهاً على الأرض ، وفي الوقت نفسه تجعل الدولة إلهاً على الأرض . فقال إن فيلسوف الطبيعة سيعقد تحالفاً مع قوى الطبيعة الكونية وسيوقظ القوى الشيطانية لوحدة الوجود الألمانية التي ستضرم الشهوة للحرب (التي تسم الألمان القدامى) حيث لا يحارب الجندي ليدمر ويكسب المعركة ، وإنما يحارب من أجل الحرب .

هذه هي بعض مكونات السياق الحضاري الألماني للنازية وللإبادة النازية لليهود (ولغيرهم) . وقد تشابكت هذه المكونات وتصاعدت حدتها وبلغت حدّاً عالياً من التبلور في العقيدة النازية ، التي تشكل تعبيراً صافياً ونماذجياً عن المُثُل العليا للحضارة العلمانية الغربية وعن النموذج الحاكم الكامن فيها . والعقيدة النازية لم تفعل أكثر من وضع هذه المُثُل موضع التنفيذ بشكل أكثر تطرفاً من المعتاد ، إذ طُبِّقت الأفكار بشكل أكثر ثورية وأكثر منهجية وشمولاً على البشر كافة .

النازية والحضارة الغربية :

كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف من العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياليستيش دويتش أربايتربارتي Nationalsozialistische Deutsche Arbeiterpartei (NSDAP)» ، أي «الاشتراكية القومية» ، وهي حركة عرقية داروينية شمولية ، قادها هتلر وهيْمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا ، وعلى المجتمع الألماني بأسره . والحركة النازية هي حركة سياسية وفكرية ، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل نفس السمات ، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى . كانت النواة الأساسية للحركة النازية هي حزب صغير يُسمَّى «حزب العمال الألمان» أُسِّس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة . وكان المنظِّر الأساسي للحزب هو جوتفريد فيدر الذي نادى بعقيدة لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي ، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك . وكان من أوائل من انضم لعضوية هذا الحزب محاربون قدامى مثل رودولف هس وهرمان جورنج ، ومثقفون محبطون مثل ألفريد روزنبرج و ب .ج . جوبلز وهتلر نفسه ، وشخصيات أخرى مثل يوليوس سترايخر . وقد ازدادت عضوية الحزب لأنه توجه إلى المخاوف الكامنة لدى قطاعات كبيرة من الألمان من الشيوعيين والبلاشفة ، وإلى حنقها على معاهدة فرساي التي أذلت ألمانيا وحولتها إلى ما يشبه المستعمرة ، وعلى جمهورية وايمار المتخاذلة التي قبلت هذا الوضع ، وإلى إحساس الجماهير بالضياع في المجتمع الحديث وإحساسهم بالقلق وعدم الطمأنينة نتيجة تآكل المجتمع التقليدي . ورغم أن الحزب كان يُسمَّى «حزب العمال» ، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه ، ولم ينضم له من العمال سوى العاطلين عن العمل . وأُعيد تنظيم الحزب عام ١٩٢٠ وسُمِّي «حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطل الحرب العالمية الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكان هتلر تقويض دعائم النظام السياسي القائم ، الذي لم يكن يسمح لهم باتباع سياسة رأسمالية حرة تماماً ، كما أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين . وقد تزايد نفوذ الحزب مع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي . وحل كتاب هتلر **كفاحي** محل برنامج جوتفريد فيدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر) ، كما تراجع الخطاب الاشتراكي وحل محله خطابٌ نازيٌ أكثر تبلوراً ومادية .

وسار الحزب النازي بخطى واسعة في الفترة من ١٩٣٠ حتى١٩٣٢ ، ووصلت

عضويته إلى مليونين بحيث أصبح الحزب الثاني في ألمانيا أثناء فترة الكساد الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩ ، وهي فترة شهدت تآكل مدخرات الطبقة الوسطى الألمانية وانتشار الحركات الإباحية والبغاء والفوضوية وتَعاظُم نفوذ الشيوعيين . ورغم أن هتلر خسر انتخابات الرئاسة عام ١٩٣٢ أمام هندنبرج ، إلا أن حزبه النازي أصبح أكبر حزب ألماني على الإطلاق . وقد فشل المستشار فون بابن في الاحتفاظ بأغلبية تمكنه من الحكم في البرلمان ، فأُجريت انتخابات أخرى . وكان هتلر قد حصل إبان ذلك على الدعم المالي من رجال المال والصناعة في وادي الراين الذين كانوا يهدفون إلى احتوائه واستخدامه كأداة .

وكان هتلر يستخدم خطابين مختلفين : أحدهما للجماهير ، والآخر لرجال المال . وقد احتجت بعض العناصر الاشتراكية في الحزب على الاتجاه المتزايد نحو اليمين ، ولكن هتلر نجح في القضاء على هذه العناصر . وفي عام ١٩٣٣ ، قام الرئيس هندنبرج بتعيين هتلر مستشاراً . وحينما اندلع حريق في مبنى البرلمان ، قام هتلر بطرد النواب الشيوعيين بعد أن ألقى التبعة عليهم . ثم اقترع البرلمان على منح هتلر سلطات شاملة ، ومن ثم أنجز هتلر ثورته القانونية . وفي يونيه ١٩٣٤ ، أصبح الحزب النازي هو الحزب الأوحد ، وقام هتلر بتصفية البقية الباقية من العناصر العسكرية في حزبه بطريقة دموية ، وكان من بينهم إرنست روم رئيس قوات العاصفة . كما قام هتلر بضرب اليمين ، فأثبت بذلك أنه لم يكن مجرد أداة في يد المموِّلين أو بقايا النظام الملكي فأم المصارف وبعض الصناعات . ومع هذا ، استفادت العناصر الرأسمالية من خلال سيطرة الدولة على كثير من القطاعات الاقتصادية ، وأُلغيت اتحادات العمال ، وفقد العمال حقوقهم ، وتم استيعابهم في مؤسسات الحزب ، وتم التنسيق بين جميع مؤسسات الدولة والحزب . كما أصبحت الخدمة العامة إجبارية ، ثم فُرض التجنيد الإجباري وأُخضعت ألمانيا كلها لنظام مركزي قوي . وأُلغي استقلال الولايات ، وأُخضعت لهيمنة الفوهرر وأجهزته مباشرة ، بل أسس الحزب كنيسة ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية .

وفي عام ١٩٣٦ ، بدأت خطة السنوات الأربع لإعادة تسليح ألمانيا ، وإعادة تنظيم الاقتصاد انطلاقاً من الاعتماد على الذات . وقد حقق النازيون نجاحاً اقتصاديًا باهراً ، الأمر الذي زاد من التفاف الجماهير حولهم ، حيث تم القضاء على البطالة وبُنيت منشآت عامة عديدة ، ثم سيطر هتلر على حزبه سيطرة كاملة ، وتولى هملر رئاسة الجستابو (البوليس السري) عام ١٩٣٦ . وبعد موت هندنبرج ، أصبح هتلر رئيساً للدولة لا يقاسمه السلطة أحد . ونجح في استصدار قرار عام ١٩٣٤ بتأسيس الرايخ الثالث الذي

سيدوم ألف عام (والرايخ هو ألمانيا أو الإمبراطورية الألمانية المقدَّسة حيث يمتد الرايخ الأول من تاريخ تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة عام ٩٦٢ حتى انحلالها عام ١٨٠٦ ، والرايخ الثاني هو الإمبراطورية الألمانية منذ ١٨٧١ وحتى ١٩١٨ ، أما الرايخ الثالث فهو الدولة النازية من ١٩٣٣) ، وأصبح هو حاكم (فوهرر) ألمانيا بلا منازع .

وبدأ هتلر في تنفيذ مخططه الإمبريالي في الداخل والخارج صدوراً عن الرؤية النازية للعالم التي استمدت ملامحها الأساسية من الحضارة الغربية :

١ ـ السمة الأساسية للمنظومة النازية هي علمانيتها الشاملة وواحديتها المادية الصارمة . وقد هاجم ألفريد روزنبرج (أهم «الفلاسفه» النازيين) المسيحية باعتبارها عقيدة يهودية تدافع عن المطلقات . وفي كتابه **أسطورة القرن العشرين** حاول أن يُبيِّن بعض الأطروحات الأساسية للنازية ، فالروح والعِرْق هما شيء واحد ، فالعِرْق إن هو إلا التعبير البراني عن الروح ، والروح إن هي إلا التعبير الجواني عن العِرْق (وهذا لا يختلف كثيراً عن تصور الفلسفة الألمانية المثالية عن تماثل الروح والطبيعة) ، والروح العِرْقية هي التي تحرك التاريخ . بل إن روزنبرج كان مدركاً للحلولية كنمط نهائي ، إذ يؤكد أن الروح الألمانية تعبِّر عن انتصار فكرة الحرية وعن التصوف الحقيقي ، تصوف المعلم إيكهارت ، وهي صوفية مسيحية اسماً ومظهراً وحسب ، ولكن يجب أن تُفهم باعتبارها تزايد حرية الروح إلى أن تصل إلى المرحلة التي تتحرر فيها تماماً من الإله نفسه . وكان روزنبرج ، انطلاقاً من عقيدته العِرْقية هذه ، يعطي مواعظ نارية عن أسطورة الدم .

ولكن هتلر ، بذكائه الشديد ، حاول أن يُبقي هذه النقطة من برنامجه غامضة حتى لا يستفز الجماهير ولا يواجه الكنيسة بشكل علني . وقد عقد اتفاقاً مع الكنيسة الكاثوليكية غير أنه لم يلتزم به وأرسل بكثير من رجال الدين إلى المحرقة . وقد أسس هتلر « كنيسة » ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية ، وتطهير فكرة القومية الألمانية من العناصر المسيحية التي دخلت عليها . وكان الالتحاق بهذه الكنيسة القومية ـ ومن ثم الانفصال عن المنظومة المسيحية ـ شرطاً أساسيًا للانضمام إلى فرق الحرس الخاص المعروفة بالإس . إس . وفي السنوات الأخيرة من حكم النازي ، وضع هتلر مخططاً شاملاً للقضاء على الكنائس المسيحية بشكل كامل ، حتى تسود الواحدية المادية وقيم القومية العضوية والولاء الكامل لألمانيا ولدولة الرايخ الثالث . وكل سمات النازية الأخرى تنبع من رؤيتها العلمانية الإمبريالية الشاملة .

٢ ـ تتضح مادية النازيين الصارمة في إنكارهم للطبيعة البشرية وثباتها فكل شيء من

منظورهم خاضع للتغير والحوسلة . ويمكن القول بأن ثمة نزعة مشيحانية علموية مادية قوية هي التي تعطي النازية تفردها واختلافها عن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى . فالنازية دفعت بكثير من المقولات الكامنة في الرؤية العلمانية الشاملة إلى نتيجتها المنطقية، ولم تعد تَقْنَع بتغيير العالم وإنما كانت تطمح إلى تغيير النفس البشرية ذاتها . (وعلى كل، هذا الاتجاه أمر كامن في كل الطوباويات التكنولوجية التي تعود بداياتها إلى بداية عصر النهضة في الغرب) . ومن هنا اهتمام النازيين بعلم مثل علم تحسين النسل (بالإنجليزية : إيوجينكس eugenics) وإعادة تنظيم العالم من خلال سياسات بيولوجية وضعية . ومن هنا حربهم الشديدة ضد الأمراض النفسية والجسمانية وضد كل انحراف عن المعيارية العلمية الصارمة (ومن هنا نجد أنهم قاموا بإبادة الأقزام!) .

٣ ـ آمن النازيون بفكرة الدولة باعتبارها مطلقاً علمانيّا متجاوزاً للخير والشر . وحدَّد هتلر المطلق الأول والأوحد (الدولة) بدقة غير عادية حين قال إنه لابد من تحقيق العدالة وتوظيفها في خدمة الدولة، أي أنه لا يوجد مفهوم مطلق للعدالة، وإنما تتحدد العدالة بمقدار تحقيق نفع الدولة . والدولة كمطلق هي الإطار الذي يعبِّر الشعب العضوي (فولك) الألماني من خلاله عن إرادته .

٤ ـ تبنت النازية النظرية العرْقية الداروينية الغربية، وأكدت التفوق العرقي للشعب الألماني على كل شعوب أوربا، ولشعوب أوربا على كل شعوب العالم . ورفض هتلر فكرة المساواة بين البشر باعتبارها فكرة دينية («حيلة يهودية مسيحية»، «نوع من التنويم المغناطيسي تمارسه اليهودية الغازية للعالم بمساعدة الكنائس المسيحية») .

٥ ـ من الأفكار الأساسية في الفكر النازي فكرة الشعب العضوي (فولك) الذي تُوجَد وحدة عضوية بين أعضائه من جهة، وبين حضارتهم والأرض التي يعيشون عليها من جهة أخرى، وهي وحدة لا تنفصم عراها . ولا يمكن لهذا الشعب أن يحقق كل إمكانياته إلا بعد أن يضم إليه مجاله الحيوي (الأرض في الثالوث الحلولي العضوي) حتى تكتمل الدائرة العضوية . أما العناصر الغريبة الأجنبية فهي تؤدي إلى إعاقة هذا التكامل العضوي الصارم، وبالتالي فهي عناصر ضارة لابد من استبعادها .

٦ ـ من العبارات المتواترة في الخطاب العضوي النازي عبارة «الدم والتربة»، وهي ترجمة للعبارة الألمانية «بلوت أوند بودين Blut und Boden»، وهي من الشعارات الأساسية للنازية والمرتبطة بفكرة الشعب العضوي . وهذه العبارة النيتشوية تمجد آداب الفلاحين وعواطفهم باعتبارها تجسيداً للصفتين الأساسيتين اللتين يستند إليهما رقي الجنس

الألماني ؛ الدم الألماني والتربة الألمانية . وهي تُحوِّل الدم والتربة إلى المرجعية أو الركيزة النهائية التي يستند إليها النسق المعرفي والأخلاقي . وشعار «الدم والتربة» هو مثل جيد على ما نسميه «الواحدية المادية الكونية» التي تسم الأنساق الحلولية الكمونية ، حيث يصبح المطلق كامناً في المادة لا متجاوزاً لها ، ويُنصِّب شعبٌ من الشعوب نفسه إلهاً على بقية الشعوب ، فدمه وتربته يحويان كل القداسة ويعطيانه حقوقاً مطلقة لا يمكن النقاش بشأنها . ولكن هذه الحلولية هي حلولية بدون إله ، فثالوث القومية العضوية : الدم ـ التربة ـ الشعب ، ليس إلا صدىً للثالوث الحلولي الوثني : الإله ـ الطبيعة ـ الإنسان . ويبدو أن الدم ، باعتباره حامل القداسة وباعتباره الصلة التي تربط الإنسان والأرض ، يحل محل الإله . (وقد وجدت هذه العبارة طريقها إلى الفكر والخطاب الصهيوني) .

٧ ـ وقد ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم العرق السيد ، وهو العرْق الآري الألماني التيوتوني الذي سيحتفظ بنقائه العرقي ويؤسس أمة تتألف من الحكام المحاربين والمفكرين ، قدرها المحتوم أن تحكم الأعراق الدنيا وتعيش على عملها وتحقق السيادة على العالم . وهذه الأمة ستنظم نفسها على شكل هرمي تقف على قمته نخبة تتسم بالصفات العرْقية الأكثر تفوقاً ، وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التجسد المادي والمحسوس والتاريخي للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) . وكان تنظيم الحزب النازي تعبيراً عن هذه الرؤية نفسها ، فقد استعار هتلر من التنظيمات الشيوعية فكرة الخلية والتنظيم الهرمي للحزب والانضباط الداخلي ، واستعار من الفاشية الإيطالية فكرة ميليشيا الحزب ذات الزي الموحَّد ، وهؤلاء هم مرتدو القمصان البُنيَّة وكان يُشار إليهم بالحرفين .S.A ، وهما اختصار عبارة «شتورم أبتايلونج Sturm-Abteilung» أي «قوات العاصفة» . أما «النخبة» ، فهم فرق الإس . إس .S.S وهي اختصار للعبارة الألمانية «شوتس ستافل Schutz-Staffel» ومعناها «نخبة الأمن» أو «الحرس الخاص» ، وكانوا يرتدون قمصاناً سوداء وشارة الموت . وكان للحزب تحيته الخاصة بأن يرفع العضو ذراعه اليمنى ويقول : «هايل هتلر» . وأصبح الصليب المعقوف رمزه ، كما كان له نشيده الخاص .

٨ ـ رأت العقيدة النازية أن هذا الهرم الألماني المنظم ، لابد أن يسيطر على العالم بأسره . وقد استفادت هنا من الفكر الجغرافي السياسي (الجيوبولوتيكي) الغربي . إذ رأى النازيون أن ألمانيا أمة حركية من حقها أن تحصل على مجال يتناسب مع قوتها وحيويتها وحركيتها ، وهو مجال أوسع مما سمحت به معاهدة فرساي .

٩ ـ انطلاقاً من كل هذا وُضعت ألمانيا فوق الجميع وأصبح للألمان حقوق مطلقة فيما تصوروا أنه مجالهم الحيوي . وقد رأى النازيون أنه يجب على الشعب الألماني أن يستيقظ من سباته ويتنبه للخطر ، وأن يغزو مجاله الحيوي حتى يصبح مجالاً ألمانيًا صرفاً خالياً من السلاف .

١٠ ـ لكن الشعوب العضوية (فولك) تحتاج دائماً إلى آخر تستمد منه هويتها . والآخر هنا هو كل من يقف في طريق تحقيق الأطروحات النازية ، وهم في هذه الحالة السلاف بالدرجة الأولى ، الذين يشغلون المجال الحيوي في الخارج . أما في الداخل ، فكانت توجد عناصر عديدة غير نافعة مستهلكة دون أن تكون منتجة ، وأحياناً ضارة ، من بينها المعوقون والشواذ جنسيًا والشيوعيون والغجر والمصابون بأمراض وراثية مزمنة ، بل والأقزام . ولذا كان النازيون يرون ضرورة إبادة العناصر الضارة في الداخل والخارج : السكان السلاف الذين يعيشون داخل المجال الألماني الحيوي ، والغجر ممن لا نفع له ، واليهود خصوصاً الأقلية المالية اليهودية .

١١ ـ ولكن لنركز على أعضاء الجماعة اليهودية وحدهم ، لا بسبب أهميتهم المطلقة ولكن بسبب أهميتهم من منظور هذه الدراسة . كان اليهود ـ حسب التصور النازي ـ من أهم القطاعات غير النافعة ، بل والضارة ، فهم يتركزون في القطاعات الهامشية للاقتصاد ، مثل تجارة الرقيق الأبيض . ورغم أنهم مثل البكتريا والطفيليات التي تعيش على الآخرين ، إلا أنهم يدَّعون أنهم يُشكلون عرْقاً ساميًا وشعباً مختاراً ، ولذا فهم يحاولون دائماً الهيمنة على الحياة السياسية والاقتصادية للشعوب الأخرى . ويشير هتلر إلى أن اليهود سيطروا على عالم المال في ألمانيا ، وأنهم يحيكون مؤامرة عالمية للسيطرة ولذا فهم يحاولون إشعال الحروب والثورات (وهذه هي الأفكار الأساسية في **بروتوكولات حكماء صهيون** ، وفي كتاب إدموند دروموند **فرنسا اليهودية** ، وهما من أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر) . كما بيَّن هتلر أن الماركسية والماسونية ليست إلا مجرد حيل يهودية للسيطرة على العالم . وقد صُنِّف اليهود أحياناً باعتبارهم سلافيين ، لأن كثيراً منهم كانوا «أوست يودين Ostjuden» ، أي من يهود شرق أوربا . وأُلقي اللوم على اليهود باعتبارهم مسئولين عن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وعن إذلالها . ولذا قرر الألمان أن يجعلوا المجال الحيوي الألماني «خالياً من اليهود» (بالألمانية : يودين راين Judenrenrein) .

وقد بدأ النظام النازي حملته على اليهود عقب تعيين هتلر مستشاراً في ٣٠ يناير عام

١٩٣٣ . ففي أبريل عام ١٩٣٣ نُظمت مقاطعة للأعمال التجارية اليهودية ، ثم استُبعد اليهود من كثير من الوظائف العامة . وفي أبريل ١٩٣٥ ، استُبعد الأطفال اليهود من النظام التعليمي . وفي سبتمبر من نفس العام ، صدرت قوانين نورمبرج التي نزعت عن أعضاء الجماعة اليهودية حقهم في أن يكونوا مواطنين بالرايخ ، تنفيذاً لفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ ، ومُنعت الزيجات المختلطة بين اليهود والآريين . وفي عام ١٩٣٨ ، مُنع اليهود من العمل في الوظائف الوسيطة كأن يكونوا وكلاء وبائعين ومديري عقارات ومستشارين في الأعمال التجارية . وأدّى اغتيال عضو في السفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ إلى قيام ثورة شعبية ضد اليهود تُعرف باسم «كريستال ناخت» أي «ليلة الزجاج المحطم» أُحرق خلالها أربعمائة معبد ونُهب كثير من المتاجر والمنازل الخاصة ، وتم القبض على الألوف منهم وفُرضت غرامة على اليهود (ككل) . وبعد ذلك بدأ النظام النازي في عملية الإبادة والحل النهائي النازي للمسألة اليهودية والتي استمرت حتى نهاية الحرب .

وكما سنبين فيما بعد لم يكن النظام النازي عشوائياً لاعقلانياً في اضطهاده لأعضاء الجماعات اليهودية ، بل إن كلمة «اضطهاد» ذاتها قد لا تنطبق على علاقة النازيين بأعضاء الجماعات اليهودية إذ أن ما حدد هذه العلاقة هو مدى نفع اليهودي وإمكانية توظيفه .

١٢ ـ أشرنا من قبل إلى تَراجُع الجوانب الاشتراكية (الإنسانية) في برنامج الحزب النازي الذي كان يحوي بلا شك بعض المطلقات الإنسانية (مثل فكرة العدل وضرورة التكافل) ، وظهور رؤية مادية واحدية صارمة في ماديتها وواحديتها تنفي المطلقات والثوابت والماهيات كافة ، رؤية علمانية شاملة تنزع القداسة عن كل شيء بحدة وشراسة وتُسقط تماماً فكرة الحرمات . وهذا التحول عن الإنسانية (الهيومانية) والسقوط التدريجي والمطَّرد في الواحدية المادية هو نمط التطور الأساسي في الحضارة الغربية الحديثة ، حيث تطورت من رؤية إنسانية (علمانية جزئية) تحوي مطلقات إلى روية علمانية إمبريالية شاملة تنفي المطلقات والثوابت والكليات كافة .

١٣ ـ تنطوي الرؤية النازية للكون ، شأنها شأن كل الرؤى المادية ، على إشكالية أساسية داخلها ، وهي مشكلة الأساس الفلسفي والمعرفي الذي تستند إليه منظومات الإنسان الأخلاقية . وقد حسم النازيون هذه القضية بتصورهم أن العلم (الطبيعي) قادر على مساعدة الإنسان على التوصل إلى حلول لجميع المشاكل ، وضمن ذلك المشاكل الإنسانية والأخلاقية والروحية . ومن ثم فالعلم هو وحده القادر على تحديد الصالح والطالح والخيِّر والشرير وهو وحده المرجعية النهائية . ولذا طالب النازيون بضرورة

تطبيق قيم العلم والمنفعة المادية على الإنسان والمجتمع ، وآمن النازيون بالمنفعة المادية كمعيار أخلاقي للحكم على الواقع . وبالفعل ، اتسم النازيون بالحياد العلمي الشديد في تعاملهم مع الواقع ومع البشر ، واستخدموا مقاييس علمية رشيدة لا تشوبها أية قيم أخلاقية أو عاطفية أو غائية ، وتحوَّل كل البشر ، وضمن ذلك الألمان ، إلى مادة بشرية . ومن ثم ، قُسِّم العالم كله إلى نافعين وغير نافعين (وهو تقسيم يعود إلى القرن الثامن عشر ، عصر العقل المادي والعقلانية المادية) . وتقرر أنه لا يستحق الحياة إلا من ينتج ويستهلك ، أما من لا ينتج ويستهلك (بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters حرفياً «من يأكلون ولا نفع لهم») فمصيره أمر مفروغ منه ، فقد صُنِّف على أن حياته لا قيمة لها (بالألمانية : بالاست إكسستينزن Ballastexistenzen) بل وتشكل عبئاً على الإقتصاد الوطني بطبيعة الحال .

١٤ ـ ولكن كما هو الحال دائماً تخبئ الرؤية العلمية النفعية المحايدة أخلاقيًا الرؤية الداروينية النيتشوية ، بتأكيدها على فكرة البقاء باعتباره القيمة المطلقة والصراع باعتباره الآلية الوحيدة للبقاء ، وهي عملية مادية محضة . فالبقاء هو البقاء المادي ، والصراع صراع مادي ، والبقاء في هذه الغابة الداروينية الواحدية المادية التي لا تعرف الرحمة أو العدل ليس من نصيب الأرق قلباً أو الأرقى خُلقاً أو الأكثر تراحماً وإنما هو من نصيب الأصلح والأقوى ماديًا (فالقوة هي المطلق النهائي) ، والأقوى هو الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه والذي يتحلى بأخلاق الأقوياء ويضرب بيد من حديد على الضعفاء بدلاً من أن يأخذ بأيديهم .

بعد تَقَبُّل النازيين النفع المادي والقوة ، باعتبارهما المعيار الأخلاقي الأوحد في منظومة معرفية علمانية مادية شاملة لا تعرف المطلقات الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية ، قام المفكرون والعلماء النازيون بتقييم الواقع المحيط بهم من خلال هذه المنظومة الفكرية المادية وصنفوا كثيراً من العناصر باعتبارها غير نافعة : (السلاف ـ الغجر ـ اليهود ـ المعوقين إلخ) .

ولا يمكن الدفاع عن كل هؤلاء من منظور أخلاقي مطلق ، فهذا أمر مرفوض من منظور علماني شامل ، نفعي نسبي ، مستنير رشيد ، ينطلق من حساب دقيق للمدخلات والمخرجات . ومن يريد الدفاع عن نفسه عليه أن يفعل ذلك من داخل المنظور العلمي النفعي المستنير لا من خارجه .

وكان قد تم إعداد الآلة المادية النفعية ذات الكفاءة العالية ، كما تم تحويل العالم بأسره ،

على المستويين المعرفي والوجداني ، إلى مادة استعمالية خام . ومن جهة أخرى ، تم استئناس الشعب الألماني وترشيده وتحييد حسه الخلقي تماماً وإسكات عواطفه ، ليكون في انتظار التعليمات والحلول الواقعية العلمية العملية (المادية) النهائية لمشاكله ، وهي حلول ستأتيه من مجموعة من رجال الحزب والعلماء وأهل التخصص .

وحينما بدأت آلة الإبادة المادية النفعية الموضوعية الجهنمية ذات الكفاءة العالية منقطعة النظير ، في الدوران ، كانت الإبادة قد تحققت معرفيًا ووجدانيًا ونظريًا ، من خلال النموذج الواحدي المادي ، قبل أن تتحقق فعليًا من خلال معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة .

إن الأطروحات الأساسية للنازية هي ذاتها الأطروحات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة والتشكيل الإمبريالي الغربي . وبالفعل حظيت الحركة النازية في البداية بتأييد رأسمالي غربي لأنها كانت تنظر إلى الاتحاد السوفيتي باعتباره العدو الأكبر (السلافي) للحضارة الآرية ، ومن ثم كان الرايخ الثالث من هذا المنظور يشكل قلعة ضد الزحف السلافي الشيوعي . ولكن ستالين كان أكثر دهاءً ، حيث عقد حلفاً مع هتلر اقتسما بمقتضاه بولندا والمجال الحيوي المحيط بها . ثم تحالف الغرب الرأسمالي مع الشرق الاشتراكي ضد هتلر ، لا دفاعاً عن المبادئ ولكن لأنه بدأ يهدد مصالحهما معاً .

ولعل سيرة حياة العالم الألماني د . إ . فيشر E. Fischer تُبيِّن مدى عمق تَجذُّر المنظومة النازية في الحضارة الغربيَة . فقد بدأت سيرته العلمية عام ١٩٠٨ حينما قامت السلطات الألمانية بإلغاء كل الزيجات المختلطة في مستعمرة جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا في الوقت الحاضر) التابعة لألمانيا وحرمان الألمان ممن تزوجوا من غير البيض من حقوقهم المدنية . في هذا الإطار قرر الدكتور فيشر ، أستاذ التشريح بجامعة فرايبورج ، أن يبدأ دراساته عن أبناء الزيجات المختلطة التي تمت بين البوير (وهم من أصل هولندي) ونساء قبائل الهوتنتوت الأفريقية . وقد نشر نتائج بحثه عام ١٩١٣ . وكان من ضمن التوصيات «العلمية » التي وردت في هذا الكتاب ما يلي : « من الواجب أن نزود أبناء مثل هذه الزيجات المختلطة بالحد الأدنى من الحماية الذي يتطلبه البقاء ، باعتبارهم جنساً متدنياً عنا . وبعد هذا يجب أن تسود المنافسة الحرة ، التي ستؤدي إلى تدهورهم وتدميرهم » . ثم ألَّف فيشر كتاباً مع آخرين بعنوان **مبادئ الوراثة الإنسانية والصحة العرقية** ، أي أن فكر الدكتور فيشر العلمي ، الداروينى العنصري ، وُلد في صميم التشكيل الحضاري والاستعماري الغربي .

ومن هذه البيضة خرجت الأفعى ، فقد وصلت نسخة من هذا الكتاب إلى هتلر في

سجنه عام ١٩٢٣ ، وكان آنذاك يكتب كتابه المشهور **كفاحي** فطوَّر أفكاره عن العرق وأعطاها التبريرات " العلمية " المطلوبة .

وفي عام ١٩٢٩ عُقد المؤتمر الدولي (أي الغربي) لتحسين النسل في روما . وترأسه العالم الأمريكي المشهور دافنبورت . وقد أرسل فيشر بمذكرة إلى الحكومة الإيطالية ليُبيِّن لها أهمية علم تحسين النسل . وفي ديسمبر من العام نفسه عُيِّن فيشر رئيساً للجنة الاختلاط العرْقي في الفيدرالية الدولية (أي الغربية) لمنظمات تحسين النسل . وقد ذاع صيت فيشر وعلت مكانته في المؤسسة العلمية الغربية حتى أن دافنبورت رشحه خليفة له (في مؤتمر تحسين النسل المنعقد في نيويورك) ليترأس الفيدرالية الدولية (أي الغربية) . ولكن فيشر لم يقبل العرض بسبب مشاغله .

وبعد عدة شهور (٣٠ يناير ١٩٣٣) أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا ، وبعدها بيومين ألقى فيشر محاضرة بعنوان « الاختلاط العرْقي والإنجاز الثقافي » ثم عُيِّن رئيساً لجامعة برلين في ذلك العام . وبدأ فيشر ينوِّه بالنظام النازي وبنخبته الحاكمة لأنها تفكر من خلال « الإطار البيولوجي » وتتدخل في مسار التاريخ لتحمي الصفات العرقية الألمانية . وفي عام ١٩٣٥ قام بمناقشة قضية تعقيم الأطفال الألمان الملونين . وفي عام ١٩٤١ كان فيشر هو ضيف الشرف في حفل افتتاح معهد دراسة المسألة اليهودية في فرانكفورت حيث طالب بحل المسألة اليهودية عن طريق نقل اليهود من أوربا كما طالب بتعقيم ربع اليهود . وقد حضر في عام ١٩٤٢ اجتماعاً لمناقشة مسألة إنهاك (تقويض ـ تفكيك) شعوب شرق أوربا من خلال العمل (بالإنجليزية : سكرابنج ثرو ليبور **scrapping through labour**) وإعادة توطين الملايين منهم في سيبريا . ثم كتب فيشر مقالاً يُشير فيه إلى أن العلم النازي قد ازدهر لأن الطبقة الحاكمة ترحب به وتضع نتائجه موضع التنفيذ وفي خدمة الدولة . وحتى قرب نهاية الحرب كان لا يزال فيشر يقوم بجهوده " العلمية " النازية فقَبل أن يكون رئيساً للمؤتمر المعادي لليهود والذي كان سيُعقد في كراكوف في بولندا (ولكنه لم يُعقد لأن الستار كان على وشك أن يُسدل على التجربة النازية ككل) .

النازية هي وليدة الحضارة الغربية إذن ، ومع هذا يتساءل بعض الدارسين الغربيين للإبادة النازية عن الكيفية التي أمكن بها لمجتمع غربي يُقال إنه «متحضر» مثل المجتمع الألماني (مجتمع هيجل وفاجنر وهايدجر) أن يفرز حركة بربرية تماماً كالحركة النازية ثم يُخضع كل أعضاء المجتمع لها . وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال ، ذهب بعضهم إلى القول بأن النازية هي مجرد انحراف لا عن مسار التاريخ الألماني وحسب وإنما عن مسار التاريخ الغربي ككل .

ويذهب المؤرخ الألماني إرنست نولت Ernest Nolt (وهو أستاذ في جامعة برلين الحرة يمثل تياراً مراجعاً داخل علم التاريخ في ألمانيا) إلى أن المرحلة النازية ليست مرحلة نماذجية، أي لا ترقى إلى مستوى النموذج والنمط ، وإنما هي مرحلة عرضية غير مُمثِّلة لمسار التاريخ في ألمانيا . وهم يُقارنونها بروسيا الستالينية . ويذهب نولت إلى القول بأن النازيين قاموا بعمليات الإبادة خوفاً من أن تُطبَّق عليهم سياسات الإبادة التي كان يطبقها السوفييت منذ عام ١٩١٧ على الطبقات والشعوب غير المرغوب فيها ، بل ويؤكد أن النازيين تعلموا الإبادة والتصفية الجسدية ومعسكرات السخرة من الشيوعية السوفيتية ومن ممارسات ستالين الإبادية ؛ فالأصل هو الجولاج ، وأوشفيتس هي النسخة .

وهناك كثيرون داخل ألمانيا وخارجها يعارضون هذا الرأي ويؤكدون أن سلوك الألمان هو جزء لا يتجزأ من تاريخهم الحضاري (بل هناك من يتطرف إلى درجة القول بأن سلوك الألمان هو في واقع الأمر تعبير عن طبيعتهم الثابتة). والحوار هنا يتعلق بدلالة الإبادة : هل هي جريمة نازية ضد اليهود ، أم جريمة غربية متكررة (نمط متكرر) يعبِّر عن نموذج معرفي كامن ، أم أنها مجرد حادثة ؟ ونحن نذهب ـ كما أسلفنا ـ إلى أن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية ، وفلاسفة العرْقية الحديثة ، هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمتها في اللحظة النازية . ومن ثم ، فإن الإبادة النازية تعبِّر عن شيء حقيقي أصيل لا في التشكيل الحضاري الألماني وحده وإنما في الحضارة الغربية ، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث .

إن جوهر الفكر النازي ، متمثلاً في كتابات أدولف هتلر (وغيره من المفكرين النازيين)، لا يختلف كثيراً عن فكر سير آرثر بلفور صاحب الوعد المشهور (وغيره من الساسة والمفكرين الاستعماريين) . فكلٌّ من هتلر وبلفور يدور داخل الإطار الإمبريالي العرْقي المبني على الإيمان بالتفاوت بين الأعراق، وعلى حل مشاكل أوربا عن طريق تصديرها . وكلاهما يؤمن بفكرة الشعب العضوي ، وكلاهما يرى في اليهود عنصراً غير مرغوب فيه ويؤكد ، من ثم ، ضرورة وضع حل نهائي للمسألة اليهودية في أوربا . وكلاهما لا يلتزم بأية منظومة أخلاقية سوى منظومة المنفعة المادية ومنظومة الصراع الداروينية . وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل (ترانسفير) اليهود خارج إنجلترا وأوربا إلى فلسطين .

وقد حاول هتلر ، في بداية الأمر ، أن يحل مسألته اليهودية بشكل نهائي أيضاً ، بالطرق الاستعمارية السلمية البلفورية التقليدية ، أي التخلص من الفائض البشري

اليهودي عن طريق تصديره (ترانسفير) إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا . وكان هتلر يدرك أن الترانسفير (تفريغ الأراضي من سكانها ونقلهم) هو جزء من المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل . فقد أشار (في أغسطس ١٩٤٠) إلى أنه تم إفراغ بروسيا الشرقية من سكانها الألمان بعد الحرب العالمية الأولى ، وتساءل عن وجه الضرر في نقل ٦٠٠ ألف يهودي من أراضي الرايخ (وكان هناك مشروع نازي ترانسفيري أكبر وهو نقل ٣١ مليون « غير ألماني» من شرق أوربا ، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العرب على أنهم «الجماعات غير اليهودية») .

وداخل هذا التصور الترانسفيري البلفوري الغربي تحرَّك هتلر لتنفيذ خطته :

١ ـ قام هتلر بشحن عشرة آلاف يهودي وأرسلهم عبر الحدود إلى بولندا في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، ولكن الحدود البولندية كانت موصدة دونهم (فبولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية) .

٢ ـ استمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهود حتى نهاية الحكم النازي. فبُذلت المحاولة تلو الأخرى لتوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين . وكان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى «مشروع مدغشقر» يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية . ولكن معظم هذه المشروعات فشلت ولم تُطرح بدائل أخرى ، فالمجال الاستعماري الحيوي لألمانيا ، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، كان محدوداً .

٣ ـ لم تكن الدول الغربية (التي تتباكى حتى الآن على ضحايا الإبادة) ترحب هي الأخرى بالمهاجرين اليهود أو غيرهم (بسبب حالة الكساد الاقتصادي) .

وكان هتلر يسمي خطة الترانسفير هذه « الحل الشامل » و« الحل النهائي » ولكن هذا الحل النهائي البلفوري لم يكن متاحاً لهتلر ، ولذا لم يكن أمامه سوى استبعاد اليهود بطريقة غير بلفورية ، وتتميَّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسوقية . ومع هذا يميل كثير من العلماء إلى القول بأن «الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية» ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية ، أي حل نهائي من خلال الترانسفير ، أو التهجير القسري إما إلى المستعمرات في آسيا وأفريقيا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا ، التي لم تكن الأوضاع فيها تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات .

وإذا كان فكر هتلر هو نتاج لحضارة الغرب ، خصوصاً في القرن التاسع عشر ، والتي تدور داخل الإطار العرْقي العلماني الإمبريالي الداروينى ، فلابد أن تكون هناك نقط اتفاق بين هذا الفكر والفكر الصهيوني الذي هو أيضاً نتاج المعطيات الفكرية نفسها . وبالفعل ، نجد أن الفكر الصهيوني يتحدث عن اليهود باعتبارهم عناصر بكتيرية . والواقع أن تعبير البكتريا المجازي (وهو تعبير دارويني لا علاقة له بقيم « بالية » مثل المحبة والمساواة والعدل) يستخدمه كل من هتلر ونوردو وهرتزل ، الذين يتحدثون عن اليهود باعتبارهم شعباً عضويًا منبوذاً (قارن هذا بكلمات بوبر حيث يتحدث عن اليهود بوصفهم شعباً آسيويًا طُرد من آسيا ولكنها لم تُطرد منه ، أي أن آسيا تجري في دمه) . كما أن الصهيونية ترى ضرورة إخلاء أوربا من اليهود ، ولعل الخلاف الوحيد هو أن الصهاينة يفضلون الطريقة البلفورية على الطريقة الهتلرية .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة :

بعد أن درسنا الإبادة كإمكانية كامنة داخل الحضارة الغربية الحديثة وداخل المجتمع الألماني الحديث ، وبعد أن درسنا العناصر الحضارية التي ساعدت على تَحقُّق الإمكانية ، بوسعنا أن ندرس العناصر السياسية والاجتماعية الألمانية العامة والعناصر الألمانية اليهودية الخاصة ، التي ساهمت بدورها في تحقيق الإمكانية الإبادية . وقد يكون من المنطقي أن نبدأ بتناول أهم العناصر التاريخية في القرن العشرين وأثرها على ألمانيا ، أي عملية التحديث أو تحول المجتمع الغربي من النمط التقليدي إلى ما يُسمَّى «النمط العقلاني (المادي) أو الرشيد» في الإنتاج والإدارة ، والذي يخضع لعمليات الترشيد .

ونحن لا نشير عادةً إلى التحديث إلا عندما نتناول العالم الثالث ، وذلك بسبب وضوح هذه العملية فيه ، وبسبب كونها عملية مازالنا نعيشها في وقتنا الحاضر . لكن عملية التحديث هي المدخل الأساسي لفهم كثير من الظواهر في العالم الغربي منذ القرن الرابع عشر ، برغم أنها تأخذ أشكالاً أكثر تركيباً وتقدماً هناك .

ولعل من أهم الحقائق التي تسم عملية التحديث أو التصنيع في ألمانيا ، أنها بدأت في وقت متأخر قليلاً بالنسبة لغرب أوربا . فالجهود الرامية لتحديث ألمانيا ظلت متعثرة ولم تحرز تقدماً إلا في سبعينيات القرن الماضي بعد الحرب البروسية الفرنسية نظراً لعدم وجود سلطة مركزية . ولكن الوضع تغيَّر بعد أن أحرزت بروسيا انتصارها الساحق على فرنسا ، وبعد أن ضمت الألزاس واللورين ، إذ قامت بتوحيد ألمانيا ، ثم حققت عملية التحديث

من خلال قفزات هائلة في فترة وجيزة نسبياً ، بحيث أصبحت ألمانيا من كبريات الدول الصناعية لا يفوقها سوى إنجلترا ، بل إنها تفوقت على إنجلترا ذاتها في بعض الجوانب .

وعادةً ما يؤدي التحديث السريع إلى اضطرابات اجتماعية ، لأنه لا يتيح الفرصة أمام أعضاء كثير من الجماعات والأقليات الإثنية والدينية للتأقلم مع الوضع الجديد ، بحيث يمكنهم إعادة تحديد ولائهم وإعادة صياغة هويتهم بما يتفق مع متطلبات الولاء للدولة القومية الحديثة . وقد ظهر هذا الوضع ، أول ما ظهر ، حينما سعت الدولة الألمانية الجديدة ، ذات التوجه البروتستانتي الواضح أو ذات الديباجات البروتستانتية ، إلى وضع كل النشاطات الاقتصادية والثقافية تحت سيطرتها ، وهذا أمر أساسي في عملية الترشيد . وعلى سبيل المثال ، حاولت الدولة الجديدة السيطرة على النظام التعليمي بأكمله ، ومن ثم ، تدخلت في عملية تعيين (وفصل) المدرسين في المدارس الكاثوليكية حتى يمتثلوا لأوامرها هي ولا يخضعوا لسلطان الكنيسة ، وحتى تتحول الأقلية الكاثوليكية من جماعة شبه ألمانية لها سماتها الخاصة يتوزع ولاؤها بين القيم الدينية المطلقة والقيم القومية العضوية إلى جماعة ألمانية خالصة تدين بالولاء للدولة وحدها . وقد أدَّى هذا إلى صدام بين الدولة والكتلة الكاثوليكية الضخمة ، وأُطلق على هذا الصدام مصطلح «كولتوركامبف Kulturkampf» أي «الكفاح الثقافي» (وقد وقف أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب الدولة ضد أعضاء الجماعة الكاثوليكية) .

وأدَّى التحديث السريع إلى اقتلاع أعداد كبيرة من الجماهير الريفية من مجتمعاتهم المترابطة (جماينشافت) والإلقاء بهم في المدن الضخمة التي تسود فيها العلاقات التعاقدية (جيسليشافت) . وتزايدت درجة الاغتراب بين أعضاء الطبقة الوسطى وغيرها من الطبقات ، حيث تغيَّر أسلوب حياتهم نتيجةً لازدياد حجم المدن بسرعة مذهلة وظهور مؤسسات قومية رأسمالية ضخمة لم يألفوها . وفي مثل هذه الظروف ، يبحث أعضاء المجتمع في العادة عن عقيدة متكاملة تجيب عن أسئلتهم وتمنحهم الطمأنينة التي يفتقدونها في المجتمع الجديد وتحميهم من وحشية وتائر التغير السريع . وحيث إن العقائد الشمولية تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه ، فقد وجدت تربة خصبة في ألمانيا . (ويقف هذا الوضع على الطرف النقيض من التحديث التدريجي البطيء في غرب أوربا الذي سمح بترسيخ قيم الفردية والليبرالية ثم بهيمنة البورجوازية في نهاية الأمر على المجتمع ككل بمختلف أعضائه ومؤسساته) .

وتم التحديث في ألمانيا تحت ظروف خاصة ، (التحديث المتأخر الذى تزامن مع توحيد

ألمانيا) وقد نجح بسمارك في استغلالها ببراعة فائقة ، حيث اكتشف أن العناصر الثورية في الطبقة الوسطى والبورجوازية تبنت قضية توحيد ألمانيا وربطت بينها وبين قضية القضاء على القوى التقليدية والمحافظة في المجتمع والتي كان من صالحها أن تُبقي على وضع التجزئة . لكن بسمارك توصل إلى صيغة عقائدية تسمح بفصل الهدف الأول عن الثاني ، كما تسمح باستغلال قضية الوحدة في تصفية العناصر الليبرالية والثورية مثلما يحدث في العالم الثالث في (الوقت الحاضر) حين تُطرح قضايا قومية يُقال لها «مصيرية» بهدف التحكم في الجبهة الداخلية ولتصفية أية جيوب معارضة باسم الإجماع القومي (« في تلك اللحظة المصيرية من تاريخ الأمة ») . وانطلاقاً من هذا ، تبنت القوى والطبقات المحافظة والأرستقراطية ، بقيادة بسمارك ، قضية توحيد ألمانيا وضرورة قيام سلطة مركزية ، بعد أن أصبحت موضع إجماع قومي ، ثم أنجزت هذا الهدف التاريخي في نهاية الأمر . ولذا ، كان بوسع هذه القوى أن تبرم هدنة بينها وبين البورجوازية بحيث تحتفظ هي بالقيادة السياسية لألمانيا على أن تستفيد البورجوازية من النتائج الاقتصادية لعملية التوحيد ، أي أن عملية التحديث في ألمانيا تمت تحت مظلة القوى التقليدية المحافظة مثلما كان الحال ، وإن تباينت صورته ، في دول شرق أوربا . ومن ثم ، ظهر مجتمع حديث يُدار بشكل حديث من قِبَل طبقة تقليدية ذات مُثُل تسلطية شمولية ، وهذا مغاير تماماً لنمط التحديث في كلٍّ من فرنسا وإنجلترا .

ومن الحقائق الأساسية التي كثيراً ما نغفل عنها ، أن التحديث في العالم الغربي ، خاصةً في أوربا الغربية ، ارتبط ارتباطاً كاملاً وعضويًا بالمشروع الاستعماري الغربي . ولا تمكن رؤية عملية التحديث (والتراكم الرأسمالي المرتبط به) ، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وبلجيكا وأمثالها ، خارج إطار التوسع الاستعماري وتحويل شعوب آسيا وأفريقيا إلى ما يشبه الطبقة العاملة (مصدر فائض القيمة) بالنسبة إلى شعوب الغرب (ولذا فنحن نفضل الحديث عن «التراكم الإمبريالي») . ومما لا شك فيه ، أن التوسع الاستعماري يُساهم في التخفيف من حدة كثير من المشاكل الناجمة عن التحديث مثل الأزمات الاقتصادية والانفجارات السكانية ، وذلك عن طريق تصديرها إلى المستعمرات . ولكن ألمانيا لم يكن لها مشروع استعماري مستقل نظراً لانقسامها ، وقد مرت عليها مرحلة الاستعمار المركنتالي (التجاري) في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما مرت عليها مرحلة الاستعمار في إطار المنافسة الحرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم تدخل ألمانيا الحلبة الاستعمارية إلا في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية بعد أن كانت إنجلترا وفرنسا (ومن قبلهما إسبانيا والبرتغال) قد التهمتا معظم أنحاء

العالم . وبطبيعة الحال ، سعت ألمانيا ، بعد أن تسارعت وتيرة التحديث داخلها ، إلى بسط نفوذها على بعض مناطق العالم ، فأنشأت علاقات وثيقة مع الدولة العثمانية وحلّت محل بريطانيا وفرنسا كحليفة كبرى ، كما احتلت بعض المناطق في أفريقيا بل وفي أوربا ذاتها . وقد تحطم المشروع الاستعماري لألمانيا تماماً في الحرب العالمية الأولى ، إذ اقتسم الحلفاء (المنتصرون) مستعمراتها فيما بينهم ولم يعد لها مجال استعماري حيوي تقوم بتصدير مشاكلها إليه .

ويمكن القول بأن معاهدة فرساي لم تحطم المشروع الاستعماري الألماني وحسب ، بل حطمت المشروع التحديثي الألماني ، وحولت ألمانيا نفسها إلى ما يشبه المستعمرة . وقد مُنعت ألمانيا من الاتحاد مع النمسا ، مع أن ذلك كان مطلباً للشعبين الألماني والنمساوي كليهما . كما تم استقطاع أجزاء كبيرة منها ضُمت إلى كلٍّ من الدنمارك وبولندا وفرنسا وبلجيكا وليتوانيا . ووُضعت منطقة السار ، الغنية بالفحم ، تحت إشراف عصبة الأمم لمدة خمسة عشر عاماً أُديرت مناجمها أثنائها عن طريق فرنسا . وعلاوة على هذا ، تم تحديد حجم الجيش الألماني الذي سُلِّم كميات هائلة من الزاد والعتاد الحربي للحلفاء ، وخُفضت كمية الذخيرة المسموح بإنتاجها ، وخُفضت قوة السلاح البحري ولم يُسمح بوجود قوات جوية بتاتاً ، كما فُرضت غرامة مالية كبيرة على ألمانيا . وفضلاً عن ذلك ، تقرر أن تحتل قوات الحلفاء الضفة اليسرى للراين لمدة خمسة عشر عاماً للتأكد من تنفيذ شروط المعاهدة . وألغى الحلفاء المنتصرون المعاهدات التجارية المبرمة بين ألمانيا والدول الأخرى ، وصُودرت الودائع المالية الألمانية في الخارج ، وأُنقص حجم البحرية التجارية الألمانية إلى عُشر حجمها . وكل هذه الإجراءات تذكر المرء بما حدث لمحمد علي ، صاحب أول تجربة تحديث في الشرق العربي ، والذي هدَّد ظهوره الخطط الغربية للاستيلاء على تركة الدولة العثمانية ، رجل أوربا المريض . وفي نهاية الأمر ، كان على ألمانيا أن تدفع غرامة عينية قدرها ٢٠ مليار مارك ذهبي ، على أن تدفع جزءاً منها فوراً وجزءاً منها بعد حين . وتم تحديد الغرامة في نهاية الأمر ، في أبريل ١٩٢١ ، بمقدار ١٣٢ مليار مارك ذهبي . وبرغم معارضة جميع الأحزاب الألمانية لتلك الشروط ، اضطرت جمهورية وايمار في النهاية إلى أن ترضخ . وكما هو الحال في مثل هذه المواقف ، حينما تُجْرح الكبرياء الوطنية لشعب ما ، ذاع بين الألمان الاعتقاد بأن ألمانيا لم تُهزم وإنما طعنها الثوريون والليبراليون واليهود من الخلف .

وأدَّى الوضع المذكور إلى تدهور سعر المارك من ٤,٢٠ مارك للدولار في عام ١٩١٤ إلى ١٦٢ ماركاً للدولار ، ثم إلى سبعة آلاف مارك عام ١٩٢٢ . وقد احتلت فرنسا

منطقة الروهر عام ١٩٢٣ بحجة فشل ألمانيا في إرسال شحنة من الخشب على سبيل التعويض العيني ، ثم قامت القوات الفرنسية والبلجيكية بإلقاء القبض على العمال الألمان الذين رفضوا العمل في المناجم ، وفُرض حصار اقتصادي تم بمقتضاه فصل منطقة الروهر وكذلك وادي الراين المحتلين عن ألمانيا ، الأمر الذي كان يشكل ضربة اقتصادية هائلة لألمانيا ، خصوصاً بعد أن تم استقطاع منطقة سيلزيا العليا الغنية بالفحم . وبناءً على ذلك ، هبط المارك إلى ١٦٠ ألفاً للدولار في عام ١٩٢٣ ثم إلى ٤,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ في نوفمبر ١٩٢٣ . ولأن جمهورية وايمار لم تضع أية قيود على حرية رأس المال ، فقد استفاد كثير من الرأسماليين (ومنهم أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية) من هذا الوضع ، وحققوا أرباحاً هائلة وراكموا الثروات في وقت كانت فيه معظم طبقات الشعب الألماني تعاني من الفقر والهوان .

وبذلت حكومة ألمانيا قصارى جهدها لإصلاح هذا الوضع . وبالفعل ، تم تحديد ديون ألمانيا وطريقة دفعها ، وبدأت قوات الحلفاء في الانسحاب مع أوائل الثلاثينيات ، ثم عقدت الجمهورية بعض القروض لاستثمارها في الاقتصاد الألماني حتى ظهرت بعض علامات التحسن والاستقرار . ولكن هذا الاستقرار كان يعتمد بالدرجة الأولى على القروض الخارجية ، ومن ثم، أدَّت أزمة الرأسمالية العالمية عام ١٩٢٩ وانهيار البورصة في نيويورك إلى انهيار الوضع في ألمانيا ، فوصل عدد العاطلين فيها عن العمل إلى ما يزيد على ستة ملايين (أي نحو ثلث مجموع القوى العاملة في الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٢)، وانخفض الدخل بنسبة ٤٣٪ ، وفقدت الطبقة الوسطى ما تبقى لديها من مدخرات .

هذا هو السياق الاجتماعي والسياسي العام الذي أدَّى إلى احتدام التناقضات والثورات داخل المجتمع الألماني والذي أدَّى في نهاية الأمر إلى تَفجُّر الوضع الداخلي وظهور الأفكار الشمولية الاستبعادية وإلى ظهور إمبريالية تتجه نحو « الداخل » الأوربي بعد أن حُرمت من « الخارج » الآسيوي والإفريقي « العالمي » . فقد اتجه المشروع الاستعماري الألماني بكل قوته ، حينما استعادها ، نحو الداخل ، أي نحو الشعوب السلافية المجاورة والأقليات المختلفة مثل الغجر واليهود ، حيث اعتبر المناطق التي تعيش فيها مجاله الحيوي ، الذي لابد من تفريغه من تلك العناصر التي لا تنتمي إلى الفولك والتي تعوق تحقيقه لمصلحته وأهدافه .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة :

ولكن إلى جانب هذه الظروف الألمانية العامة ، كانت هناك ظروف خاصة بأعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا ساهمت في تحويل الموقف المتفجر إلى وضع مدمر بالنسبة لهم ولغيرهم من الأقليات ، وهو ما سنتناوله في هذا الجزء .

لم يكن للجماعة اليهودية في ألمانيا وزن عددي يذكر . فمن الناحية الكمية المحضة ، لم يكن أعضاؤها يُشكلون أي تحدٍّ خاص للأغلبية الألمانية الساحقة كما يبيِّن الجدول التالي :

السنة	عدد اليهود	النسبة إلى عدد السكان
١٨٧١	٥١٢,١٥٠	٪١,٢٢
١٨٨٠	٥١٢,٦١٢	٪١,٢٤
١٨٩٠	٥٦٧,٨٨٤	٪١,١٥
١٩٠٠	٥٨٦,٨٣٣	٪١,٠٤
١٩١٠	٦١٥,٠٢١	٪٠,٩٥

ويُلاحَظ من الجدول السابق أن الجماعة اليهودية لم تكن آخذة في التزايد برغم الانفجار السكاني في أوربا في القرن التاسع عشر (زاد عدد يهود شرق أوربا بين عامي ١٨٠٠ و١٩٣٥ بنحو ستة أضعاف) . كما أن نسبة يهود ألمانيا إلى عدد السكان كانت آخذة في التناقص ، وقد تزايد هذا الاتجاه ابتداء من عام ١٩١٠ بسبب التنصُّر والزواج المختلط الذي بلغت نسبته بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧ نحو ٤٤,٥٪ من جملة الزيجات اليهودية .

ولذا ، لم تكن المسألة اليهودية في ألمانيا كامنة في الكم كما كان الوضع (إلى حدٍّ ما) في شرق أوربا ، وإنما في الكيف ، وعلى وجه التحديد في الوضع الوظيفي المتميِّز لأعضاء الجماعة اليهودية الذي تأثر تأثراً عميقاً بعملية التحديث في ألمانيا . فقد كان أعضاء الجماعة ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، يعيشون أساساً في الريف والمدن الصغيرة . ولكن ، مع بدايات القرن التاسع عشر وظهور الاقتصاد الجديد ، هاجرت أعداد هائلة منهم إلى المدن الكبرى . ومع نهاية القرن ، كانت أغلبيتهم تقيم في المدن الكبرى مثل براسلاو وليبزج وكولونيا ، بالإضافة إلى هامبورج وفرانكفورت ، وكانت برلين تضم ثُلث يهود ألمانيا .

وأدَّى تركُّز يهود ألمانيا في المدن إلى وضوح تمايزهم الوظيفي والمهني ، وهي ظاهرة موغلة في القدم في دول وسط أوربا ، خصوصاً في ألمانيا . فلقد كان أعضاء الجماعة اليهودية في الإمارات الألمانية يُشكلون ، في العصور الوسطى، جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بدور التاجر والصيرفي والمرابي ، ثم تم طردهم من عدة مدن وإمارات ألمانية ، فهاجروا منها إلى مدن وإمارات ألمانية أخرى . ولكن ، مع حلول القرن السادس عشر ، سُمح لليهود بالاستقرار في كثير من المدن والإمارات التي كانوا قد طُردوا منها ، وتم استقدامهم كعنصر تجاري نشط لديه رأس المال اللازم والاتصالات الدوليةَ . وكان يهود المارانو (الذين طُردوا من شبه جزيرة أيبريا) من أهم هذه العناصر . وعادةً ما كان يتم استقدام اليهود ، سواء في العصور الوسطى أو في القرن السادس عشر ، بأمر من الإمبراطور أو الأمير أو الملك أو النخبة الحاكمة . فكان أعضاء الجماعات اليهودية يتبعون النخبة الحاكمه (أو أحد أعضائها) بشكل مباشر ويُشكلون مصدر دخل كبير لها . فكان المولون اليهود يقومون باعتصار الجماهير من خلال الفوائد الضخمة التي يُحصِّلونها على قروضهم . ولكن النخبة الحاكمة كانت تستولى على نسبة ضخمة من الأرباح في نهاية الأمر عن طريق الضرائب التي تفرضها على أعضاء الجماعات اليهودية . وفي القرن السادس عشر ظهرت مهنة يهودي البلاط الذي يدير الخزانة الملكية ويعقد الصفقات والقروض بالنيابة عن الأمراء ويمول الحروب ويدير الاتصالات التجارية اللازمة ، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا كانوا مرتبطين بالحاكم ملتصقين به ومتميِّزين طبقيّاً ومهنيًا عن بقية أفراد الشعب ، وهو وضع ازداد تبلوراً في القرن التاسع عشر ، كما يبيِّن الجدول التالي الخاص بتوزيع أعضاء الجماعة اليهودية في المهن والحرف المختلفة :

المهنة أو الحرفة	١٨٩٥	١٩٠٣
الزراعة	١,٤٪	١,٣٪
الصناعة	١٩,٣٪	٢٢,٣٪
التجارة والنقل	٥٦,٠٪	٥٠,٦٪
عمال أجراء	٠,٤٪	٠,٦٪
مهن حرة	٦,١٪	٦,٥٪
أعمال حرة	١٦,٧٪	١٩,٠٪

وكان وجود بعض أعضاء الجماعة اليهودية كوسطاء أمراً واضحاً للغاية ، فقد تركزوا على صناعة الأثاث والملابس الجاهزة وارتبطوا بالصيرفة والمحال التجارية ، الأمر الذي

حولهم إلى شخصيات مكروهة من الطبقة الوسطى ، خصوصاً في ظروف الأزمة . واتضح كذلك وجود اليهود في مهنة الإقراض وتحصيل ريع الملكيات الزراعية (بالنيابة عن أصحاب الأملاك) ، كما عملوا تجار مواش ، الأمر الذي جعلهم مكروهين من الفلاحين . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كان عدد يهود ألمانيا لا يزيد على ١٪ وكان يهود برلين يُشكلون ٥٪ من سكانها، ومع هذا كانوا يُشكلون النسب التالية في بعض القطاعات الاقتصادية في برلين :

النسبة	القطاع الاقتصادي
٧٠٪	من مجموع أصحاب الحوانيت
٣٠٪	من مجموع تجار الملابس
٢٥٪	في تجارة الأثاث
١٧٪	من مجموع العاملين في المصارف
١٠٪	من الأطباء
١٦٪	من المحامين

ومن الإحصاءات الأخرى ذات الدلالة أن يهود برلين الذين كانوا يشكلون ـ كما أسلفنا ـ ٥٪ من سكانها كانوا يدفعون ٣٠٪ من جملة الضرائب ، وكان يهود فرانكفورت الذين يشكلون ٧٪ من سكانها يدفعون ٢٨٪ من ضرائبها ، كما بلغت نسبة أصحاب الأعمال ومديري البنوك من اليهود في برلين ٥٥,١٥٪ في عام ١٨٨٢ ، ثم هبطت إلى ٣٢,٦٪ في عام ١٩٢٥ (وهي أيضاً نسبة عالية) . وتقول **الموسوعة اليهودية العالمية** إن الهبوط في النسبة المئوية لم يصاحبه هبوط في النفوذ ، إذ كان اليهود ، في بعض السنوات ، يُديرون أهم ثلاثة بنوك تتحكم في ٦٠٪ من نسبة الإقراض في بعض السنوات ، وكانوا يديرون نحو ثلاثة أرباع القروض الأجنبية التي مُنحت لألمانيا من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩ . كما سيطر اليهود على ٥٧,٣٢٪ من صناعة المعادن في عام ١٩٣٠ . وهكذا ، ارتبط اليهود في العقل الألماني بالمشروع الحر والمضاربات والسياسات الليبرالية . ومن جهة أخرى ، كان والتر راتناو (وزير التعمير ثم وزير الخزانة في حكومة وايمار) يهوديًا ، كما كان واضع دستور هذه الجمهورية (التي استمرت فترة قصيرة) يهوديًا أيضاً .

وكانت هذه الجمهورية ترمز في العقل الألماني لليبرالية المتخاذلة المتهالكة أمام هجوم أعداء ألمانيا . ومن قبيل المفارقات أن أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالمثل الليبرالية في

وقت كان فيه المجتمع الألماني (ككل) يتخلى ، بعد تَعثُّر التحديث ، عن هذه المُثُل ليبحث عن طرق أخرى شمولية لحل مشاكله . ولعل في هذا الارتباط الوثيق بين الرأسمالية الألمانية ويهود ألمانيا ما يُفسِّر النقد الاشتراكي الثوري العنيف لليهود باعتبارهم ممثلين للرأسمالية ، ولليهودية باعتبارها دين الاقتصاد الجديد . ولعل هذا يُفسِّر أيضاً السبب في أن ماركس يَقرن اليهودية بروح التجارة ويُوحِّد بينهما ، ويرى أن إله إسرائيل الطماع هو المال . وهذا التراث الاشتراكي في نقد الشخصية اليهودية نابع من تربة ألمانية أساساً ، حيث كان اليهود ممثلين بشكل واضح في الطبقات الرأسمالية . ولا ينطبق هذا ، بأية حال، على شرق أوربا حيث تحوَّلت البورجوازية الصغيرة والجماعات اليهودية إلى بروليتاريا تعاني من ويلات الفقر .

وبرغم هذا الربط بين الجماعات اليهودية والرأسمالية في ألمانيا ، فقد انضم عدد كبير من المثقفين اليهود إلى الحركات الثورية فيها ، وكان ارتباطهم بها على المستوى الفردي واضحاً وضوح الارتباط الجماعي لليهود بالرأسمالية . فكان رئيس حكومة بافاريا الثورية (البلشفية) يهوديًا ، وكان كثير من قيادات الحركة الثورية المتطرفة (مثل روزا لوكسمبرج) من اليهود ، وكان هناك شبح ماركس يرفرف على الجميع . ثم اتضح عام ١٩١٧ الوجود اليهودي الملحوظ في الثورة البلشفية (التي كان يُطلق عليها في بعض الأوساط «الثورة اليهودية») .

وهكذا ، ارتبط اليهودي بالصناعة والاستغلال والمشروع الحر ، وكذلك بالثورة الاشتراكية المتطرفة والحركات الثورية ، أي أن اليهودي أصبح رمزاً جيداً لهذا المجتمع الحديث (جيسيلشافت) المبني على التعاقد والتنافس ، والذي قوض دعائم المجتمع الألماني المترابط (جماينشافت) ، وأصبح بؤرة تتجمع فيها مخاوف الطبقة الوسطى التي كانت آخذة في التدهور الاجتماعي والطبقي بسبب التضخم والبطالة . بل أصبح رمزاً لكل تلك القوى ، من اليمين واليسار ، التي أودت بألمانيا وفرضت عليها أن تذعن للحلفاء .

وحينما استأنفت ألمانيا عملية التحديث بعد الحرب ، تمت هذه العملية بقروض أجنبية وتحت رعاية الدولة ، أي أن النمط الاقتصادي السائد في ألمانيا لم يكن فيه مجال للرأسمال الحر تماماً ولا للنمط الاشتراكي الجمعي . وارتطمت الدولة النازية بكل من الرأسمال الحر الذي ارتبط به اليهود واليسار المتطرف الذي وُجد فيه اليهود بشكل ملحوظ .

وساهمت العوامل السابقة جميعاً ، بشكلٍ أو بآخر ، في عزل أعضاء الجماعة

اليهودية عن بقية التشكيل السياسي الحضاري الألماني . ولكن العنصرين التاليين كانا حاسمين في فصلهما عن سواد الشعب الألماني ، وفي تهميشهما تماماً . والعنصرين هما :

١ ـ العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني :

تعود العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وتُعتبر امتداداً لظاهرة يهود البلاط ولارتباط أعضاء الجماعة بالحاكم . (وتُعَدُّ عائلة روتشيلد مثلاً جيداً على ذلك ، حيث كانت آخر أسرة من أسر يهود البلاط وهي أيضاً أول أسرة يهودية ثرية تتولى مشاريع الاستيطان الصهيوني) .

والجدير بالذكر أن وضع اليهود تحسن كثيراً في منتصف القرن التاسع عشر مع توحيد ألمانيا ، فقد كان ثلاثة من أهم مستشاري بسمارك من اليهود . ويُقال إن اليهودي المتنصر فريدريك ستاهل هو مُنظِّر الدعوة إلى العسكرية البروسية . والواقع أن بسمارك كان يفكر ، حسب تقاليد النخبة الحاكمة الألمانية ، في استخدام اليهود دائماً في مشاريعه . ويظهر ذلك الاتجاه بشكل أوضح في تفكير إمبراطور ألمانيا (ويلهلم الثاني) الذي كان يرى إمكان استخدام اليهود في مشروعه الاستعماري ، كما كان واعياً بقدرات اليهود المالية وحجم اتصالاتهم الدولية . وكانت مفاوضات هرتزل ، مع إمبراطور ألمانيا ، تدور داخل هذا الإطار وتنطلق من هذا التفاهم الضمني . وفي الوقت نفسه ، كانت المنظمة الصهيونية في ألمانيا لا تكف عن الحديث عن نفع اليهود وإمكان استخدامهم في المشاريع الاستعمارية الألمانية ، وتوطينهم في فلسطين أو في غيرها تحت راية الاستعمار الألماني . وقامت جمعية الغوث الألمانية اليهودية بالمساهمة في النشاط الاستطاني الصهيوني باسم الاستعمار الألماني ، كما كان يُنظَر إلى العنصر اليهودي من شرق أوربا (المتحدث باليديشية) باعتباره عنصراً ألمانيًا ، يمكن تسخيره في صالح المشروع الألماني الاستيطاني .

وكما هو معروف ، صدر وعد بلفور الذي ينطوي ، بشكل ضمني ، على إمكان تحويل اليهود إلى عناصر تدين بالولاء للاستعمار الإنجليزي . ورغم هذا ، استمرت رئاسة المنظمة الصهيونية الموجودة آنذاك في ألمانيا في التقرب إلى النظام الحاكم ، واستمرت في بذل المحاولات لاستصدار وعد بلفوري ألماني . ولكن هذه الجهود لم تُثمر ، بسبب علاقة ألمانيا الخاصة بالدولة العثمانية ورفض الخليفة العثماني الموافقة على المشروع الصهيوني حتى ولو تم في إطار المشروع الاستعماري الألماني . ومع هذا ، أصدرت الحكومة الألمانية (بعد صدور وعد بلفور) تصريحاً مبهماً يشبه وعد بلفور من بعض الوجوه ، تَعد فيه بمساعدة المشروع الصهيوني على أمل أن تجند يهود العالم لصالحها وتكسبهم إلى صفها . وقد جاء هذا التصريح متأخراً ، ولم يؤد في النهاية إلى شيء يُذكر . ولكن ما يهمنا في هذا السياق هو أن التعامل مع اليهود (باعتبارهم جزءاً من

المشروع الاستعماري الألماني) يُعتبَر (في جوهره) تهميشاً لهم من منظور المشروع القومي الألماني ، فهو يعطيهم حقوقاً للاستيطان في فلسطين ، كما يمنحهم الحق في التمتع برعاية الحكومة الألمانية " خارج " ألمانيا ، الأمر الذي يعني ضمناً إنكار حقوقهم " داخلها " . فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو الإطار الذي يتم من خلاله تصدير الفائض البشري غير المرغوب فيه إلى الشرق . ولكن القيادة الصهيونية ، بقبولها هذا الإطار ، رضيت بالتعريف الضمني الكامن لليهود كعنصر غريب غير منتمٍ يجب أن يتم تصديره عن طريق التهجير . وهذا ، على كل حال ، هو التعريف الصهيوني (الواضح) لليهود .

٢ ـ تهميش اليهود من خلال هجرة يهود شرق أوربا :

تسبَّبت الهجرة الكثيفة ليهود اليديشية في أعقاب تعثر التحديث في شرق أوربا في تهميش اليهود وفصلهم عن التشكيل القومي الألماني العضوي . ومن الجدير بالذكر أن الهجرة اليهودية الحديثة اتسمت بأنها هجرة داخلية في أوربا (أي من بلد أوربي إلى آخر) حتى عام ١٨٨٠ . ولم تبدأ الهجرة عبر الأطلنطي بشكل مكثف إلا بعد ذلك التاريخ . وقد هاجر ، في المرحلة الأولى بصفة خاصة ، مئات الألوف ، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى إنجلترا وتسببوا في استصدار وعد بلفور لتحويل سيل الهجرة عنها ، كما وصلت أعداد لا بأس بها إلى ألمانيا .

ومما زاد الأمور سوءاً أن ألمانيا قامت ، في نهاية القرن الثامن عشر ، بضم بولندا التي كانت تضم يهوداً من المتحدثين باليديشية (أوست يودين ، أي يهود شرق أوربا) ، وهو ما كان يعني أن يهاجر هؤلاء إلى المدن الألمانية الكبرى . وبالفعل ، انتقل معظم يهود بوزنان إلى ألمانيا ، وكذا أعداد كبيرة من يهود جاليشيا . ولا شك في أن ظهور هذه الكتلة الضخمة من يهود شرق أوربا ذوي الطابع الجيتوي المنغلق ، والذين لا يوجد لديهم (كغرباء مُقتَلعين) التزام قوي بالمعايير الأخلاقية المحلية أو بالقيم الغربية ، كما يفتقرون إلى الكفاءات المطلوبة في التعامل مع أوربا الحديثة والاقتصاد الجديد ، كان يمثل تهديداً للموقع الطبقي لليهود ولمكانتهم الاجتماعية . وقد شهدت سنوات العشرينيات من هذا القرن هجرة يهودية ضخمة من بولندا بسبب الأزمة الاقتصادية . وقد أشرنا من قبل إلى النسبة المرتفعة من الزيجات المختلطة بين يهود ألمانيا ، ويمكن أن نضيف هنا أننا نعتقد أن النسبة كانت عالية للغاية بين اليهود من أصل ألماني ، ولكن الإحصاءات لا تذكر سوى المتوسط العام دون أن تُفرِّق بين يهود شرق أوربا المقيمين في ألمانيا واليهود من أصل ألماني . وبوجه عام كان يهود ألمانيا يختفون ، بينما كان يهود الشرق يحلون محلهم ، أي أن الطابع العام للجماعة اليهودية كان آخذاً في التغير وفي اكتساب طابع غير ألماني (كانت نسبة اليهود الأجانب بين يهود ألمانيا هي ٧,٢٪ عام ١٨٨٠ ، ارتفعت إلى ١٢,٨٪ عام ١٩١٠ ، ولا شك فى أنها استمرت في التزايد بعد هذا التاريخ) .

وتحوَّلت ألمانيا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى مركز للثقافة العبرية نتيجةً لهرب عديد من الكتاب اليهود من روسيا ، فتم تأسيس دار نشر عبرية ، كما أسست الحركة الصهيونية كثيراً من المدارس لتعليم العبرية . (وهو اتجاه أيده النازيون فيما بعد ودعموه لأنهم كانوا يرون ضرورة عبرنة اليهود باعتبارهم شعباً عضويًا مستقلاً عن الشعب العضوي الألماني . ولنا أن نلاحظ أن الدولة النازية سبقت الدولة الصهيونية في تبني كثير من مشارع العبرنة) . وكان من شأن هذا كله أن أصبح العنصر اليهودي مرة أخرى عنصراً عضويًا متماسكاً غريباً يقف خارج المجتمع أو على هامشه . ولذا ، كان أحد المطالب الأساسية لأعداء اليهود وقف الهجرة من شرق أوربا لأنها تأتي بالغرباء . وكانت حقوق اليهود الأجانب مثار نقاش حتى في عهد جمهورية وايمار الليبرالي ، ولهذا نجد بعض الألمان ، ممن لا يمكن اتهامهم بمعادة اليهود ، يطالبون بعدم السماح ليهود الشرق بامتلاك عقارات باعتبارهم أجانب لا باعتبارهم يهوداً .

بل لقد طرحت القضية نفسها داخل المنظمات اليهودية ذاتها : هل يُمنح اليهود الأجانب ، الذين كانوا يشكلون أحياناً الأغلبية في بعض المجتمعات ، حق التصويت في الانتخابات ؟ وبالفعل ، قرر كثير من هذه التجمعات السماح ليهود الشرق بالانضمام إليها بدون ممارسة حق التصويت . ولعل تأسيس جمعية الغوث كان يهدف إلى إبعاد يهود الشرق عن ألمانيا حتى لا يتأثر وضع اليهود داخلها ، كما هو الحال مع جمعيات الغوث الأخرى (التوطينية) التي أنشأها أثرياء اليهود في الغرب (أمثال هيرش وروتشيلد) .

وظهرت في هذه المرحلة جمعيات يهودية ، مثل : التنظيم المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جمعية يهودية تدعو إلى الاندماج) ، وجمعية غوث يهود ألمانيا (وهي جمعية خيرية قامت بنشاط استيطاني في فلسطين كما أشرنا) ، وغير ذلك من جمعيات دينية وثقافية . وتم تأسيس اتحاد عام لهذه الجمعيات في أواخر العشرينيات . ولكن الأمر الذي يجدر ذكره ، من وجهة نظر هذه الدراسة ، هو تأسيس فرع للمنظمة الصهيونية في ألمانيا (بل وأصبح المقر الرئيسي داخل ألمانيا منذ عام ١٩٠٤) . وترأس فرع ألمانيا رجل ألماني متزوج من يهودية من شرق أوربا (كورت بلومنفلد) طرح شعارات قومية عضوية كانت تسبب الكثير من الحرج لأعضاء الجماعة الذين كانوا يحاولون الاندماج . وتُوِّجت جهوده باستصدار قرار بوزنان الصهيوني عام ١٩١٢ الذي جعل من الهجرة إلى فلسطين هدفاً أساسيًا لكل يهودي . وظل الصهاينة ، ومعظمهم من أصل شرق أوربي ، يتقبلون مختلف المنطلقات القومية العضوية . فدافع مارتن بوبر عن علاقة التربة بالدم ،

كما دافع عن أن اليهود شعب آسيوي أساساً . وتحدث ناحوم جولدمان عن اليهود كعنصر هدام في كل المجتمعات لأنهم غرباء ، وتحدث جيكوب كلاتسكين عن ازدواج الولاء عند اليهود ، وتحدث حاييم وايزمان عن اليهود باعتبارهم عنصراً فائضاً يقف في حلق الأمة الألمانية ، وهي شعارات تعود كلها لتيودور هرتزل وماكس نوردو اللذين وضعا أساس الصهيونية الألمانية . وأشاعت هذه الدعاية صورة سلبية للغاية عن أعضاء الجماعة اليهودية وعن عدم إمكان دمجهم في الشعب العضوي الألماني . وفي هذا المناخ ، ظهر هتلر وظهرت النازية . وأثناء محاكمات نورمبرج ، أصر الزعماء النازيون ، الواحد تلو الآخر ، على أنهم تعلموا ما تعلموه عن المسألة اليهودية من أدبيات الصهاينة .

ورغم هذا الجو الهستيري الصهيوني النازي ، ظلت الجماعة اليهودية رافضة للمنطق الصهيوني واستمرت في مقاومة المنطق النازي . ومع وصول هتلر للحكم ، استولى الصهاينة على قيادة الجماعة اليهودية وطرحوا برنامجاً عام ١٩٣٣ لإعادة صياغة الجماعة اليهودية في ألمانيا وتعليم اليهود ما يتفق مع التقاليد الصهيونية ، وذلك عن طريق مزج القومية بالدين بهدف تهجيرهم خارج ألمانيا .

وقد وَصفت جمعية التنظيم المركزي للمواطنين الألمان هذا الموقف من قبل الصهاينة بأنه طعنة في الخلف . أما النازيون ، فوافقوا على الطرح الصهيوني للقضية وَقدَّموا التأييد والدعم للأنشطة والمؤسسات الصهيونية .

وكانت كل هذه الأسباب النابعة من الملابسات التاريخية والسياسية والحضارية العامة (أي المرتبطة بالمجتمع الألماني ككل) ، والخاصة (أي المرتبطة بالجماعة اليهودية على وجه التحديد) ، هي التي أدَّت إلى ارتطامهم بالنظام النازي وإلى إبادة أعداد كبيرة منهم (بالمعنيين العام والخاص اللذين نطرحهما ، أي الإبادة من خلال التجويع والسخرة والتهجير والإبادة من خلال الإبادة الجسدية) .

الفصل الثاني

بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا

تَصدُر كل عام عشرات الكتب والدراسات التي تتناول قضية الإبادة النازية ليهود أوربا. ولا شك في أن كثيراً من هذه الدراسات لها طابع دعائي ومضمون صهيوني. ولكن هناك أيضاً الكثير من الدراسات التي تحاول أن تفهم هذه الظاهرة، وأن تُعرِّف أسبابها وتفسرها وتطرح بعض الأسئلة وتُثير بعض الإشكاليات التي تتجاوز الحدث ذاته وترقى إلى مستوى حضاري ومعرفي عام. وسنحاول في هذا الفصل تناول بعض هذه الإشكاليات.

إشكالية انفصال القيمة والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا :

رغم هيمنة الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة على الإنسان الغربي (بجانبيها النفعي المادي الحيادي الأداتي والدارويني الصراعي الإمبريالي)، ورغم حوسلتها للعالم وتحويلها المنفعة المادية والقوة إلى قيمة مطلقة متجاوزة للخير والشر، إلا أن هناك من لا يتقبل هذه الرؤية ولا يذعن لها ويثير قضايا مهمة ذات طابع أخلاقي وإنساني، من أهمها قضية تطبيق المعايير العلمية المنفصلة عن القيمة وعن الغائية الإنسانية وتطبيق المنظومة الأخلاقية الداروينية النفعية المادية على الإنسان والمجتمع الإنساني. فقد أسس النازيون منظومتهم ـ كما أسلفنا ـ استناداً إلى مفاهيم علمية أو شبه علمية مثل النظرية الداروينية (وما يترتب عليها من مفاهيم مثل التفاوت بين الأعراق والمجال الحيوي والشعب العضوي)، كما تبنوا الرؤية العلمية المتجردة تماماً من القيمة ومن الغائيات الإنسانية باعتبار أن العلم وما يتولد عنه من قوانين وقيم مادية هو القيمة الحاكمة الكبرى والمرجعية النهائية للإنسان. وقد حقق النازيون نجاحاً منقطع النظير في هذا المضمار فركزوا على محاولة التحكم الكامل في كل العناصر البشرية الخاضعة لهم وتطبيق الحسابات الرشيدة المحايدة التي تهدف إلى تعظيم الإنتاج والأرباح وتقليل الاستهلاك والخسائر. ومن ثم

يمكن القول بأن الإبادة النازية لليهود وغيرهم هي التحقق الكامل للرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة التي تم من خلالها حوسلة كل شيء بطريقة علمية محايدة رشيدة حديثة. ويتبدَّى هذا في عدة أوجه سنوجزها فيما يلي:

١ ـ كان النظام النازي بمثابة يوتوبيا تكنولوجية تكنوقراطية حقة تم تنظيمها تنظيماً هرميًا، ففي قاعدته تقف جماهير الشعب العضوي المتماسك تعلوه نخبة من العلماء والساسة، يدورون جميعاً في إطار واحد هو الدولة القومية التي تَجُبّ مصالحها كل المصالح. وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر: التَجسُّد المادي والمحسوس للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) الذي تركزت فيه جميع القوى الحيوية الكامنة في النسق، وهو القادر على تحريكها، وهو القادر على حسم كل الاختيارات السياسية والاجتماعية والأخلاقية، تساعده النخبة العلمية والسياسية الحاكمة.

هذا الهرم الدارويني المنظم تنظيماً دقيقاً تحرك بشكل محايد ليدافع عن مصلحته، كما يراها هو، وعن منفعته، كما حددها هو، أو كما حددتها النخبة الحاكمة من علماء وساسة! وكانت حركة الهرم النازي تتسم بالحياد الصارم، والتجرد المذهل من القيم والعواطف والغائيات الإنسانية. وكانت واحدة من أهم مؤسسات الإبادة تُدعَى «مؤسسة تدعيم القومية الألمانية»، وقد أُسِّست عام ١٩٣٩ لتوظيف العناصر الألمانية غير المرغوب فيها. وكان هملر (الذي أُسندت له مهمة إدارة هذه المؤسسة القومية) يرى أنها تجسد قيمة قومية عضوية مطلقة، فهي تخدم المصالح العليا المطلقة لألمانيا، وكان رجاله يؤدون واجبهم بأمانة وإخلاص شديدين لوطنهم.

٢ ـ أدار هملر مؤسسته بطريقة حديثة للغاية تبدت في كيفية استخدامه لليهود من خلال واحد من أهم أسس الإدارة الحديثة فيما يُسمَّى «الإدارة الذاتية»، إذ كوَّن، انطلاقاً من الرؤية الداروينية النفعية، نخبة من اليهود نواتها الأساسية أعضاء المجالس اليهودية والموظفون الملحقون بها، تدور حولها قطاعات أخرى مثل العمال اليهود في مصانع الذخيرة، وبعض الشخصيات اليهودية العامة، وتم وصفهم جميعاً بأنهم «يهود يتمتعون بالحماية من الترحيل» نظراً لنفعهم. (وهو امتداد للتقسيم الغربي القديم لليهود والذي ظل سائداً منذ العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر، وإن كان قد اكتسب عمقاً خاصاً فى القرن الثامن عشر وعصر الاستنارة مع ظهور مبدأ المنفعة). وقد أصبح هؤلاء أداة ذات كفاءة عالية في يد الإدارة النازية وتعاونوا معها تماماً.

٣ ـ وكانت عمليات السخرة والإبادة حديثة رشيدة بمعنى الكلمة يتم إنجازها من خلال

إجراءات محايدة . فعلى سبيل المثال ، استُخدم خط التجميع (بالإنجليزية : أسمبلي لاين assembley line) في عملية فرز المساجين (والمعروف أن خط التجميع استُخدم في الأصل في المذبح [السلخانة] في شيكاغو ، حيث رأى أحد مؤسسي علم الإدارة الحَديثة أنه يمكن توفير الوقت والجهد بأن تُعلَّق جثث الحيوانات الواحدة تلو الأخرى على سير متحرك أمام الجزارين ، لكي يقومون بتنظيفها وإعدادها) . وقد طُبِّق نفس الأسلوب على المساجين ، فكانوا يقفون صفاً واحداً ويُعطَى كل واحد منهم رقم ، ثم يتم فرزهم ، وهي طريقة أكثر كفاءة من التصنيف على أساس الأسماء . والملاحَظ أن عملية التوحيد والتنميط ، مثلها مثل المركزية ، تُعدُّ خطوة أساسية في عملية الترشيد ويتطلبها النموذج الآلي المادي ، إذ لا تمكن التعامل مع كل المعطيات بكفاءة عالية إن كانت غير متجانسة . فإن اختلفت العناصر أو الوحدات ، الواحدة عن الأخرى ، أدَّى هذا إلى بطء دولاب العمل . والنموذج الآلي المادي الهندسي يفترض تَشابُه جميع العناصر حتى يمكن معالجتها ماديًا وآليًا وهندسيًا . وقد طبَّق أيخمان هذه الآلية على نطاق واسع ، خصوصاً في حالة ترحيل يهود المجر . ويُقال إنه لم يكن من الممكن إنجاز مهمة الترحيل هذه إلا من خلال خط التجميع .

٤ ـ كانت آليات السخرة والإبادة كلها تتسم بتعظيم الإنتاج والمنفعة . ومن أطرف الآليات وأجداها اقتصاديًا وأقلها إيلاماً وأكثرها شيوعاً إرسال اليهود إلى معسكرات العمل بالسخرة لتزويد الشركات الألمانية بالعمالة الرخيصة ، وهو ما أفاد الاقتصاد الوطني الألماني فحقق تقدماً هائلاً لا يمكن للمراقب الموضوعي المحايد المتجرد من كل التحيزات الغائية والأخلاقية إلا أن يقر به . فكان يتم فرز المساجين بعناية شديدة ، حيث يُوجَّه القادرون على العمل إلى أعمال السخرة ، ومن ثم لا يُبدَّد شيء . وكان المعتقلون يعملون لساعات طويلة ، ويعيشون دون حد الكفاف الأمر الذي جعل من الممكن تحقيق أرباح هائلة وإنتاجية منقطعة النظير .

٥ ـ يبدو أن النازيين استفادوا بواحدة من أهم التجارب الحضارية الغربية ، وهي التجربة الإمبريالية ، إذ أُرسل اليهود أحياناً إلى جيتوات ، أسسها النازيون خصيصاً ، وكانت تأخذ شكل مناطق « قومية » مستقلة لها مجالسها التي تحكمها ونظامها المصرفي المستقل وعملتها الخاصة ونظامها التعليمي الخاص ، أي أن كلاً منها كانت جيتو/ دولة أو دولة/ جيتو تدخل في علاقة تبادل كولونيالية مع الدولة النازية . فكانت الجيتوات تزود الدولة النازية بالعمالة والخدمات وبعض السلع نظير أن تزودها الدولة النازية بالغذاء والملابس . ولكن علاقة التبادل كانت غير متكافئة لصالح الدولة النازية بحيث تكون الخدمات والعمالة الخارجة من الجيتو أكبر من قيمة ما يحصل عليه سكان الجيتو من المواد

الغذائية التي كانت دائماً أقل من أن تفي باحتياجات العاملين اليهود ، أي أن العلاقة كانت تؤدي إلى انتقال فائض القيمة إلى النازيين وإلى إبادة العاملين واستهلاكهم كأداة إنتاج سريعة . ولذا يمكن القول بأن العلاقة بين الجيتو والدولة النازية كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الولايات المتحدة ببعض الدول العربية وغير العربية التي تسيطر عليها .

٦ ـ لم يتخل النازيون قط عن رشدهم وحداثتهم وحيادهم ، فكان يتم تقرير من يجب إبادته ، ومن يجب الإبقاء عليه وتسخيره بعد دراسة عملية موضوعية ، متمعنة ودقيقة . فقد قُسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى يهود نافعين ومن ثم لا يمكن نقلهم ، ويهود غير نافعين ومن ثم يمكن نقلهم والتخلص منهم . ولم تكن ظروف الحرب تعوق الألمان عن التحلي بالموضوعية الكاملة . فعلى سبيل المثال ، حينما وصلت القوات الألمانية إلى شبه جزيرة القرم ووجدت فيها بعض اليهود القرائين ، بيَّن لهم هؤلاء أنهم ليسوا يهوداً بالمعنى العام والسائد ، وأنهم لا علاقة لهم باليهود من أتباع اليهودية الحاخامية ولا يتسمون بما يتسم به اليهود عموماً من طفيلية (كما تزعم أدبيات العداء لليهود في العالم الغربي) . وأرجأ النازيون تنفيذ عملية الإبادة والتهجير ، وأرسلوا بأحد الضباط إلى برلين ليدرس القضية بشكل موضوعي رغم ظروف الحرب . وبالفعل توصَّل هذا الضابط/ الباحث إلى أن القرائين لا يتسمون بالسيكولوجية أو الطبيعة اليهودية ، وأخذ النازيون بتقريره ، ولذا لم يُطبَّق على اليهود القرائين قرار الإبادة . بل قرر النازيون ، انطلاقاً من الرؤية النفعية البرجماتية المرنة ، تجنيد بعض العناصر القادرة من بين اليهود القرائين في القوات النازية .

وانطلاقاً من الرؤية النفعية المرنة نفسها طوَّر النازيون مقياساً محدداً لتعريف من هو الآري ، ولكنه كان مقياساً مرناً منفتحاً ، ولذا كان الشخص السلافي ، الذي يتسم بقدر كاف من الصفات العرْقية البيولوجية الألمانية (من بينها الطول ولون العيون) ، يُعاد تصنيفه «آرياً» ثم يُلحق ببرنامج خاص للأرينة (أي التحويل للآرية) ليتعلم الألمانية والسلوك الألماني الأصيل . وكانت هناك مؤسسة خاصة تُسمَّى Ru SHA المكتب الرئيسي للعرْق والتوطين ، كانت مهمتها تحديد الصفات الآرية وإمكانية الألمنة . (وانطلاقاً من الرؤية البرجماتية نفسها صُنِّف اليابانيون ، حلفاء الألمان ، «آريون شرفيون» رغم انتمائهم للجنس الأصفر !) .

وفي مؤتمر فانسي (الذي عُقد في ٢٠ يناير ١٩٤٢) أبدى المجتمعون اهتماماً شديداً بتصنيف الضحايا تصنيفاً دقيقاً إذ قُسِّموا إلى أربعة أقسام : فكان القسم الأول يضم من

ستتم إبادته على الفور ، أما القسم الثاني فكان يضم من ستتم إبادته (إنهاكه) من خلال الجوع والعمل بالسخرة . ويضم القسمان الثالث والرابع من يُعقم ومن يمكن أن يؤلمن (على التوالي) . وقد قام النازيون بالتمييز بين الإبادة من خلال الجوع والإبادة من خلال العمل ، ففي عام ١٩٤٢ وجد الجيش الألماني أن المنهج الثاني من الإبادة أكثر رشداً من الأول فقام بتبنيه .

٧ ـ كان النازيون حريصين كل الحرص على استخدام مصطلح علمي محايد لا يحمل أية دلالات عاطفية غير علمية ، فإحدى مؤسسات الإبادة كانت تحمل اسم تي فور T4 ، وهو اسم يصلح لأية شركة تجارية أو سياحية أو حتى أي دواء مقو ، وهو منسوب إلى الشارع الذي تقع فيه المؤسسة وإلى رقم المبنى (تيرجارتن شتراسه رقم ٤ Tiergarten 4 Strasse ، أي ٤ شارع حديقة الحيوان) . ومن أسماء المؤسسات الأخرى «جمعية نقل المرضى» أو «المؤسسة الخيرية للعناية المؤسسية» .

وكان يُشار إلى عملية الإبادة بالمصطلح نفسه ، فيتم أولاً «الإخلاء» ، يليه «النقل» (الترانسفير) ثم «إعادة التوطين» ، وأخيراً «الحل النهائي» . (ويستخدم الصهاينة الخطاب نفسه ، فهم يستخدمون كلمة مثل «ترانسفير» للإبعاد . وحينما فر الفلسطينيون من قراهم عام ١٩٤٨ خوفاً من الإرهاب الصهيوني ، وصف وايزمان هذا الفرار بأنه عملية «تنظيف») . وتحييد المصطلح مسألة أساسية في التفكير النازي ، فعملية تسييس العمال وترشيد حياتهم ، أي السيطرة عليهم وعلى حياتهم الخاصة أُطلق عليها اسم «القوة من خلال المرح» ، وكان مكتوباً على معسكر أوشفتس «العمل سيحقق لك الحرية» . وكما أسلفنا ، فقد جرى الحديث عن إبادة المعوقين وغيرهم باعتبارها نوعاً من «الصحة العرْقية» ومن «علاج الأمراض الوراثية الخطيرة» ، وكانت إبادة المجرمين والمتخلفين تُوصف بأنها «تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم» ، وأفران الغاز هي «أدشاش» ، والعملية كلها هي عملية «تطهير» لا أكثر ولا أقل . ويُلاحَظ أن كل المصطلحات لا تذكر أية إبادة (بالمعنى العام أو الخاص الذي نطرحه) ، ولذا فهي تجعل عملية إبادة البشر تبدو وكأنها مسألة مجردة وبعيدة ، ومن ثم مقبولة تماماً .

٨ ـ كانت عملية تحييد المصطلح بداية عملية تحييد كامل للإدراك ، فالمصطلح المحايد للغاية يقترب من المصطلح العلمي الدقيق المنفصل عن القيمة ، إذ لا توجد فيه عواطف أو إراقة دماء ، وهو يحاول أن يصف الظاهرة من الخارج باعتبارها مجرد موضوع ، دون أن يعطيها أي معنى إنساني داخلي أو أية قيمة خاصة ، بحيث ينظر الموظف النازي أو الألماني

إلى الضحية وكأنه ينظر إلى موضوع وحسب ؛ حركة مادية خارجية ومادة استعمالية خام خاضعة للإجراءات . وكان يتم تدريب المشرفين على عمليات الإبادة المختلفة على التحلي بالبرود والتجرد للحفاظ على الحياد وكفاءة الأداء . فلم يكن مسموحاً للجنود الألمان بإساءة معاملة الضحايا حتى وهم في طريقهم إلى أفران الغاز ، لأن هذا يعني شكلاً من أشكال الانفعال والانغماس العاطفي الذي يتنافى مع الحياد العلمي ، والتجرد من العواطف والتحيزات والقيم أمر أساسي ومطلوب .

وعند اكتشاف أي انحراف عن الخط المحايد ، كانت القيادة النازية تعاقب المنحرفين . وقد وُجه اللوم إلى أحد الضباط لأنه كان يحيط أسر الضحايا علماً بإعدام أقاربهم على كارت بوستال مفتوح بدلاً من ظرف مغلق ! ويبدو أن الدكتور راشر ، العالم النازي ، تجاوز هو الآخر الخطوط المحايدة (!) حتى أنه أغضب هملر الذي أمر بإعدامه هو وزوجته قبل نهاية الحرب بقليل . كما أُعدم قائد معسكر بوخنوالد وزوجته (عاهرة بوخنوالد) التي كانت مغرمة بصنع الشمعدانات ومنافض السجائر من أشلاء البشر ، الأمر الذي يتجاوز حدود المعقولية والحياد والحوسلة . وقد أوضح المواطن النازي جوزيف كرامر أنه سمَّم ثمانين امرأة بالغاز أثناء خدمته في أوشفتس . وحينما سُئل عن مشاعره ، صرح ببرود أنه لم تكن لديه أية مشاعر على الإطلاق ، وقال للقضاة : « لقد تلقيت أمراً بقتل ثمانين من النزلاء بالطريقة التي قلتها لكم . وبالمناسبة هذا هو الأسلوب الذي تدربت عليه » ، فهو يرى نفسه باعتباره «موظفاً فنيّاً» وحسب ، ملتزماً بالترشيد الإجرائي ولا يصدع مخه بالقيم الأخلاقية أو بالمطلقات (فهذه مجرد ميتافيزيقا !) .

وحينما صدر قانون التعقيم والذي شمل الحالات المتطرفة لإدمان الكحول ، حاول البعض استصدار استثناء للمحاربين القدامى ممن أدمنوا الكحول نتيجة إصابات في المخ لحقت بهم أثناء الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . ولكن الحياد العلمي لا يعرف أي استثناءات ولذا رُفض الطلب ، « لأنه لو أُعفي هؤلاء لتم إعفاء المحاربين القدامي الذين أصيبوا في شجار في الشارع ، ثم المصابين نتيجة للعمل في المصانع » ، الأمر الذي يتناقض مع النموذج العقلاني المادي والنمطية التي يتطلبها الموقف العلمي الصارم .

٩ ـ تبدّى الموقف الحيادي الدارويني في موقف النازيين من العلم ، وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسانية ، في واحد من أهم المفاهيم الطبية (العلمية المحايدة) في القرن التاسع عشر ، وهو مفهوم «الصحة العرْقية» ، الذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقائه (فهما سر تفوقه ورقيه) عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة (التي تُعدُّ تعبيراً عن انهيار العرْق وانحطاطه) ؛ وثمة

كتابات عديدة بجميع اللغات الأوربية في هذا الموضوع . ومن أهم المفاهيم المرتبطة بالصحة العرْقية مفهوم اليوثينيجيا euthenesia أو ما يُسمَّى «القتل الرحيم» (وإن كان من الأفضل تسميته «القتل العلمي» أو «القتل المحايد» أو «القتل الأداتي» أو «القتل الموضوعي») ، أي التخلص من المعوقين وغيرهم (مثل المرضى بأمراض مزمنة) عن طريق التصفية الجسدية . وقد يبدو هذا المفهوم لنا مخيفاً ، ولكن في إطار الرؤية المادية الشاملة المحضة ، وفي داخل إطار دارويني نيتشوي ، يصبح الأمر منطقيّا ومتسقاً مع نفسه (ولذا ، نجد كاتباً مثل برنارد شو أو هـ . جـ . ويلز يدافع عن مثل هذا المفهوم) .

وقد أصدرت النخبة النازية عدة قوانين لضمان الصحة العرْقية ، فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة :

* المستهلكون الذين ليس لهم نفع اقتصادي : مثل المعتوهين والمتخلفين عقليّا والمصابين بالشيزوفرنيا والأطفال المعوقين والأفراد المتقدمين في السن والمصابين بالسل والمرض الميئوس من شفائهم بل . ولكن يضم لهؤلاء أحيانا الجنود الألمان الذين أصيبوا أثناء العمليات العسكرية ، فعلاجهم كان يشكل عبئا على ميزانية الدولة .

* المنحلون : وهم الشيوعيون والشواذ جنسيّا وعدد كبير من أعداء المجتمع الذين يتسمون بالسلوك غير الاجتماعي (مدمنو الكحول والعاهرات والمجرمون ومدمنو المخدرات ومن لا مأوى لهم) والغجر .

* أعضاء الأجناس الدنيا : مثل السلاف والغجر واليهود والأقزام فهم غرباء داخل الفولك الألماني ولا يوجد مبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى ، خاصة وأن بعضهم ، مثل البولنديين ، يشغلون المجال الحيوى لألمانيا .

وفي ١٤ يوليه ١٩٣٣ (في اليوم التالي لتوقيع المعاهدة مع الفاتيكان) ، أصدر النازيون قانوناً يُسمَّى «قانون التعقيم» لمنع بعض القطاعات البشرية (المعوقين ـ المرضى النفسيين ـ المرضى بالصرع ـ العمى الوراثي ـ الصمم الوراثي ـ التشوه الخلقي ـ الإدمان المتطرف للكحول) من التكاثر . وبالفعل ، تم تعقيم أربعمائة ألف مواطن ألماني . وفي عام ١٩٣٥ ، صدر قانون بمنع العلاقات الجنسية بين اليهود وأعضاء الأعراق غير الراقية من جهة والألمان من جهة أخرى ، وذلك للحفاظ على النقاء العرْقي . وأُعلن عام ١٩٣٩ عاماً يراعي فيه المواطن واجب التمتع بصحة جيدة وطُلب من كل طبيب أو داية أن تُبلغ عن أي مولود جديد مُعوَّق . وبدأت عملية القتل الموضوعي (أو العلمي أو المحايد)

لهؤلاء الذين لا يمكن شفاؤهم مثل المعوقين وغيرهم (مشروع تي فور T4) . وظهرت وثائق تبين أن سبعين ألف معوق وعاجز ممن يأكلون ولا ينتجون قد قُتلوا (حرفياً : «آكلون غير نافعين» أي «أفراد يأكلون ولا ينتجون» [بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters]) يُشكِّلون عبئاً على الاقتصاد الوطني ويعوقون التقدم . وقد تمت إبادتهم بمقتضى برنامج «تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم » (أي برنامج إبادة المجرمين والمتخلفين وربما المسنين) . وأدَّى ذلك إلى توفير ٠٢٠ , ٠٦٧ , ٢٣٩ كيلو جراماً من المربى في العام (كما جاء في إحدى الدراسات العلمية الألمانية الرصينة وإن كان هناك دراسات لا تقل رصانة تصل بالرغم إلى أعلى من ذلك بكثير) . وأُنشئت لجنة للعلاج العلمي للأمراض الوراثية الخطيرة أوصت بقتل الأطفال المشوهين . وكان هؤلاء وغيرهم يُرسلون إلى مستشفيات . فكانوا يوضعون في عنابر خاصة ثم يتم الإجهاز عليهم عن طريق أفران غاز مخبأة على هيئة أدشاش ، ومحارق لحرق الجثث . وقد طُبِّق المعيار نفسه ، بعض الوقت ، على الجنود الألمان الجرحى في الحرب ، إذ أن عملية علاجهم كانت ستُكلف الدولة الكثير . ثم طُبِّقت عمليات الإبادة هذه بصورة أوسع على أسرى الحرب .

وقد صُنِّف اليهود باعتبارهم مرضى ، وذلك نظراً لعدم نقائهم العرقي . ومن ثم أصبح من الضروري إبادتهم ، شأنهم شأن العناصر الألمانية غير النافعة . ومن جهة أخرى ، تم توسيع نطاق برنامج القتل المحايد أو العلمي ليضم المجرمين كافة ، يهوداً وغير يهود . وكان اليهود يُعتبرون أيضاً ذوي استعداد إجرامي طبيعي بسبب اختلاط خصائصهم الوراثية . ولذا ، طُبِّق البرنامج على اليهود الموجودين في المستشفيات جميعاً .

١٠ ـ ومن أهم تجليات الحياد العلمي ذات العائد المرتفع التي اتسمت بها الإبادة ، تلك التجارب العلمية التي كان النازيون يجرونها على خنازير التجارب البشرية وهي تجارب منفصلة تماماً عن أية منظومات قيمية . فكان النازيون يختارون بعض العناصر التي لها أهمية تجريبية خاصة لإجراء التجارب عليها . وكان هذا يتم بسهولة ويسر وسلاسة ؛ لأن البشر تحولوا إلى موضوع أو مادة محايدة في عقول القائمين على هذه التجارب . فعلى سبيل المثال ، كان طبيب بوخنوالد (الدكتور هانس إيسيل) يقوم بعمليات استئصال دون تخدير ليدرس أثرها . وأُجريت تجارب أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال لا تقل رهبة عن تجارب إيسيل . وكان بعضهم يُطلق عليه الرصاص لاختبار فعاليته في الحرب ، وعُرِّض آخرون لغازات سامة في عمليات اختبارية . وكان البعض يوضعون في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان خلالها أن يظل حيًا وهو على ارتفاعات

عالية أو بدون أوكسجين . وكان الأوكسجين يُقلل تدريجيًا ويخفض الضغط ، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلاماً لا يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم . كما كان الضغط الداخلي على أغشية طبلات الآذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون .

وكان الدكتور راشر ، وهو عالم نازي آخر ، شموليًا في أبحاثه إلى درجة عالية ، فقام بتزويد غرف الضغط في النهاية بمبردات تجبر عيناته على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية . وكان راشر مسئولاً أيضاً عن الكثير من تجارب التجميد التي يتعرض فيها الأشخاص إلى البرد الشديد المستمر حتى الموت . وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم ، وبقائهم أحياء ، وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الذين يسقطون في مياه متجمدة . وكان بعض نزلاء داخاو ضمن ضحايا راشر أو ضمن خنازير تجاربه (إن أردنا التزام الدقة والحياد العلميين) . فكان يتم غمر الضحايا/ الخنازير في وعاء ضخم أو كانوا يُتركون عُراة في الخارج طوال الليالي الثلجية . وفي أواخر شتاء عام ١٩٤٣ ، حدثت موجة برد شديدة ، فتُرك بعض السجناء عراة في الخلاء أربع عشرة ساعة ، تجمدت خلالها أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضت درجة حرارتهم الداخلية . وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجيًا مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك .

وكانت هناك تجارب أخرى من بينها تدفئة أشخاص مثلجين . وبناءً على تقرير راشر ، أُجريت أكثر من أربعمائة تجربة على ثلاثمائة ضحية . وقد مات من هؤلاء زهاء تسعين شخصاً نتيجةً لمعالجتهم ، وجُنَّ عددٌ ممن بقي . أما الآخرون ، فقد قُتلوا لكيلا يتحولوا إلى شهود مزعجين فيما بعد . وقد توصل راشر إلى حقائق علمية جديدة تتحدى كثيراً من المقولات العلمية السائدة في عصره . وأُجريت بالطبع تجارب لا حصر لها على نزلاء أحياء في معسكرات الاعتقال ، من بينها الحقن بالسم أو بالهواء أو البكتريا ، معظمها مؤلم وكلها قاتلة ، كما أُجريت تجارب زرع الغرغرينا في الجروح وترقيع العظام وتجارب التعقيم .

وفي الإطار التجريبي نفسه كان يتم اختيار التوائم وإرسالهم إلى الطبيب النازي الشهير الدكتور منجل لإجراء تجارب علمية فريدة عليهم ، لا يمكن للعلماء الآخرين القيام بها نظراً لعدم توفر العينات اللازمة . فكان يفصل التوأمين ويضعهما في غرفتين منفصلتين ، ثم يعذب أحدهما أحياناً ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر ، بل وكان يقتل أحدهما لدراسة أثر هذه العملية على الآخر . وكما قال بريموليفي إن ألمانيا النازية

هي المكان الوحيد الذي كان بوسع العلماء أن يدرسوا فيه جثتي توأمين قُتلا في لحظة واحدة . ويُقال إن دراسات منجل على التوائم لا تزال أهم الدراسات في هذا المجال، ولا تزال الجامعات الألمانية والأمريكية تستفيد من النتائج التي توصل إليها الباحثون العلميون الألمان في ظروف فريدة لم تُتح لعلماء غيرهم من قبل ومن بعد . وقد أُثيرت مؤخراً قضية مدى أخلاقية الاستفادة من معلومات تم الحصول عليها في مثل هذه الظروف التجريبية الجهنمية ، وبهذه الطريقة الموضوعية الشيطانية .

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا وقد اختار د . برجر ، التابع لإدارة الإس . إس . عدداً من العينات البشرية (٧٩ يهودياً ـ بولنديان ـ ٤ آسيويين ـ ٣٠ يهودية) تم إرسالهم لمعسكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ الدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقية في تكوين مجموعة كاملة وممثلة من الهياكل العظمية اليهودية (كما كان مهتماً بدراسة أثر الغازات الخانقة على الإنسان) . أما الدكتور برجر نفسه فكان مهتماً بالآسيويين وجماجمهم ، وكان يحاول أن يكوِّن مجموعته الخاصة .

ويبدو أن عملية جمع الجماجم هذه وتصنيفها لم تكن نتيجة تخطيط محكم، وإنما نتيجة عفوية للرؤية النفعية المادية المتجردة من القيمة . إذ ورد إلى علم البروفسور هاليروفوردن أنباء عن إبادة بعض العناصر البشرية " التي لا تستحق الحياة " ، فقال للموظف المسئول بشكل تلقائي : " إن كنتم ستقتلون كل هؤلاء ، فلماذا لا تعطوننا أمخاخهم حتى يمكن استخدامها ؟ " ، فسأله : كم تريد ؟ فأجاب : عدد لا يحصى ، كلما زاد العدد كان أفضل . ويقول البروفسور المذكور إنه أعطاهم بعد ذلك الأحماض اللازمة والقوارير الخاصة بحفظ الأمخاخ . وكم كانت فرحة البروفسور حينما وجد أمخاخ معوقين عقليين (في غاية الجمال ، على حد قوله) و« أمخاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولة أو تشوهات خلقية » . وقد لاحظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ ، ونتيجة هذا تم الحصول على مواد مهمة تلقي الضوء على أمراض المخ .

ومن أطرف الأمثلة الموضوعية قضية البروفسور النازي كلاوس الذي اكتشف البعض أنه يعيش مع سكرتيرته اليهودية ، وفي "دفاعه" عن نفسه قال إنه يواجه مشكلة في دراسته لليهود وهي أنه لا يمكنه أن يعيش بينهم ولذا كان عليه أن يحصل على «مُخْبر» أو «دليل» (بالإنجليزية : إنفورمانت informant) أو عينة مُمثِّلة يمكنه دراستها عن قرب ، فهي

بالنسبة له لم تكن سوى موضوعاً للدراسة فكان يراقبها " كيف تأكل وكيف تستجيب للناس وكيف تقوم بتركيب الجُمل بطريقة شرقية عربية " [كذا].

ويتضح حياد النازيين وحسهم العملى الفائق، بشكل آخر تماما. فقد كانوا على إستعداد لأن يطوِّعوا النظرية العرْقية ذاتها لمتطلبات الواقع. فاليابانيون (أعضاء الجنس الأصغر، حسب الرؤية النازية)أُعيد تصنيفهم « آريين شرقيين» ، بسبب عمق التحالف بين ألمانيا النازية واليابان ذات النزعه الأمبريالية، ولم يكن اليابانيون هم وحدهم الذين خطوا لهذا الشرف، فهنلك « برامج الأرينه » للسلاف ممن كانوا يتسمون بنسبة ٨٠٪ من السمات الآريه. بل وقد بدأت تظهر قرائن على أن آلاف الجنود الألمان كانوا يهوداً أونصف يهود، رغم أن القانون الألمانى فى ظل الحكم النازى كان يمنع، اعتبارا من عام ١٩٣٥، أى شخص ينحدر عن أجداد يهود أن يشغل وظيفة ضابط فى الجيش الألمانى (الديلى تلجراف ديسمبر ١٩٩٦). وكان مكتب الأفراد فى الجيش الألمانى (عام ١٩٤٤، أى قرب نهاية الحرب) على علم بوجود سبع وسبعين ضابطاً من ذوى الرتب العاليه من أصول مختلطه يهودية أو متزوجين من يهوديات. ومع هذا وقع هتلر شهادات تبين أنهم من « ذوى الدم الألمانى » ، أى ينتمون للعرْق الألمانى. ومن بين هؤلاء الفيلد مارشال ابرهارد ميلخ، الذى كان نصف يهودى (حسب التعريف النازى) ومع هذا كان يشغل منصب نائب هرمان جورنج، قائد السلاح الجوى الألمانى، والخلف المختار لهتلر. وقد غض جورنج الطرف عن هذه الحقيقة، بل زوّر المعلومات المتعلقة بوالد نائبه. وتبين الوثائق التى تم كشف النقاب عنها مؤخرا أن القيادة النازية منحت وسام الصليب الفارس، أعلى وسام عسكرى ألمانى، إلى عسكريين سبق أن طُردوا من الخدمة بسبب انحدارهم من أصل يهودى ثم أعيدوا إليها. وتتضح المفارقة فى تلك الزيارة التى قام بها أحد كبار الضباط الألمان لوالده الذى كان قد نقل إلى أحد معسكرات الاعتقال والسخرة. وقد حرص الضابط على إن يرتدى النياشين والأوسمة التى منحت له بسبب مشاركته فى الحملات العسكرية التى شنها النظام النازى، هذا النظام الذى كان يقوم بإبادة أعضاء كثير من الأقليات الاثنية والسينية، ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية.

إن المفارقة هنا تدل على حس عملى عميق مستعد لتجاوز كل الأفكار المسبقة للتعامل بكفاءة مادية بالغة ولتجاوز الميتافزيقا والمطلقات والكليات مع الواقع العملى. وحينما وجد النازيون فرصة للاستفادة من أعضاء الجماعات اليهودية، هذه المادة البشرية الاستعمالية النافعة، لم يترددوا فى تعديل عقائدهم الدينية العرْقية نفسها.

١٢ ـ ولكن إلى جوار المادة البشرية الاستعمالية النافعة التي تُجرى عليها التجارب وتُدرس بعناية وموضوعية وحياد ، كانت هناك المادة التي لا يُرجى منها نفع أو الضارة من منظور النازيين ، وكان أمثال هؤلاء يُبادون ببساطة شديدة من خلال عمليات التصفية الجسدية السريعة ، التي تقوم بها جماعات خاصة أو فرق متنقلة تقف وراء خطوط الجيوش الألمانية (بالألمانية : آينساتس جروبين Einsatzgruppen) . وكانت طريقة الإبادة هذه سريعة وغير مكلفة إذ كانت تُقام مقابر جماعية يُلقى فيها بالضحايا بعد أن يحفروها بأنفسهم . كما كانت الإبادة تتم أحياناً بواسطة سيارات مجهزة بحجرة غاز يتم التخلص فيها من الضحايا دون حاجة إلى نقلهم إلى معسكرات الإبادة . وقد تم التخلص بهذه الطريقة من جرحى الحرب الألمان ممن لا يُرجى لهم شفاء أو ستتكلف عملية تمريضهم الكثير ، كما تمت إبادة أعداد كبيرة من أعضاء النخبة الثقافية البولندية ، والفائض السكاني الروسي .

١٣ ـ وحتى بعد قرار الإبادة (بمعنى التصفية الجسدية) ، كان ديدن النازيين دائماً هو الحوسلة الكاملة وتعظيم الفائدة والحرص الكامل على ممتلكات الدولة وخدمة مصالحها ، ولذا كان يتم تجريد الضحايا من أية مواد نافعة (حتى من الحشوات الذهبية التي في أسنانهم) ، ولا شك في أن هذا ساهم في تحسين ميزان المدفوعات الألماني . وقد أشرنا من قبل إلى استخدام الأمخاخ البشرية ولكن يبدو أن عملية التوظيف كانت أعمق من ذلك بكثير فقد كانت البقايا البشرية (مثل الشعر) تُستخدَم في حشو المراتب ، ويُقال إنها كانت مريحة للغاية وزهيدة الأسعار . ولم يكن الرماد البشري يُستخدَم كشكل من أشكال السماد وحسب ، وإنما كمادة عازلة أيضاً . وكانت العظام البشرية تُطحن وتُستخدم في أغراض صناعية مفيدة مختلفة . بل ويُقال إن بعض الأنواع الفاخرة من الصابون صُنعت من الشحومات البشرية . (ومع هذا ، صدرت مؤخراً دراسات تشكك في هذا) .

كانت الجدوى الاقتصادية لمعسكرات الإبادة إذن عالية للغاية ، كما كان التحكم كاملاً، أي أنها عملية رشيدة بالمعنى الفيبري ، إذ يرى ماكس فيبر أن رشد الحضارة الغربية الحديثة ينصرف إلى الإجراءات وحسب ، ولا ينطبق على الأهداف فهو ترشيد مادي إجرائي أداتي ، منفصل عن القيم والعاطفة ، وأنه لهذا السبب سينتهي بالإنسان إلى "القفص الحديدي" حيث يوجد فنيون بلا قلب ؛ حسيون غير قادرين على الرؤية ، وهذا لا يختلف كثيراً عن معسكرات الاعتقال والإبادة . وقد أشار أحد العلماء الذين درسوا الظاهرة النازية إلى أن العلماء النازيين تبنوا ما سموه موقفاً موضوعياً متجرداً من

الأحكام القيمية ، ولكن هذا الموقف العلمي ذاته جعل كل شيء ممكناً . فقتل المصابين بالأمراض العقلية ، إن كان لازماً للبحث العلمي الموضوعي ، يصبح أمراً مقبولاً وربما مرغوباً فيه .

وتتبلور هذه النقطة في قضية المسئولية الخُلقية للتنفيذيين النازيين ، فهناك من ينطلق من المنظور الترشيدي المادي الإجرائي المنفصل عن القيمة ويذهب إلى أن المواطن النازي الذي اشترك في عمليات الإبادة لم يكن سوى بيروقراطي ، موظف تنفيذي («عبد مأمور» ، كما نقول بالعامية المصرية) ، يؤدي عمله بكفاءة عالية ، ويُنفذ ما يصدر إليه من أوامر تأتيه من عل ، ولا يتساءل عن مضمونها الأخلاقي ويُنفذها حتى لو تنافت مع القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة . فهذا الموظف لا يدين بالولاء الكامل إلا للدولة والوطن ولا يعيش في ازدواجية الدين والدولة أو الأخلاق والدولة ، فالمطلق الوحيد الذي يؤمن به ، شأنه في هذا شأن أي إنسان علماني شامل ، هو الدولة والوطن ، ولذا فعليه أن يذعن لما يصدر له من أوامر تأتيه من هذه الدولة التي تخدم صالح الوطن . وهذا ينطبق على الأوامر النازية الخاصة بالإبادة !

ولكن هناك آخرون ، ممن يؤمنون بالمطلقات الأخلاقية والإنسانية ، يذهبون إلى أن الإنسان الفرد كائن حر مسئول ، ولذا فعليه أن يتحمل المسئولية الأخلاقية الكاملة لما يأتيه من أفعال ، ومن ثم عليه أن يقف ضد عمليات إبادة الضعفاء (من المسنين والمعوقين وأعضاء الأقليات) ، حتى لو كانت عملية الإبادة تخدم " الصالح العام " أي صالح الدولة والوطن ! أي أن الإنسان الفرد يدين بالولاء لمجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة تتجاوز ولاءه للدولة والوطن وكفاءة الأداء في الوظيفة .

وهذه إشكالية فلسفية وأخلاقية وإنسانية عميقة تواجهها المنظومة العلمانية الشاملة ، فهي منظومة فلسفية تنكر الميتافيزيقا والثنائيات والمطلقات وتؤكد نسبية المعرفة وكل القيم الأخلاقية ، وهو ما يعني ، بطبيعة الحال ، غياب المرجعية المتجاوزة (التي تتجاوز الأفراد) وظهور المرجعية المادية الكامنة ، حين يحدد كل إنسان قيمه بنفسه دون العودة إلى أية مطلقات أو ثوابت إنسانية (كما يدعو فكر ما بعد الحداثة) . وإذا كان الألمان ، انطلاقاً من المرجعية المادية الكامنة فيهم ، قد حدَّدوا قيمهم الأخلاقية على أسس نفعية مادية داروينية ، وسلكوا على هذا الأساس ، فكيف يمكننا أن نتجاوز ذاتيتهم الكامنة فيهم ؟ وكيف يمكننا أن نهيب بقيم أخلاقية وإنسانية ، عامة مطلقة ، تقع خارج نطاق مُثُلهم الذاتية ؟ كيف يمكن أن نفعل ذلك إن كنا نحن أنفسنا نؤمن بالنسبية المطلقة ؟ كيف يمكن اختراق المطلق الذاتي ؟ كيف يمكن أن نبيِّن للشعب المختار ، صاحب الحقوق المطلقة ،

المسلح بالمدافع الرشاشة والقنابل النووية ، أن ثمة إنسانية عامة وثمة قيم أخلاقية عامة ، إن كنا نحن أنفسنا نسبيين ، علمانيين شاملين حركيين نرفض الثبات ولا نرى إلا حركة المادة وقوانينها الصماء ؟ يقول البعض ممن يحاول اتخاذ موقف أخلاقي دون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة ، إن الإنسان بوسعه أن يأخذ موقفاً ذاتيًا وجوديًا ، ويرفض إبادة الآخر بإصرار وعناد ، أي أن الإنسان بوسعه أن يتبنى موقفاً أخلاقيًا دون السقوط في الميتافيزيقا ودون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة أو كليات مجردة . ولكن هل يمكن محاكمة الآخر من هذا المنظور إن كان لا يؤمن به؟ ألا يعني هذا أنني أفرض ذاتيتي الأخلاقية الوجودية على ذاتيته الداروينية النفعية المادية ؟

هذه هي الإشكالية التي نبهنا لها ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع والمفكرين الغربيين حينما بدأوا في إطلاق التحذيرات ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، من العلم المنفصل عن القيمة ، وهي إشكالية تثيرها ، وبحدة ، الإبادة النازية لليهود والأطفال والمعوقين والعجزة والغجر ، وكل من لا فائدة له ، من المنظور النازي . والحوار الدائر في الغرب بشأن الإبادة يركز على تفاصيل مثل عدد الضحايا وهل هم يهود فقط أو غيرهم (مما أسميه «لعبة الأرقام») ويهمل قضية إنسانية جوهرية مثل هذه تتجاوز حدود الإبادة النازية لتصل إلى مستوى المجتمع الحديث بأسره ، ومستقبل الإنسان على هذه الأرض .

وقد أثيرت مؤخراً قضية وثيقة الصلة تماماً بقضية انفصال العلم عن القيمة ألا وهي قضية انفصال الإجراءات الديموقراطية عن القيمة . فالديموقراطية هي في واقع الأمر اتفاق على مجموعة من الإجراءات تمكن من خلالها معرفة رأي الأغلبية ، وجوهر هذه الإجراءات كمي ، أي حساب عدد الأصوات المؤيدة والمعارضة ، فإن زادت الأصوات المؤيدة عن الأصوات المعارضة ولو صوتاً واحداً تم تمرير مشروع القانون ، وإن نقصت ولو صوتاً واحداً رُفض المشروع . فالاتفاق هنا اتفاق بشأن الإجراءات وحسب (وقوانين اللعبة ، كما تُسمَّى) ، وليس متصلاً بمضمونها أو اتجاهها ، فهذه أمور تحددها العملية الديموقراطية نفسها ، دون الالتزام بأية قيم أو مرجعيات مسبقة ، أي أن الديموقراطية تدور في إطار النسبية الكاملة ولا تتقيد بأية قيم أخلاقية مطلقة . ومن ثم سُمِّيت الأخلاق الحاكمة للديموقراطية بأنها «أخلاقيات الإجراءات والصيرورة» (بالإنجليزية : إثيكس أوف بروسيس ethics of process) . فالديموقراطية ، شأنها شأن الترشيد الإجرائي ، معقمة من الميتافيزيقا والكليات والمطلقات والثوابت . فكما أن العلم انفصل عن الغائيات والقيم الإنسانية وأصبح مرجعية نفسه ، انفصلت الإجراءات الديموقراطية عن الغائيات والقيم

الإنسانية وأصبحت مرجعية ذاتها ، ولا يمكن محاكمتها من خلال مرجعية متجاوزة لها .

والقضية التي تثيرها النازية هي أن هتلر وصل إلى الحكم من خلال إجراءات ديموقراطية سليمة ، تماماً كما أن المشروع الإمبريالي الغربي قامت به حكومات تم انتخابها بطرق ديموقراطية سليمة . ومن المعروف أن عمليات السخرة والإبادة التي قام بها النظام النازي كانت تحظى بموافقة الأغلبية الساحقة للشعب الألماني . وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث في الولايات المتحدة حينما قامت الحكومة الأمريكية بوضع ألوف المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات اعتقال إبان الحرب العالمية الثانية كإجراء أمني، وقد حظى قرارها العنصرى الإرهابى بموافقة الأغلبية . وتصبح القضية أكثر خطورة حينما تظهر بين جماهير الشعب نزعات عسكرية وإمبريالية تتجاوز طموحات النخبة الحاكمة ، الأمر الذى يضطرها إلى القيام بعمليات عسكرية عدوانية لتحظى برضى الجماهير . ويُلاحَظ أثناء حملات الرئاسة الأمريكية أن حكومة الولايات المتحدة تأخذ مواقف عسكرية متشددة قد لا تضطر لاتخاذها بعد الانتخاب . وتظهر المشكلة بشكل أكثر حدة حينما يرى أحد الشعوب أن قطاع الاتجار في المخدرات هو عصب اقتصادها الوطني ، وتُنتخب حكومة تدافع عن مثل هذه السياسة . ومؤخراً رشحت إحدى نجمات أفلام الإباحية نفسها في انتخابات البرلمان الإيطالي ، وكانت حملتها الانتخابية تتلخص في خلعها لملابسها لإقناع وإغواء الناخبين (وقد نجحت في حملتها وتم انتخابها بالفعل بأغلبية كاسحة) .

والسؤال الآن هو : هل علينا أن نقبل بمثل هذه القرارات (ابتداءً من الإبادة النازية وانتهاءً بقبول المخدرات والإباحية) باعتبار أنها تعبير عن إرادة الشعب وصوت الجماهير طالما أنها اتبعت الإجراءات الديموقراطية السليمة ، أم ينبغي علينا أن نرفض مثل هذه القرارات الديموقراطية ، استناداً إلى مرجعية أخلاقية متجاوزة للإجراءات الديموقراطية ؟ ولكن هل يحق لنا أن نسأل أي سؤال يقع خارج نطاق أخلاقيات الإجراءات والصيرورة ؟ ألا يشكل هذا سقوطاً في الميتافيزيقا والماهوية والمطلقية ؟

توظيف الإبادة :

تتسم المجتمعات الغربية الحديثة بمقدرتها الفائقة على حوسلة كل شيء ، دون أي اعتبار لقداسة أو محرمات ، ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للإبادة . وتبدأ عملية توظيف

الإبادة ـ على يد الصهاينة ـ بمحاولتهم فرض معنى صهيوني ضيق عليها باعتبارها جريمة العصر التي ارتكبها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب . ثم تُعطي واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوربا وتاريخ العالم . ولذا صدرت عشرات الأفلام والدراسات والأعمال الفنية لحفر الإبادة في الذاكرة باعتبارها واقعة حدثت لليهود وحدهم ، لا باعتبارها جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها . وقد دخلت دراسة الهولوكوست عشرات الجامعات والكليات الأمريكية ، وأُقيمت نصب تذكارية للإبادة في واشنطن ونيويورك ولوس أنجلوس وغيرها . وأنشأت الحكومة الأمريكية المجلس الأمريكي للتذكير بالإبادة ، وتم إنشاء متحف تُخلَّد فيه ذكرى الإبادة النازية في واشنطن بجوار المتاحف القومية الأمريكية . وباسم الإبادة ، حاولت المؤسسة الصهيونية التدخل (دون نجاح كبير) في انتخابات الرئاسة في النمسا عام ١٩٨٦ ، واعترضت بشدة (دون نجاح مرة أخرى) على زيارة الرئيس الأمريكي ريجان لمقبرة بتبرج الألمانية التذكارية لمجرد أن بعض المدفونين فيها من رجال قوات الصاعقة النازية .

ومن أهم أشكال توظيف الإبادة لصالح الصهيونية هو استخدامها كسحابة كثيفة لتبرير الفظائع التي ارتكبتها وترتكبها الدولة الصهوينة ضد الفلسطينيين. كما تُوظَّف الإبادة في جمع التعويضات التي تمول الكيان الاستيطاني الصهيوني (بلغ حجم التعويضات الألمانية وحدها ٧٠ بليوناً من الدولارات في ٣٥ عاماً) . ومن المعروف أن هذه التعويضات التي تلقتها الدولة الصهيونية انعشت الاقتصاد الإسرائيلي ، ومكنت الدولة الصهيونية من شراء مزيد من الأسلحة والمستوطنات والقنابل العنقودية !

والتعويضات تعني ، في واقع الأمر ، حصول إسرائيل (وبعض أعضاء الجماعات اليهودية) على مقابل مالي تعويضاً عن الآلام التي لحقت بهم . وهذا يخفف من البُعد الأخلاقي للقضية ، إن لم يكن يلغيه . ففي موقف مماثل رفضت الصين أن تتقاضى تعويضات مالية من اليابان على جرائمها ضد الصينيين باعتبار أن قبول التعويضات فيه تنازل عن الحق الأدبي ، وفيه تخلٍّ عن المنظور الأخلاقي (المطلق) حيث تتحول القضية إلى ما يشبه المقايضة .

ومن الواضح أن عملية توظيف الإبادة تتم من منظور نفعي مادي انتقائي محض ، لا علاقة له بالقيم الأخلاقية . وفي هذا الإطار يثير بعض الدارسين قضية علاقة الدولة الصهيونية مع بعض الشخصيات والدول التي كانت لها علاقة بالنظام النازي . إذ لا تُمانع إسرائيل البتة في توثيق علاقتها مع بعض حكومات دول أمريكا اللاتينية التي تأوي

مجرمي الحرب النازيين (الذين تزعم إسرائيل أنها تطاردهم في كل زمان ومكان !) مادام هذا يخدم مصلحتها . وقد تعاونت إسرائيل مع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية التي كانت معروفة بتعاطفها الكامل مع النظام النازي . وقامت باستضافة رئيس وزراء جنوب أفريقيا ب السابق بلثازار فورستر ، وهو جنرال سابق في الحركة الوطنية في جنوب أفريقيا الموالية للنازيين والتي كانت تقاوم المجهود الحربي للحلفاء ، وقد اعتُقل لمدة عشرين شهراً بسبب اشتراكه في المقاومة . ورغم مرور عشرات السنين إلا أنه لم يُنكر موقفه الموالي للنازية . وقد سمحت له الحكومة الصهيونية بوضع إكليل من الزهور على ياد فاشيم (النصب التذكاري) المقام لضحايا الإبادة النازية لليهود ، الأمر الذي دفع جريدة **الجيروساليم بوست** (الصهيونية) إلى الاحتجاج وإلى الإشارة إلى الحقيقة البدهية التي أغفلتها إسرائيل وهي أن اليهود ينبغي عليهم ألا يرتبطوا بأحد المؤيدين السابقين للنازية .

وفي مجال توظيف الإبادة يلجأ الصهاينة أحياناً لاختلاق القصص أو تزييف الحقائق كما حدث في حادثة آن فرانك (١٩٢٩ ـ ١٩٤٥) ، وهي فتاة ألمانية هاجرت إلى هولندا مع أسرتها بعد وصول هتلر إلى السلطة في عام ١٩٣٣ . وحينما قرر النازيون إرسال أختها إلى معسكرات العمل ، اضطرت هي وأسرتها إلى الاختباء ، فعاشوا في مخبئهم ما يزيد على عام، ثم أُلقي القبض عليهم ورُحِّلوا إلى معسكرات الاعتقال حيث لقيت آن وأختها حتفهما بسبب المرض .

ويُقال إن آن فرانك كتبت ، أثناء فترة اختبائها ، مذكراتها التي نُشرت بعد الحرب وتُرجمت إلى الإنجليزية . وهناك الكثير من الشكوك التي تحيط بهذه المذكرات إذ يُقال إنها لم تكتبها بنفسها بل كتبها أبوها (أو بعض من حوله) بعد موتها بطريقة مثيرة ليحقق من ورائها ربحاً مالياً . ولهذا فهي لا تُعتبَر وثيقة تاريخية يُعتد بها . ومع أنها ليست ذات قيمة أدبية كبيرة ، إلا أنها أصبحت مصدراً لعدة أفلام ومسرحيات . كما غدت آن فرانك إحدى الأساطير التي تُستخدَم لتحويل الإبادة النازية من جريمة غربية ضد قطاعات بشرية عديدة داخل التشكيل الحضاري الغربي (تضم السلاف والغجر والجماعات اليهودية) إلى جريمة ألمانية ضد اليهود وحسب . وأصبح المنزل الذي اختبأت فيه أسرة فرانك متحفاً .

وتحاول الدعاية الصهيونية توظيف واقعة الإبادة في تعبئة أعضاء الجماعات اليهودية (باعتبارهم الضحية الوحيدة) وراء الأهداف الصهيونية . ولتحقيق هذا يحاول الصهاينة أن يجعلوا من الإبادة حجر الزاوية الذي تستند إليه الوحدة بين يهود العالم في إسرائيل وخارجها . فالإبادة ، بعد فرض المعنى الصهيوني عليها ، تنهض دليلاً على رفض العالم لليهود ، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحية اليهود الذين يُقدَّمون قرباناً على

المحرقة . وهذا تأكيد للمقولة الصهيونية الخاصة بأزلية معاداة الأغيار لليهود وحتميتها ، ومن ثم يتعيَّن على يهود العالم الهجرة إلى الوطن القومي . (ولكن يهود العالم ، مع هذا ، يتصرفون على أساس أن الإبادة أمر مستحيل الوقوع مرة أخرى ، ومن الصعب أن يخطط المرء على أساس حادثة استثنائية وفريدة) .

ويحاول الصهاينة تقديم قراءة كاملة لما يسمونه «التاريخ اليهودي» بحيث تصبح الإبادة أهم معلم فيه ، فيُقال «قبل الإبادة» و«بعد الإبادة» ، تماماً مثل «قبل هدم الهيكل» و«بعد هدم الهيكل» . ويُشار للإبادة بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل» . والإبادة هي إذن هدم الهيكل للمرة الثالثة ، الأمر الذي يدخلها دورة التاريخ اليهودي المقدَّس . بل ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود إلى أن الإبادة غيَّرت من النسق الديني اليهودي ذاته . ولذا ، فإن من الضروري ، حسب رأيهم ، الحديث عن «لاهوت ما بعد أوشفيتس» ، أو «لاهوت الإبادة» الذي يرى حادثة الإبادة باعتبارها حادثة مطلقة لا يمكن فهمها ، وهي أكثر الحوادث أهمية وقداسة ، ويصبح الشعب اليهودي هو المسيح المصلوب . وينادي هؤلاء المفكرون بحتمية أن تصبح الإبادة هي المرجعية الأساسية لليهود ، ومن ثم ضرورة مناقشة مدى عدالة الرب ، وهل هو رب خيِّر أم شرير ، وهل يتدخل في التاريخ بمنحه الغرض والغاية أم يترك التاريخ في حالة فوضى كاملة ؟ كما أن البقاء (بقاء الشعب اليهودي) يصبح هو المطلق الوحيد الذي يَجُبُّ سائر الاعتبارات الأخلاقية الأخرى ويصبح النقطة المرجعية النهائية الوحيدة . ويساعد التركيب الجيولوجي لليهودية على السماح بإفراز مثل هذه الأفكار وإعطائها قسطاً من الشرعية . (ومما يجدر ذكره أن الجماعات الأصولية ذات التوجه الصهيوني المسيحي الواضح ترى أن الإبادة هي بالفعل دليل على أن الرب قد هجر اليهود بسبب الذنوب التي اقترفوها) .

ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود (الأرثوذكس) إلى أن الإبادة ذات مغزى ديني عميق ، فيرى بعضهم أن إبادة اليهود هي هدم الهيكل الثالث وأن هتلر هو أداة الخالق في حرق اليهود ، كما يذهبون إلى أنهم بمثابة الماشيَّح المذبوح الذي سيولد العالم من جديد بعد ذبحه . (ولكن هناك رأي مغاير لهذا ، إذ يذهب بعض الحاخامات [مثل مناحم هارتوم وإليعازر شاخ ، الأب الروحي لحزبي شاس و ديجيل هاتورا] إلى أن الإبادة لها حقًا مغزى ديني ولكنها عقاب على خطيئة اليهود لابتعادهم عن تنفيذ الأوامر والنواهي ، وسوف يقوم الإله بتدميرهم مرة أخرى إن لم يندموا ويعودوا عن طريق المعصية) .

وقد جعلت المؤسسة العسكرية الخوف من الإبادة أحد أسس الإستراتيجية الصهيونية ، فقد أشار كل من أبا إيبان ورابين إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ بأنها «حدود أوشفيتس» . وهناك قدر كبير من الادعاء في هذه التشبيهات وصل إلى قمته حينما قال مناحيم بيجين إن ياسر عرفات حينما كان مُحاصَراً في بيروت يشبه هتلر في مخبئه ، فالقائد الفلسطيني المحاصر والذي اغتُصبت أرض شعبه يشبه القائد النازي المُحاصَر الذي جيَّش جيوشه وأرسلها إلى الشعوب المجاورة ليستولي على أراضيها ويستعبدهم أو يبيد أعداداً منهم . وفي هذا تزييف كامل للحقائق ، ولكن هذه هي عقلية العنصري الفاشي الذي يرى أنه عضو في الشعب المختار ، ولذا فهو دائماً مضطهد ، حتى حينما يقوم بتدمير الآخرين .

وقد نجح الصهاينة فى ترسيخ واقعة الإبادة النازية ليهود أوربا فى وجدان الأغلبية العظمى من الإسرائيليين . فالصحف لا تكف عن الكتابة عنها ، وهناك يوم محدَّد لإحياء ذكرى الإبادة يُسمَّى «يوم الذكرى (يوم هازكرون)» ويقع في يوم ٤ ايار ، أي قبل عيد الاستقلال والذي يقع في يوم ٥ آيار (وهو اليوم الذي يحتفل فيه المستوطنون بإنشاء الدولة الصهيونية على أرض فلسطين بعد طرد سكانها منها) . ويبدأ اليوم بإطلاق صفارة إنذار في كل أنحاء الدولة في مغرب اليوم السابق فتُنكس الأعلام ، وتُغلق دور اللهو بأمر القانون ، وتُقام الصلوات في المعابد اليهودية وتُوقد الشموع فيها ، كما تُعلن صفارات الإنذار في الصباح عن دقيقتين حداداً يتوقف فيهما النشاط تماماً في الدولة الصهيونية بكاملها . ثم تُطلق صفارة إنذار أخرى للإعلان عن انتهاء اليوم وبداية عيد الاستقلال . ويُتلى في الصلوات التي تُقام في ذلك اليوم المزمور ١٤٤ الذي يقول : « مبارك الرب صخرتي الذي يُعلِّم يدي القتال وأصابعي الحرب » . وقد لاحَظ الفيلسوف الديني الإسرائيلي اليهودي يشياهو لايبوفيتش أن الاحتفال بيوم الذكرى يزداد حدة عاماً بعد عام لأن قائمة أسماء الضحايا تزداد يوماً بعد يوم . بل وتؤكد بعض الأبحاث الإسرائيلية أن شبح الكارثة لا يزال منعكساً وجاثماً على عقل الإسرائيليين من الجيل الثاني . ويرى واحد وستون بالمائة من الإسرائيليين أن الكارثة كانت عنصراً أساسيًا من عناصر قيام الدولة الإسرائيلية والمسوغ الأساسي له . ويعتقد اثنان وستون بالمائة أن قيام الدولة الإسرائيلية يمنع حدوث كارثة مماثلة في المستقبل .

ومما لاشك فيه أن الإحساس بخطر الإبادة إحساس حقيقي تجذر فى الوجدان الإسرائيلى . ولكننا نذهب إلى أن أساسه الحقيقى ، ليس خطر الإبادة على يد النازيين ، وإنما هو الطبيعة الاستيطانية للتجمع الصهيوني الذي لم يضرب بجذوره في المنطقة

العربية ، وبخاصة أن أصحاب الأرض الأصليين لم تتم إبادتهم ، بل ولم يكفوا عن المقاومة ، الأمر الذي يخلق عند الإسرائيليين ما نسميه «عقدة الشرعية» والخوف الدائم من عودة صاحب الأرض الذي يؤكد حضوره كذبهم (أرض بلا شعب) ، بل وقد يؤدي إلى غيابهم في نهاية الأمر . ولكن بدلاً من أن يواجه المستوطنون حقيقة وضعهم كمستوطنين ومغتصبين للأرض وبدلاً من أن يدركوا الأصل الحقيقي لمشاعرهم ومخاوفهم ، فإنهم يتجاهلونها ويفرضون عليها هذا التفسير الصهيوني . فالإدراك الحقيقي سيُفقدهم ثقتهم بأنفسهم وإحساسهم بشرعية وجودهم وأخلاقيته ، أما التفسير الصهيوني فسيسبغ عليهم المزيد من الشرعية وسيزيد إصرارهم على حقهم في البقاء وإبادة كل من يقف في طريق الضحية الوحيدة للمجازر ؛ المهددة دائماً وأبداً بالإبادة !

وقد لاحظ بعض التربويين أن هذا التركيز على فكرة الإبادة ، كفكرة رئيسية في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية داخل وخارج إسرائيل ، يسبب لهم مشاكل نفسية عميقة ، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة نفسية سوية ، وسط بلاد العالم أو بين أحد الشعوب ، وهو يعتقد أنهم قد يبيدونه تماماً في أية لحظة وأنه الضحية الوحيدة . ولذا ، بدأت ترتفع أصوات للتحذير من خطورة هذا الاتجاه . ولكن الصهيونية عقيدة تستند شرعيتها إلى الكوارث التي حاقت باليهود في الماضي والتي قد تحيق بهم في المستقبل ، ومن ثم ، فإن أية رؤية مركبة للتاريخ تسحب هذه الشرعية منها . وعلى هذا ، فليس من المتوقع أن يتغيَّر هذا الاتجاه في القريب .

احتكار الإبادة :

يحاول الصهاينة احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب ، بحيث تُصوَّر الإبادة النازية باعتبارها جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم . ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية . كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين على سبيل المثال ، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم .

وتثبت الدراسات التاريخية أن الإبادة النازية لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، فعدد ضحايا الحرب العالمية من جميع الشعوب الأوربية يبلغ ما بين خمسة وثلاثين

وخمسين مليوناً . وأظهر معرض لحكومة بولندا كان يطوف أمريكا عام ١٩٨٦ أن أكبر معسكرات الاعتقال هو أوشفيتس وأن التركيز النازي كان أساساً على البولنديين والاشتراكيين واليهود والغجر (بهذا الترتيب) لتفريغ بولندا جزئيًا وتوطين الألمان فيها .

وتوحي الأدبيات الصهيونية بأن العالم كله تجاهل اليهود وتركهم يلاقون حتفهم ومصيرهم وحدهم . ولكن من الواضح أن المسألة أكثر تركيباً من ذلك بكثير . فصحيح أن بعض الشعوب ساعدت النازيين ، كما حدث في النمسا ، ولكن البعض الآخر ساعد اليهود وآواهم كما حدث في بلغاريا (خصوصاً بين أعضاء الجماعة الإسلامية) وفي الدنمارك وفنلندا ورومانيا وإيطاليا وهولندا . وفي فرنسا ، تم تسليم خمسة وسبعين ألف يهودي للقوات النازية ، ولكن تمت ، في الوقت نفسه ، حماية أضعاف هذا العدد . كما رفض السلطان محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب رغم مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك . ولا يمكن أيضاً تجاهل جهود الحكومة السوفيتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيداً عن المناطق التي احتلها النازيون (رغم تحالفها في بداية الأمر مع هتلر) . وتتجاهل التواريخ الصهيونية كل هذا ، تماماً مثلما تتجاهل العلاقة الفكرية والفعلية بين النازية والصهيونية والزعامات الصهيونية التي تعاونت مع النازيين .

ولكن هناك من يتحدى هذا الاحتكار الصهيوني للإبادة ، وقد بدأت الكنيسة الكاثوليكية المواجهة حين قامت بتنصيب الأخت تريزا بنديكتا قديسةً . والأخت تريزا هي إيديث شتاين سكرتيرة الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر ، وكانت يهودية . وعندما قرأت قصة حياة القديسة تريزا شعرت بإحساس ديني غامر وتنصرت وتكثلكت ثم ترهبنت ، وقام النازيون باعتقالها وقتلها . ويُصر الصهاينة على أن سبب قتلها هو كونها يهودية بينما ترى الكنيسة أنها راهبة كاثوليكية استُشهدت من أجل عقيدتها . والحادثة الثانية هي الخاصة بدير الراهبات الكرمليات في أوشفيتس ، الذي طالب اليهود بإزالته وتمسكت المؤسسة الكاثوليكية في بولندا بالإبقاء عليه . وقد قامت معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين . وكتب باتريك بيوكانان (الصحفي والمرشح الجمهوري في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦) ما نتصور أنه خير احتجاج على هذا الموقف في مقال بعنوان «الكاثوليك ليسوا بحاجة إلى محاضرات في الأخلاق من سفاح عصابة شتيرن السابق» جاء فيه :

« وفي متحف المذبحة النازية ، هناك ثلاثة ملايين يهودي بولندي سيظلون في الذاكرة ، ولكن ماذا عن ثلاثة ملايين تقريباً من الأوكرانيين والصرب والليتوانيين والمجريين واللاتفيين والإستونيين ، نُحروا في ساحات القتل على أيدي الوثنيين

العنصريين في برلين وعلى أيدي الملحدين المتعاونين معهم في موسكو ؟ وما الذي يتطلبه الأمر حتى يكون المرء ضحية من الدرجة الأولى ؟

فإذا كانت ذكرى الضباط اليهود الذين ماتوا إلى جانب إخوانهم الكاثوليك في كاتين قد خُلدت بنجمة داود ، فلماذا لا يتم تخليد ذكرى المليون كاثوليكي الذين أفنُوا في أوشفتس بصليب ؟ وإذا كان التذكار حيويًا ، فلماذا يُستثنى المسيحيون ؟ » .

ونحن ، بطبيعة الحال ، نرى أن الإبادة لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، وإنما ضد سائر العناصر التي اعتُبرت ، من منظور النازية ، غير نافعة ، خصوصاً وأنه لو انتصرت قوات روميل في العلمين لامتدت آلة الفتك النازية إلى أعراق يعتبرها النازيون متدنية (مثل العرب) . ومن ثم ، فإن احتكار الصهاينة واقعة الإبادة ليس له ما يبرره في الواقع التاريخي .

إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي :

«إنكار الإبادة» مصطلح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود ، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين ، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي . وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور :

١ ـ كتب بول راسينيه Paul Rassinier في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان **أسطورة غرف الغاز** . وكان المؤلف قد رُحِّل إلى أحد معسكرات الاعتقال . وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيَّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوربا قبل الحرب وبعدها ، وعقب صدور الكتاب حُوكم راسينيه وناشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرضت عليه غرامة مالية فادحة .

٢ ـ من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب البروفسور آرثر باتس Arthur Butz الأستاذ بجامعة نورث ويسترن **أكذوبة القرن العشرين** الذي يثير الشكوك بخصوص عملية الإبادة نفسها . ولا يزال البروفسير باتس يُدرِّس في الجامعة في الولايات المتحدة .

٣ ـ أصدر روبير فوريسون R. Faurisson (أستاذ الأدب في جامعة ليون) سلسلة مقالات ثم مؤلفاً كبيراً كتب مقدمته اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي يثبت أنه لم تكن هناك أصلاً أفران غاز .

٤ ـ تقدَّم هنري روكيه Henri Roques برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكك فيها في وجود غُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي» . وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز . ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة . ويُعد هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام .

٥ ـ أصدر ستاجليش Staglish ، أحد قضاة مدينة هامبورج ، كتاباً بعنوان **أسطورة أوشفيتس** . والكتاب هو رسالة الدكتوراه التى كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن ، وتوصل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود حول معسكر أوشفيتس تفيد أن ما هو شاع عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرة ومليئة بالتناقضات . وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل . وما إن صدر الكتاب حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل . كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠٪ من راتبه .

٦ ـ يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج David Irving للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة **ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس** **The New York Review of Books** وصفته بأنه " يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل، «وأشارت إلى كتابه عن **حرب هتلر** بأنه» أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب " . ورغم كل هذا طُرد من كندا وبعد ذلك من أستراليا ، ومُنع من إلقاء محاضراته فيهما . وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس .

وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فابيوس (رقم ٤٣) في مايو ١٩٩٠ المسمى «قانون جيسو» (وهو اسم النائب الشيوعي الذي تَبنَّى هذا القانون) . ويُحرِّم هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١ ، جاء فيها : " يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤ ، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة ٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥ " .

وقد يظن المرء أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل : هل هي حقيقة أم مجرد اختلاق ؟ وعدد الضحايا اليهود ، وهل يبلغ عددهم ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير ؟ هي قضايا تم حسمها تماماً في الأوساط العلمية . وقد يظن المرء كذلك أن

الدراسات السابقة هي دراسات عنصرية تآمرية كتبها مهيجون يحاولون إثبات أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم . ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ، فهي دراسات علمية ، ذات مقدرة تفسيرية معقولة تتناول قضايا خلافية . وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير) ، إلا أنها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات . ومما لا شك فيه أن هناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين ، ومثل هذه الكتب لا تستحق القراءة لأنها كتابات عصبية متشنجة لا تدلل على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة .

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يُهاجم هذه الكتب بشدة ، العلمي منها وغير العلمي ، ويشجبها بعصبية واضحة ، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية ، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يُنكر الإبادة أو يثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين ، مع العلم بأن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبِّرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم ستة مليون . ولعله كان من الأجدى أن يميِّز الإعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية ، وأن يُخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادئ ، وأن يُطالب بفتح كل الملفات السرية والأرشيفات الغربية والشرقية لنتبيَّن مدى صحة هذه الأطروحات . وقد أصبح هذا متيسراً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إذ أصبحت وثائقه متاحة للدراسة . ولعل حالة ديمانجوك الذي اتُّهم بأنه « إيفان الرهيب » ، الذي اشترك في إبادة اليهود وغيرهم في معسكر تربلينكا ، تكون مثلاً على الخطوات المطلوب اتخاذها . فقد كانت كل الدلائل التي جمعها الأمريكيون والإسرائيليون تبيِّن أن ديمانجوك هو إيفان الرهيب ، وأصدرت المحاكم الإسرائيلية حكماً ضده بالفعل . ولكن، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، ظهرت وثائق تبيِّن بما لا يقبل الشك أن هناك شخصاً آخر هو الذي قام بعمليات الإبادة فأُفرج عن ديمانجوك .

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الإعلام الغربي والصهيوني إزاء عمليات إثارة الشكوك حول الإبادة وعدد الستة ملايين ، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية . ونحن نذهب إلى أن الخطاب الحضاري الغربي له حدوده التي يفرضها على عملية الإدراك . فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمي والتخصيصي ، فقام باختزالها وفرض منطق غربي ضيق عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي، الحضاري والسياسي الحديث .

١ ـ بالنسبة للمسئول عن الجريمة : تُخضَع الإبادة النازية لعمليتين متناقضتين :

أ) يتم تضييق نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة ارتكبها الألمان وحدهم ضد اليهود .

ب) يتم توسيع نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تختفي كل الحدود وتصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة كل الأغيار بشكل مطلق ، أو جريمة كلٍّ من الألمان والأغيار ، أو الألمان باعتبارهم أغياراً ، أو الألمان بموافقة وممالأة الأغيار .

٢ ـ بالنسبة للضحية : تُخضَع الإبادة كذلك لعمليتين متناقضتين :

أ) يتم تضييق نطاق الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم ، لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من الغجر والسلاف وغيرهم) .

ب) يتم تعميم الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود، كل اليهود، لا يهود العالم الغربي وحسب .

وبعد أن تم تعريف الإبادة بهذه الطريقة ، وبعد أن تم التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب ، قام الغرب بأيقنة الإبادة ، أي جعلها مثل الأيقونة تشير إلى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بشأنها ، فهي مصدر المعنى النهائي . وكما قال دان داينر إن أوشفيتس هي أرض لا يمتلكها أحد ، هي فراغ يبتلع كل التفسيرات التاريخية (فهو يشبه الثقوب السوداء التي تتحطم فيها قوانين الضوء والزمان) . فأوشفتس هو «المعيار المطلق الذي يُحكَم من خلاله على التاريخ ، ولا يمكن أن يصبح هو نفسه جزءاً من التاريخ » ، وهو كلام لا معنى له بطبيعة الحال ، فأوشفتس حدث تاريخي ، وقع في الزمان ، ولا يصلح أن يكون معياراً أخلاقياً أو تاريخياً يُحكم به على كل الأمور الإنسانية في كل زمان ومكان (ألا يشكل هذا قمة التمركز الأوربي حول الذات [بالإنجليزية : إيورو سنترستي Euro-Centricity]) . ولكن مثل هذا الكلام الأجوف له معنى داخل الخطاب الحضاري الغربي بسبب عملية الأيقنة التي أشرنا لها (وتجدر ملاحظة أن الأيقنة ليست مقصورة على المفكرين اليهود وإنما تشمل أعداداً كبيرة من غير اليهود) . فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات ، التي تُشكِّل فَهْم الإنسان الغربي المسبق ، شأنها في هذا شأن مقولة " عبء الرجل الأبيض " في القرن التاسع عشر ، وشأن إحساس الغرب بمركزيته في القرن العشرين أو الإيمان بالتقدم المادي وتحقيق الذات باعتبارهما الغاية النهائية لوجود الإنسان في الأرض . والمسلمات هي الركيزة الأساسية للنموذج ، فهي التي تحدد حلاله وحرامه ، وما هو مقدَّس وما هو مدنَّس . ومن ثم أصبح التساؤل بشأن

الإبادة هو تساؤل بشأن إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات ، إن شئت) وهو ما لا يمكن لأية حضارة ، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله .

وقد يُقال إنهم في الغرب ينتجون أفلاماً تُعرِّض بالسيد المسيح عليه السلام مثل فيلم سكورسيزي Scorsese « الإغواء الأخير للمسيح » ، وأعمالاً فنية مثل لوحة الفنان أندريه سيرانو Andre Serrano الشهيرة بعنوان « فلتتبول على المسيح» (Piss Christ) حيث وَضَع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول ، وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله ، إن كانوا يفعلون ذلك فلمَ لا يقبلون فتح ملفات الإبادة ؟ والرد على هذا هو أن السيد المسيح لم يعد ضمن المقدَّسات ، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك . وقل الشيء نفسه عن الشذوذ الجنسي ، فحتى الستينيات كان الخطاب الغربي يرى أن ثمة معيارية ما وثمة انحراف عنها ، ولهذا كان هناك مفهوم للشذوذ والانحراف ، ولكن مع غياب المعيارية تآكل بالتالي مفهوم الشذوذ تماماً ، وبالتدريج أصبح الشذوذ شكلاً من أشكال تأكيد الحرية الفردية المطلقة (التي تتجاوز أية معيارية اجتماعية) ، وتعبيراً عن حق الفرد في اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه والتي يمكنه من خلالها تحقيق ذاته على أفضل وجه ممكن . وبذلك تَحوَّل الشذوذ الجنسي من كونه انحرافاً إلى علامة من علامات التفرد وتعبيراً نماذجياً متبلوراً عن المنظومة الحضارية والأخلاقية السائدة في المجتمع في تمركزها حول الذات والمتعة (وفي عدم اكتراثها بالقيم الدينية والاجتماعية أو بأية ثوابت إنسانية) . وأصبح تَقَبُّل الشذوذ الجنسي علامة من علامات التحضر وسعة الأفق والتعددية ، وأصبح رفضها دليلاً قاطعاً على تزمت الشخص وتطرفه بل و "أصوليته" .

لكل هذا أصبح من الممكن ، داخل الخطاب الحضاري الغربي ، ربط الشذوذ بالمقدسات العلمانية (المادية) الجديدة . وهذا بالضبط ما يفعله الروائي الأمريكي اليهودي ليف روفائيل ، فهو يربط بين الشذوذ الجنسي والهولوكوست ، فبطل إحدى رواياته يهودي يخاف من تأكيد الأبعاد الثلاثة لهويته : هويته اليهودية ، وهويته كشاذ جنسي ، وهويته كأحد ضحايا الهولوكوست . فيقوم صديقه الذي يعيش معه بتشجيعه على تجاوز مخاوفه . ومنذ عدة سنوات أُقيم مؤتمر للشواذ والسحاقيات في إسرائيل ، وأقام أعضاء المؤتمر صلاة القاديش في نصب ياد فاشيم من أجل الشواذ جنسيًا والسحاقيات ممن سقطوا ضحايا للاضطهاد النازي . ولا شك في أن ربط الشذوذ الجنسي بالهوية اليهودية بالهولوكوست تصدمنا ، ولكن علينا أن ندرك ما هو مقدَّس وما هو مدنَّس في خطاب الآخر قبل أن نشعر بالصدمة ، والهولوكوست أيقونة مقدَّسة والشذوذ أمر عادي ، بل

أمر محبب ، ومن يدري لعله أصبح أمراً له " قداسته " الخاصة ، ونحن لا نعرف بعد ، إذ أننا لا نتابع ما يجري هناك بكفاءة عالية ؟

ولنا الآن أن نطرح السؤال التالي : لمَ تم تحويل الإبادة إلى أيقونة مقدَّسة ، ومُسلَّمة نهائية ؟ والإجابة على هذا السؤال تتطلب منا الانتقال من عالم القرائن والوثائق والاستشهادات إلى عالم محفوف بالمخاطر وهو عالم الخطاب الحضاري والنماذج الحضارية . ولذا سنحاول أن نقدح زناد الفكر وأن نقنع بإجابات ذات مقدرة تفسيرية معقولة وليست ذات طابع يقيني عال . وسوف نعمد بدايةً إلى استبعاد الصيغة العربية الجاهزة للإجابة على كل الأسئلة ، أي «اللوبي الصهيوني» أو «المؤامرة اليهودية» أو «النفوذ اليهودي» وغير ذلك من مقولات ما أنزل الله بها من سلطان لأنها تُفسِّر كل شيء ببساطة بالغة ، وما يُفسِّر كل شيء بهذه البساطة لا يُفسِّر شيئاً على الإطلاق !

ونحن نذهب إلى أن ثمة خطاباً غربيًا واحداً بخصوص الإبادة ، يتفرع عنه الخطاب الصهيوني ، وهو خطاب لا يختلف عن الخطاب الغربي العام إلا في التفاصيل ، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة ، وعلاقة الواحد بالآخر هي علاقة الكل بالجزء والأصل بالفرع . وتتلخص خصوصية الخطاب الصهيوني في تعميق الجوانب اليهودية وفي إضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) كثيفة . فالخطاب الصهيوني ينزع ، هو الآخر ، حادثة الإبادة من سياقها الحضاري والتاريخي الغربي ، ويتلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي ، فيُحول واقعة الإبادة من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد مجموعات بشرية داخلها إلى جريمة ألمانية أو جريمة الأغيار ضد اليهود . ولكن الخطاب الصهيوني (انطلاقاً من مفهوم الشعب المختار والحلولية اليهودية التي تسبغ القداسة على اليهود) يُعمِّق عملية التخصيص فتتحوَّل الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصي على الفهم الإنساني ، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل ، وإلى نقطة نهائية ميتافيزيقية تتجاوز الزمان والمكان والتاريخ . والاختلاف هنا هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع ، إذ تظل هناك وحدة أساسية ، ولذا لا يجوز في الخطاب السياسي الغربي والصهيوني تشبيه إبادة أية أقلية بإبادة اليهود .

ويمكننا الآن أن ندرج بعض الأبعاد التي أدَّت إلى أيقنة الإبادة :

١ ـ يعيش الغرب في إطار أن الإبادة جريمة ألمانية نازية وحسب ضد اليهود وحدهم ، وليست حلقة في سلسلة الجرائم الإبادية التي ارتكبتها الحضارة الغربية ضد شعوب العالم والتى تنبع من رؤيتها النفعية المادية الإمبرياليه المتجردة من القيمة . وقد استقر هذا المفهوم

وأصبح إطاراً مرجعياً ينظر الإنسان الغربي إلى نفسه وإلى تاريخه من خلاله . وعملية الأيقنة تفصل هذه الجريمة عن نمط حضاري عام متكرر ولا تُذكِّر هذه الحضارة بماضيها الإبادي ، كما تعفيها من مسئولية الجريمة النازية ذاتها .

ورغم أن الإبادة هي إحدى ثمرات النازية والعلم المنفصل عن القيمة ، فإن عملية أيقنة الإبادة تصاحبها عملية أخرى ، وهي عملية تهميش النازية ومنظومتها القيمية ورؤيتها للكون بحيث تصبح النازية وجرائمها مجرد انحراف عن الحضارة الغربية . والتخلي عن هذا الإطار (الذى يأيقن الإبادة ويهمش النازية) سيكشف فضيحة الحضارة الغربية ومسئوليتها عن هذه الجريمة البشعة المنظمة وعن غيرها من الجرائم .

وفي هذه الإطار يمكن فهم الحرج الزائد الذي يسببه اكتشاف تورط كثير من الشخصيات الفكرية الأساسية في الحضارة الغربية (مثل هايدجر) مع النازيين، ومحاولة إخفاء هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق (مثل تلكؤ ايزنهاور فى ضرب القطارات التى كانت تقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال والسخرة ، ورفض الدول الغربية فتح أبوابها للمهاجرين اليهود) . فإبراز تورط هايدجر قد يشير إلى تورط الحضارة بأسرها وقد يقوض المعنى الغربي المفروض على الإبادة .

ولتوضيح هذه القضية سنشير إلى واقعة دالة للغاية . ففى عام ١٩٨٨ ، نشرت مجلة القوات المسلحة فى ألمانيا الغربية مقالا كتبه راينر راينهادت ، وهو مسئول كبير فى بافاريا ، وردت فيه العبارة التالية : « وهذا يثير السؤال الأساسى عما إذا كان الاقتصاد كمبدأ رسمى ، فى ظل سلطة مكدسة لخدمة الخير العام ، يمكن تطبيقه على صعيد عالمى . فإذا نظرنا إليه من وجهة نظر أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإن استخدام الغاز السام لإبادة اليهود بصورة جماعية ، بدلا من الاعدامات الفردية ، كان يشكل فى هذه الحالة انتصارا للمبادىء الإقتصادية » . وكاتب المقال ، لم ينكر الإبادة وإنما بيّن الإطار النفعى المادى الذى تمت داخله ، ومع هذا قامت الدنيا وثار الجميع ضده . وقد وصف أحدهم مقاله بأنه «ذو ذوق سيىء»وعقلية معادية للديمقراطية و «مستهتر» ، ولم يستخدم أحد كلمة «غير أخلاقى» مثلا ، ولم يبين أحد كيف يمكن إتهام شخص يدعو إلى اتخاذ موقف عملى متحرر من القيم المسبقة وإلى اتباع المبادىء الاقتصادية المجردة بالعداء للديموقراطية وللإستهتار .

٢ ـ لا يمكن إنكار الدور الذي يلعبه شعور الغربيين بالذنب تجاه ما حدث لليهود على يد النازيين . ولكن الإحساس بالذنب هنا يوجه نحو الأيقونة (الفريدة التي تشير إلى ذاتها) ومن ثم يتحول من إحساس خُلقي عميق ورغبة في إقامة العدل إلى حالة شعورية تدغدغ الأعصاب بل وإلى مصدر راحة ، إذ يمكن للإنسان الغربي أن يهنئ نفسه بأنه لا

يزال يمارس مثل هذه المشاعر النبيلة . وبدلاً من أن يحفز الشعور بالذنب الإنسانَ الغربي إلى التصدي لما يجري في العالم من عمليات إبادة (تقوم بها حكوماته أو تقف موقف " الحياد " تجاهها) فإنه يتجه نحو تأكيد تفرد الهولوكوست والمبالغة في أهوالها ، وبالتالي يتحول الحس الخُلقي إلى حس جمالي أو حالة شعورية لا تُترجم نفسها أبداً إلى فعل فاضل ؛ إلى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وأيقنة الإبادة بذلك تغطي على ما يجري من مذابح سواء في فيتنام أو البوسنة والهرسك أو الشيشان أو لبنان .

٣ ـ لكن الفضيحة الأساسية التي تغطيها عملية أيقنة الإبادة النازية هي الجريمة التي ارتكبتها الحضارة الغربية في حق الشعب الفلسطيني الذي طُرد من أرضه بموجب وعد بلفور وقرار هيئة الأمم المتحدة وبدعم كل الدول الغربية . فإذا كانت الجريمة هي حقاً جريمة الألمان على وجه الخصوص أو الأغيار على وجه العموم ، وضد اليهود على وجه العموم وضد اليهود وحدهم كما يدَّعي الخطاب الحضاري الغربي ، فلابد إذن من حلها على مستوى عالمي وألماني ، ولابد من تعويض الضحايا اليهود وحسب وإهمال الضحايا الآخرين . ومن ثم ، يصبح من المنطقي أخذ (لا اغتصاب) فلسطين من « الأغيار » وردها «لليهود » بسبب الجرم الذي حاق بهم على يد هؤلاء الأغيار . كما يمكن أخذ التعويضات من الألمان وتمويل المستوطن الصهيوني باعتباره المأوى الذي «عاد» إليه ضحايا الإبادة . وإذا كانت الإبادة هي حقاً جريمة موجهة ضد اليهود وحسب ، فإن المتحدثين اليهود هم وحدهم أصحاب الحق في فرض المعنى الذي يريدونه على الواقعة ، وهم وحدهم أصحاب الحق في التعويض .

٤ ـ ترتكز المنظومة الغربية التحديثية بأسرها إلى العلم المنفصل عن القيمة وعن الغائية الإنسانية . ورغم الإدراك المتزايد لوحشية هذا الافتراض ، فإنه لا يزال هو المقولة المعرفية الحاكمة . وفتح باب الاجتهاد بخصوص الإبادة يعني في واقع الأمر فتح باب الاجتهاد حول الأساس الفلسفي الذي تستند إليه الحداثة الغربية بأسرها .

٥ ـ ويمكننا الآن أن نثير قضية ليست ذات علاقة مباشرة بالإبادة ، إلا أنها قد تلقي الضوء على عملية أيقنتها . فالمجتمعات الغربية مجتمعات تسيطر عليها العلمانية الشاملة، وتسود فيها النسبية المعرفية والأخلاقية ، ولذا فهي تعيش بلا مقدَّسات أو ميتافيزيقا ، وهو أمر مستحيل بالنسبة لمعظم البشر . إذ يبدو أن حياة الإنسان لابد أن يكون فيها شيء مقدَّس ما ، فإن لم يكن الإله فيمكن أن يكون أي شيء ، وكل شيء . وما حدث بالنسبة للإنسان الغربي أنه فقد إيمانه بمقدساته الدينية التقليدية ، فأخذ يبحث عن

مقدسات مادية حديثة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس (المصدر الوحيد للمعرفة) وبوسعه أن يُقسِّم العالم من خلالها إلى مقدَّس ومدنَّس ، وإلى محرَّم ومباح . إن الإنسان الغربي دائب البحث عن ميتافيزيقا علمانية مادية ، تريحه نفسياً ولا تُحمِّله أية أعباء أخلاقية (مثل الإيمان بالأطباق الطائرة أو علاقة الأبراج بمصير الإنسان وسلوكه) . ويبدو أنه وجد ضالته في الإبادة النازية لليهود التي تولِّد فيه إحساساً لذيذاً بالذنب ، لا يكلفه أي جهد أخلاقي . وقد تحولت الإبادة إلى أيقونة تجسد ميتافيزيقا كاملة من خلال علمنة المفاهيم الدينية المسيحية ، إذ أصبح اليهود (في لاهوت موت الإله وفي الخطاب الحضاري الغربي ككل) هم المسيح المصلوب وأصبح ظهور الدولة اليهودية هو قيامه . والصلب والقيام هنا أمران ماديان يتمان داخل الزمان والتاريخ . فكأن الإبادة النازية لليهود هي الأيقونة العلمانية الشاملة المقدَّسة في الوجدان الغربي ، فهي مفهوم قبلي بُنيت عليها مجموعة من المفاهيم الأخرى ، فإن سقطت الأيقونة سقط كل ما بُني عليها وأصبح من الضروري مراجعة كل شيء ، وهو أمر صعب للغاية على البشر .

وهذا لا يعني بطبيعة الحال إنكار أهمية البُعد الصهيوني للاستجابة الغربية الهستيرية .

١ ـ لا يمكن إنكار وجود قدر كبير من الضغط الذي تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفي والمعلوماتي القائم ، الذي يُحقق لها فوائد جمّة . كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تقاضوا التعويضات الألمانية عما لحق بهم من أذى وممن لا يزالون يطالبون بها ، وهؤلاء أيضاً أصبحوا جزءاً من « جماعة مصالح » تحوَّلت إلى جماعة ضغط . وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدث .

٢ ـ أصبح الخطاب الصهيوني يستند بشكل شبه كامل إلى الإبادة النازية ، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى حادث الإبادة . والشرعية عادةً لا تستند إلا إلى مطلقات ، لا يمكن إخضاعها للتساؤل .

ويميل كاتب هذه الدراسة إلى القول بأن معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة حقيقة مادية لا شك فيها ، وأن أفران الغاز هي الأخرى حقيقة (ومن ثم لا يمكن إنكار الإبادة باعتبارها تصفية جسدية متعمدة) . ولكن حجم هذه الأفران ومدى كفاءتها وعدد ضحاياها ودلالة هذه الحقائق المادية وتفسيرها تظل كلها موضوعات قابلة للاجتهاد والفحص العلمي والوثائقي بل وتتطلبها ، فهي موضوعات خلافية . وهناك فيما يبدو مصلحة للبعض في أن يُضخمها أو يُقلل من أهميتها . فإذا كان الحياد الكامل مستحيلاً

في مثل هذه الأمور (كما في غيرها) ، فلابد ، على الأقل ، أن ننفصل إلى حدٍّ ما عن الظاهرة موضع الدراسة ونُعيد قراءة الوثائق المتاحة ونطالب بإتاحة كل الوثائق السرية ، خصوصاً وأن الموضوع أصبح موضوعاً تاريخيًا مر عليه أكثر من خمسين عاماً .

إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسي :

تزعم الأدبيات الصهيونية أنه في ٢٠ يناير ١٩٤٢ عُقد مؤتمر يُسمَّى «مؤتمر فانسي» بهدف التنسيق بين الوزارات المختلفة التي اشتركت هي والحزب النازي وقوات الإس . إس . في محاولة تنفيذ الحل النهائي ، باعتباره التصفية الجسدية لليهود . ويُقال إن رينهارد هايدريش دعي إلى هذا المؤتمر بناء على خطاب من هرمان جورنج بتاريخ ٣١ يوليه ١٩٤١ ، وأشار إلى « الحل الكامل للمسألة اليهودية » . وقد أعد أيخمان الإحصاءات والبيانات اللازمة لمناقشة الموضوع . وحضر المؤتمر كبار موظفي الدولة والحزب وناقشوا كيفية تهجير اليهود وإرسالهم إلى معتقلات العمل والسخرة .

وعبارة «الحل الكامل» هي صيغة أخرى لعبارة «الحل النهائي» (بالألمانية : إندلوسونج Endlosung) التي ترد في بعض الأدبيات النازية ، وتعني في الأدبيات الغربية التي تتناول الحركة النازية «المخطط الواعي الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود» ، أي بمعنى تصفيتهم جسدياً . والمفترض أن هذا المخطط تم تنفيذه من خلال المؤسسات الحكومية النازية . (وهذا المعنى خلافي كما سنبين فيما بعد) .

ويمكن القول بأن مقولة «الحل النهائي» ، مثلها مثل مقولة «نهاية التاريخ» ، كامنة في بنية الأيديولوجيا النازية ، وفي كثير من الأيديولوجيات الأخرى الشبيهة التي تعتمد العلم الطبيعي مصدراً أساسياً وربما وحيداً للمعرفة والقيم الأخلاقية . فهذه الأيديولوجيات تؤمن بإمكانية ، أو حتى بحتمية ، التقدم الدائم من خلال تراكم المعرفة حتى تتم معرفة قوانين الحركة أو قوانين الضرورة أو القوانين الطبيعية (التي تسري على الطبيعة والإنسان) . ومن خلال هذه المعرفة الكاملة أو شبه الكاملة ، يمكن ترشيد الواقع تماماً والهيمنة عليه ووضع الحلول النهائية لكل المشاكل وإعلان «نهاية التاريخ» (كما فعل فوكوياما في الولايات المتحدة في أواخر الثمانينيات) . والنازية ، من هذا المنظور ، ما هي إلا إحدى هذه الأيديولوجيات . ومن ثم ، فحتى لو لم يعلن النازيون الحل النهائي ، فإن الفكرة كامنة في بنية الفكر الغربي والنازي. وعلى كل ، لا يمكن فهم التجارب

الاستيطانية الإحلالية ، سواء في الولايات المتحدة أو في أستراليا أو فلسطين ، إلا في إطار فكرة الحل النهائي الذي يُطبَّق على السكان الأصليين ، هنوداً كانوا أم فلسطينيين ، ويمكن إنجاز الحل النهائي إما عن طريق الإبادة أو عن طريق التهجير . ووعد بلفور وثيقة سياسية تهدف إلى وضع حل نهائي للمسألة اليهودية عن طريق التهجير . والمسألة الفلسطينية أو العربية ، من هذا المنظور ، هي نتيجة لعدم تطبيق الحل النهائي الصهيوني أو سببها الفشل في تطبيق هذا الحل حتى الآن . وقد عبَّر عن هذا المعنى صراحةً رحبعام زئيف (رئيس حزب موليديت) الذي انضم إلى الوزارة الإسرائيلية وطالب صراحةً بتهجير العرب ، فقد بيَّن بما لا يقبل الشك أن مقولة «الحل النهائي» مقولة أساسية في الفكر الصهيوني ، وتنتمي إلى عائلة من الأيديولوجيات الغربية الحديثة التي تبحث عن حل جذري ونهائي ومنهجي لمشكلتها السكانية كما فعل المستوطنون الأمريكيون من قبل ، وكما فعل النازيون في ألمانيا ، وكما يفعل الصرب في البوسنة والهرسك ، وكما يفعل المستوطنون الغربيون في كل زمان ومكان !

ويمكننا الآن أن نثير قضية ترادف عبارة «الحل النهائي» مع عبارة «الإبادة كتصفية جسدية» ، كما تزعم الأدبيات الصهيونية ، وهو ترادف ينكره رجاء جارودي ، وغيره من الدارسين ، للأسباب التالية :

١ ـ لوحظ عدم ورود لفظ «الإبادة كتصفية جسدية» مقروناً بعبارة «الحل النهائي» في أية مذكرة نازية . وقد بيَّن ريمون آرون وجاك فيوريت (عام ١٩٧٩) ـ في ختام مؤتمر عُقد خصيصاً لهذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بالإبادة النازية ليهود أوربا ـ أنه لم يتم العثور على أية مذكرة تحمل هذا المعنى رغم كل الجهود المبذولة . وقد وافقهما المؤرخ الصهيوني النزعة وولتر لاكير على رأيهما هذا (عام ١٩٨١) ، ولذا أضاف أن مثل هذا الأمر لم يَصدُر قط .

٢ ـ يروج بعض الصهاينة فكرة مؤداها أنه لم يتم العثور على مثل هذه المذكرة لسبب بسيط وهو أن النازيين كانوا يستخدمون لغة مُشفَّرة أو رمزية حتى لا يكتشف أحد أمرهم . والرد على مثل هذا الرأي ـ كما بين جارودى ـ هو الإشارة إلى عدد لا حصر له من الوثائق النازية تضم أوامر صريحة بإبادة السكان الذكور في ستالينجراد (على سبيل المثال) وقتل الجنود البريطانيين الذين يتم أسرهم أثناء تأديتهم بعض العمليات الخاصة (الكوماندوز) ، وقتل المسنين بالوسائل العلمية . فلماذا يُشفِّر النازيون الأوامر الخاصة بإبادة اليهود وحدهم ؟

٣ ـ حينما يذكر النازيون الإبادة فهي بديل ضمن بدائل عديدة ، كما أنها تتم بعدة طرق . وقد قسَّم مؤتمر فانسي طريقة التخلص من العناصر غير الاجتماعية غير المرغوب فيها من خلال أربعة طرق مختلفة : التعقيم أو الإبادة بالجوع أو الإبادة بالعمل أو حتى من خلال برنامج الأَلْمنة .

٤ ـ كان النازيون يتحركون في إطار الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية وهو تصديرها للخارج . وقد بيَّن هتلر أنه يميِّز بين معاداة اليهود العاطفية ومعاداة اليهود المنهجية ، فالأولى تنتهي بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بتهجير (ترانسفير) اليهود . وقد حدد هتلر مشروعه بالنسبة لليهود باعتباره عملية تهجير . وفي رده على سؤال وُجه إليه في اجتماع عام بشأن حقوق اليهود الإنسانية ، قال : « ليبحث اليهودي عن حقوقه الإنسانية في دولته فلسطين » .

وفي ١٠ أغسطس ١٩٤١ دافع هتلر عن الحل الشامل للمسألة اليهودية باعتباره نقل ٦٠٠ ألف من أراضي الرايخ . وكانت مجلة **الإس . إس .** قد استخدمت العبارة نفسها بهذا المعنى في عددها الصادر في ٢٤ نوفمبر ١٩٣٨ حين تحدثت عن الحل الشامل باعتباره « الفصل والعزل الكلي لليهود » .

٥ ـ طبَّق النازيون هذه الرؤية الإمبريالية (الصهيونية) على اليهود ، ولذا بدأ الحل النهائي بتهجير اليهود من أصل بولندي إلى بولندا ، ولكن الحدود أُوصدت دونهم . ثم طرح النازيون مشاريع صهيونية عديدة تهدف إلى توطين اليهود وتأسيس وطن قومي لهم في أي مكان خارج أوربا (أكوادور – سوريا – مدغشقر) .

وقد تعاون النازيون مع الصهاينة انطلاقاً من قبول هذا الحل الصهيوني النازي للمسألة اليهودية فتم توقيع معاهدة الهعفراة للمساعدة في تهجير اليهود إلى فلسطين . وحقق النازيون بعض النجاح في هذا المضمار إذ بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وحدها حوالي ١٥٠ ألف (بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨) وهي نسبة مئوية عالية . وظل النازيون يدافعون عن فكرة تهجير اليهود ، وكانوا لا يكفون عن الشكوى من أن سيل الهجرة لم يكن سريعاً بقدر كاف ، ومن أن الدول الغربية توصد أبوابها في وجه المهاجرين اليهود .

وفي السنين الأخيرة للحرب ، بعد مؤتمر فانسي (يناير ١٩٤٢) وبعد وقوع مساحات شاسعة من الأرض السوفيتية البولندية في أيدي النازيين ، بدأت فكرة توطين اليهود فيها تراود النازيين (« ترحيل اليهود إلى الشرق » في المصطلح النازي) . وقد جاء في مذكرة رسمية بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٢ صادرة من وزارة الخارجية الألمانية ما يلي : « إن الحرب

ضد الاتحاد السوفيتي وفرت لنا أراضٍ جديدة لتنفيذ الحل النهائي . وقد قرر الفوهرر أنه بدلاً من إرسال اليهود إلى مدغشقر فسيقوم بإرسالهم إلى الشرق . ولذا ليس هناك ما يدعو إلى التفكير في مدغشقر باعتبارها [مجال] الحل النهائي » .

وكل هذا يعني في واقع الأمر أن الحل النهائي هو حل صهيوني إقليمي، يعني التخلص من اليهود عن طريق ترحيلهم (ترانسفير) من مكان لآخر ، تماماً كما فعلت الحضارة الغربية مع اليهود حيث نقلتهم إلى فلسطين ، وكما فعل الصهاينة مع الفلسطينيين بنقلهم منها .

٦ ـ كان النازيون في حاجة ماسة للأيدي العاملة ، فلماذا تُضيِّع آلة الحرب النازية وقتها في إبادة الملايين بدلاً من توظيفهم في أعمال السخرة ؟ ومن الواضح أن النازيين كانوا أكثر رشداً ونفعية مما يتصوره الدارسون الصهاينة . فكانوا يزيدون من عدد العمال الذين يعملون نظير دولار واحد في اليوم للاستفادة من العمالة الرخيصة . وقد أرسل هملر مذكرة إلى أحد رؤساء معسكرات الإبادة (بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٤٢) يخبره فيها أن يستعد لاستقبال ٢٠٠ ألف يهودي حيث ستُسند للمعسكر مهام اقتصادية مهمة . وفي مايو ١٩٤٤ أصدر هتلر أمراً باستخدام ٢٠٠ ألف يهودي كعمال في أحد المشاريع الإنسانية . وقد أصدرت قيادة الإس . إس .S. S أمراً بمنح مكافأة لكل السجناء (ومنهم اليهود) الذين أبلوا بلاءً حسناً في العمل . كما وفرت المؤسسات النازية لهؤلاء العاملين كل الأنشطة الترفيهية ، وضمنها بيت دعارة، لزيادة الإنتاجية .

٧ ـ حينما يرد لفظ «الإبادة» في نصوص نازية فإنه لم يكن يعني دائماً «التصفية الجسدية» ، ففي ٢٦ مارس ١٩٤١ في حفل افتتاح معهد فرانكفورت لدراسة المسألة اليهودية أشار أحد المتحدثين إلى الإبادة (بالألمانية : فولكشتود Volkstod) باعتبارها الحل الشامل للمسألة اليهودية وعُرِّف هذا الحل بأنه « أن يترك اليهود أوربا » . وقد أفاض المتحدث وقال إنه يمكن أن يترك اليهود أوربا عن طريق وضعهم في معسكرات عمل في بولندا (حيث يتم إفقارهم) أو في مستعمرة . ولعل تجربتي جيتو وارسو وتيرس آينشتات (وغيرهما من التجارب) قد تمتا في هذا الإطار .

٨ ـ لوحظ أثناء محاكمات نورمبرج أن المدعين الذين مثَّلوا الحلفاء كانوا يحاولون قصارى جهدهم أن يلووا عنق بعض الكلمات الألمانية ليترجموها بكلمة «إبادة» . فكلمة «أوسروتونج Ausrottung» على سبيل المثال ، والتي تعني «استئصال شأفة» شيء ما بأية طريقة فعلية أو مجازية تُرجمت إلى «إبادة» بمعنى «تصفية جسدية متعمدة» ، مع أن

النازيين استخدموا في إحدى وثائقهم عبارة «استئصال شأفة المسيحية» ، ولم يُفسِّر أحد هذه العبارة باعتبارها مخططاً نازياً لإبادة المسيحيين .

٩ ـ ما تهمله كثير من الدراسات الغربية هو ما يمكن تسميته «الاختفاء» ، أي اختفاء أعداد كبيرة من اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط والموت بسبب الغارات والأوبئة أثناء الحرب .

لكل هذا فعبارة «الحل النهائي» تعني ما تقول دون زيادة أو نقصان ، ومن ثم فهي لا تعني بالضرورة «تصفية جسدية مُتعمَّدة» ، وقد تعني «تصفية من خلال التهجير وأعمال السخرة» .

معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) :

أُقيمت معسكرات الاعتقال في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم ، فكان البوليس السري الألماني (جستابو) يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية واحتجازهم في هذه المعسكرات . وحين عظم نفوذ الجستابو وأُعطي الحرية المطلقة في التصرف ، أصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع ، فقُبض على جماعات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال . ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهود بالذات ، وإنما كان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته . وقد وقعت أول حادثة موجهة ضد اليهود في نوفمبر ١٩٣٨ عندما وُضع عشرون ألف يهودي في هذه المعسكرات في داخاو وبوخنوالد . ومن معسكرات الاعتقال الشهيرة الأخرى ، معسكر برجن بلسن .

وقد أُقيمت ستة معسكرات للاعتقال والإبادة في بولندا ، وهذه المعسكرات هي :

١ ـ كلمنو (بالقرب من لودز) .

٢ ـ بلزك (بالقرب من لفوف ولوبلين) .

٣ ـ سوبيبور (بالقرب من لوبلين) .

٤ ـ مايدانيك (على حدود لوبلين) .

٥ ـ تربلينكا .

٦ ـ أوشفيتس ـ بيركناو ، وهو أشهرها جميعاً .

وقد أُرسل إلى هذه المعسكرات كثير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم ، من كل أنحاء أوربا . ويُقال إن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران ، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز ، والمحارق . ومع هذا يثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن .

كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي .Zyclon B في أفران الغاز . إذ تشير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطات فنية عالية ، مكلفة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً - لابد من تهويتها لمدة عشر ساعات بعد استخدامها - يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون) . ومثل هذه الاحتياطات لم تكن متوفرة للألمان تحت ظروف الحرب ، وهو ما يعني استحالة استخدامه على نطاق واسع . وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Leuchter Report ، الذي كان ، مستشاراً لولاية ميسوري ،وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما له دلالته أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة ، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين، قررت الاستغناء عنه ، بسبب تكلفته العالية) .

وثمة نظرية تذهب إلى أن غُرف الغاز الموجودة إنما كانت غُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر . أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الذين لقوا حتفهم بعد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود ، وهو أمر مُتوقَّع في ظل ظروف الحرب وفقر الرعاية الصحية . ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصودة تمت دفعة واحدة ، وإنما تمت نتيجةً لعناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثل سوء التغذية والأوبئة وغيرها ، وأن من أُبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعداد صغيرة للغاية ، وهي قضية خلافية . ويُقال إن كثيرين ممن أُبيدوا بطريقة منظمة لم تكن إبادتهم بدافع الحقد العنصري وإنما كانت جزءاً من محاربة النازيين للمرض وللتشوهات والانحرافات النفسية والخلقية. ولذا حينما كان يندلع وباء في أحد المعسكرات لم يكن النازيون يلجأون لمحاربته (فهذا أمر مكلف، بخاصة في ظروف الحرب) وإنما كانوا يلجأون للتخلص من المرضى بطريقة عملية سريعة.

ولم تكن معسكرات الاعتقال مخصصة لليهود وحدهم وإنما كانت أداة من أدوات النظام النازي تُستخدم لتحقيق أهدافه القومية ، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهود يفوق عدد ضحاياها من اليهود . ومن المهم بمكان أن نضع معسكرات الاعتقال والإبادة في

سياقها الحضاري والمعرفي العام . فمنذ بداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبادة نمطاً متكرراً ، حيث تم نقل سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) إلى معسكرات اعتقال منعزلة كان يُطلَق على كل واحد منها اسم «ريزيرفيشن reservation» تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر . وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي . وكان السود ، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم (ترانسفير) إلى أمريكا ، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة . وفي الحرب العالمية الثانية ، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة . وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصليين في معازل جماعية يُقال لها «البانتوستان» . وغني عن القول أن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

ولم تكن الإبادة مصير كل من يذهب إلى معسكرات الاعتقال ، التي كانت أساساً معسكرات سخرة ، ولذا نجد أن العدد الأكبر كان يُستخدَم في أعمال السخرة . وقد أُسس بجوار أوشفيتس ، على سبيل المثال ، ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد الكيماوية اللازمة للعمليات العسكرية . وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل الشاق مقابل دولار واحد يومياً (وهو موقف كولونيالي تماماً) ، ونظراً لحرصها الشديد على الأيدي العاملة الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة) . كما أُختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم .

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية ، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات ، وتكون بمثابة حلقة الوصل بين المساجين والألمان . ويُطلَق عليهم اسم «كابو» ، وكان بعضهم من اليهود بطبيعة الحال . وكان كثير من هؤلاء يحرصون على إظهار القسوة نحو المساجين حتى يحظوا برضا الألمان . ومن المعروف أن المساجين الألمان كانوا يُعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعُامَل به الآخرون لأنهم كانوا يُعتبرون خونة .

واتسمت معسكرات الاعتقال بكفاءتها الشديدة وتحكمها الكامل في المادة البشرية التي كانت تُصنَّف بعناية وتُوظَّف على أحسن وجه . وقد حققت هذه المعسكرات عائداً كبيراً للاقتصاد الوطني الألماني . هذا ، بخلاف التخلص من أعداد كبيرة من الأفراد الذين

يشكلون عبئاً على ألمانيا، أي أن التجربة لا غبار عليها البتة إن نظرنا إليها من منظور نفعي مادي لا يكترث بالمطلقات . وبالطبع ، يختلف الأمر تماماً إن نظرنا للقضية من المنظور غير المادي ، أي من منظور قداسة الإنسان وحقوقه المطلقة .

ويُعد أوشفيتس أهم معسكرات الاعتقال . وكان يُقال دائماً إن عدد من أُبيدفيه هو أربعة ملايين ، منهم مليون ونصف مليون يهودي، والباقون غير يهود . والسند الأساسي لأسطورة إبادة هذه الملايين في أوشفيتس هي اعترافات رودولف هس أثناء محاكمات نورمبرج . وقد ثبت أن كثيراً من " أدلة " الاتهامات في محاكمات نورمبرج هي في معظمها اعترافات يدين خلالها المتهمون أنفسهم، بعد أن ظلوا في الأسر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان . وقد استُبعد عدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأساطير التي حاول الحلفاء نسجها . وهناك من البحوث ما يشير إلى أن العدد الإجمالي لا يمكن أن يزيد على ٦ , ١ مليون، وأنهم قضوا حتفهم لا من خلال أفران الغاز وإنما بسبب الجوع والمرض، والموت أثناء التعذيب، والانتحار . وفي عام ١٩٩٤ تم تغيير اللافتة الموضوعة على المعسكر ، فبعد أن كانت اللافتة القديمة تتحدث عن مقتل أربعة ملايين رجل وامرأة وطفل أصبحت اللافتة الجديدة تتحدث عن مليون ونصف فقط .

وقد أصبح معسكر أوشفيتس (في الخطاب السياسي والحضاري الغربي) رمزاً ودالاً على عدة مدلولات . فهو رمز مباشر على الإبادة النازية لليهود (بمعنى التصفية الجسدية المتعمدة) ، أي أنه الجزء الذي يتبدَّى الكل من خلاله . كما أصبح معسكر أوشفيتس دالاً يشير إلى كل جرائم الإبادة التي تتم بشكل منهجي لا شخصي بيروقراطي (ولكن الصهاينة يرفضون استخدام الاسم على هذا النحو حتى يحتفظ معسكر أوشفيتس بقداسته اليهودية) . ويقول تيودور أدورنو (أحد مفكري مدرسة فرانكفورت) : « لا شعر بعد أوشفيتس» ، أي أن أي إنسان لا يمكنه أن يقرض الشعر بعد أن كشفت الإنسانية عن وجهها القبيح في أوشفيتس . وفي هذا تلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ولعله كان من الأجدر بأدورنو أن يتحدث عن حضارة العقلانية المادية ، بدلاً من الحديث العام ، العائم الغائم ، عن الإنسانية جمعاء . وهذا ما فعله فاكيلاف هافيل ، المؤلف المسرحي ورئيس جمهورية التشيك ، حينما تحدث عن كبرياء العقل المادي الحديث وغروره الذي يطور مخططات علمية مجردة يحاول فرضها على الحياة الإنسانية (بكل ما تحويه من أسرار لا يسبر لها غور) ويفرض عليها التجانس والتنميط وينتهي به الأمر إلى اختزالها وتدميرها . ثم قال : "وماذا يكون معسكر الاعتقال سوى محاولة من جانب

دعاة اليوتوبيا [التكنولوجيا البيروقراطية] أن يتخلصوا من العناصر غير الملائمة [للمخطط التكنولوجي] ؟ " .

أما في التفكير الديني (المسيحي واليهودي) في الغرب ، فقد أصبح معسكر أوشفيتس رمزاً للعالم المادي الذي لا معنى له والذي لا هدف له ولا غاية ، فهو عالم انسحب منه الإله ، ولذا يُقال «لاهوت ما بعد أوشفيتس» بمعنى «لاهوت موت الإله» . ويذهب البعض إلى أن معسكر أوشفيتس أصبح مدلولاً (متجاوزاً) لا يمكن لأي دال أن يدل عليه . فالتجربة اليهودية في أوشفيتس لا يمكن فهمها أو تفسيرها وإنما يمكن تجربتها وحسب . ومن لم يعش التجربة لن يفهم ما حدث ، ومن ثم فإن كلمة «أوشفيتس» بمثابة الأيقونة حيث يلتحم الدال بالمدلول وتختفي المساحة بينهما ، وتصبح الأيقونة (الرمز) هي نفسها ما ترمز إليه . إن أوشفيتس تتجاوز اللغة الإنسانية ولذا " لا شعر بعد أوشفيتس " .

وفي استخدام مغاير تماماً للكلمة صرح ناحوم جولدمان بأن إسرائيل هي كارثة تاريخية كبرى ، تفوق ما حدث في أوشفيتس ، ومن ثم تحل الدولة الصهيونية محل أوشفيتس باعتبارها أكبر كارثة حاقت بالجماعات اليهودية في العالم .

وقد أصبح معسكر أوشفيتس موضع جدل كبير في الوقت الحالي فقد أُقيم دير للراهبات الكرمليات في بقعة أباد فيها الألمان كثيراً من البولنديين اليهود وغير اليهود ، على أن تُقام الصلوات يوميّا من أجل الجميع . ولكن بعض القيادات اليهودية في الولايات المتحدة أصرت على ضرورة أن يُزال هذا الدير حتى تظل أوشفيتس رمزاً يهوديّاً . وقد أذعنت القيادة الكاثوليكية في نهاية الأمر لهذا المطلب .

ستة ملايين من اليهود : عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوربا ؟ :

يرد في وسائل الإعلام الغربية رقم «ستة مليون» باعتباره عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود . وقد استقر الرقم تماماً حتى أصبح من البدهيات ، ولكن هناك رفضاً مبدئياً للرقم في الأوساط العلمية اليهودية وغير اليهودية . فعلى سبيل المثال قام راؤول هيلبرج في كتابه **تدمير يهود أوربا** (١٩٨٥) بتخفيض العدد من ستة إلى خمسة مليون (بعد دراسة إحصائية مستفيضة للموضوع) . وذكر سيسيل روث ، في موسوعته اليهودية ، أن الهولوكوست نُفذ بطريقة يصعب معها التحقق من دقة الأرقام ، وأن العدد يتراوح بين أربعة ملايين ونصف المليون وستة ملايين يهودي . ويميل المؤرخ الأمريكي اليهودي(صهيوني النزعة) هوارد ساخار إلى الأخذ برقم أربعة ملايين ونصف مليون .

وهناك من الأدلة الإحصائية ما يرجح الأخذ برأي ساخار ، فالكتاب السنوي **ورلد ألمانك** لعام ١٩٣٩ يقدر يهود العالم آنذاك بنحو ١٥,٦ مليون . وفي عام ١٩٥٠ ، قُدر عددهم بنحو ١٦,٦ مليوناً ، في حين قدرته صحيفة **نيويورك تايمز** عام ١٩٤٨ بما بين ١٥,٧ و١٨,٦ مليون ، وهناك تقديرات تذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك ، وقد يصل إلى ما بين ١٣ و١٤ مليوناً . وفي جميع الحالات ، لا يمكن أن يزيد عدد من اختفوا على أربعة ملايين . ومؤخراً ، ذكر المؤرخ الإسرائيلي يهودا باور ، مدير قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث التابع للجامعة العبرية ، أن الرقم ستة مليون لا أساس له من الصحة ، وأن الرقم الحقيقي أقل من ذلك . وبيَّنت بحوث المؤرخ الفرنسي جورج ويلير G. Wellers أن إجمالي عدد من أُبيدوا في أوشفيتس من اليهود وغير اليهود ليس أربعة ملايين وإنما هو ١,٦ مليون وحسب ، وأن هؤلاء لم يقضوا حتفهم من خلال أفران الغاز وحسب وإنما أيضاً بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار. ومما يجدر ذكره أن من يتبنون رقم ستة مليون وغيره من الأرقام لا يشيرون من قريب أو بعيد إلى ظاهرة اختفاء اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط وسوء التغذية والغازات والأوبئة (التي تتزايد بسبب ظروف الحرب) .

وبغض النظر عن الرقم مليون أو الأربعة أو الستة ملايين ، فإن ثمة خللاً أساسياً في المنطق الصهيوني يمكن تلخيص بعض جوانبه فيما يلي :

١ ـ التركيز على اليهود بالذات دون الجماعات الأخرى . فمع أن اليهود عانوا ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من ضحايا النازية ، إلا أن سياسة هتلر في الإبادة كانت موجهة أيضاً نحو الغجر والكاثوليك والمعارضين السياسيين والمرضى والمتخلفين عقلياً والسلاف عامة والبولنديين والروس على وجه الخصوص . وقد بلغ عدد ضحايا الحرب ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليون ، وخسر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشرة وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين ، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود . وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني .

٢ ـ التركيز على المدنيين دون العسكريين . ومع ذلك ، فإنه من بين العشرين مليون سوفيتي الذين قُتلوا في الحرب ، كان هناك أربعة ملايين ونصف مليون مدني والباقون من العسكريين ، ناهيك عن عدة ملايين من الألمان أرسلهم هتلر للموت في ساحة القتال . كما كان هناك كثيرون من جنود الحلفاء ضمن من قُتلوا في الحرب . ويجب ألا ننسى

الجنود من الأفارقة والآسيويين الذين جُندوا ، رغم أنفهم ، ليشتركوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، حيث كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية باعتبارهم مادة بشرية رخيصة .

٣ ـ التركيز على الماضي دون الحاضر ، وعلى ملايين اليهود الذين هلكوا قبل نحو نصف قرن ، دون اهتمام مماثل بالملايين التي أُبيدت بعد ذلك . فقد فقدت كمبوتشيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نحو مليوني شخص ، وفقدت الجزائر نحو مليون شخص ، وفقدت أفغانستان منذ الغزو السوفيتي عام ١٩٧٨ نحو مليون قتيل ، فضلاً عن مليوني مهاجر داخل البلد وخمسة ملايين مهاجر إلى خارجها حتى صاروا يمثلون نصف مجموع اللاجئين في العالم .

٤ ـ وهناك ، بطبيعة الحال ، مشكلة ملايين الفلسطينيين الذين طُردوا من ديارهم والذين يخضعون لظروف إرهابية شبه دائمة .

لكن التشكيك في مدى دقة الرقم (الستة ملايين) لا يعني بحال من الأحوال التشكيك في الجريمة النازية ذاتها ، فالجريمة النازية هي إحدى جرائم الحضارة الغربية الحديثة العديدة التي لا يمكن التهوين من شأنها . وما نهدف أساساً إليه من خلال مناقشة هذه الإشكالية هو تصحيح الرقم ووضع الظاهرة في سياق إنساني عام ومنظور تاريخي شامل ، بحيث نُحدد هويتها باعتبارها جريمة غربية محددة ضد قطاعات بشرية عديدة بدلاً من أن تكون جريمة ألمانية ضيقة أو جريمة عالمية غير محدَّدة ضد اليهود كلهم ، وضد اليهود دون سواهم . ونحن بهذا ننقذ واقعة الإبادة من سخافات الإعلام الغربي والصهيوني ، ولعبة الأرقام الطفولية التي تخبئ الأبعاد التاريخية والأخلاقية والإنسانية العامة للواقعة .

اختفاء وموت الشعب اليهودي :

يروج المدافعون عن الرؤية الصهيونية للإبادة النازية لرقم ستة مليون ، كجزء من عملية الأيقنة وتحويل الإبادة إلى لغز من الألغاز وسر من الأسرار المقدَّسة . وقد أهمل هؤلاء تماماً بعض العناصر التي أدَّت إلى اختفاء اليهود من خلال عناصر طبيعية مختلفة سنتناولها في هذا القسم .

فمن المعروف أن الفترة ما بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٢ شهدت تَناقُص عدد يهود العالم مليوناً ، فانخفض من ١٣,٨٣٧,٥٠٠ إلى ١٢,٩٨٨,٦٠٠ ، دون حدوث إبادة بل

ودون حالة حرب أو أوبئة . وقد تناقص عددهم لمركب من الأسباب أدَّى إلى ما يُسمَّى «موت الشعب اليهودي» . ومن الواضح أن يهود أوربا ، أي أغلبية يهود العالم آنذاك ، بدأوا يدخلون في مرحلة التناقص ابتداءً من القرن العشرين ، للأسباب التالية :

١ ـ أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر :

أ ـ أدَّت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ويُقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً ، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تُعيد إنتاج نفسها .

ب ـ كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أي بأعمال التجارة والمال . وكانوا ، لهذا ، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية . ومع منتصف القرن التاسع عشر ، تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية ، فقد كان ثلث يهود روسيا يوجدون في خمس مدن وبقيتهم تعيش في مدن صغيرة . وكان أربعة وثمانون في المائة من يهود الولايات المتحدة يعيشون في ثماني عشرة مدينة كبيرة ونصفهم في نيويورك . كما كان معظم يهود النمسا في فيينا ، ومعظم يهود فرنسا في باريس ، وهكذا . ومن المعروف أن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة .

جـ ـ كان اليهود ، حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، جماعة بشرية مهاجرة ، ومن المعروف أن أعضاء مثل هذه الجماعات يعزفون عن الإنجاب لعدم استقرارهم .

د ـ كانت هناك عناصر أخرى أدَّت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب ، من بينها تحسن مستواهم المعيشي ، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانية ، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات ، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال .

وبالفعل ، يُلاحَظ تناقص أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية . فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثُر بين شعوب الإمبراطورية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر ، انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق في عام ١٩٢٦ . فبعد أن كانت ٣٥,٩ في الألف ، انخفضت إلى ٢٤,٨ في الألف . وفي بولندا ، انخفضت النسبة من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ في وارسو ،

وإلى ١١,٦ في الألف في لودز عام ١٩٢٥ . أما يهود المجر ، فقد انخفضت النسبة بينهم من ٣٣,٩١ في الألف في بداية القرن الحالي إلى ١٠,٥ في الألف ، أي أنها انخفضت نحو ٢٣,٤ في الألف . وكانت نسبة المواليد في بروسيا (ألمانيا) ٥,٢ في الألف عام ١٩٣٥ و٢ في الألف في لندن عام ١٩٣٢ . وقد حدا هذا الوضع بالكُتَّاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوربا قد يختفون تماماً لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات . وعلى مستوى العالم ، كانت النسبة ٣٥,٥ في الألف في الفترة ١٨٢٢ - ١٨٤٠ ، انخفضت إلى ١٩,٧ في الألف في الفترة ١٨٩٨ - ١٩٠٢ ، ثم إلى ٩,١ في الألف عام ١٩٢٩ . كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عاماً (١٩٢٩ - ١٩٤٩) . وكان معدل نسبة المواليد في الفترة ١٩٠٦ - ١٩١٠ هو ٣٢ في الألف ، ونسبة الوفيات ١٥ في الألف ، والزيادة الطبيعية هي ١٧ في الألف . ثم انخفضت إلى نحو النصف في نحو خمسة وعشرين عاماً ، ففي الفترة ١٩٢٦ - ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد هي ٢١ في الألف والوفيات ١٢ في الألف ، والزيادة الطبيعية ٩ في الألف (انخفضت إلى ٨ في الألف عام ١٩٣٢) . ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥ - ١٩٤٩ لأنها كانت فترة الحرب ، كما أنها أصبحت موضوعاً يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه .

٢ ـ عوامل تؤدي إلى الاختفاء :

أ ـ ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية ، وهو أمر جديد كل الجدة ، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك ، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية . لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى انقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكلٍ غير مباشر أيضاً عن طريق زيادة معدل العزوف عن الإنجاب . كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادةً من الذكور في سن الخصوبة .

ب ـ تزايد نسبة الزواج المختلط بدرجة عالية كانت تصل إلى أكثر من ٥٠٪ في بعض العواصم الأوربية .

جـ ـ تَنصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج. وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي . كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية . وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر .

د ـ ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي . فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي ، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه ، فلو كان الشخص يهودياً وعرَّف نفسه بأنه «روسي» أو «أوكراني» فإن الأمر متروك له . ومع تآكل الهوية اليهودية ، لم يعد هناك دافع قوي لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم .

وقد أشار عالم الاجتماع اليهودي لوريا أنجلمان ، عشية الحرب العالمية الثانية ، إلى ما سماه «العملية ذات الأبعاد الثلاثة» (تناقص المواليد ، وتزايد الوفيات ، وتزايد معدلات الاندماج) باعتبارها العملية التي ستؤدي إلى الاختفاء الكامل لليهود .

٣ ـ ظروف الحرب العالمية الثانية :

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة ، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة . كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز ، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف ، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض . ويُقال إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة ، وإنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام . (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة ، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع . ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا) . كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية ، وانتهاءً بالغارات على المدن ، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم .

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء الستة مليون يهودي (أو حتى الأربعة مليون حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة فحسب .

إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين :

تقوم إسرائيل بتعقب مجرمي الحرب النازيين بروح انتقامية مفترسة لا يمكن أن توصف إلا بالتطرف ، خصوصاً وأن الحرب انتهت منذ حوالي خمسين عاماً ، أي أن الغالبية الساحقة للشعب الألماني كانوا أطفالاً أثناء الحرب أو لم يكونوا قد وُلدوا بعد . كما أن

المحاكمات التي أجراها الحلفاء ، والتي تمت بمنهجية وشمولية كاملتين ، عاقبت الغالبية الساحقة من مجرمي الحرب النازيين والمتعاونين مع النظام النازي . ومع هذا تستمر عمليات الملاحقة والمحاكمة (كما حدث مع أدولف أيخمان وكلاوس باربي وكورت فالدهايم وجون ديمانجوك) .

وتهدف المطاردة المستمرة لمجرمي الحرب النازيين إلى تعميق الإحساس الغربي بالذنب تجاه اليهود وتذكير الشعب الألماني ، والشعوب التي قاتلت إلى جانب ألمانيا ، بمسئوليتها عن هذه الإبادة وإظهار الإبادة كما لو كانت موجهة ضد اليهود وحسب ، وتوظيف هذا الشعور في إضفاء شرعية على الوجود الصهيوني في فلسطين . كما تأتي في سياق السعي إلى تعميق إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بهويتهم اليهودية وبالمصير اليهودي المشترك، خصوصاً مع تزايد معدلات الاندماج وتآكل الجانب الديني للهوية اليهودية بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الأوربية والغربية الحديثة . ومن هنا تأتي ضرورة إحياء ذكرى الإبادة بصفة مستمرة عن طريق عمليات المطاردة للنازيين القدامى وتقديمهم إلى المحاكمة في ظل متابعة إعلامية كثيفة . بالإضافة إلى أن التذكير والتلويح بخطر الإبادة قد يدفع أعضاء الجماعات اليهودية إلى الهجرة إلى إسرائيل .

وقد نجحت إسرائيل عام ١٩٧٩ في إلغاء مبدأ تقادم جرائم مجرمي الحرب في ألمانيا الغربية ، ولكنها اعتقلت آلافاً منهم مع أن نسبة إدانتهم في النهاية كانت تتراوح بين تسعة في المائة عام ١٩٦٤ وواحد ونصف في المائة عام ١٩٧٦ . ففي عام ١٩٧٢ ، مثلاً ، اعتُقل ستة عشر شخصاً بشبهة أنهم مارتن بورمان (نائب هتلر) ، ثم ثبتت براءتهم جميعاً . وتحت الضغط اليومي المكثف ، أنشأت وزارة العدل الأمريكية عام ١٩٨٠ مكتباً للتحقيق مع مئات الأمريكيين من مجرمي الحرب ، ولكنها لم تُوفَّق كثيراً في التوصل إليهم .

وفي كندا ، صرح كثير من الصهاينة بوجود ما لا يقل عن ستة آلاف من مجرمي الحرب ، فأُسِّست في أوائل عام ١٩٨٥ لجنة للبحث عن مجرمي الحرب (لجنة ديشين Deschênes Commission) وقُدِّم لها ٢١١٤ اسماً . كما قدَّم سيمون ويزنتال ، المتخصص في تعقب مجرمي الحرب ، قائمة من ٢١٧ اسماً زعم أنهم أعضاء في فرق الإس . إس . من أوكرانيا وعملوا في جاليشيا. وقد استغرق عمل اللجنة سنتين ثم قدمت تقريرها في ديسمبر ١٩٨٦ ، وتبين أن هناك عشرين اسماً فقط ، من بين ٢١١٤ اسماً ، أوصت اللجنة إما بمحاكمتهم أو بترحيلهم . أما قائمة ويزنتال ، فقد ظهر أن ١٨٧ منهم لم يدخلوا كندا قط . ومن الثلاثين الباقين ، حضر اثنان بالفعل إلى كندا ثم غادراها ، ومات

أحد عشر شخصاً ، بينما كان هناك ستة عشر شخصاً لم يثبت أي شيء ضدهم . أما المتهم الوحيد الباقي ، فلم يمكن الاستدلال عليه . وقد طلبت اللجنة من ويزنتال أن يزودها بمزيد من الأسماء ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . وهو أمر متوقع بعد أن قام الحلفاء بعملية " نزع الصبغة النازية عن ألمانيا " .

وقد بدأ كثيرون يُعبِّرون عن ضيقهم من عملية الملاحقة . فقد ذكرت صحيفة **التايمز** البريطانية في عام ١٩٧٢ أن ثمة دلائل متزايدة على أن الرأي العام صار ضد تَعقُّب الشيوخ بدعوى أنهم مجرمون نازيون . وأشارت جريدة **ديلي تلغراف** البريطانية إلى أن حراس السجون والكثير من الناس في ألمانيا نفسها يتساءلون عن الحكمة في استمرار محاكمات جرائم النازية بعد مرور كل هذه السنوات على انتهاء الحرب . وعندما زار الكاتب الألماني جونتر جراس إسرائيل عام ١٩٧١ صارح شعبها بأنه لا يحب عقلية التوراة التي تقول إن على الجيلين الثاني والثالث أن يحملا وزر جيل سبقهما .

وتُعدُّ الحالات التالية نموذجاً لعمليات الملاحقة التي تقوم بها إسرائيل ، بكل ما تنطوي عليه من دلالات :

١ ـ محاكمة أيخمان :

أدولف أتو أيخمان (١٩٠٦ ـ ١٩٦٢) مسئول نازي وضابط في فرق العاصفة ، ومن أهم الشخصيات في عملية الإبادة النازية ليهود أوربا . وُلد في ألمانيا لأسرة متواضعة هاجرت إلى النمسا حيث تلقى تعليمه . عمل بائعاً متجولاً ممثلاً لشركة سوكوني فاكوم من عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٣٣ . انضم أيخمان للحزب النازي في عام ١٩٣٢ ، وبدأ منذ عام ١٩٣٤ يعمل في قسم اليهود بالمخابرات الألمانية ، حيث أُرسل إلى فلسطين بدعوة من المستوطنين الصهاينة ليدرس التجربة الصهيونية هناك . فبدأ يدرس اليديشية والعبرية والعقيدة اليهودية ، وبحلول عام ١٩٣٨ أصبح حجة في مسألة التنظيمات الصهيونية والهجرة اليهودية ، فأرسله النظام النازي إلى النمسا ليساعد في عملية تهجير أعضاء الجماعة اليهودية . وقد أظهر أيخمان كفاءة غير عادية إذ استخدم أسلوب خطوط التجميع ، المستخدم في المصانع ، لتسهيل العمل . وبعد عودته إلى برلين عام ١٩٣٩ ، عُيِّن مديراً لمركز الرايخ للهجرة اليهودية ، ثم عُيِّن فيما بعد رئيساً لقسم الشئون اليهودية في الجستابو حيث قام بالإشراف على عملية نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال .

قُبض على أيخمان بعد الحرب ، ولكن لم تُكتشف هويته الحقيقية ، ففر إلى الأرجنتين عام ١٩٤٥ واختبأ فيها إلى أن عثر عليه عملاء المخابرات الإسرائيلية عام ١٩٦٠ . وساهم

في عملية اكتشاف شخصية أيخمان في الأرجنتين المدعي العام في ألمانيا الغربية ، الذي وضع المعلومات التي حصل عليها تحت تصرف المخابرات الإسرائيلية ، فأوفدت إسرائيل مجموعة من رجال مخابراتها إلى بيونس أيريس حيث تحققت من شخصية أيخمان ، وتم اختطافه ونقله بعد عشرة أيام مخدَّراً متخفيًا في زي مضيف جوي على متن طائرة إسرائيلية كانت قد جاءت إلى الأرجنتين تحت ستار نقل وفد إسرائيلي رسمي للاشتراك في احتفال الأرجنتين بالذكرى المائة والخمسين لاستقلالها .

وبدأت محاكمة أيخمان في ١١ أبريل عام ١٩٦١ بالقدس المحتلة ، حيث وجه إليه المدعي العام الإسرائيلي جدعون هاوزنر تهمة المشاركة في إبادة يهود أوربا ، وتولى الدكتور روبرت سرفاتيوس ، الذي تخصص في الدفاع عن مجرمي الحرب النازيين ، مهمة الدفاع عن أيخمان .

ولم يُنكر أيخمان أو محاميه أيًا من الاتهامات الموجهة إليه ، ولكنهما ركزا دفاعهما أساساً على أن أيخمان لم يكن سوى موظف في مؤسسة حديثة ضخمة يقوم بتنفيذ الأوامر التي يصدرها إليه رؤساؤه كما كان يُفترض فيه أن يفعل ، ولذا فهو مجرد بيروقراطي منفذ للإجراءات دون أن يسأل عن الأهداف ، وبالتالي يجب أن يُحاكم على مدى كفاءته أو عدم كفاءته في تنفيذ الأوامر لا على مدى تقييمه الأخلاقي لهذه الأهداف ، أي أن أيخمان طالب بأن يُنظر إليه باعتباره إنساناً حديثاً أداتياً يهتم بالإجراءات ويدين بالولاء للمؤسسة التي يعمل فيها ولا يكترث بالقضايا الأخلاقية النهائية . ولكن المحكمة رفضت دفعه ، وحكمت عليه بالإعدام .

وكان بن جوريون ، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك ، يهدف من وراء المحاكمة إلى زيادة الوعي اليهودي بين أعضاء التجمع الاستيطاني وأعضاء الجماعات اليهودية في العالم عن طريق تعميق الإحساس بأنهم الضحية الوحيدة وأن الآخرين أو الأغيار (ممثلين في النازيين) لا تأخذهم الرحمة باليهود . ومع هذا ، فجرت المحاكمة عدة قضايا لم يكن من أعدوا لها قد انتبهوا إليها :

* بيَّن أيخمان أن الرؤية الصهيونية لليهود لا تختلف كثيراً عن رؤيته هو ، فكلاهما يؤمن بضرورة تهجير اليهود باعتبارهم شعباً عضويًا منبوذاً إلى أرض خاصة بهم ، كما أشار أيخمان إلى أن المسئولين طلبوا منه ، عند تعيينه في وظيفته ، أن يقرأ كتاب هرتزل **دولة اليهود** ، وأنه تأثر به أيما تأثر ، وأنه ، في هذا ، لا يختلف كثيراً عن الزعماء النازيين الذين تأثروا بالفكر الصهيوني وخصوصاً بوبر .

* أشار أيخمان إلى التعاون بين السلطات النازية والصهاينة ، خصوصاً رودولف كاستنر وجويل براند ، وأوضح أنه كانت هناك صفقة هُجِّر بموجبها بضعة يهود * من خيرة العناصر البيولوجية * إلى المستوطَن الصهيوني . كما أُرسلت كميات من البضائع إلى هناك في نظير أن تضمن القيادات الصهيونية هدوء اليهود المرحلين إلى معسكرات الاعتقال .

* أثار سلوك الضحايا اليهود كثيراً من الدهشة ، حيث لاقوا حتفهم دون مقاومة ، ولعلهم لو قاوموا لعطلوا آلة الحرب النازية التي كانت مرهقة . وقد نظر الجيل الجديد من أبناء المستوطن الصهيوني إلى سلوكهم هذا باعتباره سلوكاً نموذجيًّا ليهودي الجيتو الضعيف (مقابل العبراني الجديد القوي) ، وبالتالي نجم عن المحاكمة مزيد من الرفض ليهود العالم .

* أثناء تقديمه لعريضة الاتهام ، بيَّن المدعي العام الإسرائيلي أن الشعب اليهودي تعرض للاضطهاد والطرد والملاحقة في كل البلاد عبر التاريخ . وهنا تلقف محامي الدفاع هذه الأطروحة وتساءل : ما هي طبيعة هذا الشعب الذي يجد نفسه عُرضة للطرد والملاحقة أينما كان ؟ ألا يوجد احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من أذى ، وأنه شعب مستفز يضطر كل الشعوب في كل زمان ومكان لطرده وملاحقته ؟ وقد أُصيب الحاضرون بالذهول من تساؤلات محامي الدفاع .

كما أثارت المحاكمة قضايا أخرى مختلفة مثل دور المجالس اليهودية التي شكلها النازيون وعينوا فيها يهوداً ، فكانوا أداة تنفيذية في يد النازي ، بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول دور كثير من الحاخامات الذين لم يشاركوا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد كانت المحاكمة محط اهتمام دولي ، خصوصاً وأن الدولة الصهيونية انتهكت القانون الدولي وسيادة عدة دول (الأرجنتين وألمانيا) باختطاف أيخمان الذي حُكم عليه بالإعدام ، ثم أُعدم شنقاً في سجن الرملة وأُحرقت جثته ونُثر رمادها في البحر الأبيض المتوسط .

٢ ـ محاكمة كلاوس باربي :

كلاوس باربي ، الذي أُطلق عليه لقب «سفاح ليون» ، هو أحد ضباط الجستابو (البوليس السري الألماني) . وأُدين بارتكاب جرائم الحرب في فرنسا إبان الحرب العالمية

الثانية . وكان باربي قد تولى عام ١٩٤٢ قيادة قوات الجستابو في مدينة ليون الفرنسية ، كما تولى مهمة تعقب عناصر المقاومة الفرنسية والتصدي لنشاطها . وخلال فترة عمله التي استمرت عامين ، قام باربي بترحيل ٨٤٢ شخصاً من ليون إلى معسكرات الاعتقال النازية ، كان نصفهم من عناصر المقاومة والنصف الآخر من اليهود . كما أُدين كلاوس باربي بارتكاب عمليات التعذيب والمذابح ضد عناصر المقاومة والمدنيين في ليون والمناطق المحيطة بها .

ورغم ذلك ، قامت الاستخبارات المضادة التابعة للجيش الأمريكي المتمركز في ألمانيا بتجنيد باربي للعمل لصالحها عام ١٩٤٧ ، فتحول باربي إلى مصدر مهم وقيم للمعلومات (خصوصاً فيما يتعلق بالعناصر اليسارية والشيوعية) ، وهو ما دفع المسئولين الأمريكيين إلى عدم الاستجابة للمطالب الفرنسية بتسليمه للسلطات الفرنسية . بل وقاموا بتهريبه إلى بوليفيا عام ١٩٥١ حيث عاش تحت اسم مستعار هو كلاوس التمان . وقد قُدِّم باربي للمحاكمة غيابيًا في فرنسا في ١٩٥٢ - ١٩٥٤ حيث أدين بارتكاب المذابح والفظائع وصدر ضده حكم بالإعدام . وفي عام ١٩٧١ ، نجح فرنسيان من جماعة صائدي النازيين من العثور عليه . وأثمرت مساعي فرنسا عن طرده من بوليفيا عام ١٩٨٣ ، ثم تقديمه للمحاكمة في فرنسا عام ١٩٨٧ بتهمتين لم يتم توجيههما إليه من قبل ، وصدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة .

غير أن محاكمته أثارت اهتماماً واسعاً داخل فرنسا وخارجها ، حيث تخوَّف بعض أعضاء الجماعة اليهودية من أن ذلك قد يثير المشاعر المعادية لهم أو قد تتحول المحاكمة إلى منبر لنفي الإبادة النازية . ومن ناحية أخرى، انتقد بعض الفرنسيين المحاكمة باعتبار أن الأعمال التي ارتكبها باربي لا تختلف كثيراً عما ارتكبته قوات الحلفاء حين قتلت المدنيين العزل أثناء قصفها للمدن الألمانية .

٣ـ حادثة فالدهايم :

أثناء حملته الانتخابية لرئاسة النمسا عام ١٩٨٦ ، أُثيرت ضد كورت فالدهايم (الأمين العام السابق للأمم المتحدة) قضية ما يُسمَّى «ماضيه النازي» . وقد تزعم الحملة ضده المؤتمر اليهودي العالمي الذي اتهم فالدهايم بإخفاء جوانب من ماضيه أثناء الحرب العالمية الثانية وبالكذب حين ادعى عدم ارتباطه بالنازي بأي شكل من الأشكال ، مؤكداً أنه كان عضواً في اتحاد الطلبة النازي، وأنه التحق (على حد زعم المؤتمر) بإحدى وحدات قوات

العاصفة ، بل وأُلحق في نهاية عام ١٩٤٢ بالقوات الألمانية في سالونيكا والتي تولَّت ترحيل اليهود من اليونان إلى معسكرات الاعتقال وقامت بعمليات عسكرية وحشية ضد المقاومة اليوغسلافية ومؤيديها من المدنيين . وفي إطار حملته المكثفة ضد فالدهايم ، كشف المؤتمر اليهودي العالمي النقاب عن بعض الوثائق التي ادعى أنها تؤكد إدانة فالدهايم ومن أهمها ملف «أودلو كانمر» (أو القرار) اليوغسلافي الذي ضم قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانت السلطات اليوغسلافية تشتبه في تورطهم في ارتكاب جرائم الحرب وكان من بينها اسم فالدهايم . واستناداً إلى هذا الملف ، تم ضم اسم فالدهايم إلى ملف لجنة الامم المتحدة لجرائم الحرب . كما قام المؤتمر بإسناد مهمة البحث في ماضي فالدهايم إلى عَالم في التاريخ أشارت نتائج بحثه إلى أن فالدهايم عمل ضابطاً في قسم الاستخبارات العسكرية للجيش المتمركز في غرب البوسنة والذي كانت قواته مسئولة عن ارتكاب المذابح ضد آلاف اليوغسلاف في جبال كوزارا عام ١٩٤٢ ، وأن فالدهايم حصل على نوط الشجاعة من الحكومة الكرواتية الموالية لألمانيا في هذه الفترة . وفي ضوء هذه النتائج ، حث المؤتمر اليهودي العالمي الحكومة الأمريكية على وضع كورت فالدهايم على قائمة الأجانب غير المرغوب في دخولهم إلى الولايات المتحدة . وقد أقدمت الحكومة الأمريكية على ذلك بالفعل في أبريل عام ١٩٨٧ .

ورغم هذه الحملة الإعلامية المكثفة نجح فالدهايم في انتخابات الرئاسة النمساوية ، ولكن هذه القضية تركت أثارها على مكانته الدولية حيث رفض كثير من قادة أوربا والولايات المتحدة الالتقاء به أو حتى زيارة النمسا أثناء توليه رئاسة البلاد . وقد نفى فالدهايم مراراً الاتهامات التي وُجِّهت إليه ونفى اشتراكه في عمليات ترحيل لليهود أو في مذابح ضد المقاومة اليوغسلافية واعتبر هذه الاتهامات جزءاً من حملة تشهير وافتراء دولية بدأتها المعارضة النمساوية وتزعمها المؤتمر اليهودي العالمي والصحافة الدولية ، وأكد أن ماضيه قد بُحث بشكل واف من قبَل الأجهزة الأمنية النمساوية قبل توليه العمل في السلك الدبلوماسيَ النمساوي وأيضاً من قبَل أجهزة المخابرات الأمريكية (سي . آي . آيه) والسوفيتية (كي . جي . بي) والإسرائيلية (الموساد) عند ترشيحه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة ، ولم تجد أي منها ما يدينه . ولم يتم أبداً إثبات أيٍّ من الاتهامات الموجَّهة ضد فالدهايم ، بل وتبيَّن فيما بعد أن ملف أودلو كانمر (أهم وثيقة في القضية) تحيط به الشكوك . وقد قامت ثلاث جهات نمساوية وبريطانية ودولية مستقلة بالتحري والبحث في هذه الاتهامات ولم تجد أيٌّ منها ما يدين فالدهايم بأي عمل إجرامي أو يؤكد تورطه فيما نُسب إليه . وقد ساعد ذلك على فك العزلة المضروبة من حوله إلى حدٍّ ما ، فالتقى به

البابا عام ١٩٨٧ ثم رئيسا ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ ، كما رحَّبت به عدد من الدول العربية .

ومن ناحية أخرى ، كانت هذه القضية محاولة ناجحة إلى حدٍّ كبير للنيل من سمعة كورت فالدهايم التي شهدت الأمم المتحدة خلال فترة توليه منصب الأمين العام (١٩٧١ - ١٩٨٢) دعوة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ولأول مرة ، لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكذلك صدور قرار يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية .

٤ ـ محاكمة ديمانجوك :

جون ديمانجوك مواطن أمريكي من أصل أوكراني اتُّهم بارتكاب جرائم حرب إبان الحرب العالمية الثانية . وأشارت الاتهامات والادعاءات الموجَّهة إليه ، إلى أنه كان يقاتل في صفوف الجيش السوفيتي حينما وقع في أسر الألمان ورُحِّل إلى أحد معسكرات أسرى الحرب . وأثناء ذلك ، وافق ديمانجوك على الانضمام إلى إحدى الوحدات العسكرية المشكلة من الأجانب والعاملة في خدمة قوات الإس . إس . الألمانية . وقد تدرب أولاً في أعمال الحراسة ثم نُقل إلى معسكر تربلينكا حيث أشرف على غرف الغاز وأُطلق عليه لقب «إيفان الرهيب» بسبب قسوته البالغة ، وظل في المعسكر حتى إغلاقه عام ١٩٤٣ . ومع انتهاء الحرب ، انتقل ديمانجوك إلى الولايات المتحدة حيث عاش حياة هادئة إلى أن علمت السلطات الأمريكية بماضيه ، فقامت بتجريده من جنسيته الأمريكية . وفي عام ١٩٨٦ ، تم ترحيله إلى إسرائيل حيث قُدِّم للمحاكمة عام ١٩٨٧ بعد أن وُجِّهت إليه اتهامات بالقتل وارتكاب جرائم ضد الإنسانية وارتكاب جرائم ضد الشعب اليهودي . وقد أكد الدفاع أن هناك خطأً ولبساً في شخصية المتهم ، فجون ديمانجوك ليس هو «إيفان الرهيب» ، كما شكك الدفاع في الأدلة المقدمة ضده وفي قدرة الشهود على تذكر أحداث جرت منذ أكثر من ٤٥ عاماً . ورغم ذلك ، أُدين ديمانجوك بالتهم الموجهة إليه وحكم عليه بالإعدام عام ١٩٨٨ .

وبطبيعة الحال ، حاولت المؤسسة الصهيونية استثمار عملية المحاكمة نفسها، بغض النظر عن نتائجها ، في تحقيق أهدافها الخاصة برفع ما يُسمَّى «الوعي اليهودي» بين الأجيال الجديدة من أعضاء الجماعات اليهودية . كما حاولت تذكير العالم (الغربي) بالجرم النازي ضد اليهود ، وذلك في محاولة للتغطية على القمع الإرهابي الذي تمارسه

إسرائيل للقضاء على الانتفاضة الفلسطينية . ولكن محاكمة ديمانجوك تبين أن هذه العملية تقترب من نهايتها . فقد اعترف بعض المسئولين الأمريكيين (في مكتب التحقيقيات التابع لوزارة العدل الأمريكية) بجرمهم في إخفاء الأوراق التي تثبت أن ديمانجوك ليس إيفان الرهيب . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وفتح كثير من الملفات السرية ، ظهرت دلائل جديدة تؤكد أن ديمانجوك ليس هو إيفان الرهيب وأنه عمل حارساً في معسكر آخر غير تربلينكا . وكتبت **النيويورك تايمز** تقول إنه لابد من الإفراج عنه لعدم توافر أية أدلة ، ونبه باتريك بيوكانان (منافس بوش ثم دول على الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية عن الحزب الجمهوري) إلى أن السلطات الإسرائيلية تماطل في إصدار الحكم ببراءة ديمانجوك على أمل أن يموت في السجن ولا تضطر إسرائيل إلى الاعتراف بخطئها . بل إن الصحف الإسرائيلية ذاتها بدأت تنبه إلى أن الاستمرار في مثل هذه المحاكمات قد يؤدي إلى نتائج عكسية . ولعل حكم البراءة الذي اضطرت المحكمة الإسرائيلية العليا إلى إصداره عام ١٩٩٣ هو نهاية هذه المهزلة . وقد عاد ديمانجوك فيما بعد إلى الولايات المتحدة .

الفصل الثالث

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

من الموضوعات التي لم يتم بحثها بالقدر الكافي ، لأسباب معروفة ، قضية تورُّط بعض أعضاء الجماعات اليهودية (من الصهاينة وغير الصهاينة) في علاقة تعاون وثيقة مع النازيين . وقد أخذ هذا التعاون أشكالاً كثيرة من بينها عدم الاشتراك في المقاومة أو التعاون الاقتصادي مع النازيين أو الانخراط في التنظيمات النازية . ولكن أهم أشكال التعاون وأوثقها هو التعاون المؤسسي بين المستوطنين الصهاينة والنظام النازي والنظام الفاشي ، وسنتناول في هذا الفصل أشكال التعاون هذه .

مقاومة الجماعات اليهودية للنازية :

يُثير بعض الدارسين تساؤلاً بخصوص المقاومة اليهودية والصهيونية للنازيين، وهي مسألة خلافية مركبة . ومما يجدر ذكره أنه حين استولى هتلر على السلطة عام ١٩٣٣ ، ظلت هناك جيوب رافضة داخل المجتمع الألماني صعّدت المقاومة ضده من منظور ليبرالي . كما كانت هناك حركة مقاومة ثورية نظمتها الأحزاب الشيوعين والاشتراكيه، فالنازية حركة رجعية شمولية تقف ضد مصلحة الطبقة العاملة . كما كانت هناك مقاومة من منظور يميني تدعمها قطاعات معينة من الرأسمالية الألمانية الكبيرة . وكانت هناك أيضاً مقاومة من منظور تقليدي أرستقراطي باعتبار أن النازية تقضي على امتيازات الطبقة الأرستقراطية الألمانية التقليدية ومكانتها ، إذ كانت النازية ، على مستوى من المستويات ، عملية تحديث سريعة وراديكالية تمت تحت إشراف عناصر من البورجوازية الصغيرة لا تحترم التقاليد وتقضي على سائر الخصوصيات وتحاول أن تنجز في عشرة أعوام ما أنجزته أوربا في مئات الأعوام . وقد تمركزت المقاومة التقليدية في الجيش ووزارة الخارجية ، وكانا يضمان أعداداً كبيرة من أعضاء الطبقة الأرستقراطية . وبالمثل قام البولنديون بحركة مقاومة عنيفة ضد النازيين ، هذا بخلاف حركات المقاومة في فرنسا وغيرها من الدول .

وقد بيَّن كثير من الكُتَّاب أنه لم تنشأ أية مقاومة يهودية في أرجاء أوربا ، مع أن مثل هذه المقاومة كان بوسعها أن تصيب آلة الإبادة النازية بالشلل أو تحد من سرعتها أو تعطلها ، خصوصاً وأنها كانت مرهَقَة . ولم تبدأ المقاومة اليهودية جديًا في وارسو ، التي كان ٤٥ في المائة من سكانها من اليهود ، إلا في أوائل عام ١٩٤٣ ، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء وحين قررت برلين تدمير حارة اليهود ، وكان الوقت قد فات على إنقاذ نزلاء المعسكرات .

ومن الأسباب الأساسية التي يطرحها البعض لتفسير ضعف المقاومة اليهودية رغم الشراسة النازية هو الموقف الصهيوني ، إذ يبدو أن الصهاينة لم يبدوا حماساً كبيراً في حربهم ضد النازية ، وكانوا غير مكترثين بالمقاومة ضد النازيين . وفي مجال هجومه على المشروع الصهيوني ، حذر المفكر الاشتراكي كارل كاوتسكي من الآثار الضارة للصهيونية التي توجه جهود اليهود وثرواتهم إلى الاتجاه الخاطئ (الاستيطان في فلسطين) في وقت تتقرر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماماً (أوربا وألمانيا) حيث يجب عليهم أن يركزوا فيه كل قواهم . وكان كاوتسكي يشير بذلك إلى أن ملايين اليهود في شرق أوربا (بين ثمانية وعشرة ملايين) لم يكن من الممكن تهجيرهم إلى فلسطين . وبدلاً من تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم ، حتى يكونوا مهيئين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة ، كانت القيادات الصهيونية تركز على تهجير بضع مئات منهم إلى أرض الميعاد .

ولكن الاعتبارات الصهيونية كانت مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك ، إذ قرر الصهاينة اتخاذ موقف الحياد من المقاومة ، باعتبار أن اليهود لهم مصالحهم وحروبهم المختلفة ، وأن هدفهم الوحيد هو تأسيس الدولة الصهيونية . ولذا نادى كثير من الصهاينة بعدم الاشتراك في الحركات المعادية للنازية والفاشية . وقد بيَّن ماريك إيديلمان ، أحد قواد تمرد جيتو وارسو ، في حديث له مع مجلة **هاآرتس** أن الأبطال الحقيقيين للمقاومة كانوا أعضاء حزب البوند واليهود المعادين للصهيونية والشيوعيين والتروتسكيين والصهاينة اليساريين ، أما أعضاء التيار الصهيوني الأساسي فكان موقفهم هو موقف الحياد . وكلما كان النضال ضد النازية يزداد ضراوة ، كان الصهاينة يزدادون ابتعاداً عن بقية اليهود . ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية ، ويُقال إن أغلبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة (وإن كان هذا يحتاج إلى مزيد من التمحيص) . ومن الثابت تاريخيًا أن المجالس اليهودية كانت أداة ذات كفاءة عالية في إدارة عملية الإبادة .

وقد تعاون كثير من الأفراد اليهود (غير الصهاينة) مع النازيين ، وهم في هذا لا

يختلفون عن مئات الأوربيين الآخرين الذين كانوا مجرد موظفين ينفذون الأوامر التي تصدر إليهم . كما لم يكترث يهود فرنسا بنقل اليهود الذين ليسوا من أصل فرنسي ، تماماً مثلما أظهر يهود ألمانيا عدم اكتراث بنقل اليهود الأوست يودين (أي يهود شرق أوربا) . بل إن بعض الكُتّاب اليهود أثاروا قضية دور الحاخامات في أوربا وفشلهم في قيادة حركة المقاومة . ومن المعروف أن قساً كاثوليكيّا وواعظاً بروتستانتيّا تطوعا للذهاب مع المرحلين إلى معسكرات الاعتقال ، بينما لم تلعب الحاخامية دوراً مماثلاً .

والموضوع ، كما أسلفنا ، خلافي للغاية ، فثمة نظرية تذهب إلى أن المقاومة لم تكن على أية حال لتجدي فتيلاً ، وذلك لأن الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني لم تكن تمانع في الإبادة ، كما أن آلة الحرب والمخابرات والإبادة الألمانية كانت على درجة عالية من الكفاءة والقدرة على الفتك . ومن الممكن تطبيق المقولة نفسها على هؤلاء الأغيار المتهمين بعدم مقاومة النازي ، فلعلهم توصلوا هم أيضاً إلى عدم جدوى المقاومة . ولكن هذا القول الذي ينطبق على الجماعة اليهودية في ألمانيا لا يسري بأية حال على يهود بولندا الذين كانوا يُشكلون كثافة سكانية لا بأس بها ، وكان بوسعهم المقاومة والانضمام إلى الشعب البولندي الذي كان يقاوم الغزو النازي .

ومن القضايا الأخرى التي تُثار في هذا السياق موقف المستوطنين الصهاينة. فقد كانت إحدى دعاوى إقامة الدولة الصهيونية أنها ستكون ملجأ لليهود يحميهم من هجمات الأغيار ومذابحهم . ولكن حينما دخلت قوات روميل حدود مصر وبدأت تتقدم نحو الإسكندرية ، اكتشف المستوطنون الصهاينة عبث المقاومة ، بل ووضعت بعض الكيبوتسات خطة للانتحار . والقدرة على الانتحار تختلف بشكل جوهري (في تصورنا) عن المقاومة والإنقاذ . ولكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الانتحار يفقد الجيب الصهيوني شرعيته كملجأ أخير ونهائي لليهود .

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا . وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية ، عام ١٩٨١ ، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، ولكنها أغلقته بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم ، وهو كذلك بالفعل . لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق ، خصوصاً وأن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكان والكنيسة بالتقصير لم تتوقف .

الفاشية والصهيونية :

من أهم الأفكار الغربية التي نبتت الصهيونية في تربتها ، الأفكار السياسية الخاصة بالقومية العضوية وبالدولة القومية باعتبارها المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية للنسق ، وهي الأفكار التي تصبح تقديساً للدولة وانصياعاً لزعيمها في الأنساق الشمولية . وقد تبنت الصهيونية كل هذه الأفكار وتحركت في إطارها ، فأنشأت علاقة مع النظام الفاشي (في إيطاليا) والنظام النازي (في ألمانيا) .

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشيه لا علاقة لها بالعداء لليهود . وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء ، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية . حيث نصت المادة ٣٥ من قانون تأسيس هذا الاتحاد على أن اليهود هم سفراء الفاشية للعالم ، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا في النشاطات الدينية والاجتماعية ليهود العالم ، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم .

وفي يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيارة موسوليني ، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة . واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه بأن الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية . فرد وايزمان عليه رداً مقنعاً بيَّن له فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع ، وأضاف أن شروط حكومة الانتداب ذاتها تفتح المجال أمام إيطاليا أو أية دولة أخرى للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيازات تجارية ، على حد قول وايزمان) ، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذ اعتمدت الميزانية اللازمة . وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين ، سمح موسوليني على أثره بتعيين يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية .

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في سبتمبر ١٩٢٦ ، عرض موسوليني أن يُقدم المساعدة للصهاينة كي يبنوا اقتصادهم ، وقامت الصحافة الفاشية بنشر مقالات مؤيدة للصهاينة . كما قام ناحوم سوكولوف ، باعتباره رئيس اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية ، بزيارة إيطاليا عام ١٩٢٧ وصرح بأنه أدرك الطبيعة الحقة للفاشية ، وأكد أن اليهود الحقيقيين لم يحاربوا قط ضدها . ولا شك أن كلماته هذه تحمل معنى التأييد الكامل للنظام الفاشي ، وقد تبعته في ذلك المنظمة الصهيونية في إيطاليا . ومن الزعماء

الصهاينة الذين زاروا إيطاليا الفاشية، ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي الذي استمع إلى الزعيم الإيطالي وهو يُعرب عن حماسه للمشروع الصهيوني وعن استعداده الكامل لمساندته .

وقد تعلم جابوتنسكي الكثير من الفاشية الغربية ، وكان يعبِّر عن إعجابه الشديد بالدوتشي وفكره ، وبالتنظيمات الشبابية الفاشية التي حاولت المنظمات الشبابية التصحيحية التشبه بها في زيها الرسمي . وكال موسوليني المديح والتقريظ لجابوتنسكي حين قال مرة للحاخام ديفيد براتو الذي أصبح فيما بعد حاخام روما : " كي تنجح الصهيونية يجب أن تحصلوا على دولة يهودية لها علم يهودي ولغة يهودية ، والشخص الذي يفهم ذلك حقًا هو الفاشي جابوتنسكي " . كما نعت موسوليني نفسه ضمناً بأنه صهيوني يدافع عن فكرة الدولة اليهودية . ورغم أن جابوتنسكي لم يكن يرتاح أحياناً إلى وصفه بالفاشي ، فإن موقفه بشكلٍ عام كان موقف المؤيد للفاشية والمعجب بها .

أصول النازية والصهيونية الفكرية المشتركة :

رغم الدعاية الصهيونية الشرسة وتأكيد احتكار اليهود لدور الضحية في عملية الإبادة التي قام بها النازيون ضد كثير من الشعوب والأقليات الإثنية والدينية والعرقية ، فإن ثمة علاقة وطيدة بين الصهيونية والنازية تستحق الدراسة . وقد يكون من المفيدَ ابتداءً أن نقرر أن النازية والصهيونية ليسا بأية حال انحرافاً عن الحضارة الغربية الحديثة بل يمثلان تيارين أساسيين فيها . ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية جزء أصيل من الحضارة الغربية أن الغرب يحاول تعويض اليهود عما لحق بهم على يد النازيين بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين ، وكأن جريمة أوشفيتس يمكن أن تُمحَى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت أو مذبحة قانا . وقد أنجزت الصهيونية ما أنجزت من اغتصاب الأرض وطرد وإبادة للفلسطينيين من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي ، واستخدمت كل أدواته من غزو وقمع وترحيل وتهجير . والغرب ، الذي أفرز هتلر وغزواته ، هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي . وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية داروينية للجريمة التي ارتكبت والتي تُرتكب يوميًا ضد الشعب الفلسطيني .

ولابد أن نقرر أن الصهيونية لم تقم بعملية إبادة شاملة (بمعنى التصفية الجسدية) للفلسطينيين ، إلا أن هذا يرجع إلى اعتبارات عملية عديدة لا علاقة لها بالبنية الإبادية

للأيديولوجية الصهيونية ، من بينها تأخر التجربة الصهيونية إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وعدم إعلان الدولة الصهيونية إلا في منتصف القرن العشرين ، وهو ما جعل الإبادة مسألة عسيرة بسبب وجود المنظمات الدولية والإعلام . كما كان شأن الكثافة السكانية العربية وتماسك العرب وانتمائهم إلى تشكيل حضاري مركب ومقدرتهم على التنظيم والمقاومة والانتفاضة أن أصبحت الإبادة حلاً مستحيلاً (ومع هذا لابد من الإشارة إلى عمليات الإبادة الجسدية والتي تمت في صفد ودير ياسين وكفر قاسم ، وغيرها من مدن وقرى في فلسطين ، حيث لم تكن الممارسة الصهيونية تهدف إلى تهجير الفلسطينيين، بقدر ما كانت تهدف إلى قتلهم وإبادتهم . وبالمثل كانت عملية صابرا وشاتيلا ذات طابع إبادي واضح) . كما أن الإبادة بمعنى التهجير والتسخير والقمع والاستغلال هي حدث يومي داخل الإطار الصهيوني .

إن الحضارة الغربية الحديثة هي التي أفرزت الإمبريالية والنفعية الداروينية والنازية والصهيونية ، ولذا فليس من المستغرب أن نجد مجموعة من الأفكار المشتركة بين الرؤيتين النازية والصهيونية التي تُشكل الإطار الحاكم لكلٍ منهما :

١ ـ القومية العضوية والتأكيد على روابط الدم والتراب ، وهو ما يؤدي إلى استبعاد الآخر (الشعب العضوي المنبوذ) .

٢ ـ النظريات العرْقية .

٣ ـ تقديس الدولة .

٤ ـ النزعة الداروينية النيتشوية .

كما يظهر التماثل البنيوي بين النازية والصهيونية في خطابهما . فكلاهما يستخدم مصطلحات القومية العضوية مثل «الشعب العضوي (فولك)» و«الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه» و«الشعب المختار» . وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود ، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية : "لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران . ونحن وحدنا شعب الإله المختار . هل هذه إجابة شافية على السؤال ؟ " . ويتحدث مارتن بوبر عن أن الرابطة بين اليهود وأرضهم هي رابطة الدم والتربة ، ومن ثم يطالب بضرورة العودة إلى فلسطين حيث توجد التربة التي يتمكن الدم اليهودى من التفاعل معها والإبداع من خلالها ، وهي مسألة أشار إليها كل من الكاتبين الصهيونيين ميخا بيرديشفكي وشاؤول تشرنحوفسكي ، حيث تحدثا عن الشعب العضوي اليهودي

بالعبارات نفسها ونسبا إليه الخصائص نفسها . كما استخدم الصهاينة مفهوم «الدم اليهودي» لتعريف الهوية اليهودية .

وأثناء محاكمات نورمبرج ، كان الزعماء النازيون يؤكدون ، الواحد تلو الآخر ، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية ، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة . وقد أشار ألفريد روزنبرج ، أهم المنظرين النازيين ، إلى أن " بوبر على وجه الخصوص هو الذي أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا ، فهناك فقط يمكنهم العثور على جذور الدم اليهودي " . ولعله ، بهذا ، كان يشير إلى حديث بوبر عن اليهود باعتبارهم آسيويين حيث يقول " لأنهم إذا كانوا قد طُردوا من فلسطين ، ففلسطين لم تُطرد منهم " .

ومن الموضوعات الأساسية المشتركة فكرة النقاء العرْقي . وكان سترايخر (المُنظِّر النازي) يؤكد أثناء محاكمته ، أنه تعلّم هذه الفكرة من النبي عزرا : لقد أكدت دائماً حقيقة أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي يجب أن تحتذيه كل الأجناس ، فلقد خلقوا قانوناً عنصريًا لأنفسهم ، قانون موسى الذي يقول : " إذا دخلت بلداً أجنبيًا فلن تتزوج من نساء أجنبيات " . وكانت الأدبيات الصهيونية الخاصة بنقاء اليهود العرقي ثرية إلى أقصى حد في أوربا حتى نهاية الثلاثينيات .

ويستخدم النازيون والصهاينة على حد سواء الخطاب النيتشوي الدارويني نفسه المبني على تمجيد القوة وإسقاط القيمة الأخلاقيةً . إذ يستخدم الصهاينة – شأنهم في هذا شأن النازيين – مصطلحاً محايداً ، فهم لا يتحدثون عن طرد الفلسطينيين وإنما عن " تهجيرهم " أو " دمجهم في المجتمعات العربية " . وهم لا يتحدثون مطلقاً عن " تفتيت العالم العربي " وإنما عن " المنطقة " ، ولا يتحدثون عن «الاستيلاء» على القدس وإنما عن «توحيدها» ولا عن الاستيلاء على فلسطين أو «احتلالها» وإنما عن «استقلال» إسرائيل أو عن «عودة الشعب اليهودي» إلى أرض أجداده .

ويتضح التطابق بين النازيين والصهاينة بكل جلاء في واحد من أهم التنظيمات النازية . فقد كان النازيون – شأنهم شأن أية عقيدة تدور في إطار القومية العضوية – يؤمنون بوجود دياسبورا ألمانية («أوسلاندويتش Auslandeutsch») تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية . وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهودي يدينون بالولاء للوطن الأم ويجب أن يعملوا من أجله . وربما لأن العودة للوطن الأم أمر عسير ، كما هو الحال مع الصهاينة ، اقترح النازيون ما يشبه نازية الشتات (مثل صهيونية الشتات)

عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانيتين . وكان للنازيين ما يشبه المنظمة النازية العالمية التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية ، وكانت لها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجوه مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل . وقد تعاون الألمان ، في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان ، تماماً كما يتعاون اليهود والصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم .

ولنا أن نلاحظ الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية . فتيودور هرتزل وماكس نوردو وألفريد نوسيج وأوتو ووربورج كانوا إما من ألمانيا أو النمسا يكتبون بالألمانية ويتحدثون بها ، كما كانوا ملمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنون لها الإعجاب ولا يكنون احتراماً كبيراً للحضارات السلافية (وقد غيَّر هرتزل اسمه من «بنيامين» إلى «تيودور» حتى يؤلمن اسمه ، وسمَّى ماكس نوردو نفسه بهذا الاسم لإعجابه الشديد بالنورديين) . ولا يختلف زعماء يهود اليديشية عن ذلك ، فلغتهم اليديشية هي رطانة ألمانية أساساً . ومن جهة أخرى ، كانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية ، كما توجه الزعماء الصهاينة أول ما توجهوا لقيصر ألمانيا لكي يتبنى المشروع الصهيوني . وقد أكد جولدمان أن هرتزل قد وصل إلى فكرته القومية (العضوية) من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانيين . وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكنون الإعجاب للنازية ، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولُمُثلها ولنجاحها في إنقاذ ألمانيا . بل وعدوا النازية حركة تحرر وطني . وقد سجل حاييم كابلان ، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي) ، أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية ، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة ، وكلتاهما ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية .

وقد ظهرت في ألمانيا ، في الثلاثينيات ، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذي أدركوا العناصر الفكرية المشتركة بين النازية الصهيونية وأبعادها العدمية . ومن هؤلاء هاينريش فريك الذي حذر اليهود من فكرة الشعب العضوي التي يدافع عنها النازيون والصهاينة ، كما عَرَّف كلاً من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا النزعة الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا) ، وهما من الأمور المادية ، إلى كيانات ميتافيزيقية ، أي إلى دين . وأشار إلى أن النازية والصهيونية تتبنيان الرأي القائل بأن ألمانيا لا يمكنها أن تقبل اليهود أو تظهر التسامح تجاههم .

وفي عام ١٩٢٦ ، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب

العضوي . فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية ، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية ، الدم والتربة ، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية ، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء . ومن ثم ، توصل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي (فولك) الصهيونية أو النازية . كما توصل إلى أن كلاً من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تجسيد لعدم فهم البُعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية . وبالتالي ، فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحانية السياسية (الأخروية العلمانية) التي تحوِّل الدنيوي المدنَّس إلى مقدَّس ، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية ، بل وللجنس البشري بأسره .

النيتشوية والصهيونية :

تنبع النازية من عدة روافد في الفكر الغربي الحديث لعل أهمها على الإطلاق الفكر الفلسفي الرومانسي الألماني ، وبخاصة الفكر النيتشوي أو النيتشوية . وقد يكون من المفيد أن نشير ابتداءً إلى أننا نميِّز بين الفكر النيتشوي وفلسفة نيتشه . ففلسفة نيتشه توجد في أعماله الفلسفية ، وهي فلسفة متناقضة تحوي الكثير من الأفكار النبيلة والخسيسة والعاقلة والمجنونة . أما الفكر النيتشوي فهو منظومة شبه متكاملة ، استنبطها الإنسان الغربي من أعمال نيتشه وحققت من الذيوع والشيوع ما يفوق أعمال نيتشه الفلسفية . وما يهمنا في دراسة تاريخ الأفكار هو الفكر النيتشوي وليس أعماله الفلسفية . فهناك الكثير من النيتشويين ممن لم يقرأوا صفحة واحدة من أعمال نيتشه ، بل والذين اتخذوا مواقفهم النيتشويه قبل أن يخط نيتشه حرفا واحدا . فالخطاب الإمبريالى ، منذ لحظه ظهوره فى القرن السابع عشر ، كان خطابا نيتشويا .

يتَّسم موقف نيتشه من اليهود بالغموض ، فهناك رأي يذهب إلى أنه كان معادياً لليهود . ومما ساعد على تدعيم هذا الرأي أن أخته إليزابيث – والتي نفذت وصيته الأدبية ـ كانت متزوجة من برنارد فوستر وهو من أهم الداعين إلى معاداة اليهود . بل ويُقال إن إليزابيث زيَّفت بعض خطابات نيتشه لتشيع هذه الصورة عنه . لكن مما لا شك فيه أن أعمال نيتشه تحتوي على إشارات لليهود واليهودية تحمل دلالات سلبية . وينبع سخطه على اليهودية بالدرجة الأولى من تصوره أن اليهودية هي أحد أشكال أخلاق الضعفاء . فعندما فقد اليهود دولتهم ولاقوا الاضطهاد وحُرموا من حريتهم في العالم الروماني ،

تجمَّع لديهم شعور مكبوت بالإساءة وصل إلى أقصى درجات غليانه فوُلدت المسيحية من رحم اليهودية ، فهي ديانة التواضع والضعف والعبودية . وأخلاقياتَ المسيحية ألحقت ضرراً بالغاً بالحضارة الغربية الوثنية ، ولكن القيم الأرستقراطية ثارت من جديد في عصر النهضة التي عارض رجالها القيم المسيحية التي سادت في العصور الوسطى . ثم عاد الإصلاح الديني يحاول أن يفرض أخلاق العبيد مرة أخرى ، وهذا ما حاولته الثورة الفرنسية بعد ذلك . ووسط ثورة العبيد الأخيرة هذه ، ظهر المثل الأعلى القديم مرة أخرى : نابليون . وبسقوطه سقط آخر شعاع نور صادر عن قيم السادة .

ولكن هناك جانباً آخر لنيتشه وهو رفضه لمعاداة اليهود ، بل إنه اعتبر معاداة اليهود مجرد شكل آخر من أشكال ثورة العبيد الحديثة ضد السادة . كما كان نيتشه معجباً بالعهد القديم وما تصوره أسلوبه غير الأخلاقي ووصاياه التي لا تتضمن أي تهاون أو مساومة . وفي كثير من كتاباته ، نجده يكيل المديح لليهود أكثر من الألمان ، فاليهود عنصر قوي يتمتع بالصحة ، وتدل صلابتهم وإبداعهم على مقدرتهم على القيام بعملية إعادة تقييم القيم . ولكن بغض النظر عن موقف نيتشه من اليهود أو اليهودية يظل ما يعنينا في هذا الجزء من دراستنا هو الفكر النيتشوي وأثره في الفكر الديني اليهودي وفي الفكر الصهيوني .

ولفهم هذا الجانب ، قد يكون من المفيد أن نعرض لآراء المفكر الصهيوني الروسي أحاد هعام في هذا الموضوع ، فهو يرى أن نيتشه لم يفهم اليهودية حق الفهم وخلط بينها وبين المسيحية . والعارفون باليهودية ، حسب رأيه ، سيكتشفون في التو أنه لا توجد أية حاجة لاستحداث نيتشوية يهودية ، ذلك أن الجزء العام من الفلسفة النيتشوية (أى الجزء الذى يتجاوز الخصوصية الألمانية)موجود في اليهودية نفسها منذ قرون عديدة . فاليهودية ديانة لم تستند إلى فكرة الرحمة وحدها ، ولم تُلزم الإنسان الأعلى اليهودي بالخضوع للجماهير ، كما لو كان الهدف الأساسي من وجوده هو مجرد زيادة سعادة الأغلبية . ويمكن أن نضيف عناصر أخرى لم يذكرها أحاد هعام ، فالعقيدة اليهودية ، مثلاً ، أصبحت نسقاً دينيًا حلوليًا متطرفاً ، وهو ما يعني تحول الشعب اليهودي إلى شعب مقدَّس ، مكتف بذاته ، يحوي مركزه داخله ، لا يمكن الحكم عليه بمعايير أخلاقية خارجة عنه . بل إن الشَعب اليهودي ، حسب التراث القبَّالي ، هو امتداد للخالق في الكون . ووجود الخالق ذاته وتوحده بعد تبعثره (كما جاء في التراث الأسطوري القبَّالي) يتوقف على قيام اليهود بممارسة الأوامر والنواهي . ويُبيِّن أحاد هعام أن المقولة الأساسية النيتشوية ، الخاصة بتفوق النموذج الإنساني الأعلى على بقية البشر ، هي نفسها مقولة يهودية . ولكن أحاد هعام يُحل فكرة الأخلاق محل القوة ، ويشير إلى أن

نيتشه يشكو من أنه (حتى الآن) لا توجد محاولة واعية لتعليم الناس بطريقة تؤدي لظهور الإنسان الأعلى ، وهو ما يعرقل ظهوره . فالإنسان حيوان اجتماعي ، ولذا فإن روح الإنسان الأعلى نفسها لا يمكنها أن تتحرر من الجو الأخلاقي الذي تعيش فيه . ويخلص أحاد هعام من هذا التحليل إلى أنه إذا كان الهدف من الحياة هو الإنسان الأعلى ، فيجب أن نقبل بارتباط ظهوره بظهور الأمة الممتازة أو الأمة العليا ، أي ينبغي أن تكون هناك أمة لها من السمات الذاتية ما يجعلها على استعداد أكبر للنمو الأخلاقي بالمعنى النيتشوي ، ولتنظيم حياتها على أساس قانون أخلاقي يعلو على النموذج العادي . هذه الأمة هي ولا شك التربة الخصبة التي ينبت فيها الإنسان الأعلى .

وإذا نظرنا إلى اليهودية من زاوية هذه الفلسفة ، لتبين لنا ، على حد قول أحاد هعام ، أن معظم نقائصها ، أو تلك النقائص التي يشير إليها الآخرون والتي يحاول العلماء اليهود أنفسهم إنكارها ، تشكل نقطة قوة ولا تحتاج لإنكار أو اعتذار . ومن المعروف للجميع أن اليهود واعون بأنهم متفوقون أخلاقيًا على الأمم كافة ، وهو وعي يجسد نفسه في فكرة الشعب المختار . والاختيار غير مبني على حكم القوة لأن جماعة يسرائيل هي أصغر الأمم . فقد اختار الإله يسرائيل ، لكي يعبِّر هذا الشعب بشكل متعيِّن في كل جيل عن أعلى نموذج أخلاقي ، ولكي يحمل عبء الواجبات الأخلاقية دون اعتبار للربح و الخسارة بالنسبة لبقية البشر ، بل وللحفاظ على وجود هذا النموذج الراقي .

ويرى أحاد هعام أن هذه الفكرة تسيطر على الدين اليهودي . ولذلك ، لم يحاول اليهود التبشير بدينهم لا بسبب الغيرة (كما يدَّعي الأعداء) ولا التسامح (كما ينادي المعتذرون) ، ولكن لأنهم لا يقبلون أن يجعلوا واجبهم نحو تجسيد النموذج الراقي هو واجب كل البشر ، ففي هذا خفض لمستواه وتدن له . وهم في محاولتهم هذه ، لن يفرضوا المسئولية على الآخرين ولن يشركوهم فيها ، ووصف أحاد هعام للأمة المختارة هو ذاته وصف نيتشه للإنسان الأعلى .

ويشير أحاد هعام إلى محاولة بعض العلماء اليهود إضفاء غلالة من المعاصرة على فكرة الشعب المختار ، كأن يحاولوا أن يوفقوا بينها وبين فكرة مساواة الشعوب ، حيث يرون أن رسالة الشعب المختار هي نشر الخير وطريقة الحياة الخيرة بين كل الشعوب (كما يرى اليهود الإصلاحيون) . ولكن أحاد هعام يرفض هذه الليبرالية ، فهو يصر على أن رسالة الشعب هي بكل بساطة أن يقوم بواجبه دون أي اعتبار للعالم الخارجي ، لأن تأدية الواجب هي غاية في ذاتها وليست وسيلة لإسعاد العالم . وإذا كان اليهود القدامى قد

عبَّروا عن الأمل في أن اليهودية سيكون لها أثر طيب على الأمم الأخرى ، فهذا مجرد نتيجة وليس هدفاً ، إذ يظل الهدف هو الانتماء لمثل أعلى ونموذج متفوق لا ينتمي إليه الآخرون ولا يشاركون فيه .

ويميِّز أحاد هعام بين وحش نيتشه الجميل الأشقر القوي المُدافع عن الجسد والعنف (الذي أصبح المثل الأعلى النازي) وبين الإنسان الأعلى اليهودي الذي يُدافع عن القيم اليهودية الخلقية ويقف ضد العنف ، وهذا هو الفارق بين النيتشوية الآرية والنيتشوية اليهودية . ولنلاحظ أن أحاد هعام لا يعترض على بنية النيتشوية التي تستند إلى التفاوت بين الناس وإنما على مضمونها وحسب . وحديثه عن الأخلاق اليهودية لا يُغيِّر من البنية في شيء ، فالنيتشوية اليهودية مبنية على فكرة تفوق اليهود وتعاليهم على البشر ، وهو الأمر الذي يميزهم بحقوق مطلقة ، من بينها ، على سبيل المثال ، حقهم في أن يعودوا إلى الأرض المقدَّسة متى شاءوا ذلك ، وأن يؤسسوا فيها مركزاً روحيًا إن أرادوا ، وأن يستوطنوها ويعمروها أو يخربوها حسبما تملي مشيئتهم ، باعتبارهم السوبر أمة أو الأمة الأعلى (وهذا هو جوهر كل المنظومات المعرفية والخلقية العلمانية الشاملة ، بل إن أصحاب المنظومة يجسدون المطلق ويصبحون هم المرجعية الذاتية وتصبح إرادتهم هي الحق المطلق) . فإذا جاء الفيلسوف النيتشوي الصهيوني بعد هذا وأضاف زخارف أخلاقية وأصر على أن تكون الدولة الصهيونية تجسيداً للقيم الأخلاقية النبيلة ، فإن الزخارف الأخلاقية تظل مجرد زخارف لا علاقة لها بمنطق النسق العام ، بينما يظل العنف هو الجوهر والمحك وقانون البنية . وقد أثبتت التجربة التاريخية (من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا وقانا) أن الأبعاد الأخلاقية إن هي إلا زخارف وأقوال وديباجات ، وأن وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ يفترض قتل العرب وسفك دمائهم .

ولم يكن أحاد هعام فريداً في دفاعه عن النيتشوية . فقد تأثر كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة منهم) بالفكر النيتشوي . ومن بين هؤلاء مؤسسو الحركة الصهيونية : تيودور هرتزل والفريد نوسيج وماكس نوردو ، وكلهم ذوو ثقافة ألمانية ، كما تأثر بها مفكرون صهاينة آخرون ، مثل : ميخا بيرديشفكي وحاييم برنر وشاؤول تشرنحوفسكي .

ولا يمكن فهم كتابات أهم الفلاسفة الدينيين اليهود المحدثين (مارتن بوبر) إلا من خلال نيتشه (وكذا كتابات ليو شستوف) . وتسري القاعدة نفسها على مفكري مدرسة لاهوت موت الإله . وأثر نيتشه فى جاك دريدا وإدمون جابيس واضح تماماً . كما أن المكوِّن النيتشوي في الفكر الصهيوني مكوِّن أساسي . ولا غرو في هذا فجميعهم أبناء

عصرهم العلماني الإمبريالي الأداتي الشامل . ولكل هذا ، فليس من قبيل الصدفة أن يكون التشابه بين الصهيونية والنيتشوية مدهشاً حقاً ، ويمكننا أن نوجز ذلك في النقاط التالية :

١ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة ملحدة أو حلولية بدون إله ، أو هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة والإنسان الأعلى عند نيتشه ، وهو إرادة القوة اليهودية وبقاء الشعب اليهودي عند الصهاينة . فبقاء الشعب لا يتحقق إلا من خلال إرادة الشعب ومن خلال قوته الذاتية .

٢ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، تعبير عن توثن الذات حينما يحل المطلق في الإنسان ويصبح كامناً فيه ، فيعبد الإنسان ذاته أو يعبد أسلافه ، أي الذات القومية المقدَّسة، باعتبارها تجسيداً لذاته .

٣ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، نسق عضوي دائري يقرن بين البدايات والنهايات ، وتسود فيه صورة مجازية عضوية .

٤ ـ النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحية والقداسة على قانون التطور ، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأي نسق أخلاقي ، وهو ما يُطلق عليه في المصطلح السياسي الإسرائيلي والغربي «فرض سياسة الأمر الواقع» و«خلق حقائق جديدة» ، وهو ما نسميه «النفعية الداروينية» .

٥ ـ الحياة بالنسبة للنيتشوية توسُّع ونمو واستيلاء على الآخر وهزيمة له ، ومعاداة للفكر واحتقار له ، وتمجيد للفعل المباشر ولأخلاق السادة الأقوياء ، وهذا هو جوهر الصهيونية التي لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر . والآخر هو أولاً الفلسطينيون الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض ، ثم يهود الدياسبورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق العبيد .

٦ ـ وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة المقدَّسة ويكون كالحيوان المفترس الأشقر وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء (يبني منزله بجوار البركان ويعيش في خطر وفي حالة حرب دائمة) ، فقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الأيديولوجية التي ستحول يهود المنفى المترهلين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى وحوش يهود يؤمنون بأخلاق القوة ، مفتولي عضلات يحسمون كل القضايا بالقوة ويفرضون رؤيتهم ، ولذا فالمستوطنون الصهاينة يعيشون حرفيًا بجوار البركان في حالة حرب دائمة .

٧ ـ وتفكير نيتشه تفكير نخبوي إذ يرى أن حركة التطور الحقيقية لابد أن تؤدي إلى ظهور أمة مختارة من هذا النوع من الرجال ، وما الإنسان العادي سوى الحلقة أو الجسر الموصل إلى هذه المرحلة العليا ، التي توجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها إلى أن نصل إلى الحد الأقصى المطلق غير المعروف . ويسيطر على الصهيونية أيضاً تفكير نخبوي يُحوِّل حياة جماهير اليهود في أرجاء العالم خارج فلسطين إلى مجرد جسر يؤدي إلى ظهور الدولة الصهيونية . كما أن الفكر الصهيوني، بتحويله الأمة إلى مطلق مكتف بذاته ، كان يتضمن معرفيًا عملية نقل العرب وإبادتهم .

٨ ـ وداخل هذه المنظومة ينقسم العالم وبحدة إلى السوبرمن ، السادة الأقوياء من أعضاء الشعب العضوي ، والسبمن ، العبيد الضعفاء الذين ينتمون للفريق الآخر . والسادة الأقوياء لهم حقوق مطلقة فهم يجسدون المبدأ الواحد ، أما الضعفاء فإن مآلهم إلى الاختفاء (عن طريق الإبادة بالمعنى العام والخاص) . وعند نيتشه ، نجد أن هناك الوحوش الشقراء وهناك بقية الشعوب . وفي المنظومة الصهيونية ، هناك من ناحية اليهود أصحاب الحقوق المطلقة ، ومن ناحية أخرى الأغيار (خصوصاً الفلسطينيون) الذين لا حقوق لهم ، وهذه الحقوق اليهودية المقدَّسة المطلقة تجُبُّ حقوق الآخرين .

٩ ـ الفكر النيتشوي ، مثله مثل الفكر الصهيوني ، فكر تختفي فيه حدود الأشياء ومعالمها ، وهو ينفي التاريخ وحدوده فتظهر حالة من السيولة والنسبية التي لا تحسمها سوى إرادة القوة . ومن هنا حديث بن جوريون عن الجيش الإسرائيلي باعتباره خير مفسر للتوراة ، وهو موقف لا يختلف كثيراً عن موقف نيتشه من تفسير النصوص . والنص هنا هو فلسطين التي تحمل معنى عربيًا ، إذ تقطنها أغلبية عربية وتوجد داخل التاريخ العربي . حيث يقرر الصهاينة أن يفصلوا الدال عن المدلول ويعلنوا أن فلسطين ليست وطناً بل أرض والبشر الذين يقطنون فيها ليسوا شعباً ، وأن الشعب المرتبط بها هم اليهود وحدهم ، والجيش الإسرائيلي هو خير مفسر لهذا النص ، فهو الذي سيفرض عليه المعنى الصهيوني ! (تماماً كما يفعل نقاد ما بعد الحداثة) .

١٠ ـ يتحدث نيتشه في كتاباته (دائماً) عن الماضي والمستقبل ، ولا يركز عيونه على الحاضر أبداً . ولكن الماضي (دون الحاضر الحي) يتحول إلى أسطورة وأيقونة ، والمستقبل بدوره يتحول إلى عصر ذهبي وفردوس أرضي خال من التاريخ . والصهاينة بدورهم لا يتحدثون عادةً إلا عن الماضي العبري (قبل أن تظهر اليهودية وتفسد الشخصية اليهودية بأخلاق الضعفاء) والمستقبل الصهيوني (حين يعود اليهود إلى صهيون ليؤسسوا الدولة الجيتو المعقمة من التاريخ) .

١١ ـ ونيتشه ، بتفكيره المجرد ، لا يتحدث عن السعادة الفردية أو عن السعادة عامةً . فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد ، أما الإنسان الأعلى فيعلو على الخير والشر ويتجاهل اللذة والألم . وتجاهل السعادة ، كقيمة إنسانية ، هو أيضاً إحدى سمات الفكر الصهيوني، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المشيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار ، وبالتالي فهم ينسون الفرد اليهودي المتعيِّن الذي يعيش في وطنه ، فالصهيونية لا تُشكل بالنسبة له سوى أيديولوجية مجردة غريبة ، لا يمكنه أن يُنظم حياته من خلالها . ومع هذا فهم يدعون إلى تصفية الجماعات اليهودية في الخارج وإنهاء التاريخ اليهودي في المنفى ، فهو تاريخ الضعفاء والمهزومين ، من وجهة نظرهم .

وتفصح كل هذه العناصر النيتشوية عن نفسها تماماً في كتابات هارولد فيش أحد منظري جماعة جوش إيمونيم ، التي تؤمن بضرب من الصهيونية نسميها «الصهيونية الحلولية» أو «الصهيونية العضوية» لأنها نيتشوية كاملة ، حيث يتحد الإله بالإنسان اليهودي وبالأرض اليهودية ليكوِّنوا نظاماً مقدَّساً دائرياً مغلقاً عضويًا يُهلك من يقع خارج دائرة القداسة ، مثل العرب ، أما من يقع داخلها فيتمتع بسائر الحقوق . ولكن القداسة هي ، في واقع الأمر ، القوة . ولهذا ، يشير أحد مفكري جوش إيمونيم إلى الجيش الإسرائيلي باعتباره القداسة الكاملة . وهذا الخطاب لا يختلف كثيراً عن خطاب الرايخ الثالث .

قانون العودة الصهيوني :

يتضح التشابه بين النازية والصهيونية في قانون العودة الصهيوني . ومن المعروف أن جميع أجنحة الصهيونية تعاونت في مرحلة ما قبل ١٩٤٨ على إنجاز أهم عنصر مُتضمَّن في الصيغة الصهيونية الأساسية ، أي التخلص من السكان الأصليين وتغييبهم . وثمة أدبيات ثرية في هذا الموضوع توثق النية الصهيونية المبيتة لطرد العرب ، وتبيِّن الطرق المختلفة التي لجأت إليها قوات المستوطنين لطرد الفلسطينيين . وقد وصف حاييم وايزمان خروج العرب بشكل جماعي (هرباً من الإرهاب الصهيوني) بأنه تبسيط لمهمة إسرائيل ونجاح مزدوج ، إذ يمثل انتصاراً إقليميًا وحلاً ديموجرافيًا نهائيًا ، بمعنى أن الأرض تم الاستيلاء عليها وتم تفريغها من سكانها حتى يتسنى للشعب الذي لا أرض له أن يهاجر إليها ويستوطنها .

ولكن وايزمان كان مخطئاً في نبوءاته متعجلاً فيها ، فالأرض لم يتم تفريغها تماماً من سكانها ، حيث بقيت أقلية من العرب وهي آخذة بالتزايد . وقد لجأت دولة المستوطنين إلى اتخاذ إجراءات قانونية للضرب على يد هذه الأقلية العربية وتكبيلها . ولم يكن ذلك أمراً عسيراً ، إذ ورثت هذه الدولة ، فيما ورثت ، خاصية اليهودية باعتبارها خاصية رئيسية ومحورية تسم اليهود الذين تقوم على خدمتهم مجموعة من المؤسسات الاستيطانية المقصورة عليهم. وبصدور قانون العودة في يوليه ١٩٥٠ ، تحوَّلت خاصية اليهودية هذه إلى مقولة قانونية تمنح صاحبها حقًا تنكره على غير اليهود .

وقد صدر هذا القانون عن الكنيست الأول عام ١٩٥٠ ، وخضع لتعديل لاحق في أغسطس عام ١٩٥٤ ، وهو ينطلق من الافتراض الصهيوني القائل بأن اليهود " شعب بلا أرض " ، شعب عضوي نُفي قسراً من وطنه فلسطين منذ ألفي عام . ولكن هذا النفي لم يؤثر في أعضاء هذا الشعب ، فغالبيتهم ـ حسب التصور الصهيوني ـ مرتبطون عضوياً تماماً بوطنهم ويريدون "العودة" إليه لينهوا حالة الشتات وليحققوا وحدة الشعب اليهودي بأرضه اليهودية . ومن هنا تسمية القانون بـ«قانون العودة» .

ويعني هذا الافتراض أيضاً أن فلسطين " أرض بلا شعب " ، وأنه إن وُجد شعب فيها في عشرات القرون الماضية فهو وجود عرضي ومؤقت ولا يُضفي على أعضاء هذا الشعب أية حقوق ثابتة ، إذ أن اليهود وحدهم لهم حقوق عضوية مطلقة في أرض فلسطين ، أو إرتس يسرائيل ، كما يُقال في الأدبيات الصهيونية والإسرائيلية واليهودية .

لكل هذا نص قانون العودة صراحةً على حق كل يهودي في الهجرة أو العودة إلى إسرائيل (بعد آلاف السنين من الغياب المؤقت) ، وأنكر بشكل ضمني هذا الحق على الفلسطينيين الذين هاجروا من أرضهم عام ١٩٤٨ حتى يبقى المجال الحيوي لليهود وللدولة اليهودية ، خالياً من العرب (بالألمانية : أراب راين Arabrein) . ونص القانون على حق كل يهودي في الهجرة إلى إسرائيل ما لم يكن وزير الداخلية مقتنعاً بأن طالب الهجرة يمارس نشاطاً موجَّهاً ضد اليهود ، أو أنه يمكن أن يعرض الأمن والصحة العامة للخطر ، أو أن له ماضياً إجراميًا . وتضمن مواد هذا القانون الفريد حق اليهودي ، في حالة رفض هجرته لغير الأسباب السابقة ، في اللجوء إلى المحكمة العليا الإسرائيلية لإجبار السلطات على السماح له بذلك حتى ولو ظل مواطناً أجنبيًا على أرض دولة أخرى. كما يمنح القانون الأشخاص الذين يدخلون إسرائيل بموجبه الجنسية وحقوق المواطنة على الفور .

وبموجب المادة الرابعة من قانون العودة ، يُعتبر كل يهودي هاجر إلى فلسطين (قبل سريان القانون) وكل يهودي مولود فيها (قبل سريانه أو بعده) شخصاً جاء إلى فلسطين بصفة " مهاجر عائد " . ورغم أن هذا القانون قانون هجرة وليس قانون جنسية ، فإن اعتماد جوهره في قانون الجنسية الإسرائيلية جعل منهما كلاً متكاملاً .

وقد أشار بن جوريون إلى طبيعة قانون العودة إبان عرضه على الكنيست ، حيث ذكر أن هذا القانون لا يمنح اليهودي " الحق " في الهجرة إليها ، فهذا الحق كامن في كل يهودي باعتباره يهوديًا ، وإنما يهدف القانون إلى تحديد الطابع والهدف الفريد للدولة الصهيونية ، فهذه الدولة تختلف عن بقية دول العالم من حيث عناصر قيامها وأهدافها ، وسلطتها محصورة في سكانها ولكن أبوابها مفتوحة لكل يهودي حيث وُجد . وأكد بن جوريون أن قانون العودة هو التعبير القانوني عن الرؤية الصهيونية .

وفي مارس عام ١٩٧٠ ، أدخل الكنيست تعديلاً جديداً على القانون ، عقب نشوب أزمة وزارية متكررة الحدوث حول تعريف من هو اليهودي . وتَضمَّن التعديل أن اليهودي هو «المولود لأم يهودية أو المهتدي إلى الدين اليهودي والذي ليس على دين آخر» . كما نص على أن تُمنح الجنسية الإسرائيلية بصورة آلية لجميع أفراد الأسرة المهاجرة من غير اليهود .

وعُدِّل قانون العودة فيما بعد ، ووفقاً لهذا التعديل لا تُشترط الإقامة في إسرائيل أو إتقان اللغة العبرية أو حتى التنازل عن الجنسية الأخرى ، ويُكتفى للاستفادة بقانون العودة أن يعرب المهاجر على نيته في الاستقرار في إسرائيل .

وقد قارن كثير من الكُتَّاب اليهود والإسرائيليين بين قانون العودة والقوانين النازية . فعلى سبيل المثال ، أعرب الأستاذ الإسرائيلي د . كونفيتس ـ خلال النقاش الذي دار قبل الموافقة على قانون العودة ـ عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية ، ما دام يُجسد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس ديني أو عِرقي .

وبعد صدور هذا القانون ، حذرت جريدة **جويش نيوزلتر** ، في عددها الصادر في ١٢ مايو ١٩٥٢ ، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألماني يتمتع بمزايا جنسيته ، بغض النظر عن المكان الذي يوجد فيه .

وفي مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية ، بيَّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأي يهودي بموجب تعريف قوانين نورمبرج : أي أن يكون

جده يهوديًا . ويؤكد حاييم كوهين ، الذي كان قاضياً بالمحكمة العليا في إسرائيل أن : " من سخرية الأقدار المريرة أن تستخدم الأطروحات البيولوجية والعنصرية نفسها التي روج لها النازي والتي أوحت لهم بقوانين نورمبرج الشائنة ، كأساس لتعريف الوضع اليهودي داخل دولة إسرائيل " .

وهناك ، على الأقل ، حالة واحدة معروفة ، قامت فيها السلطات الدينية في إسرائيل بالرجوع إلى السجلات النازية ، للتأكد من الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين . ورغم أن قانون العودة هو الإطار القانوني للتوسعية والعنصرية الصهيونية وهو مصدر الهوية اليهودية المزعومة للدولة الصهيونية (ومن ثم فهو أساس عزلتها وعدائها لجيرانها) ، ورغم أن أعداد اليهود التي ترغب في " العودة " إلى إسرائيل آخذة في التناقص (ومن هنا الضغط على اليهود السوفييت للهجرة إلى إسرائيل) ، فإن جميع اتفاقيات ومعاهدات السلام لم تتعرض له من قريب أو بعيد . بل وطُلب من منظمة التحرير الفلسطينية أن تلغي بنوداً أساسية في ميثاقها ، بينما لم يطلب أحد من إسرائيل أن تلغي قانون العودة .

العلاقة الفعلية بين النازية والصهاينة :

تتعدى العلاقة بين النازية والصهيونية مجرد التماثل البنيوي والتأثير والتأثر الفكريين ، إذ أن ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة . ولنبدأ بأدناها ، وهي كيفية استغلال النازيين للدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم . فقد نشر الصهاينة في ألمانيا ذاتها المزاعم الصهيونية الخاصة بالتميز اليهودي العرْقي والانفصال القومي العضوي عن كل أوربا ، وذلك حتى قبل ظهور النازيين كقوة سياسية . ففي عام ١٩١٢ ، قدَّم عضوان في المنظمة الصهيونية مشروعاً بإيعاز من كورت بلومنفلد جاء فيه أنه ، نظراً للأهمية القصوى للعمل ذي التوجه الفلسطيني (أي الصهيوني) ، يعلن أن من الواجب على كل صهيوني، خصوصاً من يتمتع باستقلال اقتصادي ، أن يجعل الهجرة جزءاً عضويًا من برنامج حياته. وقد سُمِّي هذا القرار «قرار بوزن» ، وأصبح منذ ذلك الحين الإطار العقائدي للصهيونية الألمانية التي تخلت بفضله عن أية أبعاد غير قومية ذات طابع خيري أو توطيني، وأصبحت أيديولوجيا قومية عضوية ذات طابع استيطاني . وكان بلومنفلد خبيراً بالمناورات السياسية ، ولذلك نجح في تمرير قراره من خلال ما سماه بعض معارضيه «الأغلبية الطارئة» ، أي عن طريق تقديم مشروع القرار أثناء وجود المؤيدين وغياب

المعارضين والحصول على موافقة الحاضرين . وقد اتهمه المعارضون بالمزايدة ، وفسَّروا تطرفه على أساس أنه يقبض راتبه من المنظمة الصهيونية وليس من الحكومة الألمانية أو أية هيئة أو مؤسسة ألمانية ، وأن هذا يسمح له بأن يتخذ مثل هذه المواقف وأن يمرر مثل هذه القرارات التي لا تعكس وضع يهود (أو حتى صهاينة) ألمانيا أو تطلعاتهم .

وقد قام الصهاينة الألمان بعد ذلك بتطوير الأيديولوجيا الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية ، أي تصفية الجماعات اليهودية في المنفى (أي العالم) تماماً وإنشاء الدولة الصهيونية . وابتداءً من العشرينيات ، بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية العضوية الخالصة وتنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية . ففي عام ١٩٢٠ (قبل ظهور كتاب هتلر **كفاحي** بثلاثة عشر عاماً) ، ألقى جولدمان خطاباً في جامعة هايدلبرج بيَّن فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ للغاية في الحركات التخريبية ، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨ ، وأصر على أن يهود ألمانيا والشعب الألماني ليست بينهما عناصر مشتركة ، وعلى أن الألمان يحق لهم أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون الفولك الألماني . أما وايزمان، فقد شبه علاقة الألمان باليهود بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم ، فقال : إن أي بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عدداً محدوداً فقط من اليهود . وكان يرى أن عدد اليهود في ألمانيا أكبر من اللازم ، أو بعبارة أخرى يوجد فائض بشري يهودي . وفي الفترة نفسها ، وصف كلاتزكين اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ، ولذا فإن من حقهم أن يحاربوا ضد اليهود من أجل تماسكهم القومي . وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هرتزل ونوردو ، الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم والصهيونية الألمانية على وجه الخصوص ، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد ذلك . وهي لا تختلف في جوهرها عن قول إرنست يونجر (المفكر القومي العضوي الذي ألهم النازيين) أن اليهود يتوهمون أن بوسعهم أن يصبحوا ألمانيين في ألمانيا ، ولكن هذا أمر غير قابل للتحقق . فاليهود يواجهون خياراً نهائياً : إما أن يكونوا يهوداً في ألمانيا ، أو لا يكونون .

وفي ضوء هذا التوجه الصهيوني ، لم يكن من الغريب أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيراً من الصهاينة على استعداد لتَفهُّم وجهة نظره . فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم برنز في يناير ١٩٣٣ بأن اليهود ليس لهم مكان يمكنهم أن يختبئوا فيه .

وقال : بدلاً من الاندماج ، نرى نحن الصهاينة وجوب الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعرْق اليهودي . وحينما قام النازيون في ٣١ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرونها هدامة ، كتبت **يوديش روندشاو** (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيراً من المؤلفين اليهود خونة تنكروا لجذورهم لأنهم شتتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية . وفي نبرة ترحيب واضحة ، صرح إميل لودفيج (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع بالآلاف من اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها . وقال : " ولذا ، فأنا شخصيًا ممتن لهم " . وترد نفس الفكرة النازية الصهيونية على لسان الشاعر الصهيوني حاييم بياليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا ، ويضيف : " أنا أيضاً مثل هتلر أؤمن بفكرة الدم " . وبكثير من القلق ، لاحظ أعضاء الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جماعة اندماجية تعتبر يهود ألمانيا مواطنين ألمانيين) أنشطة الصهاينة وتصريحاتهم واعتبروها طعنة من الخلف في الحرب ضد الفاشية .

ولكن كل هذه المقالات والتصريحات لم تكن سوى افتتاحيات تمهيدية للإعلان الصهيوني الألماني الرسمي الذي أصدرته المنظمة الصهيونية في ألمانيا ، في ٢١ يونيه ١٩٣٣ ، بعد وصول النازيين إلى السلطة (إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الجديدة) ، Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat . والذي حدَّد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إبهام فيه . وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة . فقد بدأت المذكرة/ الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة ، دولة البعث القومي ، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم . وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي ، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل ، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه ، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها) . وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية ، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية ، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود . وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرْق ، أحد

ثوابت الرؤية النازية ، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعرْقية . كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرْقيًا ، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية .

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي ، مؤكدةً على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات . وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خُططها ، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي . وكما يقول المذكرة الإعلان : " على تربة الدولة الجديدة ، ألمانيا النازية ، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم ، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين " . وسيؤدي الإطار النظري الفلسفي المطروح إلى ظهور حقائق اجتماعية جديدة تأخذ شكل نموذج جديد : اليهودي المتجذر في تقاليده الروحية ، الواعي بنفسه الذي لا يحس بالحرج تجاه هويته ، وهو نموذج مختلف تماماً عن ذلك اليهودي الذي لا جذور له والذي يهاجم الأسس القومية للجوهر الألماني ، وهو مختلف أيضاً عن اليهود المندمجين الذين يحسون بالضيق لانتمائهم للجماعة اليهودية وللعرْق اليهودي وللماضي اليهودي (ولابد هنا من ملاحظة أن النموذج اليهودي الجديد لا يختلف في أساسياته عن النموذج النازي) . ثم تمضي المذكرة قائلة إن الصهيونية تأمل أن تحظى بالتعاون مع حكومة معادية لليهود بشكلٍ أساسي ، إذ لا مجال للعواطف عند تناول المسألة اليهودية ، فهي مسألة تهم كل الشعوب (وخصوصاً الشعب الألماني) في الوقت الراهن . وفي نهاية المذكرة/ الإعلان ، شجب الصهاينة جهود القوى المعادية للنازية وهتلر ، والتي كانت قد طالبت في ربيع عام ١٩٣٣ بمقاطعة ألمانيا النازية اقتصاديًا . ومما يجدر ذكره أن هذه الوثيقة لم تُكتشف إلا عام ١٩٦٢ ولم تُعط الذيوع الذي تستحقه ، رغم أنها تُلقي الكثير من الضوء على علاقة النازيين بالصهاينة . وربما لو عرف مؤرخو الإبادة النازية في الشرق والغرب بها لنظروا إلى الإبادة النازية لليهود نظرة مختلفة بعض الشيء .

ونشرت **يوديش روندشاو** مقالاً تعلن فيه عن استعداد الصهاينة للتعاون مع أصدقاء اليهود وأعدائهم ، حيث أن المسألة اليهودية ليست مسألة عاطفية ، وإنما هي مسألة حقيقية تهتم بها كل الشعوب . وهذا الموقف امتداد لموقف هرتزل حين ميَّز بين التعصب الديني

القديم (وهو مجرد تعصب عاطفي غير منهجي) والمعاداة الحديثة لليهود والتي وصفها بأنها حركة بين الشعوب المتحضرة الغربية تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها . ويتضمن التمييز هنا شكلاً من أشكال القبول بالمعاداة المنهجية الرشيدة لليهود أو التي تم ترشيدها . وقد تبنى هتلر موقفاً مماثلاً حين ميَّز هو الآخر بين المعاداة العاطفية لليهود والمعاداة المنهجية لهم ، إذ تنتهي الأولى بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بالحل الصهيوني ، أي تهجير جميع اليهود من ألمانيا إلى " وطنهم " فلسطين . وقد حدَّد هتلر مشروعه بالنسبة إلى اليهود على أسس صهيونية ومنهجية رشيدة (وهي القومية العضوية) . كما قرر روزنبرج ضرورة مساندة الصهيونية بكل نشاط " حتى يتسنى لنا أن نرسل سنويًا عدداً محدداً من اليهود إلى فلسطين ، أو على الأقل عبر الحدود " . وحينما استولى النازيون على السلطة ، سمحوا للصهاينة بالقيام بنشاطاتهم الحزبية ، سواء اتخذت شكل اجتماعات أو إصدار منشورات أو جمع تبرعات أو تشجيع الهجرة أو التدريب على الزراعة والحرف ، أي أنهم سمحوا لهم بنشاط صهيوني خارجي كامل . كما كانت المجلات الصهيونية هي المجلات الوحيدة غير النازية المسموح لها بالصدور في ألمانيا . وقد وتمتعت هذه المجلات بحريات غير عادية ، فكان من حقها أن تدافع عن الصهيونية كفلسفة سياسية مستقلة . وحتى عام ١٩٣٧ ، لم يتأثر عدد صفحات **يوديش روندشاو** بالقرارات الاقتصادية التقشفية التي تقرر بمقتضاها إنقاص عدد صفحات كل المجلات (وضمنها المجلات الآرية) . كما نشرت دور النشر الألمانية أعمال حاييم وايزمان وبن جوريون وآرثر روبين . ويقول إدوين بلاك مؤرخ اتفاقية الهعفراه (أي النقل) ، إن « الصهيونية هي الفلسفة السياسية المستقلة الوحيدة التي وافق عليها النازيون » .

وقد بيَّنا من قبل عدم اكتراث الصهاينة بالمقاومة اليهودية وغير اليهودية للنازيين . ولكن يبدو أن المسألة كانت تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود وعدم الاشتراك في المقاومة ، إذ يبدو أن الصهاينة اكتشفوا ، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود ، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود .

وقد حدد بن جوريون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تعد مشكلة آلاف اليهود المهددين بالإبادة وإنما هي مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني . وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين . وأكد بن جوريون أنه إن استولت " الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد " فإن ذلك سيؤدي إلى " شطب الصهيونية من التاريخ " . وفي العام

التالي صرح بن جوريون أمام زعماء الصهيونية العمالية : " لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا ، مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين ، فإني أختار الحل الثاني ، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا ، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب ، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل " . وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) قد تجاوز الحدود تماماً ، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣ ، صرح قائلا إنه لو سُئل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون " كلاً ثم كلاً " بشكل قاطع . وأضاف : " يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية . . . إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا " . وكان وايزمان قد عبَّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال : " إن العجائز سيموتون ، فهم تراب وسيتحملون مصيرهم ، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك " . وانطلاقاً من هذه الرؤية المتمركزة حول المشروع الصهيوني وليس الإنسان اليهودي ، لعبت الحركة الصهيونية دوراً حاسماً في تدمير جميع المحاولات الرامية إلى توطين اليهود في أماكن مختلفة من العالم ، مثل جمهورية الدومينيكان ، حتى يضمن الصهاينة تدفق المادة البشرية اليهودية على فلسطين . ولهذا ، التزمت جولدا مائير ، مندوبة الحركة الصهيونية في فلسطين ، الصمت الكامل حيال مداولات مؤتمر إفيان باعتبارها أمراً لا يخصها . (وقد فسَّرت موقفها هذا ، فيما بعد ، بأنها لم تكن تدري شيئاً عن عمليات الإبادة النازية) .

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني . فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية هو شخص يستحق الاحترام (لأنه يدرك الواقع من خلال إطار عضوي وثني يشبه الإطار النازي) ، على عكس اليهودي المتأمل المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها ، لأنه حبيس هويته اليهودية ، شاء أو أبى . ولعل هذا يُفسِّر السبب في أن النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي هو اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية . ولعله يفسر أيضاً لمَ كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم . فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين ، وباندماجهم في مجتمعاتهم ، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق ، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي .

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته ، بينما مُنع الاندماجيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب ، أو الإدلاء بتصريحات ، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر . وقد قام كورت جروسمان ، في **كتاب هرتزل السنوي** (الجزء الرابع) ، بدراسة الموضوع ، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات " . وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية . وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٦٤٢٠/ ١١٣٤ ٨) صادر عن الشرطة السياسية في بافاريا بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥ ، وهو خاص بمنظمات الشباب اليهودي . وجاء فيه أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية التي تدرب اليهود تدريباً مهنيًا على الزراعة والحرف ، قبل تهجيرهم إلى فلسطين ، هو أمر في صالح الدولة النازية . بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٧١٨٦/ ١١٣٥ ٨) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه " يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا " . وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب ، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١٩١٠٦/ ١١٣٥١ ب) ليصحح هذا الوضع ، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه " لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق " .

كما اهتم النازيون كثيراً بنشاط التصحيحيين . ولهذا ، صدر تصريح (رقم ١٧٩٢٩/ ١١٣٥ ب) لمنظمتي الشباب القومي الهرتزلي وعصبة الأشداء (بريت هابريونيم) بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم . وقد مُنح التصريح ، كما جاء في التوجيه ، بشكل استثنائي لأن صهاينة الدولة (أي التصحيحيين) برهنوا على أنهم هم الذين يمثلون المنظمة التي تحاول ، بكل السبل ، حتى غير الشرعية منها ، أن ترسل أعضاءها إلى فلسطين . وكان من شأن التصريح بارتداء الزي أن يحفز أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية على الانضمام إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة ، حيث كان يجري حثهم بشكل أكثر كفاءة على الهجرة إلى فلسطين . وقد صدر تصريح (رقم ١٩٠٥٢/ ١١٣٥ ب) للمنظمات الصهيونية بتاريخ ٩ يوليه ١٩٣٥ بجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين ولشراء الأراضي هناك . ومُنح التصريح "لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية " . كما شجع النازيون المدارس العبرية والمؤسسات الثقافية ذات التوجه اليهودي التي تساعد على إظهار الهوية اليهودية والرجوع عن الاندماج، بل ومنعوا اليهود من رفع الأعلام الألمانية وسُمح لهم برفع " العَلَم اليهودي " (أي عَلَم المنظمة الصهيونية) .

والملاحظ أن أشكال التعاون بين النازيين والصهاينة ، والتي تناولناها حتى الآن ، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون) ، أو هي التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون) . ولكن ثمة أشكالاً أخرى من التعاون الواعي . فهناك دلائل تشير إلى أن الجستابو وفرق الإس . إس .S.S (الصاعقة) ساعدت في تهريب المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين ، أي أن النازية لم تدعم الصهيونية التوطينية وحسب ، بل امتد دعمها إلى الصهيونية الاستيطانية أيضاً . ولكن أهم أشكال التعاون مع الصهاينة الاستيطانيين تم من خلال اتفاقية الهعفراه المبرمة بين النظام النازي وصهاينة المستوطن (دون علم الصهاينة التوطينيين أو يهود العالم) . ولا تكمن أهمية الاتفاقية في تبيان مدى عمق العلاقة بين الصهاينة والنازيين وحسب ، بل إنها تبين أيضاً مدى عمق التناقض بين الصهاينة المستوطنين والصهاينة التوطينيين ، وهو تناقض سيطر على الحركة الصهيونية منذ ولادتها ولم تفلح الأيام إلا في زيادته حدة . ويمكن القول بأن إبرام اتفاقية الهعفراه كان أول مواجهة حقيقية بين الفريقين ، وقد كسب المستوطنون هذه الجولة الأولى .

وتوجد حالات محددة تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في عمليات نقل اليهود وإبادتهم (كاستنر ونوسيج) . كما توجد منظمة صهيونية ذات طابع نازي واضح ، وهي عصبة الأشداء التي سبقت الإشارة لها . وبالمثل ، حاولت منظمة ستيرن تقنين عملية التعاون . وسنتناول أشكال التعاون هذه في بقية هذا الفصل .

معاهدة الهعفراه (الترانسفير) :

«هعفراه» كلمة عبرية تعني «النقل» أو «الترانسفير» . والنقل هو أحد مكونات الصيغة الصهيونية الأساسية . والهعفراه هو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن وحماية مصالحهم بأية طريقة ، ومن ذلك التعاون مع النظام النازي ، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا ، وضمنها تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام . ومن أهم الشخصيات القيادية في عملية المقاطعة صمويل أنترماير المحامي الأمريكي اليهودي (الصهيوني) الذي نجح في تكوين حركة جماهيرية تضم اليهود وغير اليهود بقيادة الرابطة الأمريكية للدفاع عن حقوق اليهود ، وأسس منظمة دولية أطلق عليها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» في أمستردام

للتنسيق بين جميع المنظمات الداعية إلى المقاطعة . وشكلت المقاطعة ، خصوصاً في الشهور الأولى ، تهديداً خطيراً للنظام النازي . ويذهب إدوين بلاك (مؤلف كتاب **الهعفراه** ، وهو أهم كتاب صدر في الموضوع في جميع اللغات) إلى أنه لو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة ، فلربما كانت قد نجحت في تعبئة الجماهير غير اليهودية ، وانضمت بعض الحكومات إليها ، ولما نجح النازيون ، خصوصاً في الأشهر الأولى من تسلمهم السلطة ، في الإمساك بزمام الأمور " فاستجابة مباشرة وموحَّدة كان من الممكن أن تقصم ظهر ألمانيا قبل شتاء عام ١٩٣٣ " .

ولكن المستوطنين الصهاينة كانوا قد قرروا تبني خطة تخدم مصالحهم ، فسافر الزعيم العمالي الصهيوني ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩ - ١٩٣٣) إلى ألمانيا لمناقشة إمكانية التعاون والتبادل الاقتصادي معها . وكانت المسألة بالنسبة إلى المستوطنين ملحة للغاية ، فقد فشل المستوطن الصهيوني في اجتذاب المهاجرين ولم يصل إليه رأس المال اليهودي المتوقع (وقد تم اغتيال أرلوسوروف بعد عودته من ألمانيا بعدة أيام) . وكان هنريش وولف قنصل ألمانيا العام في القدس قد مهد الجو له وللمبعوثين الصهاينة من بعده عندما كتب مؤيداً وموضحاً المزايا التي سيجنيها النظام النازي من التعاون معهم . وفي النهاية ، تم توقيع الاتفاق عام ١٩٣٣ الذي كان يقضي بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة . وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترليني) في حساب مغلق يفتح في بنك واسرمان في برلين وبنك ووربورج في هامبورج ثم يُسمح باستعمال هذا المبلغ فقط لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا ويتم تصديرها إلى فلسطين . وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين ، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها .

وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرةً ، ويريدون مع هذا تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطويرها ، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالي عن ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أيّاً كان نوعها . وأثناء تنفيذ الاتفاقية ، اعترضت بعض العناصر في وزارة الخارجية الألمانية على هذه المساهمة النازية في بناء المستوطَن الصهيوني . كما قام المستوطنون الألمان في فلسطين (من أتباع جماعة فرسان الهيكل) بالضغط ولكن دون جدوى ، إذ أن هتلر نفسه قرر وجوب الاستمرار في العمل بالاتفاقية .

ويبدو أن الهدف الأساسي والمباشر من الاتفاقية كان (من المنظور النازي) كسر طوق المقاطعة اليهودية في العالم للبضائع الألمانية في أنحاء العالم . وفي محاولة لتوضيح الموقف النازي ، قال وزير الاقتصاد الألماني لوزير الخارجية إن الاتفاقية تقدم أحسن ضمان لأقوى تأثير مضاد لإجراءات المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية . كما أكد القنصل الألماني العام في القدس الفكرة نفسها حين قال : " بهذه الطريقة ، يمكن أن نقوم نحن الألمان بحملة ناجحة في مواجهة المقاطعة اليهودية في الخارج ضد ألمانيا . وقد يكون بإمكاننا أن نحدث ثغرة في الحائط " . ولاحَظ القنصل أنه في الصراع الدائر ، بين الصهاينة التوطينيين (في الخارج) والصهاينة الاستيطانيين (في فلسطين) ، بدأت موازين القوى تتغيَّر لصالح المستوطنين : " إن فلسطين هي التي تعطي الأوامر ، ومن الأهمية بمكان أن نحطم المقاطعة في فلسطين في المقام الأول ، وسيترك هذا أثره على الجبهة الأساسية في الولايات المتحدة " .

وقد أيَّده في ذلك فريتز رايخرت عميل الجستابو في فلسطين حين قال : " إن مهمتنا الأساسية هي أن نمنع ، انطلاقاً من فلسطين ، توحيد صفوف يهود العالم على أساس العداوة لألمانيا . . . لقد دمرنا مؤتمر المقاطعة في لندن من تل أبيب لأن رئيس الهعفراه في فلسطين ، بالتعاون الوثيق مع القنصلية الألمانية في القدس ، أرسل برقيات إلى لندن أحدثت الأثر المطلوب " .

ويقول إدوين بلاك : " إن احتمالات انهيار الاقتصاد الألماني بدأ بالتناقص بسرعة بمرور الوقت . فحينما عقد أُنترماير اجتماعاً لاتحاده الدولي في أمستردام في أواخر يوليه ١٩٣٣ ، كانت الفرصة لا تزال جيدة . ومع نهاية أغسطس ، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) ، كانت الفرصة صعبة لكنها ممكنة " .

فماذا حدث في هذا المؤتمر ؟ لعل دراسة الوقائع وتوقيتها يعطينا صورة دقيقة ومثيرة عن المعركة بين المستوطنين الصهاينة وصهاينة الخارج التوطينيين وكيفية إدارتها ، وكذلك عن بعض الأساليب التي استخدمها المستوطنون لإحكام قبضتهم على الفريق المعادي . فقد وُقِّعت الاتفاقية بشكل مبدئي في ١٧ أغسطس ١٩٣٣ وسُوِّيت كل النقط الفنية المعلقة في ٢٢ أغسطس بعد افتتاح جلسات المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ (تشيكوسلوفاكيا) . وقد أدرك النازيون الأهمية غير العادية للمؤتمر وركزوا كل جهودهم عليه حتى يتسنى إفشال المحاولات الرامية لإصدار قرارات من شأنها دعم المقاطعة اليهودية . وبعد افتتاح جلسات المؤتمر ، ألقى سوكولوف خطبة ملتهبة عن يهود ألمانيا

وبؤسهم دون أي ذكر للمقاطعة . ولكن النازيين كانوا يودون إحراز المكاسب الإعلامية التي يطمحون إليها ، ولهذا أعلنوا عن الاتفاقية يوم ٢٤ أغسطس ، وهو اليوم الذي كان محدداً لمناقشة وضع يهود ألمانيا في المؤتمر ، وقد تناقلت صحف أوربا الخبر ، وألقى سوكولوف خطبة ملتهبة قال فيها : " إن اليهود يحترمون إسبانيا القديمة أكثر من ألمانيا الحديثة لأن خروج اليهود جميعاً أفضل من إهانتهم على هذا النحو " . ورغم أن ألفاظه جاءت غاضبة شكلاً إلا أن مضمونها كان نازياً صهيونياً ، فهو لا يتحدث عن حقوق اليهود في أوطانهم وإنما عن حقهم في الخروج الكامل والنهائي منها .

وقدَّم الصهاينة التصحيحيون قراراً محدداً خاصّاً بالمقاطعة ، ولكن العماليين نجحوا في فرض قرارهم . وكان النازيون قد أوقفوا مجلة **يوديش روندشاو** عن الصدور مدة ستة أشهر ، فرُفع عنها الحظر وصدرت في اليوم نفسه وهي تحمل مقالاً تتباهى فيه بأن المؤتمر الصهيوني هزم بأغلبية ساحقة اقتراح التصحيحيين الذي كان يهدف إلى تحويل المنظمة الصهيونية إلى وحدة مقاتلة . وصدرت الصحف النازية مرحبة هي الأخرى بالموقف الإيجابي للمؤتمر .

وحينما افتُتحت جلسة ٢٥ أغسطس ، انهالت برقيات الاحتجاج من يهود العالم لأن الاتفاقية ستهز مصداقية حركة المقاطعة اليهودية من جذورها وتقضي عليها تماماً في نهاية الأمر . فصعّد النازيون حملتهم الإعلامية الذكية ، وأعلنوا يوم ٢٧ أغسطس عن صفقة برتقال ضخمة مع المُستوطَن الصهيوني (أشار إليها أحد صهاينة الخارج بـ «البرتقالة الذهبية» قياساً على «العجل الذهبي») . وأرسل أُنترماير برقية يطلب فيها أن ينكر المؤتمر أن مثل هذه الصفقة قد أبرمت ، وهدد بأنه إن كان الأمر حقيقةً ولم يتم إلغاء الصفقة ، فإن المنظمة الصهيونية الأمريكية ستنسحب من المنظمة الصهيونية . وفي يوم ٣١ أغسطس ، نشرت الحكومة الألمانية النص الكامل لاتفاقية الهعفراه ، فقُوبل الحدث بعدم تصديق من جانب يهود الخارج . ونشرت **جويش كرونيكل** النص باعتباره نكتة نازية رائعة ، كما أنكرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية أية علاقة بالموضوع ، ولكنها تراجعت عن ذلك بالتدريج واعترفت بإبرام الاتفاقية .

وفي ٢ سبتمبر ، طرح العماليون مشروع قرار يُحكم سيطرتهم الكاملة على الصهاينة التوطينيين جاء فيه : " كجزء من الانضباط الصهيوني ، لا يُسمح لأي فرد أو مجموعة داخل المنظمة الصهيونية بأن يشتغل بالسياسة الخارجية ، أو أن يتصل بالحكومات الأجنبية أو بعصبة الأمم ، أو أن يقوم بأية نشاطات سياسية من شأنها المساس بصلاحيات اللجنة

التنفيذية » . ويتضمن هذا القرار تحريماً لكل أشكال الاحتجاج ضد النازية وضمن ذلك اتفاقية الهعفراه . وقد تم التصويت على القرار الساعة الثالثة صباحاً ووُفق عليه ، وأُجِّل التصويت على الاتفاقية ذاتها حتى آخر يوم . وبعد طرح مشروع قرار عمالي ومشروع قرار مضاد ، قام الزعيم العمالي برل كاتزنلسون فتحدث عن الانضباط وكيف أن مناقشة الهعفراه خرق له ، وبيَّن للمؤتمرين أنه توجد ، في كل الاجتماعات الديموقراطية ، مسائل مهمة لا يمكن مناقشتها . ثم اختتم كلمته قائلاً إن على كل هيئة صهيونية أن تعترف بأن إرتس يسرائيل لها أولوية على أي شيء آخر ، وأهم واجب هو إنقاذ حياة اليهود وممتلكاتهم من الخطر الذي يتعرضون له (ورغم أنه استخدم لغة الإنقاذ والإغاثة إلا أنه أحاطها بالإطار الأيديولوجي بتأكيده أولوية المُستوطَن على أي شيء آخر) . وقد وافق المؤتمر على مشروع القرار العمالي ، الذي لم يأت فيه سوى أنه لن يتم اتخاذ أي شيء من شأنه أن يتعارض مع موقف المؤتمر فيما يتصل بالمسألة اليهودية الألمانية ، أي أنه لن يقوم أي شخص بأي نشاط وسيُترك الأمر برمته للجنة التنفيذية . وقد وافق المؤتمرون في الجلسة نفسها على أن يصبح عَلَم المنظمة هو علم الدولة ، وأن يصبح نشيد الهاتيكفاه النشيد الوطني للدولة عند إنشائها ، وأنشد المؤتمرون النشيد واختُتمت أعمال المؤتمر . وقد أدركت **جويش كرونيكل** في ٣ سبتمبر أن الاتفاقية لم تكن نكتة نازية خفيفة بل حقيقة صهيونية نازية ثقيلة مريرة ، ونشرت جرائد أخرى أنباء الاتفاقية وما حدث في المؤتمر .

وكان المؤتمر اليهودي العالمي الثالث على وشك الانعقاد في جنيف في ٨ سبتمبر . ولما كانت أنباء الاتفاقية قد أصبحت معروفة ولم يعد هناك أي لبس أو إبهام ، فقد كان من الممكن اتخاذ قرار في هذا الشأن . وكانت هذه الفرصة كما يقول إدوين بلاك ، هي « الفرصة الأخيرة » أمام اليهود والصهاينة لكي يتخذوا قراراً حاسماً (خصوصاً وأن حركة المقاطعة في الأوساط غير اليهودية كانت آخذة في التزايد) . ولكن المؤتمر اليهودي اجتمع وفشل في اتخاذ قرار محدد بشأن المقاطعة نتيجة الضغط الصهيوني ، واكتفى بتأييد المعارضة التلقائية بين الجماهير . وقد تم إفشال المؤتمر بإشراف الزعيم الصهيوني الأمريكي ستيفن وايز ، وكان قد أفشل قبلاً اجتماع أُنترماير في أمستردام ولندن . وحينما عُرضت الاتفاقية مرة أخرى على المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) ، بهدف نقضها ، رُفض مشروع القرار وتَقرَّر وضع نشاطات الهعفراه كافة تحت إشراف الإدارة الصهيونية .

وقد حققت اتفاقية الهعفراه نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهاينة . فقد نجح النازيون في تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود . وأما بالنسبة إلى المستوطنين ، فإن فترة الهعفراه تُعد أهم فترة

في تاريخ المُستوطَن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية . وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذي هاجروا إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤١ (بموجب الاتفاقية) نحو ٥٢,٣٠٠ ويُشكلون ٢٥٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها . وكان بينهم ٦,٥٢٩ رأسماليًا يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمُستوطَن و٦,٧٠٠ مهاجر من أبناء الطبقة الوسطى المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصناعيين .

كما ذكر ناحوم جولدمان في مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥ ، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك في المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر ، بل وتخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراه . وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل ، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول . ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً .

أشكال أخرى من التعاون بين النازيين وأعضاء الجماعات اليهودية :

لعل معاهدة الهعفراه هي أهم أشكال التعاون المؤسسي بين النازيين والصهاينة . ولكن يجب ألا نغفل أشكال التعاون المؤسسي الأخرى ، المتنوعة والمتعددة ، والتي سنورد بعض أشكالها وجوانبها في بقية هذا الفصل .

١ ـ المجالس اليهودية :

«المجالس اليهودية» ترجمة للعبارة الألمانية «يودين رات Judenrat» . وهي مجالس كان يقيمها النازيون بين الجماعات اليهودية التي تقع تحت سلطتهم . وكان سلوك أعضاء المجالس يندرج تحت واحد من أربعة أنماط :

أ) تعاون من نوع ما في المجالات الاقتصادية والمادية .

ب) استعداد للاستجابة للمطالب النازية حين يتعلق الأمر بمصادرة الممتلكات والأشياء المادية الأخرى ، مع رفض كامل لتسليم اليهود .

جـ) قبول اضطراري لإبادة جزء من الجماعة اليهودية على أمل إنقاذ الجزء الآخر .

د) الخضوع التام للمطالب النازية نظير حماية مصالح القيادة اليهودية .

ويبدو أن القيادات اليهودية القديمة كانت تسلك وفق النمطين الأولين . ولكن النمطين الثالث والرابع سادا في المراحل الأخيرة حينما ترأست المجالس اليهودية شخصيات يهودية جديدة لم تضطلع بدور القيادة من قبل .

وكان النازيون يحاولون ، قدر المستطاع ، أن يضموا إلى هذه المجالس العناصر الصهيونية أو اليهودية القومية باعتبارها عناصر حديثة تشاركهم الرؤية في أن أوربا ليست وطن اليهود ، وأنه يجب إخلاؤها منهم ، وأن كفاح اليهود (باعتبارهم شعباً عضوياً [فولك]) يجب أن ينصرف إلى الهجرة لا إلى المقاومة والثورة . وقد نجحت هذه المجالس في إدارة أمور الجماعات وضمان سكوتها . وكان كثير من الصهاينة أعضاء في هذه المجالس ، بل ويُقال إن النازيين كانوا يفضلون الصهاينة على غيرهم من اليهود بسبب اتفاق الفريقين في المنطلقات الفكرية بينهما .

وتُثير المجالس اليهودية قضية التعاون مع النازيين . وقد عَرَّفت **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** التعاون بأنه علاقة تعني قدراً من المشاركة ، وأنها اتفاق إرادي حر بين فريقين. ومن ثم خَلُصت **الموسوعة** إلى أنه لا يمكن اتهام المجالس اليهودية بالتعاون مع النازيين ، لأنها كانت مجرد أداة سلبية خاضعة للضغط النازي تنفذ ما يُطلب منها . كما أن المقاومة على أي حال لم تكن تُجدي فتيلاً لأن المخطط النازي كان لابد أن يُنفَّذ مهما كان حجم المقاومة .

ووجهة النظر التي تطرحها **الموسوعة اليهودية** مقبولة إلى حدٍّ كبير ، وتتسم بشيء من التعاطف الإنساني المطلوب مع أفراد وجدوا أنفسهم تحت سكين الجلاد فسلكوا سلوكاً إجرامياً قد لا يوافقون عليه بالضرورة ، ولهذا فلا يمكن أن يُعدوا مسئولين عما ارتكبوه من جرائم . لكن التعاطف الإنساني يجب ألاّ يعرف أية حدود ، ويجب ألاّ يُميِّز بين اليهود والأغيار ، ولذا ينبغي أن يُطبَّق هذا المعيار على كل من تعاون مع النازيين ، فهم أيضاً كانوا يعيشون في ظل الإرهاب النازي ، وكثيرون منهم نفذوا تعليمات النازي خشية الإرهاب، ومن ثم لم يكن هناك أي قدر من المشاركة والاختيار الحر . وانطلاقاً من ذلك، فإن محاكمة مجرمي الحرب ، خصوصاً من صغار الموظفين ، تصبح مسألة غير قانونية وغير إنسانية . بل إن قبول مثل هذه الأطروحة يجعل من الممكن استبعاد جميع المتعاونين تقريباً من قوائم الاتهام ، بل وتبرئة ساحتهم . فالنظام النازي كان نظاماً حديثاً شمولياً حقق مستوى عالياً من الكفاءة العميقة في الوصول إلى جميع الأفراد وفي

محاصرتهم إعلامياً ، وكان يمتلك جهازاً أمنياً تنفيذياً قادراً على الحركة السريعة ، وعلى معاقبة كل المنحرفين . وكان المنحرفون من الألمان يُعاقبون بقسوة بالغة ، لأنهم أعضاء في الشعب الألماني العضوي (المختار) وانحرافهم أمر غير مفهوم وغير مبرر ، ويتطلب إنزال عقوبات عليهم تفوق ما ينزل على البشر العاديين من عقوبات .

أما افتراض عدم جدوى المقاومة من البداية فهو افتراض خاطئ ، إذ يمكن للمرء تخيل ملايين الضحايا من اليهود وغير اليهود وقد رفضوا أن يستقلوا القطارات التي تقلهم إلى معسكرات السخرة والإبادة تحت ظروف الحرب ، فلعل مثل هذه المقاومة كانت ستوقف آلة الحرب الألمانية أو على الأقل ترهقها لدرجة تجعل القيادة تعدل عن تنفيذ مخططها الإبادي . وهنا تبرز مسئولية مجالس اليهود ، فهي التي قامت بتهدئة الضحايا بشتى الوسائل وبإقناعهم بالرضوخ حتى تم تنفيذ المخطط النازي أو معظمه . ويذهب أيزياه ترانك (في كتاب له صدر عام ١٩٧٢) إلى أن هناك من يرى أنه لو لم يتبع اليهود تعليمات المجالس اليهودية لتمكن ما يزيد عن نصفهم من الهرب من الإبادة .

ويرى المفكر الديني اليهودي ريتشارد روبنشتاين أن تراث يهود العالم، منذ أن تركوا فلسطين بعد تحطيم الهيكل ، ولَّد فيهم قابلية للاستسلام والخنوع ، وأن هذه القابلية هي التي جعلت بإمكان المجالس اليهودية أن تلعب هذا الدور، وأن تضع أعضاء الجماعات اليهودية في براثن النازي .

٢ ـ رابطة الثقافة اليهودية :

«رابطة الثقافة اليهودية» (بالألمانية : يوديشر كولتوربوند Juedischer Kulturbund) منظمة ألمانية يهودية تأسست في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ ، بمبادرة من النظام النازي وبعض المثقفين الألمان اليهود مثل كورت باومان وكورت سنجر ويوليوس باب وفرنر ليفي . وتصدر الجماعة عن الإيمان بفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ . حيث ذهبوا إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية هم أعضاء في شعب عضوي (فولك) ، ومن ثم لا يحق لهم المشاركة أو المساهمة في الحياة الثقافية العامة في ألمانيا ، وهو افتراض قبله الصهاينة وكثير من المثقفين اليهود في ألمانيا وخارجها قبولاً تامًا . وكان مفهوم الشعب العضوي هو القيمة الحاكمة والمسلمة النهائية في المنظومة النازية ، ولذا بارك جوبلز وزير الدعاية النازي نفسه فكرة تأسيس الرابطة التي استمرت في نشاطها حتى عام ١٩٤١ ، وكانت بمثابة المنبر الأساسي للكُتَّاب والموسيقيين اليهود . وقد بلغ عدد أعضائها ١٧ ألفاً

ثم زاد إلى ١٩ ألفاً بعد عدة شهور ، وكان يعمل فيها عدد كبير من الموظفين و١٢٥ من الموسيقيين والممثلين والمغنين، وكانت تُطبَع بعض منشوراتها بالعبرية واليديشية (الوعاء الثقافي لتراث الشعب العضوي) .

ونظراً لنجاح الرابطة ،تم في عام ١٩٣٨ تأسيس شبكة قومية من فروع الرابطة في كل أنحاء ألمانيا بلغ عددها ١٦٨ فرعاً ، وبلغ عدد أعضائها ١٨٠ ألفاً (أي أنها كانت تضم معظم يهود ألمانيا الراشدين) ، بل وبلغ حجم العضوية في برلين وحدها ما بين ١٢ ألفاً و١٨ ألفاً . وبلغ عدد الفنانين اليهود التابعين للرابطة حوالي ألفين . وقامت الرابطة بتنظيم ما يقرب من ٨٤٥٧ برنامجاً تشمل محاضرات وحفلات ومسرحيات وعروضاً فنية . وحققت إيراداً بلغ مليوناً وربع مليون مارك . كما كان لها جريدتها الخاصة . وقد شاركت الرابطة بنشاط ملحوظ في الدعاية النازية ، سواء في الداخل أم في الخارج . ففي الداخل ، قامت الرابطة بزيادة التماسك العضوي والوعي اليهودي بين أعضاء الجماعة اليهودية ، الأمر الذي يعني زيادة عزلتهم وإعطاء مصداقية للرؤية النازية لليهود . أما بالنسبة للخارج ، فكانت تعطي صورة مشرقة للحكم النازي في علاقته باليهود وفي سماحه لهم بالإفصاح عن هويتهم العضوية . ورغم أن أغلب البرامج الثقافية والعلمية المقدمة من قبَل الرابطة كانت تخضع لرقابة البوليس السري (جستابو) وغرفة الفنون والثقافة ثم لرقابة قيادات الحزب النازي في برلين ، إلا أن السلطات النازية حرصت على استمرار نشاط الرابطة حتى بعد أحداث عام ١٩٣٨ ، حينما تم الهجوم على الممتلكات اليهودية وإلقاء أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية في معسكرات الاعتقال ، واستجابت لمطالب رؤساء الرابطة الخاصة بالسماح لهم باستخدام المسارح الألمانية لتقديم عروض الرابطة وتأسيس دور عرض سينمائي خاصة بها . كما عرضت تقديم دعم مالي لها ، وقامت بتقديم الأرباح التي حققتها من خلال جريدتها ودور العرض السينمائي إلى المنظمات المختصة بتنظيم هجرة أعضاء الجماعة اليهودية إلى خارج ألمانيا . وقد نجح بعض قادة الرابطة في الهجرة ، وتم حل الرابطة بشكل نهائي عام ١٩٤١ بأمر من الحكومة .

ولم تكن هذه الرابطة حادثة عرضية في تاريخ علاقة النازيين بالجماعة اليهودية . فقد أظهر النازيون دائماً اهتماماً غير عادي بالثقافة اليهودية باعتبارها تعبيراً عن أن الشعب اليهودي شعب عضوي مستقل . ولذا ، أسست السلطات النازية أهم متحف يهودي في العالم آنذاك في تشيكوسلوفاكيا (ولا يزال هذا المتحف قائماً) . وفي مستوطنة تيريس آينشتات، ازدهرت الثقافة اليهودية ، وكانت الفرق الموسيقية تقدم عروضاً للزوار الأجانب وتصور الأفلام وتوزعها على العالم .

ولم يكن سلوك النازيين هذا ينم عن أي تسامح أو اضطهاد ، وإنما هو تعبير عن إيمان بأن القومية العضوية تشكل أرضية تفاهم مشتركة بينهم وبين الصهاينة ، وهي أرضية لا توجد بينهم وبين أي فريق يهودي آخر .

٣ـ تيريس آينشتات :

«تيريس آينشتات Thereseinstadt» مدينة في تشيكوسلوفاكيا (وتُسمَّى «تيريزين» بالتشيكية) حولها النازيون إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥ . رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من يهود وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة ، باعتبار أن هذا يعني بقاء يهود تشيكوسلوفاكيا في وطنهم . ويُقال إن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلاميًا بحيث تُقدَّم للإعلام العالمي باعتبارها مثالاً على " حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث " (وهو اسم أحد الأفلام التي صُورت في المستوطنة) .

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تُعيِّنه السلطات الألمانية . وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة ، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم ، كان من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس آينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي) . وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالي ١٤٠,٩٣٧ يهوديًا إلى مستوطنة تيريس آينشتات من بينهم ٣٣,٥٢٩ ماتوا فيها ، أي حوالي ٢٥٪ ، ورُحِّل حوالي ٨٨,١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال . وحينما تم تحرير المستوطنة وكان يوجد فيها ١٧,٢٤٧ شخصاً .

وتثير هذه المستوطنة الكثير من القضايا :

أ) يُلاحَظ اشتراك المجالس اليهودية مع السلطات النازية في كل الأنشطة سواء الإعداد والتخطيط للمستوطنة أو إدارتها أو مقابلة مندوبي الصليب الأحمر الدولي .

وهذا التعاون يثير واحدة من أهم القضايا الأساسية في ظاهرة الإبادة النازية لليهود ، أي مدى اشتراك قيادات الجماعات اليهودية في عملية الإبادة .

ب) وتثير المستوطنة قضية ترشيد الإبادة ، فلم يكن النازيون مجرد جزارين على الطريقة التقليدية ، وإنما كانوا يلجأون إلى التخطيط العلمي الدقيق وإلى التفرقة بين اليهود المتميِّزين واليهود العاديين .

ج) ويمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان هدف النازيين هو توظيف اليهود أم إبادتهم .

د) ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أية دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها ، والحريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي ، وهو ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن التجربة النازية جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية .

هـ) ومن القضايا الأخرى التي تثيرها المستوطنة ، عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز . **فالموسوعة اليهودية (جودايكا)** تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب ، وأنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات ١٤,٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى ، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المُرحَّلين الجدد الآلاف ، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي . فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف قبل وبعد انتهاء الحرب ، ألا يثير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيدوا عن طريق أفران الغاز ؟

٤ ـ جيتو وارسو :

أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس آينشتات " النموذجية " في بوهيميا في المجر .

ومن أهم الجيتوات جيتو وارسو الذي بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط ارتفاعه ثمانية أقدام ، وكان له اثنان

وعشرون مدخلاً يقف على كلٍّ منها ثلاثة جنود، أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي . وكان التعريف الذي تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذي تبنته فيما بعد دولة إسرائيل والذى يستند إليه قانون العودة الصهيونى) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المخطط النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبوذ له شخصيته القومية المستقلة . ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة ـ خدمة بريدية ـ مؤسسات الرفاه الاجتماعي) . كما سُمِحَ لجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي ، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها ، وبأن يصدر جريدته اليومية بل وكان له ميليشيا ومحاكم خاصة به ، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة منعزلة ثقافيًا واقتصاديًا عما حولها ، وهو بهذا استمرار لتقاليد القهال والإدارة الذاتية والشتتل التي يمجدها الصهاينة في كتاباتهم، وهو يشبه في كثير من الوجوه الدولة الصهيونية المشتولة في الشرق الأوسط .

وكان يدير الدويلة/ الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» ، تُعيِّن السلطات النازية أعضاءه . ولكن استقلالية الدويلة/ الجيتو لم تكن كاملة ، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يوميًا يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وكان العامل البولندي، يهوديًا كان أم غير يهودي، يتقاضى ربع ما يتقاضاه العامل الألماني .

ولا ندري هل وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو (بالمعنى الخاص للكلمة، أي بمعنى التصفية الجسدية) من خلال فرض وضع اقتصادي غير متكافئ عليهم بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين ، أم أن عملية الإبادة تمت كنتيجة حتمية ، ليست بالضرورة متعمدة ، للبنية الاستغلالية التي فرضها النازيون ؟ فقيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي بالاحتياجات المادية الأساسية العاملين اليهود الأساسيين ، الأمر الذي كان يعني سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدَّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والدويلة/ الجيتو اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً

وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية ، فكانوا يموتون جوعاً ويهلكون بالتدريج وببطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة (عن طريق التجويع) مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أن الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ ، أي خلال ستة وثلاثين شهراً ، شهدت زيادة عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فحسب معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ في العام . ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدَّت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً في العام ، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف ، الأمر الذي يعني أنه كان من الممكن اختفاء كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع في السنوات الأخيرة بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو ، ومن ثم ، فإن خمس أو ست سنوات كانت كافية في تصورنا لإتمام هذه العملية .

وكانت علاقة الدولة النازية بدويلة/ جيتو وارسو علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالسلطة الفلسطينية في غزة وأريحا (كما يتخيلها الصهاينة) . وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم ، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً ، ومن ثم كان بالإمكان التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة ، على عكس الضفة الغربية وغزة حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره ، كما أن سكان " المناطق " المحتلة لم يتوقفوا قط عن المقاومة . وكل هذا يجعل التحكم في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

ويدل سلوك الإسرائيليين تجاه السلطة الفلسطينية في غزة وأريحا أنهم استبطنوا هذا الجانب من تجربة يهود أوربا مع النازية . فهم يحاولون أن تكون علاقتهم مع هذه السلطة تشبه في معظم الوجوه علاقة الحكم النازي بالسلطة اليهودية في جيتو وارسو أو مستعمرة تيريس آينشتات .

٥ ـ جماعة ستيرن :

جماعة صهيونية مراجعة حاولت التعاون مع النازيين باعتبار أن ثمة فارقاً عميقاً بين ما سمته الجماعة «مضطهدي الشعب اليهودي» وأعدائه . فمضطهدو الشعب اليهوي أمثال

هامان وهتلر موجودون في كل زمان (فالصهاينة يؤمنون بحتمية العداء لليهود واليهودية). ولكن الأمر جدّ مختلف بالنسبة لأعداء اليهود ، فهؤلاء هم الأجانب الذين يهيمنون على فلسطين ويمنعون اليهود من العودة إليها لينهوا حالة المنفى ويؤسسوا وطنهم القومي فيها. وبناءً على هذه الأطروحة الصهيونية الراديكالية لم يجد أعضاء ستيرن أية غضاضة في التفاوض مع النظم الشمولية بهدف التعاون الوثيق معها . فعقدوا اتفاقاً مع حكومة موسوليني تعترف بمقتضاه الحكومة الفاشية بالدولة الصهيونية على أن يقوم أعضاء ستيرن بالتنسيق مع القوات الإيطالية حين تقوم بغزو فلسطين .

ولكن التعاون مع النازيين كان هو الهدف الحقيقي . ولتحقيق هذا الغرض أرسل أعضاء ستيرن مندوباً إلى بيروت (التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشي الموالية للنازيين) للتفاوض مع قوات المحور . وقد قابل هذا المندوب ، في يناير ١٩٤١ ، مواطنين ألمانيين أحدهما هو أوتو فون هنتج ، رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية الألمانية ، والذي كان يشعر بالإعجاب العميق للصهيونية .

وبعد الحرب اكتُشفت وثيقة (في أرشيف السفارة الألمانية في أنقرة) أرسلتها جماعة ستيرن للحكومة الألمانية تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوربا واشتراك أعضاء جماعة ستيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء . وتنص الوثيقة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية . وقد عبَّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية . (وصفت ستيرن نفسها بأنها حركة تشبه الحركات الشمولية في أوربا في أيديولوجيتها وبنيتها) . كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية ، وتعبِّر عن تقدير جماعة ستيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين . وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة والفولك العبري في المجال السياسي والعسكري .

ولم يتلق الجانب الصهيوني رداً ، ولذا أرسلت جماعة ستيرن مندوباً آخر في ديسمبر من العام نفسه إلى تركيا (بعد احتلال البريطانيين للبنان) ولكن قُبض على هذا العميل .

وكان إسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل السابق ، عضواً في جماعة ستيرن . ويؤكد الباحث الإسرائيلي باروخ نادل أن شامير كان يعرف بخطة ستيرن للتعاون مع النازيين . وحينما عُيِّن وزيراً للخارجية ثار الرأي العام العالمي بسبب تعيين إرهابي مثله (قام بتدبير عملية اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٤٢ والكونت فولك برنادوت عام ١٩٤٨) ، ولكن أحداً لم يتطرق إلى ماضيه النازي .

٦ ـ عصبة الأشداء :

«عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية : «بريت هابريونيم») جماعة صهيونية مراجعة أسسها آبا أحيمئير (١٨٩٨ - ١٩٦٢) ومجموعة من المثقفين الصهاينة مثل الشاعر أوري جرينبرج . وكان معظم مؤسسي الجمعية أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها . وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تخفي إعجابها بالفكر النازي أو العنصرية النازية . وكما قال أحد كبار الصهاينة التصحيحيين " نحن التصحيحيين نكن الإعجاب الشديد لهتلر ، فهو الذي أنقذ ألمانيا ولولاه لهلكت خلال أربعة أعوام ، وستتبعه إن هو تخلى عن معاداته لليهود " . وكانت مجلة **عصبة الأشداء** في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجد هتلر والهتلرية . وكان من بين هتافات أعضاء العصبة " ألمانيا لهتلر ، وإيطاليا لموسوليني ، وفلسطين لجابوتنسكي " . كما مجّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين ، فكانوا يشبهون أنفسهم بجماعة حملة الخناجر ، وهم فريق من جماعة الغيورين كانت تغتال الرومان واليهود الذين يتحالفون معهم ، وذلك أثناء التمرد اليهودي الأول في فلسطين بين عامي ٦٦ و٧٣ ميلادية (واسم الجمعية نفسه «بريت هابريونيم» هو اسم إحدى الجمعيات الإرهابية اليهودية في تلك الفترة) . وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى ، وأن الدم والحديد هما الطريق الوحيد للتحرر . وكما قال أحميئير ، فإن " الماشيَّح لن يأتي راكباً على حمار " ، وهو ما يعني أن الماشيَّح الصهيوني سيأتي راكباً دبابة ، حاملاً القنابل العنقودية ! وتعود أهمية الجمعية إلى تأثيرها في حركة التصحيحيين ككل ، فقد تحولت مجلتهم (التي صدرت ابتداءً من يناير ١٩٣٢) إلى لسان حال العمال التصحيحيين ، وشنت حملات شعواء على المعسكر العمالي بأسره .

ورغم أن جابوتنسكي كان يحاول أحياناً أن يحتفظ بمسافة بينه وبين أعضاء الجمعية ، إلا أنه كان يعبِّر في خطاباته عن إعجابه بهم وتعاطفه معهم . ولم يتخذ أي إجراء تنظيمي ضدهم بل أطلق على أحيمئير (بنبرة لا تخلو من التهكم) اسم «معلمنا ومرشدنا الروحي» ، كما أن الحاخام إسحق كوك دافع عنهم . وتذكر **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن مناحيم بيجين انضم إلى الجناح الراديكالي لحركة التصحيحيين الذي كان مرتبطاً بعصبة الأشداء (لم تذكر الموسوعة في المدخل عن أحميئير أي شيء عن اتجاهاته النازية المذكورة ، واكتفت بالإشارة إلى أفكاره " الراديكالية ") . وقد استمرت العلاقة بين بيجين وأحميئير حتى بعد إعلان الدولة ، فسمح بيجين ، باعتباره رئيس حزب حيروت ، بأن يكتب أحميئير في الجريدة اليومية للحزب ، إلى أن مات عام ١٩٦٢ .

شخصيات صهيونية تورطت في التعاون مع النازيين :

من الصعب حصر كل الشخصيات الصهيونية التي تورطت في التعاون مع النازيين . ولعل الدراسة العلمية ، المتأنية والمتعمقة ، تنجح في حصر بعضهم أو حصرهم جميعاً ، وفي تحديد مسئولية كلٍّ ، والظروف التي أدَّت إلى تعاونه ومدى تورطه . وسنحاول في بقية هذا الفصل أن نورد بعض هذه الشخصيات ونناقش طبيعة تعاونها مع النازيين .

١ ـ ألفريد نوسيج (١٨٦٤ - ١٩٤٣) :

أحد مؤسسي الحركة الصهيونية مع هرتزل ، وأهم شخصية يهودية صهيونية متورطة في التعاون مع النازيين ، وهو فنان وشاعر وموسيقار من أصل بولندي وخلفية ثقافية ألمانية ، كانت مواهبه متعددة ومتنوعة عبَّر عنها من خلال الأدب (قصائد ومسرحيات ومقالات في النقد الأدبي) والموسيقى (لبريتو لإحدى الأوبرات) والنحت (عُرضَت تماثيله في معظم أرجاء أوربا وذاعت شهرته كنحات) . وقد بدأ حياته ، شأنه شأن معظم الزعماء الصهاينة ، خصوصاً الذين كانوا من أصل ثقافي ألماني ، بالمطالبة بالاندماج الكامل لليهود ، ثم أصبح محرراً في إحدى الصحف البولندية . وفي عام ١٨٨٧ ، نشر كتيبه **محاولة لحل المسألة اليهودية** (بالبولندية) ، حيث اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين والدول المجاورة . وقد ترك هذا الكتيب أثراً عميقاً على المثقفين اليهود في أوربا خصوصاً في جاليشيا . ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح نوسيج نشيطاً في المجال الصهيوني فألَّف الكتب ودبج المقالات عن موضوع الاستيطان وغيره .

وقد يتصور البعض أن ثمة تناقضاً بين نزعته الاندماجية الأولى ونزعته الصهيونية بعد ذلك . ولكن هذا النمط معروف تماماً بين مؤسسي الحركة الصهيونية ، ولا سيما أصحاب الخلفية الثقافية الألمانية . فهؤلاء يهود غير يهود ، بمعنى أنهم حاولوا الاندماج بل والانصهار في الأغلبية لرفضهم لهويتهم اليهودية (الدينية والعرْقية) . ولكن المجتمع صنفهم "يهوداً" . ولهذا ، أخذوا يبحثون عن طريقة أخرى للتخلص من اليهود ، ووجدوا ضالتهم في الحل الصهيوني ، الذي يرمي إلى نقل (ترانسفير) يهود أوربا خارجها ، إلى أن يفرغها من يهوديها في نهاية الأمر . وهذه عملية ستقضي على الفائض البشري وتُسهِّل اندماج القلة التي ستبقى .

شارك نوسيج في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، واصطدم مع هرتزل لأسباب لا

تذكرها المراجع التي عدنا إليها . ولكنه استمر في حضور المؤتمرات الصهيونية ، وصوت ضد مشروع شرق أفريقيا (باعتبار أنه مشروع بريطاني ، بينما كان متحمساً للمشروع الاستعماري الألماني) . ويبدو أن نوسيج كان عضواً في العصبة الديموقراطية ، إذ أنه ساهم (عام ١٩٠٢) مع مارتن بوبر وحاييم وايزمان وليو موتسكين في تأسيس أول دار نشر صهيونية في برلين نشرت العديد من الكتب . ويُعتبر نوسيج واضع أساس علم الإحصاء الخاص بين الجماعات اليهودية ، فنشر أعمالاً بين عامي ١٨٨٧ و١٩٠٣ ووضع أساس إنشاء المعهد الإحصائي والسكاني (الديموجرافي) اليهودي .

وهدف الصهيونية (حسب تعريف معظم مؤسسيها) هو نقل اليهود من أوربا وإفراغها منهم لحل المسألة اليهودية ، ونوسيج ينتمي إلى هذه المنظومة الفكرية التوطينية (الترانسفيرية) . فكان معظم فكره يدور حول تهجير اليهود، وكان هذا يأخذ شكل محاولة زيادة وعيهم بهويتهم اليهودية العضوية حتى يَضمُر ويذوي إحساسهم بالانتماء إلى أوربا . وقد أنجز نوسيج ذلك من خلال أعماله الفنية مثل تماثيله : «اليهودي التائه» و«يهودا المكابي» و«الملك سليمان» و«الجبل المقدَّس» . كما أسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمَّى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود . فهو ، شأنه شأن نوردو ، كان في عجلة من أمره . ولعل طول الانتظار هو الذي دفعه إلى التعاون مع النازيين ، لأنهم أيضاً ذوو نزعة توطينية ترانسفيرية . فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية ، وعيَّنه تشيرنياكوف ، رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي ، عضواً في المجلس ورئيساً لقسم الفنون . ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التي أسلفنا الإشارة إليها) ، ونظراً لرغبته العميقة في إفراغ أوربا من يهودييها ، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم . وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازي وأنه عضو في الجستابو ، فحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفِّذ الحكم في ٢٢ فبراير ١٩٤٣ . وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية .

٢ ـ مردخاي رومكوفسكي (١٨٧٧ – ١٩٤٤) :

صهيوني بولندي ورئيس المجلس اليهودي في جيتو لودز خلال الحرب العالمية الثانية . وُلد في روسيا ثم استقر في مدينة لودز مع بداية القرن العشرين . كان عضواً في

العشرين . كان عضواً في الحزب الصهيوني العمومي ، وقام بتمثيله في لجنة الجماعة اليهودية في لودز . كان رومكوفسكي مؤمناً بأن التعاون مع الألمان سيُعزز وضع اليهود ، خصوصاً إذا زادت مساهمتهم وأهميتهم بالنسبة للمجهود الحربي الألماني . ولهذا عُيِّن ، بعد احتلال الألمان لمدينة لودز عام ١٩٣٩ ، رئيساً للمجلس اليهودي فيها ، أي كبيراً لليهود ، ومنحه المسئولون الألمان في جيتو لودز (الذي ضم ١٧٠ ألف يهودي) سلطات إدارية واسعة . وتَعزَّز موضعه القيادي بسبب مهارته التنظيمية ، فكان مسئولاً عن إقامة الورش التي أمر الألمان بإنشائها لاستغلال عمل اليهود ، والتي بلغ عددها ١٢٠ ورشة . ومع مرور الوقت ، عمل رومكوفسكي على تركيز جميع السلطات في يده وأصبحت إدارته أكثر استبداداً . وعندما أمرت السلطات الألمانية الجيتو بإصدار عملة نقدية خاصة به (باعتباره كياناً يهوديًّا مستقلاً وبدلاً من استخدام العملة البولندية أو الألمانية) ، طُبعت على الأوراق المالية الجديدة صورته .

اشترك رومكوفسكي في عمليات ترحيل ونقل يهود لودز إلى معسكرات الاعتقال الألمانية ، وكان مسئولاً مع معاونيه عن تحديد من سيتم ترحيله ، الأمر الذي جلب عليه كراهية كثير من سكان الجيتو . وقد ضمت قوائم المرحلين كثيراً من معارضيه داخل الجيتو . وخلال الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٤٢ ، تم ترحيل ٥٢ ألف يهودي من الجيتو بمعاونة رومكوفسكي الذي ظل مؤمناً بأن التعاون مع الألمان هو أفضل سبيل لتخفيف وطأة هذه المأساة . وقد قام الألمان بتصفية الجيتو في نهاية الأمر عام ١٩٤٤ ، ورُحِّل رومكوفسكي مع أسرته إلى معسكر أوشفيتس حيث مات .

وتُعَدُّ شخصية رومكوفسكي شخصية مثيرة للجدل في الأدبيات اليهودية التي تؤرخ لفترة الإبادة النازية ، حيث يحمِّله البعض مسئولية إبادة يهود جيتو لودز . وهو يُعد مثلاً جيداً على ذلك التعاون بين قيادات الجماعات والمجالس اليهودية من جهة والسلطات النازية من جهة أخرى .

٣ـ آدم تشرنياكوف (١٨٨٠ - ١٩٣٢) :

صهيوني بولندي ورئيس مجلس الجماعة اليهودية في وارسو خلال الحرب العالمية الثانية . وأول رئيس للمجلس اليهودي في وارسو ، والذي شكلته سلطات الاحتلال النازية .

كان تشرنياكوف من النشطين في مجال شئون الجماعة اليهودية في بولندا عقب الحرب العالمية الأولى ، واهتم بشكلٍ خاص بشئون الحرفيين اليهود الذين كانوا يشكلون ٤٠٪ من تعداد الجماعة ، وقام بالتدريس في شبكة المدارس اليهودية المهنية في وارسو . وانتُخب في الفترة بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٤ عضواً في مجلس مدينة وارسو ، كما انتُخب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة عضواً في المجلس التنفيذي للجماعة اليهودية ، ثم عيَّنه عمدة وارسو بعد اندلاع الحرب رئيساً لمجلس الجماعة اليهودية . وبعد احتلال القوات الألمانية للمدينة ، عينته السلطات النازية رئيساً للمجلس اليهودي ، وأوكلت إليه مهمة تنظيم الجماعة اليهودية في جيتو خاص بها ، وكان على اتصال وثيق بالسلطات النازية ، خصوصاً مع قوميسار الجيتو الألماني . وقد وجه بعض أعضاء الجماعة اليهودية انتقادات حادة للمجلس اليهودي ونشاطه وحاول بعضهم إقصاء تشرنياكوف . ويُقال إن تشرنياكوف لم يصدق ، عندما بدأت عمليات ترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال ، أنهم سيتم ترحيلهم بالفعل . ولكنه أدرك في نهاية الأمر أبعاد المخطط ، فرفض التعاون مع الألمان ورفض التوقيع على أوامر الترحيل ولم يجد مخرجاً من مأزقه سوى الانتحار .

وقد ترك تشرنياكوف يوميات دوَّن فيها جميع الأحداث المهمة التي جرت داخل الجيتو وجميع ملاحظاته ومشاهداته . وتعتبر هذه اليوميات مرجعاً مهمًا لأوضاع وظروف جيتو وارسو إبان الاحتلال النازي .

وتثير حياة تشرنياكوف قضيتين : أولهما قضية مدى مسئولية القيادات اليهودية عن نجاح النازيين في تنفيذ مخططهم . أما القضية الثانية فهي خاصة بمدى معرفة العالم الخارجي بما كان يدور في ألمانيا من عمليات تهجير وقمع وإبادة ، إذ يذهب بعض الدراسين إلى أن العالم بأسره لم يكن يعرف شيئاً عما يدور في ألمانيا النازية وعن عمليات الإبادة ، ومن ثم لم يتخذ أية إجراءات للحيلولة دون وقوع مثل هذه العمليات ، بينما تصر الأدبيات الصهيونية على أن العالم ترك اليهود وحدهم لمصيرهم ، الأمر الذي يعني صدق المعادلة الصهيونية البسيطة : اليهود ضد الأغيار . ولكن تشرنياكوف (وهو ، كما بيَّنا ، واحد من أهم الشخصيات القيادية اليهودية وكان يعيش داخل بولندا ويترأس الجيتو اليهودي في وارسو ، وكان على علاقة يومية مع السلطات النازية) لم يكن يعرف شيئاً عن الترحيل أو عن أفران الغاز ولم يصدق ما كان يحدث من حوله ، وقد تعاون مع النازيين ، كما تُقرر المراجع الصهيونية ، لأنه لم يكن يدرك إطلاقاً ما كان يحدث من حوله ، ولم

يصل إلى مسامعه شيء إلا في عام ١٩٤٢ ، أي قرب نهاية الحرب ، فكيف كان بإمكان العالم الخارجي أن يعرف عن الاعتقال والتهجير والإبادة ؟

٤ ـ حاييم كابلان (١٨٨٠ - ١٩٤٢) :

مرب بولندي صهيوني دوَّن يومياته في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا . وُلد في بلوروسيا وتلقى تعليماً تلموديًا في المدرسة التلمودية العليا (يشيفا) ، ثم درس في المعهد الحكومي التربوي في فلنا . وفي عام ١٩٠٢ ، استقر في وارسو حيث أسس مدرسة ابتدائية عبرية كانت جديدة في نوعها ، وظل مديراً لها لمدة أربعين عاماً ، وكان كابلان شديد التحمس للغة العبرية ومن العارفين بها والدارسين لها . وقد تبنى في تدريسه للعبرية الأسلوب أو المنهج المباشر ، فكان يدرسها كلغة حية متداولة باستخدام اللهجة السفاردية . وأصدر كابلان عدة كتب بالعبرية يدعو فيها إلى تبني هذا المنهج في التدريس ، وذلك رغم المعارضة القوية من المؤمنين بالأساليب التقليدية . كما اشترك كابلان بشكل نشط في جمعية الكُتَّاب والصحفيين اليهود في وارسو ونشر العديد من المقالات وأصدر العديد من المجلات العبرية واليديشية على مدى الأعوام الأربعين التي عمل بها في التدريس . كما أصدر ، إلى جانب ذلك ، كتباً خاصة بالنحو العبري وكتباً للأطفال تتناول ما يُسمَّى «الثقافة اليهودية» و«التاريخ اليهودي» . وكان كابلان من المؤمنين بالقومية اليهودية ، أي الصهيونية ، والتاريخ اليهودي الواحد ، وكانت يهوديته ذات طابع قومي حيث لم يكن متمسكاً بممارسة الشعائر والتقاليد الدينية . وقد اتجه إلى فلسطين عام ١٩٣٦ حيث كان ينوي الاستقرار مع ابنيه اللذين هاجرا للاستيطان بها من قبل ، إلا أنه عاد إلى وارسو بعد أن فشل في العثور على عمل .

وتعود أهمية كابلان إلى أنه دوَّن يومياته وهو في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا وقبل أن يُدمَّر الجيتو بأكمله . وقد بدأ كابلان في كتابة يومياته بالعبرية ابتداءً من عام ١٩٣٣ وسجل فيها الأحداث اليومية لمجتمع الجيتو ، كما سجل أفكاره وحواراته مع أصدقائه وانطباعاته العديدة . وقد أدان كابلان القيادات اليهودية في الجيتو ومن بينها آدم تشرنياكوف رئيس المجلس اليهودي ، الذي كان يقوم بتسليم اليهود إلى النازيين والذي انتحر فيما بعد . وقد نجح كابلان في تهريب يومياته إلى خارج الجيتو قبل أن يلقى حتفه عام ١٩٤٢ .

وتتضمن اليوميات إدراكاً كاملاً للتشابه البنيوي بين النازية والصهيونية ، إذ يعبِّر

كابلان عن دهشته لاضطهاد النازيين لليهود رغم أن الحل النازي هو نفسه الحل الصهيوني: الاعتراف باليهود كشعب عضوي منبوذ وطنه فلسطين ومن ثم يتعيَّن عليه أن يهاجر إليها . وقد دوَّن كابلان في مذكراته أن هذه الكلمات كانت جديدة على النازيين تماماً ، وأنهم لم يصدقوا آذانهم حينما سمعوا ذلك لأول مرة من أحد اليهود . وهذه الملاحظة تدل على مدى جهل كابلان بمستوى المعرفة النازية بالمسألة اليهودية والعقيدة الصهيونية ، وتدل على أنه لم يكن متابعاً للتعاون الوثيق بين النازيين والصهاينة في ألمانيا النازية .

وتُرجمت يوميات كابلان إلى لغات عدة منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والدنماركية واليابانية ، ونُشرت بالإنجليزية تحت عنوان **مخطوطات العذاب** .

٥ ـ كورت بلومنفلد (١٨٨٤ - ١٩٦٣) :

أحد الزعماء الصهاينة في ألمانيا ، والقوة المحركة للمنظمة الصهيونية فيها . وهو يهودي ألماني وُلد لأسرة مندمجة ، ولكنه خَلُص إلى أنه لا جدوى من الانعتاق وأن اليهود لن يكون في وسعهم الاندماج في المجتمع الألماني . تزوج بلومنفلد من فتاة من شرق أوربا ، وبعد أن درس في كلية الحقوق في إحدى الجامعات الألمانية ، انضم إلى المنظمة الصهيونية وأصبح سكرتيرها الأول عام ١٩٠٩ ، ثم أصبح السكرتير العام للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (ورئيس قسم النشر) ، وترأس تحرير مجلة **دي فيلت** لسان حال المنظمة . وبعد الحرب العالمية الأولى ، قام بحملات واسعة لجمع التبرعات للصندوق القومي اليهودي وأصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩٢٤ ، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٣٣ ، أي عندما تولى هتلر السلطة في ألمانيا . وقد هاجر بلومنفلد عندئذ إلى فلسطين واستوطن فيها وأصبح الرئيس التنفيذي للصندوق القومي اليهودي في فلسطين . ومات بلومنفلد عام ١٩٦٣ ، ولكن المصادر الصهيونية لا تذكر شيئاً عن نشاطه السياسي منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته ، أي مدة عشرين عاماً ، وهو أمر يحتاج إلى دراسة .

كان بلومنفلد يرى نفسه « نبي» الصهيونية الألمانية في عصر ما بعد الاندماج وفشله ، وبدأ يعلن عن مواقفه ويقوم بالجولات الإعلامية داخل ألمانيا وخارجها بوصفه مسئولاً صهيونيًا ، كما دأب على إلقاء خطب نارية ورفع شعارات سببت كثيراً من الحرج لأعضاء الأقلية اليهودية في ألمانيا . وكان بلومنفلد وراء إصدار ما يُسمَّى «قرار بوزن» الذي

أصدرته المنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩١٢ وحدَّدت فيه الصهيونية كحركة قومية تُترجم نفسها إلى هجرة إلى فلسطين " الوطن القومي لليهود " . ووصف بلومنفلد هذا القرار بأنه كان بمنزلة إعلان للهجوم على صهيونية الإحسان (الغربية) ، أي الصهيونية التوطينية ، وأن الصهيونية بصدوره أصبحت حركة ذات طابع قومي (استيطاني) واضح (وقد اعترف بلومنفلد أيضاً بأن الأعضاء وافقوا على قراره لأنهم لم يدركوا تضميناته السياسية الراديكالية) .

٦ ـ رودولف كاستنر (١٩٠٦ - ١٩٥٧) :

أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر . ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية ، ورأس تحرير مجلة **أوج كيليت Uj Kelet** (أي «الشرق الجديد») ، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر ، ثم أصبح مسئولاً عن « إنقاذ » المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، فقد كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بوادابست التابعة للوكالة اليهودية .

قام كاستنر بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر ، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها) ، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر . وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظف وحسب ، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين ، هذا بينما كان يبلغ عدد يهود المجر ما يزيد عن ٨٠٠ ألف ، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة . ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه ، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال . ومقابل ذلك سمحت السلطات النازية (عام ١٩٤١) بإرسال ٣١٨ يهوديًا ثم ١٣٨٦ يهوديًا من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين (« يهود من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول أيخمان) .

استقر كاستنر في فلسطين عام ١٩٤٦ ، وانضم إلى قيادة الماباي ورُشِّح للكنيست الأول . وانتقلت معه مجلة **أوج كيليت** ، وأصبح رئيساً لتحريرها ، بل كان يُعد مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم .

ولكن في عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينوولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيها كاستنر بالتعاون مع النازيين ، وأنه قام بالدفاع عن أحد ضباط الحرس الخامس (الإس . إس .) أثناء محاكمات نورمبرج الأمر الذي أدَّى إلى تبرئته وإطلاق سراحه . وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر وتبرئته . كما بيَّن كاستنر أثناء محاكمته أنه لم يكن يسلك سلوكاً فردياً وإنما تَصرَّف بناءً على تفويض من الوكالة اليهودية (التي أصبحت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨) . ولم يكن كاستنر مبالغاً في قوله فالمواطن الإسرائيلي جويل براند كان على علم ببعض خفايا القضية وبمدى تورُّط النخبة الحاكمة في عملية المقايضة الشيطانية التي تمت . وقد طُلب منه الإدلاء بشهادته ، ولكنه آثر ألا يفعل وبدلاً من ذلك كتب كتاباً بعنوان **الشيطان والروح** يقول فيه «إن لديه حقائق تبعث على الرعب وتدمغ رؤوس الدولة اليهودية (الذين كانوا رؤساء الوكالة اليهودية) » . وأضاف قائلاً « إنه لو نشر مثل هذه الحقائق لسالت الدماء في تل أبيب » .

وقد قضت المحكمة الإسرائيلية بأن معظم ما جاء في كتيب جرينوولد يتطابق مع الواقع . وبعد إشكالات قضائية كثيرة ، حُسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق « أحدهم » الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع . وقد تمت الجريمة رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر ، بل وكانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة . وقد سجل موشيه شاريت ، رئيس الوزراء الإسرائيلي ، هذه الكلمات في مذكراته : « كاستنر . كابوس مرعب . حزب الماباي يختنق . بوجروم . » . ويشير براند في كتابه إلى أن «رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر ، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته » ، وكانوا يفكرون في « إسكاته » .

الفصل الرابع
الإبادة في الوجدان الغربي

لن يتناول هذا الفصل الإبادة النازية كواقعة تاريخية وإنما سيتناولها كما تنعكس في الوجدان (الأدبي والديني والفلسفي والفني) الغربي .

متاحف الإبادة :

يتضح انشغال أعضاء الجماعات اليهودية بموضوع الإبادة من عدد المتاحف التي تُكرَّس لهذا الموضوع . وكان متحف ياد فاشيم للإبادة النازية في إسرائيل هو أهم هذه المتاحف (حتى عهد قريب) حتى تحوَّل إلى ما يُشبه المزار المقدَّس ليهود العالم . و«ياد فاشيم» هي عبارة عبرية معناها «النصب والإسم» (" إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصباً وإسماً ، أفضل من البنين والبنات . أعطيهم اسماً أبديًا لا ينقطع " [أشعيا ٥٦/ ٥]) . ويقع مُركَّب مباني هذا المتحف على حافة جبل تطل على قرية عين كريم . ويضم متحف ياد فاشيم صالة الذكريات ، وأرشيف الإبادة الذي يضم حوالي ٥٠ مليون وثيقة . كما يضم المتحف ما يُسمَّى «شارع الأتقياء بين الأغيار» الذي غُرس فيه ٥٠٠ شجرة تكريماً لأشخاص غير يهود ضحوا بأنفسهم أو عرضوا أنفسهم للخطر لحماية اليهود . أما صالة الأسماء ، فتضم ما يُسمَّى «صفحات الشهادة» التي تضم حوالي ثلاثة ملايين من أسماء أعضاء الجماعات اليهودية التي قضى عليها النازيون .

أما المناطق المكشوفة ، فتضم تماثيل ونصباً عن الإبادة . وعلى سبيل المثال ، يوجد نصب يُسمَّى «أوشفيتس» للمثّالة إلسا بولاك ، وهو عبارة عن عمود يوحي بأنه مدخنة أفران الغاز كُتبت عليه أرقام ضحايا أوشفيتس (الضحايا اليهود فقط بطبيعة الحال) . أما تمثال «عمودَ البطولة» للفنان الإسرائيلي بوكي شفارتز ، فيحتفي بما يُسمَّى «المقاومة اليهودية» . ومن أشهر التماثيل ، تمثال نادور جيلد المسمَّى «نصب ضحايا معسكرات

الإبادة» ، وهو عبارة عن أجسام بشرية نحيفة ، تُشبه أسلاك المعسكرات الشائكة ، ترفع يدها وعيونها نحو السماء . ويوجد ميدان صغير على هيئة شمعدان المينوراه في نهايته تمثال برتي فينك «نصب الجنود ومحاربي الجيتو والمقاومين» والذي يرمز إلى الستة مليون يهودي الذين أُبيدوا ، وتأخذ المينوراه شكل نجمة داود . وهناك سيف صلب ضخم مغمد في النجمة .

ويلي ذلك ما يُسمَّى «وادي الجماعات التي دُمِّرت» نُقشت فيه أسماء خمسة آلاف جماعة يهودية في ٢٢ بلداً على بناية صخرية منحوتة في الَجبل. أما «صالة الذكرى» فقد بُنيت حوائطها من كتل ضخمة من البازلت المصقول وعلى أرضها الرمادية الفسيفسائية كُتبت أسماء أهم ٢٢ معسكراً للاعتقال .

وهناك ما يُسمَّى «النور الأزلي» ، كما هو الحال في المعبد اليهودي ، تحت قنطرة أو عقد يحوي رماد الضحايا الذي جُمِع من المعسكرات . ويدخل ضوء النهار بين الحائط والسقف .

وكان متحف ياد فاشيم ، كما أسلفنا ، هو أهم متاحف الإبادة النازية في إسرائيل ، ولكن أقيم مؤخراً متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية (بالإنجليزية : هولوكوست ميموريال ميوزيام Holocaust Memorial Museum) (حرفياً : متحف الهولوكوست التذكاري) ، الذي افتتحه الرئيس كلنتون في أواخر إبريل ١٩٩٣ ، ويعده البعض أهم متاحف الإبادة في العالم . وقد بُني المتحف في ميدان (أو أرض) المعارض الشهير في واشنطن (يُشار إليه بالإنجليزية بأنه «ذي مول The Mall») . ويمكن رؤية تمثال جورج واشنطن من البقعة التي أُقيم فيها . وقد تكلف نحو ٩٠ مليون دولار وصمَّمه المهندس الأمريكي اليهودي جيمس فريد Freed الذي يبلغ من العمر ٥٦ عاماً والذي هرب مع أسرته من ألمانيا عام ١٩٣٩ .

وينطلق المتحف من فكر فلسفي واضح يترجم نفسه إلى معمار ، إذ يذهب فريد إلى أن ثمة شيئاً لا يمكن تصديقه ، شيء مستحيل في هذا المشروع ، أي مشروع إنشاء المتحف ، وهو بهذا يؤكد الخط الصهيوني فيما يتعلق بالإبادة ، إذ تم تحويلها من مجرد جريمة شنعاء ارتكبها أحد المجتمعات الغربية (ألمانيا النازية) ، ضد مجموعات بشرية مختلفة في أوربا من بينها اليهود ، إلى شيء ميتافيزيقي لا يمكن فهمه ، يقف خارج التاريخ والزمان موجهاً ضد اليهود وحدهم . ولذا ، قرر فريد أن يبني متحفاً لا يتسم بالتناسق أو التحضر على حد قوله «لا أعتقد أن هذا المبنى سيكون حسن السير والسلوك ، فأنا لا أُطيق التجميل ، فهذا هو ما فعله النازيون في معسكرات الاعتقال ، فالواجهات كانت على الطراز

التيرولي Tyrolean وكانت النوافذ تزينها «أصص الورد» . ولذلك ، لابد أن يبعث هذا المبنى الإحساس بالسر والخوف وعدم التصديق » . ومن هنا كانت المشكلة التي واجهها المهندس المصمم فريد ـ على حد قول أحد النقاد ـ هي : هل يستطيع المعمار المتحضر أن يعبِّر عما هو غير متحضر ؟

ولحل كل هذه المشاكل ، قرر المهندس ألا يكون المتحف جميلاً أكثر من اللازم ، وإلا تصوَّر المشاهد أن الإبادة هي مجرد حدث كبير آخر في مسار التاريخ . ولو أخذ المتحف شكلاً عكسيًا وتحاشى المصمم معمار الضخامة النيو كلاسيكي السائد في واشنطن وتبنى طرازاً صناعيًا (حتى يوحي بجو المصنع الذي كان سائداً في معسكرات الاعتقال) فإن هذا قد يؤدي إلى تتفيه الحدث . وإذا تبنَّى المتحف أسلوباً حرفيًا في تقديم الإبادة ، فإنه قد يبعث على الاشمئزاز في نفس الزوار فينصرفون عنه . ولهذا كله يجب ألا يكون هذا المبنى جميلاً أكثر من اللازم ، ولا قبيحاً أكثر من اللازم ، وهو ما يعني أن أي مبنى تقليدي لن يصلح له .

وكان من الممكن (كما فكر المهندس الذي صمم المتحف ، على حد قول أحد النقاد) أن يكون المبنى محايداً تماماً ، مجرد حائط يضم المعروضات باعتبارها قيمة مطلقة لا يمكن لأي معماري مهما بلغ ذكاؤه أن يبرزها ، فهي تقف بذاتها وكأنها السر الإلهي . ولكن هذا الحل يعني فشل المعمار الحديث في أن يقبل التحدي . وأخيراً كان من الممكن أن يتخلى المصمم تماماً عن الفكرة ويعلن أنه لا يمكن التعبير عنها . ولكن هذا حل يتسم بالجبن ، فهو يعني أن الفنان ليست له رسالة اجتماعية .

بقيت مشكلة أخيرة ، وهي أن هذا المبنى رغم تفرده لابد أن يكون جزءاً من مباني المتاحف في واشنطن . وقد تَقدَّم المهندس المصمم برسومات المعرض للجنة الفنون الجميلة التي تشرف على المعمار في واشنطن ، ولكنها رفضته ؛ إذ وجدته يؤكد رسالته بشكل جازم أكثر من اللائق . بل وألمح بعض أعضاء اللجنة إلى أن مثل هذا المتحف لا ينتمي أساساً إلى عاصمة الولايات المتحدة لأن الإبادة النازية ليست جزءاً من تاريخ أمريكا ، فضلاً عن أنها تجربة مؤلمة . ولكن ، تم التغلب على هذا الاعتراض الأخير بالإشارة إلى الحائط التجريدي الذي صممه مايا يانج لين لضحايا حرب فيتنام ، فهو نصب تذكاري يُذكِّر المشاهدين بلحظة تاريخية محزنة . وتم في نهاية الأمر الموافقة على تصميم المبنى بعد تعديله ، وهو يمتد من شارع ١٤ إلى شارع ١٥ شرقي طريق الاستقلال ليكون بين مبنيين ، أحدهما على الطراز الكلاسيكي والآخر على الطراز الفكتوري .

وهنا أثيرت قضية واجهة المعرض ، وقد دار الحوار لا في إطار جمالي محض ، وإنما في إطار معرفي عميق . فواجهة المعارض الموجودة في المول Mall تتبع في معظم الأحيان الطراز النيوكلاسيكي ، وهو طراز يحاكي بشكلٍ واعٍ المعمار اليوناني الروماني الوثني ، أي أنه يشكِّل عودة إلى الحضارة الوثنية التي سبقت عصور الظلام المسيحية ، وهي حضارة سادت فيها قيم العقل والتوازن دون غيب أو أساطير ، ولهذا يتسم المعمار بالبساطة والجلال . وقد كان مؤسسو الجمهورية الأمريكية مغرمين بهذا الطراز ، ولذلك أسس جيفرسون منزله في مونتشيلو على نفس الطراز ، وكانت معظم مباني واشنطن حتى عهد قريب تتبع النمط نفسه .

وقد قرر المهندس فريد أن واجهة متحف الإبادة لا يمكن أن تعبِّر عن عصر التنوير والعقل (بالإنجليزية : إنلايتينمنت Enlightenment) ، بل لابد أن تعبِّر عن الإظلام واللاعقل (بالإنجليزية : أنداركنمنت Endarkenment) . ولذا ، تَقرَّر أن تشبه واجهة المتحف ومدخله واجهة ومدخل معسكرات الاعتقال ، أي على الطراز التيرولي ، الذي ينتمي إلى طراز الحداثة الفييناوي (نسبة إلى فيينا) الذي ظهر مع نهاية القرن ، وذلك من حيث دقة القوس والتفاصيل الكلاسيكية البارزة . وتم تصميم هذه الواجهة وهذا المدخل بناءً على طلب لجنة الفنون الجميلة (ففي التصميم الأصلي كان هناك إفريز بارز يتصف بأنه مصطنع وينذر بالشؤم ويوحي بالخوف) . ويؤدي المدخل إلى صالة الشهادة ، وهي مصنوعة من الطوب الخشن ولها سقف زجاجي معلق على عروق حديدية مكشوفة ، تسمح بدخول الضوء (الأمر الطبيعي الوحيد الذي لم ينجح النازيون في القضاء عليه) . وهي بذلك تذكِّر المُشاهد بمعسكرات الاعتقال وأفران الغاز . ويخيِّم على هذا المعمار الصناعي فراغ معتم ثقيلَ يوحي بجو من القلق المتعمد ، فخطوطه غير مستقيمة . ويوجد في المتحف سلم متسع عند قاعدته ثم يضيق بالتدريج حتى يشعر الزوار بالزحام وكأنهم في أحد معسكرات الاعتقال . ويبدو السلم في نهايته منحرفاً داخل منظور زائف .

ويحاول المهندس أن يعبِّر عن إحساسه بعدم الراحة بطرق مختلفة . فعلى سبيل المثال ، يوجد في الحائط الحجري في آخر هذه الصالة شقوق . أما بوابات الأجنحة فهي معدنية ثقيلة . وتوجد مكاتب موظفي المتحف داخل أربعة أبراج ، لتذكِّر الزائر بأبراج المراقبة في معسكر الإبادة . بل إن المصعد الذي يُستخدَم للوصول إلى هذه المكاتب يولِّد في الزائر شعوراً بعدم الراحة ، فهو مصعد ضيِّق والإضاءة بيضاء متوهجة وأبوابه مصنوعة من المعدن الرمادي ، تُغلق وتُفتح بصعوبة كأبواب أفران الغاز . وتضم صالات العرض صوراً وأعمالاً فنية عن الإبادة . وكل مقتنيات المتحف أشياء أصلية كانت تستخدم بالفعل في

معسكرات الاعتقال . وتوجد شاشات تليفزيون تُعرَض فيها أفلام تروي أحداث الهولوكوست وأخرى تروي تاريخ معاداة اليهود ، ولهذا السبب وُضعت الشاشات على ارتفاع متر ونصف حتى لا تسبب إزعاجاً للأطفال .

ويُعطَى كل زائر بطاقة كومبيوتر عليها صورة أحد الضحايا ، بحيث يمكن للزائر أن يتابع قصته من خلال شاشات عرض موجودة في أماكن مختلفة . ويسمع مشاهد العرض تسجيلات لأصوات الجنود الأمريكيين الذين حرروا معسكرات الاعتقال وهم يعبِّرون عن إحساسهم بالصدمة العميقة لما يشاهدونه . ويوجد في الدور الثالث شارع من الحجر وكوبري خشب تؤدي بالزائر الى جناح عن جيتو وارسو الذي شهد أعمال المقاومة اليهودية ضد النازيين .

ويُقال إن المتحف لم ينس ضحايا الإبادة الآخرين مثل الغجر وغيرهم . ولم ينس كذلك بعض الأغيار الذين ساعدوا اليهود على الفرار من النازيين ، ولهذا يضم هذا المتحف قارباً من ذلك النوع الذي كان يستعمله الدنماركيون في إنقاذ اليهود .

وتوجد صالة أخرى تُسمَّى «صالة الذكرى» ، بُنيت على شكل سداسي ، ارتفاعها ٧٥ قدماً ، وسقفها على هيئة قبة وهي مبنى مستقل عن المتحف مفتوح عليه . وكان ارتفاع الصالة في الأصل ٨٠ قدماً ، كما كان من المفروض أن يكون المتحف كله بارزاً في ميدان المتاحف بنحو ٤٠ قدماً . ولكن اللجنة أصرت على أن يكون بمحاذاة المباني الأخرى ، كما تم إنقاص حجم المتحف كله ١٠٪ (يبلغ حجم المتحف ٣٦ ألف قدم مربع ، وتستغرق مشاهدته ثلاث ساعات) ، ولكن هذا المبنى السداسي يظل بمفرده بارزاً في أرض المتاحف ، لا نوافذ له ولا زخارف على حوائطه سوى اقتباسات من العهد القديم تأخذ شكل نقوش بارزة . كما توجد على الحائط كوَّات تشبه المحراب الصغير يمكن أن تُوضَع فيها مئات الشموع المشتعلة لإحياء ذكرى ضحايا الإبادة النازية . وتُضَاء هذه الصالة بالنور الطبيعي من ناحية السقف ، حيث تكون الحوائط فارغة تماماً . وهيئة الصالة من الخارج لا تختلف عن داخلها ، فهي عارية من الزخارف أيضاً إلا من بعض التفاصيل ذات الطابع الكلاسيكي الصارم . وتعطي الصالة الإحساس بأنها شيء ضخم ومجرد يقف في أرض المتاحف .

وتذكِّر صالة الذكرى المرء بقدس الأقداس في هيكل سليمان وهيرود . بل ويمكن القول بأن المتحف ككل يشبه هيكل سليمان . وإذا كان اليهود يعبدون في هيكل سليمان إلههم ، فإنهم في متحف الإبادة النازية يعبدون أنفسهم (اليهود أو الشعب اليهودي الذي

يتحول هو ذاته إلى الشيم هامفوراش ، أي الاسم المقدَّس والأعظم الذي لا يستطيع أحد أن يتفوه به إلا كبير الكهنة في قدس الأقداس يوم الغفران) ، باعتبار أن تجربة الإبادة التي حدثت لليهود تجربة تتحدى قدرة الإنسان على أن يفصح عما في داخله .

وقد وُصف معمار المتحف بأنه تفكيكي ينتمي إلى عالم ما بعد الحداثة ، ونحن نرى أن هذا وصف دقيق للنموذج الكامن وراء هذا المتحف ولكل تفاصيله التي يتجلى من خلالها النموذج . ففكر ما بعد الحداثة (التفكيكي) يصدر عن الإيمان بأن العلاقة بين الدال والمدلول (الكلمة ومعناها أو الاسم والمُسمَّى) علاقة عشوائية مترهلة ، ولذا فاللغة ليست أداة جيدة لتوصيل المعنى أو للتواصل بين الناس ، وكأن الكلام حبر على ورق : حادثة إمبريقية مادية قد لا تحمل مدلولاً يتجاوز وجودها المادي ، بل هو كسائل أسود تناثر بطريقة ما على صفحة بيضاء . ويواكب هذا إدراك الإنسان الغربي أن كل أشكال اليقين داخل منظومته الحضارية قد تهاوت بتهاوي المنظومات والمرجعيات المعرفية الأخلاقية والإنسانية ، الإيمانية وغير الإيمانية ، ومن ثم ، لا يمكن الوصول إلى الواقع الخارجي ولا يمكن تصنيفه أو ترتيبه ، فهو لا مركز له ولا يمكن الحكم عليه ولا تمكن محاكمته . ولذا لا يبقى إلا الشيء في ذاته ، فيصبح هو ذاته دالاً ومدلولاً ومرجعية ذاته .

والإبادة هي حدث مرئي يمكن للإنسان أن يجربه ، ولكن لا يمكنه الإفصاح عنه ، فالإبادة صورة تكاد تكون دالاً بلا مدلول أو مدلولاً لا يمكن لأي دال أن يدل عليه . إن الإبادة هي الأبوريا aporia : الهوة التي تفغر فاها والتي ما لها من قرار ، الهوة التي تنفتح بعد تساقط كل المرجعيات فلا يرى الإنسان سوى العدم ، أو الإبادة النازية لليهود . وكيف تم توصيل ذلك ؟ عن طريق إعادة خلق جو المعسكرات ومن خلال وضع الأشياء التي استخدمت فيها أمام المتفرج حتى يجربها دون وساطة أو دوال ، والأشياء هنا (مثل الإبادة) هي أيضاً دال دون مدلول أو مدلول دون دال ، أو دال هو ذاته مدلول ، فالشيء هو الاسم والمسمَّى .

ورغم ذكر بعض الضحايا غير اليهود ، إلا أن المتحف بطبيعة الحال يحاول أن يؤكد أن اليهود هم الضحية ، وأن الأغيار تركوا اليهود لمصيرهم (ولعل ذكر الغجر وغيرهم من ضحايا النازي كان ذراً للرماد في العيون وتحسباً لما قد يثار من ضجة بسبب الرؤية الصهيونية التقليدية التي تجعل من اليهود الضحية الوحيدة) . ويُذكِّر المتحف الشعب الأمريكي بعدم اكتراثه بالإبادة النازية ، وبأن الحكومة الأمريكية رفضت السماح للباخرة سانت لويس عام ١٩٣٩ بالرسو في الشواطئ الأمريكية رغم أنها كانت تحمل ١١٢٨

لاجئاً يهوديًا فارين من هتلر، ورغم أنها وصلت حتى هافانا. وفي نهاية الأمر أُعيدت السفينة إلى ألمانيا ليلاقي الفارون مصيرهم. وقد رفض الحلفاء أن يقوموا بشن غارات على معسكرات الاعتقال وكما رفضوا ضرب خطوط السكك الحديدية التي تؤدي إليها. ويشير المتحف كذلك إلى مؤتمر إفيان الذي دعا إليه الرئيس روزفلت عام ١٩٣٨ حيث رفض ممثلو بعض الدول الأوربية أن يسمحوا لليهود الهاربين من الرايخ الثالث بالهجرة إليها.

ويُجسِّد المتحف أطروحة فكرية أساسية في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية وفى الحضارة الغربية الحديثة (الإبادة باعتبارها أيقونة تشير إلى ذاتها أو دالاً متجاوزاً يعجز العقل عن الإحاطة به) فهو ليس مجرد مبنى، وإنما موقف ورؤية. ولذا فمن حقنا أن نثير من جانبنا بعض الإشكاليات، ونطرح بعض الإسئلة: هل الإبادة، على سبيل المثال، ظاهرة ميتافيزيقة كما يقال، أم أنها ظاهرة تاريخية، يمكن تفسير كثير من جوانبها وفهمها واستيعابها؟ ولماذا لم يُقَم متحف عن الإبادة الأمريكية للسكان الأصليين ولتاريخ أمريكا المظلم في استغلال العبيد السود إلى درجة تكاد تكون مترادفة مع الإبادة؟ ولماذا لم يذكر المتحف عشرات القساوسة الكاثوليك والرعاة البروتستانت الذين ضحوا بحياتهم من أجل اليهود؟

وهناك الكثير من الحقائق التي حرص المتحف على إخفائها، فالمتحف لم يذكر شيئاً عن تعاون كثير من قيادات الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة) مع النازيين، ولم يجب على أسئلة مهمة مثل: هل كانت المقاومة اليهودية للإبادة النازية بالقوة المطلوبة؟ هل كان من الممكن لآلة الفتك الألمانية أن تستمر في الدوران لو رفض ملايين الضحايا أن يتعاونوا مع قاتليهم؟ بل ولنأخذ قضية مثل إنقاذ اليهود. من المعروف أن القيادات الصهيونية لم تكترث بذلك كثيراً، بل ومن المعروف أن القيادات الصهيونية كانت تعارض إنقاذ اليهود عن طريق فتح أبواب الهجرة أمامهم في بلاد أخرى غير فلسطين، فلماذا لم يُذكر هذا فى المتحف؟

وقد احتج الألمان على الصورة المبتسرة التي قُدِّمت عن ألمانيا. فتاريخ ألمانيا يمتد عدة مئات من السنين قبل الإبادة، وما يزيد على أربعين سنة بعدها، فلماذا التركيز على هذه الحقبة دون غيرها؟. ولهذا، اقترحت الحكومة الألمانية أن يُلحق جناح عن ازدهار الديموقراطية الألمانية بعد الحرب. وقد رُفض الطلب بطبيعة الحال.

ومن المتاحف الأخرى التي كُرِّست للإبادة: متحف الإبادة فى لوس أنجلوس. ويبدو أن بعض قطاعات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة قد بدأت تدرك خطورة احتكار

دور الضحية ، ولذلك نجد أن متحف الإبادة الذي شُيِّد في لوس أنجلوس (الذي افتُتح في فبراير ١٩٧٩) يُدعى «بيت شواه (أي بيت الإبادة) ومتحف التسامح» . وهذا الاسم المزدوج له أعمق الدلالة ، فهو يضع الدائرة اليهودية داخل دوائر أخرى مشابهة . وتتسم واجهة المتحف بأنها حديثة محايدة ، فهي مصنوعة من الجرانيت والزجاج ، ويمكن القول بأن معمار المتحف ككل يتسم بالحداثة (ولا يتحيز إلى ما بعد الحداثة) . فهو بواجهته وأدواره الأربعة لا يختلف عن كثير من المباني المحيطة به .

وينقسم المتحف إلى قسمين ، ولنبدأ بالقسم المخصص للتسامح ، وهو يغطي تاريخ التعصب في الولايات المتحدة منذ إبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) حتى حادثة ضرب رودني كينج وتبرئة ضباط الشرطة الذين قاموا بضربه . وتتضح حداثة المتحف في استخدامه المكثف للتكنولوجيا المتقدمة . فحينما تدخل المبنى يقابلك إنسان مكون من ١٠ أجهزة فيديو ، يخبرك أنك إنسان فوق المتوسط ، لا تشعر بأي تعصب ضد الآخرين ، ولكنه يستمر في الحديث ليُبيِّن بعض أشكال التعصب الكامنة في النفس البشرية . وحينما تتركه ، ستجد أمامك بابين : واحد للمتعصبين وواحد لغير المتعصبين . وبطبيعة الحال ، سيتجه الجميع وبشكل تلقائي للباب الثاني ، ولكنهم سيكتشفون أنه مغلق (فهل هذا يعني أن كل البشر متعصبون ؟) . ثم يدلف المتفرجون إلى صالة تسمع فيها همسات المتعصبين ، وتشاهد فيها أفلاماً عن إبادة الأرمن والكمبوديين وسكان أمريكا الأصليين في أمريكا اللاتينية .

أما القسم الثاني الخاص بالإبادة ، فتوجد فيه صالة الشهادة التي يمكن للزائر أن يسمع فيها التواريخ الشفهية التي يرويها الضحايا ، وشهادات من لا يزال على قيد الحياة . وهناك إحياء لذكرى الأغيار الأتقياء (بالإنجليزية : رايتيوس جنتايلز righteous gentiles) ، أي الأغيار الذين ساهموا في عمليات إنقاذ اليهود . وتوجد غرفة يمكن لرواد المتحف أن يجدوا فيها تقارير متجددة عن جرائم الكره والتعصب . وفي أثناء الحرب بين الصرب وكرواتيا والبوسنة، على سبيل المثال ، كان بوسع الزوار أن يتابعوا أولاً بأول جرائم التطهير العرقي في البوسنة . وكما هو الحال في متحف إحياء ذكرى الإبادة في واشنطن ، يُعطى كل زائر للمتحف بطاقة عليها صورة أحد الضحايا يمكنه أن يتابع قصة حياته من خلال شاشات العرض المختلفة في المتحف .

وتوجد في الولايات المتحدة بضعة مراكز تذكارية ومتاحف أخرى صغيرة مخصصة للإبادة النازية (مركز دالاس التذكاري لدراسات الإبادة - مركز الإبادة النازية التذكاري

في ميشجان . ويبدو أن من المقرر إقامة متحف في نيويورك باسم «ذكرى الإبادة النازية ـ متحف التراث اليهودي») .

ويذهب بعض المعلقين إلى أن هذه المتاحف لن تؤدي إلى إحياء ذكرى الإبادة ، وإنما سيتم من خلالها أمركة الهولوكوست ، وأن الإبادة النازية ليهود أوربا ستصبح مثل ميكي ماوس وكوكاكولا وماكدونالد وألعاب الأتاري الإلكترونية المسلية . وبعد عدة سنين ستصبح الإبادة ماركة تجارية مسجلة (De Shoah Business على حد قول المجلة الألمانية **دير شبيجل**) لا علاقة لها بأوشفيتس ، وإنما بمتحف في لوس أنجلوس أو واشنطن .

ويعتقد الكثيرون ، بناء على المنطق والملاحظة المباشرة ، أن إنشاء متاحف الإبادة في الولايات المتحدة هو مؤشر آخر على الهيمنة الصهيونية واليهودية . ولكن من المفارقات أننا لو تعمقنا بعض الشيء لاكتشفنا شيئاً مدهشاً ومغايراً تماماً لما نتصور ، فمما لا شك فيه أن هذا المتحف تعبير عن قوة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . ولكن هل هذا يعني بالضرورة تعاظم قوة إسرائيل ؟ إن الربط الذي يقوم به العقل العربي بين النفوذ اليهودي والنفوذ الإسرائيلي هي عملية منطقية لا علاقة لها بالواقع المتعيِّن . فقد اعترضت الصحف الإسرائيلية على إقامة هذا المتحف وبقوة . وفي إسرائيل يوجد ضريح ياد فاشيم (النصب والاسم) الذي أُقيم لإحياء ذكرى ضحايا الإبادة . وقد أصبح هذا النصب المزار الأساسي الذي يتعيَّن على كبار الزوار زيارته حينما يذهبون إلى إسرائيل . ويرى المستوطنون الصهاينة أن إسرائيل هي المركز القومي والحضاري والمعنوي ليهود العالم الذين يُشكِّلون بالنسبة لها مجرد الهامش أو الأطراف ، ومن ثم لابد أن يظل المزار الأساسي للشعب اليهودي في الوطن القومي . ولهذا ، فإن إقامة متحف لإحياء ذكرى الإبادة النازية وعلى هذا المستوى في عاصمة الولايات المتحدة ، وآخر في لوس أنجلوس ، يُشكِّل تحدياً لوجهة النظر الصهيونية ، ويُشكِّل محاولة من جانب يهود الولايات المتحدة لخلق مسافة بينهم وبين المُستوطَن الصهيوني ليزيدوا من قوة استقلالهم . ومن ثم ، فإن متاحف الإبادة قد تكون تعبيراً عن مدى قوة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، ولكنها لا تشكل تعاظماً للنفوذ الصهيوني وإنما تحدياً له .

قائمة شندلر :

«قائمة شندلر» فيلم من أهم أفلام المخرج الأمريكي اليهودى ستيفن سبيلبرج . والفيلم يستند إلى قصة روائية ومع هذا يأخذ شكل الفيلم الوثائقي، ولذلك يستخدم

المخرج أحياناً بعض المشاهد المألوفة لدى الناس من خلال صور الهولوكوست الكثيرة التي نُشرت أكثر من مرة . وبطل الفيلم هو شندلر وهو صناعي ألماني سوديتي (من الألمان الذين طُردوا بعد الحرب العالمية الأولى من منطقة السوديت في غربي تشيكوسلوفاكيا) . وهو إنسان غير مكترث بالسياسة متمركز حول ذاته مهتم بجمع المال وإنفاقه . وقد ذهب إلى بولندا في بداية الحرب كي يُحقق الربح ويُمتع نفسه . وفي هذا الإطار يعقد صفقة مع النازيين يتم بمقتضاها تزويده ببعض العمال اليهود من معسكرات الاعتقال والإبادة لتشغيل مصنعه الذي ينتج أواني تساعد ألمانيا في جهودها العسكرية . ورغم أن أهداف شندلر المبدئية نفعية مادية دنيئة ، خالية تماماً من المثاليات ، إلا أن إنسانيته تهزمه تدريجيًا ويبدأ في التعاون مع اليهود ويُضحي بثروته من أجلهم ، إذ يقوم بتقديم الرشاوي لكبار الضباط النازيين كي يضمن البقاء لليهود الذي يعملون في مصنعه . وهكذا تتحول الصفقة المادية المبرمة بين شندلر والنازيين إلى آلية لإنقاذ بضعة مئات من اليهود الذين يظهرون على «قائمة شندلر» .

ولفهم فيلم «قائمة شندلر» حق الفهم لابد أن نضعه في سياقه الحقيقي ، وأهم عناصر هذا السياق أن مخرج الفيلم سبيلبرج هو أمريكي يهودي (وليس يهودياً أمريكياً) مندمج تماماً ، أي أنه من «اليهود الجدد» ، تمييزاً لهم عن يهود أوربا ، فتجربتهم الحضارية مختلفة عن تجارب يهود أوربا ، لأنهم لم يعرفوا الجيتو ولا التخصص المهني أو الوظيفي . فقد نشأ سبيلبرج في منزل لم يحافظ على الطقوس الدينية ، ولم يُطبِّق قوانين الطعام الشرعية وتزوج من غير يهودية . وكل هذا يعني أن علاقته بهويته اليهودية علاقة واهية للغاية وليست هوية متماسكة متكاملة وإنما هي في واقع الأمر بقايا لمجموعة من الرموز وشتات من الذكريات . وتجربة سبيلبرج في المحتمع الأمريكي تجربة إيجابية للغاية فقد حقق نجاحاً مذهلاً ، وأصبح من أهم رموزه ، بل ويشارك في تطوير رموز هذا المجتمع ووجدانه من خلال أفلامه . فكيف يمكنه أن يتقبل الثنائية الصهيونية البسيطة : يهود ضد أغيار ؟ وكيف يمكن أن يقبل الطرح الصهيوني لفكرة المركز الإسرائيلي في مقابل الهامش اليهودي ؟ ومن هنا كان ضرورياً أن يكون بطله شخصاً قادراً على أن يتحرك بكفاءة بين العالمين : عالم اليهود وعالم الأغيار ، فهذا أقرب لتجربة سبيلبرج مع المجتمع الأمريكي ، من الأنماط الإدراكية الساذجة والثنائيات الصلبة التي توجد في الأدبيات الصهيونية حيث يقف اليهودي وحيداً أمام ذئاب الأغيار .

ولكن هناك بُعداً آخر أعمق في «قائمة شندلر» . والأطروحة الأساسية في الفيلم هي

أن النازيين كانوا يقتلون اليهود لا كرهاً فيهم أو حقداً عليهم ، وإنما لأنهم كانوا غير نافعين. ولذا كان لا يُباد النافع منهم ، أي كل من يمكن توظيفه أو تسخيره في خدمة الاقتصاد الألماني . كان هناك من النازيين من يكّن كراهية خاصة لليهود ، ولكن القيمة الحاكمة الكبرى لم تكّن الكراهية وإنما المنفعة . وقد أدرك شندلر هذا وتحرك في إطاره وتمكن من إنقاذ مجموعة من اليهود من أفران الغاز عن طريق توضيح نفعهم . ولعل أهم المناظر في الفيلم من هذا المنظور هو اللحظة التي أصر فيها أحد الحراس النازيين على استبعاد بعض الأطفال اليهود المرحَّلين إلى مصنع شندلر باعتبار أنهم لا نفع له ، فهم مجرد أطفال لا يمكن أن يعملوا في المصنع . ولكن شندلر يُبيِّن لهم ، في لهجة غاضبة ، أن أيدي الأطفال الصغيرة ضرورية لأنها هي وحدها القادرة على الوصول إلى داخل بعض الأواني التي تَخصَّص مصنع شندلر في صنعها . المسألة كلها مسألة نفعية موضوعية مادية عملية منفصلة عن القيم ، خاضعة للحسابات الرشيدة الصارمة ، لا تعرف الحب أو الكُره ، ومن هنا اسم الفيلم : «قائمة شندلر» ، وكأن البشر أرقام ووحدات لا قيم لها في ذاتها ، تُدرج في قوائم ! بل إن سبيلبرج يتشجع ويتناول قضية المجالس اليهودية ، وهي المجالس التي نصبها النازيون والتي تعاون أعضاؤها من اليهود مع السلطات النازية في عمليات الإبادة .

ولكن رغم أن أطروحة الفيلم الفكرية تقول إن اليهود لم يُقتلوا كيهود وأن ثنائية «يهودي/ أغيار» الصهيونية ليست حقيقية ، وأن عملية الإبادة هي جزء من الرؤية النفعية المادية وعمليات الترشيد الإجرائي . إلا أنه على المستوى المرئي الفني يقدم رسالة صهيونية كاملة تتنافى مع مضمون الفيلم الفكري . وتتضح الرسالة الصهيونية بشكل متبلور في نهاية الفيلم الملونة بل وتتغلغل أيضاً في بنية الفيلم وفي شخصياته ، فلا يظهر أمامنا غير شندلر ممثلاً للأغيار ، أما بقية ممثلي الجنس البشري فهم يدورون داخل الأُطر الإدراكية الاختزالية التي ركز عليها الفيلم بشكل سوقي .

أما فيما يتصل بالضحايا ، فنحن نعرف أن الدولة النازية طبقت مبدأ المنفعة المادية لا على اليهود وحسب ، وإنما على كل البشر بدون تمييز . ولو فعل سبيلبرج هذا وربط واقعة المحرقة بالنمط التاريخي المتكرر لاتضح النموذج الأكبر وراء الإبادة النازية ، وهو نموذج غربي نفعي مادي بدأ تحققه في أمريكا الشمالية واستمر في أفريقيا وفلسطين ووصل لحظة التبلور النماذجية في اللحظة النازية ومعسكرات الاعتقال (والسخرة والإبادة) . ولعل الفارق الوحيد بين عمليات الإبادة الغربية الأخرى وعملية الإبادة النازية ، أن عمليات

الإبادة الأخرى كانت تتم دائماً ضد السود أو المسلمين أو الآسيويين ، هناك وفي بلاد بعيدة ، وعلى يد جنود مهمتهم القتل والقتال . أما الإبادة النازية فقد حدثت هنا ، على أرض أوربية ، وبشكل منهجي مخطط ، وعلى يد مجتمع حديث متحضر يستمع لموتزارت وبيتهوفن ويُناقش الفلسفة ويشم رائحة اللحم الإنساني المحترق (في إحدى مناظر فيلم «قائمة شندلر» يتناقش جنديان نازيان في الموسيقى وهما يقومان بالهجوم على بعض الضحايا اليهود) .

ولكن لا يمكن للبشر أن يواجهوا حقيقة وجودهم ببساطة ، ولا يمكن للحضارة الغربية أن تواجه التضمينات الفلسفية الأساسية للرؤية العقلانية النفعية المادية (العقل الأداتي - على حد قول مفكري مدرسة فرانكفورت) التي حوّلت العالم بأسره إلى مادة استعمالية ، ولذا لابد من تحاشي المواجهة ، وحيث إن تغيير الحقائق أمر مستحيل في عصر المعلومات ، إذن ، لنتلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، وبدلاً من رؤية الجريمة النازية باعتبارها جريمة حضارة نفعية مادية ضد البشر ، فإنها تُعمَّم للغاية أو تُخصَّص للغاية فتصبح بالنسبة للحضارة الغربية جريمة الألمان الأشرار وحدهم ضد اليهود وحدهم (شيء خاص للغاية ، ومجرد حادثة عرضية) ، أما بالنسبة لليهود فتصبح جريمة الأغيار كلهم ضد اليهود كلهم (شيء عام للغاية ، ولذا فالجميع مسئول) . وفي جميع الحالات ، يحتكر اليهود وحدهم دور الضحية ، وفي كلتا الحالتين تتم تبرئة الحضارة الغربية الحديثة . وهكذا تضيع الحقيقة وتميد الأرض وتُوظَّف الحقائق لا للرؤية وإنما للتعمية . ومن ثم يمكن الاستمرار في الإبادة في فيتنام وفلسطين والبوسنة والهرسك مع الثرثرة المستمرة عن ضحايا النازية ، وضرورة إيقاف المذابح .

رؤية جديدة للإبادة في كتابات بريمو ليفي وجيرزي كوزينسكي :

بريمو ليفي (١٩١٩ - ١٩٨٧) كاتب إيطالي وكيميائي ، وُلد لعائلة إيطالية يهودية مندمجة في تورين حيث درس الكيمياء في جامعتها وتخرج عام ١٩٤١ . ومع سيطرة الفاشيين على السلطة ، انضم إلى المقاومة الإيطالية ، ولكنه وقع في الأسر ورُحِّل إلى معسكر الاعتقال النازي في أوشفيتس . ونظراً لخبرته الكيميائية ، أُختير للعمل في معمل لإنتاج المطاط الصناعي لصالح المجهود الحربي الألماني . ومع انتهاء الحرب ، عاد إلى تورين بعد رحلة شاقة ، ليشتغل في تخصصه ، ولكنه اتجه في الوقت نفسه إلى الكتابة حيث أراد تسجيل تجربته في معسكر أوشفيتس باعتباره شاهداً على ما حدث هناك ،

وكذلك باعتبار أن عملية التسجيل وسيلة لتفريغ مشاعره . وكانت ثمرة مجهوده كتابه الأول **لو كان هذا رجلاً** (١٩٤٥) والذي وصف فيه تجربة معسكر الاعتقال بأسلوب مشابه لأسلوب دانتي في الجحيم ، وقد سعى فيه إلى تفسير عملية التجرد من الإنسانية التي جرت في أوشفيتس من جهة ، وقدرة البشر من جهة أخرى على الحفاظ على إنسانيتهم بفضل العقلانية والوعي بالذات . وفي كتابه الثاني **الهدنة** (١٩٦٥) ، روى رحلة عودته عبر أوروبا إلى تورين بعد الحرب . وفي عام ١٩٧٥ ، كتب ليفي سيرته الذاتية تحت عنوان **الجدول الدوري** استخدم فيه أساس العناصر الكيميائية في الجدول الدوري ليرمز بذلك إلى الأحداث المختلفة التي جرت في حياته والشخصيات الكثيرة التي عرفها ومن بينها العَالم الألماني الذي عمل في معمله خلال فترة اعتقاله في أوشفيتس ، والذي ظل على علاقة عمل به بعد الحرب . وقد تناول ليفي أحداث معسكرات الاعتقال النازية مرة أخرى في كتاب **الغرقى والناجون** (١٩٨٦) والذي ضم مجموعة مقالات تناولت مواضيع مثل الشعور بالذنب لدى الناجين من المعسكرات وظاهرة المتعاونين مع الألمان .

وقد ابتعد ليفي عن اليهودية بشكل خاص وعن الدين بشكلٍ عام وأصبح لا أدريًا ، ولكنه كان من المؤمنين بقيمة الصدق كقيمة مطلقة ودعا إلى التمسك بها على المستوى الشخصي ، ومن ثم قاوم إغراء الصلاة أمام احتمالات الموت أثناء وجوده في معسكر الاعتقال ، باعتبار أن دوافع الصلاة في مثل هذه الظروف دوافع عملية ، ولذا فهي لا تعبِّر عن التقوى بل هي شكل من أشكال الهرطقة والتجديف . مات ليفي منتحراً عام ١٩٨٧ حيث كان يعاني من حالة اكتئاب حاد أدَّى به على ما يبدو إلى الإقدام على الانتحار .

ورؤية ليفي للعالم متشائمة عدمية ، ويتجلَّى هذا في تناوله لموضوع الإبادة النازية ليهود أوربا إذ يرى أن الضحايا تعاونوا تماماً مع من ذبحهم ، ومن ثم فإن الإبادة كانت عملاً مشتركاً بينهما ولا يمكن تجريم النازيين وحدهم . وغني عن القول إن هذا الموقف أدَّى إلى هجوم الكثيرين عليه .

أما جيرزي كوزينسكي (١٩٣٣ - ١٩٩١) فهو كاتب أمريكي يهودي وُلد في مدينة لودز في بولندا ، وكان والده أستاذاً مرموقاً في جامعة لودز . تعرض كوزينسكي ، خلال الاحتلال النازي لبولندا ، لتجارب مريرة وقاسية ، وعاش متشرداً في الريف البولندي ، وفقد القدرة على النطق لمدة ٦ سنوات . وقد تركت تجاربه المؤلمة في خلال فترة الحرب آثارها العميقة على نفسيته وشخصيته ، وتبدت في كتاباته التي غلب عليها الطابع المظلم والسوداوي . وتعبِّر روايته **العصفور الملون** عن جزء كبير من هذه التجارب .

نال كوزينسكي درجة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة لودز عام ١٩٥٣ ثم الماجستير في التاريخ عام ١٩٥٥ من نفس الجامعة ، وعمل أستاذاً في معهد العلوم الاجتماعية والتاريخ الثقافي . ولكنه هاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٧ حيث التحق بالدراسات العليا في جامعة كولومبيا في الفترة بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٥ . وعمل محاضراً وأستاذاً زائراً وزميلاً لعدة جامعات ولعدد من مراكز الدراسات الأمريكية المرموقة .

ولكوزينسكي مؤلفات عديدة من أهمها **إستبس** ، أي خطوات ، التي نال عنها الجائزة القومية (الأمريكية) للكتاب عام ١٩٦٩ ، ومن أشهر أعماله أيضاً **أن تكون هناك Being There** (١٩٧١) الذي تحول إلى فيلم سينمائي كتب له كوزينسكي السيناريو ونال عنه عدة جوائز .

زار كوزينسكي بولندا عام ١٩٨٨ لأول مرة منذ ٣١ عاماً ، وأكد خلال زيارته على العلاقات التاريخية بين البولنديين واليهود ، وأدان جميع أشكال التحيز سواء ضد البولنديين أو ضد اليهود . كما نجح كوزينسكي ، الذي يترأس الصندوق الأمريكي للبحوث البولندية ـ اليهودية ، خلال زيارته هذه في عقد اتفاق لإقامة مؤسسة للتراث البولندي ـ اليهودي في كازيميز ، وهو الحي اليهودي القديم في كراكوف . وفي نفس العام ، كان كوزينسكي قد حول شقته الصغيرة في نيويورك إلى مقر مؤسسة «برزنس» ، وهي مؤسسة تعمل للحفاظ على ما يُسمَّى «التراث اليهودي» .

وحينما زار كوزينسكي إسرائيل في عام ١٩٨٨ ، أثار كثيراً من الدهشة والاستياء عندما دافع عن معاملة البولنديين لليهود خلال الحرب العالمية الثانية ، وهاجم فيلم «شواه» الذي يتناول أحداث الإبادة النازية ، حيث اعتبره فيلماً متحيِّزاً وغير عادل على الإطلاق . كما أعرب عن رفضه أن يظل يُعرَّف مدى الحياة باعتباره أحد الناجين من الإبادة النازية .

محاكمة هتلر في رواية جورج ستاينر :

جورج ستاينر (١٩٢٩) هو مؤلف وعالم لغوي بريطاني يهودي يعمل حالياً أستاذاً في جامعتي كامبردج وجنيف ، من أهم مؤلفاته **تولستوي أو دوستودفسكي** (١٩٥٩) ، و **موت المأساة** (١٩٦٠) حيث يذهب إلى أن سبب موت المأساة هو المنظومة المعرفية المسيحية ثم الماركسية . أما في **اللغة والصمت** (١٩٦٧) ، فإنه يتناول مسألة التآكل التدريجي للرؤية الإنسانية (الهيومانية) بسبب إفساد اللغة عن طريق الدعاية السياسية والإباحية

والماركسية ، ومن ثم يصبح الصمت هو الاستجابة الوحيدة اللائقة لفظائع عصرنا . وفي **قلعة بلو بيرد** (١٩٧١) يبيِّن أن ثمة علاقة بين التجريد الموضوعي الذي يتسم به البحث العلمي وبين عدم اكتراث البشر بالحقائق السياسية الاجتماعية المتعينة . وقد طوَّر ستاينر موضوع اللغة في كتابيه **خارج حدود الدولة** (١٩٧١) ، و **بعد بابل** (١٩٧٥) ، حيث يحاول أن يقدم نموذجاً لعملية الفهم والإدراك .

كتب ستاينر رواية قصيرة بعنوان نَقْل **أ . هـ . إلى سان كريستوبال** ، ولم تحدث الرواية ضجة كبيرة وقت صدورها ، ولكنها حينما تحوَّلت إلى مسرحية تُعرض على مسارح لندن أصبحت حديث الناس وموضع سخطهم ومحط إعجابهم . ويجب أن نقرر ابتداءً أن هذه الرواية القصيرة ، ليست مجرد رواية سياسية محصورة في نطاق الصهيونية ، وإنما هي رواية ذات مجال إنساني واسع ، تتناول عدة موضوعات بعضها سياسي والآخر فلسفي . ويمكننا القول بأن الرواية تأخذ في شكلها المباشر شكل «رحلة مغامرات» من النوع الشائع . فثمة شائعة تقول إن هتلر لم ينتحر وأنه لا يزال على قيد الحياة مختبئاً في مكان ما في أمريكا اللاتينية (كما فعل عدد كبير من الزعماء النازيين ، ومن بينهم أيخمان) . وتحكي الرواية كيف أن أحد اليهود الذين نجوا من معسكرات الاعتقال يؤمن بصدق هذه الشائعات ويقضي بضع سنوات من حياته في البحث عن أ . هـ . (أدولف هتلر) وفي اقتفاء أثره إلى أن يتأكد من وجوده في داخل أعماق غابات الأمازون في البرازيل ، فيُعد الخرائط والخطة اللازمة ويُجند مجموعة من اليهود الأوربيين والإسرائيليين ، الذين يؤمنون بنظريته ، لتعبر البحار والقارات ثم تخترق الغابات إلى أن تصل البقعة المذكورة . وهناك تجد هتلر رجلاً هرماً يعيش مع حارسين ، عندئذ يقوم أفراد المجموعة بقتل الحارسين ثم يحملون غنيمتهم البشرية إلى سان كريستوبال في البرازيل ، على أن يرسلوا به إلى إسرائيل كي يُحاكم هناك .

الرواية إذن رواية مغامرات في حبكتها (أو حدوتتها) مثل روايات شرلوك هولمز وأرسين لوبين ، ولكنها بغير شك أكثر من ذلك فهي أيضاً «رواية بحث» تتحوَّل فيها الأحداث السطحية إلى رموز مركبة وقضايا عميقة . ويستمر البحث هنا لعدة صفحات ، وهو بحث يقوم به عدة أوربيين في مجاهل غابات الأمازون المظلمة ، وهي في هذا تشبه الرحلات ذات النمط الأصلي المتكرر (بالإنجليزية : آرك تايب archetype) ، حيث يترك البطل عالم التاريخ المألوف ليغوص في الظلام وليواجه المجهول والشر (مثلما يحدث لمارلو في قصة كونراد **قلب الظلمة**) ، والبقعة التي يختبئ فيها هتلر تُوصف بأنها «جهنم الخضراء» ـ فهي جهنم التي يختبئ فيها الشيطان ـ فمياهها وصلت درجة الغليان ، ورمالها

المتحركة لا تظهر على أية خريطة ، وهي تُوصف بأنها أرض المستنقعات والهواء الكبريتي الجهنمي . وإذا ما أشعل المرء مصابيح في هذه البقعة ، فإن الظلام الدامس يحيط بها ويلفها حتى يبدو وكأن الضوء يتراجع تحت هجماته . وحينما تمطر السماء هناك فهي لا تمطر مطراً عادياً مثل الذي نعرفه ، بل هي تهطل كالشلالات السوداء التي تندفع لعدة أيام وليال ، تقتلع في طريقها الأشجار السامقة وتحوّل التراب العطشان إلى بحيرة يعلوها الزبد ، وليس بإمكان أى شخص أن ينجو فيها بحياته . حينما تمطر الدنيا في هذه البقعة يتعاطى الهنود المخدرات حتى يسقطوا في غيبوبة كاملة ، ولا تظهر بقعة واحدة من ضوء الشمس لعدة أيام . والخفافيش التي تمتص دماء البشر ، والثعابين السامة والحشرات القاتلة ، كلها تهاجم الإنسان في هذه البقعة ، وتفتك به وتدمره أينما ذهب .

ومع هذا تُوصف البقعة بأنها «أقرب شيء إلى الفردوس على الأرض» . فقد أصاب الإنسان الأجزاء الأخرى بالبوار والخراب ، فاقتلع الأشجار وشوه الغابات وألقى فيها بالقاذورات . أما في هذه البقعة فثمة أمثلة حية على الفردوس : الزهور اليانعة التي لا يُعرف لها اسم ، أوراقها في رقة خيوط العنكبوت ، يشع بريقها على حافة المستنقعات . والنجوم تندفع في سكونها إلى قبة السماء .

ولكن لماذا تُوصف البقعة بأنها جنهم والجنة - الجحيم والفردوس ، دار العذاب ودار الهناء ؟ لعل الروائي يود أن يرى البقعة كجنة بسكانها الهنود الذين يعيشون في وئام مع الطبيعة على عكس الإنسان الأوربي الذي يحاول هزيمة الطبيعة وافتراسها . ولعلها محاولة من جانبه لإظهار تداخل الحقيقة والزيف ، وهذا هو أحد الموضوعات الأساسية في الرواية .

والقصة كما قلنا «قصة بحث» ، ولكنه بحث لا يكلل بالنجاح ، إذ تبدأ القصة بأشياء واضحة ، ومحددة أو شبه محددة ، فنحن نعرف أن هتلر السفاح هرب إلى غابات الأمازون واختبأ هناك ، وأنهم قبضوا عليه ، ولكن يوجد من البداية إلى النهاية أو ما يشبه النهاية خيط طويل متعرج . فنعرف شيئاً من الحقيقة ثم نفقدها ، ونقترب منها ثم نبتعد عنها ، ولا نكاد نمسك بالخيط حتى يفلت من بين أصابعنا . ولنأخذ هتلر نفسه ، هذا المركز الأساسي للرواية . من يكون ؟ هناك أولاً النظرية القائلة (التي يأتي ذكرها في الرواية) بأن هتلر كان يحتفظ دائماً بشبيه له ، وأنه حينما حانت اللحظة الحاسمة فإن الذي انتحر هو الشبيه وليس هتلر نفسه . ولكن هناك دائماً الاحتمال أن يكون الشبيه هو الذي فر ، وأن الذي انتحر هو الفوهرر ، ولكن من نصدق ؟

وثمة نظرية أخرى ، ترد أيضاً في الرواية ، تقول إن هتلر كان في واقع الأمر يهودياً ، أو على الأقل تجري في عروقه دماء من أصول يهودية . (وهذه الرؤية الروائية قد لا تستند إلى حقيقة تاريخية ولكنها تستند إلى شائعة تاريخية . إذ يُقال إن هتلر كان طفلاً غير شرعي لرجل يهودي عاشر أمه وهجرها ، ويُقال إنه لهذا السبب حُرقت كل الأوراق في أرشيف قرية لنز بعد أسبوع من تولي هتلر منصب مستشار ألمانيا) . « هل قَتل هتلر كل اليهود لأنه كان في واقع الأمر يهودياً ، حتى يصبح بذلك هو اليهودي الوحيد المتبقي ؟ وإن لم يكن هتلر يهودياً ، كيف تأتى له إذن أن يفهم اليهود فهماً كاملاً ؟ » ؛ هذه هي بعض الأسئلة التي تطرحها هذه الرواية الخلافية .

تختلط في هذه المقطوعات «الحقائق» المصمتة ، بالنظريات المجردة ، بالشائعات التي لها أساس واه من الصحة ، بالأكاذيب التي ما أنزل الله بها من سلطان ، بالتأملات الفلسفية التيّ تخرج بنا عن دائرة الواقع المباشر لتدخل بنا عالم الأنساق الفكرية ، بالأحاسيس الذاتية التي لا تحتمل الصدق أو الكذب لأنها مغرقة في الذاتية . من هو هتلر؟ هل هو البديل ؟ هل هو جزار اليهود ؟ أم اليهودي الذي سأم اللعبة وقرر أن يفجرها وينهيها ؟ من هو هتلر ؟

وما هو الهدف من رحلة الانتقام هذه : الحدث الأساسي في الرواية ؟ هل الغرض منها هو فعلاً القبض على هتلر (أو شبيهه أو بقاياه) إن وُجد لمحاكمته ؟ أليس من الأفضل الاحتفاظ بأسطورة هتلر الذي ذبح الملايين من اليهود ، لأنه لو حُوكم هتلر فإنه قد يصبح إنساناً أو مجرماً عادياً ، وتوقيع القصاص عليه قد يُنهي القصة أو القضية كليةً ؟ عند هذه النقطة تختلط الأمور في عقل القناصة اليهود ، ويقترح أحدهم إطلاق سراح هتلر والاحتفاظ بالأسطورة .

ونحن لا نعرف عن هتلر إلا من خلال الآخرين . فهو يصبح «جزاراً» أو شيئاً بعيداً نسمع عنه . في البداية يشيرون إلى «الجزار الأكبر» ، ذلك الذي يشير بإصبعه إلى الثعبان فيولي مذعوراً ، ويشع من عينيه بريق غريب ، وتتحرك شفتاه أثناء نومه وكأنه لا يزال يُدلي بإحدى خطبه الشهيرة للجماهير الألمانية فيَسحرها ويُنيمها ثم يُملي عليها إرادته .

نعم هذا هو هتلر ، ولكنه بعد أن يُلقي القناصة القبض عليه يصبح واحداً منهم ، بل إنه يحميهم فيُحذرهم من الخفافيش ماصة الدماء ، ويكون بمثابة المرشد لهم في الغابة . وحينما يسقط من على البطانية التي يحملونه عليها ، يضحك الجميع سوياً على ما حدث . وحينما يُصاب أحدهم بالحمى يُرشدهم إلى كيفية تمريضه ، بل ويُساعدهم هو نفسه في ذلك . ومن أطرف الأحداث في الرواية حادثة تنكو الهندي الذي يراقب هذه

المجموعة من الرجال البيض التي تحمل رجلاً ، فلا يرى فيه سوى رجل عجوز ، شأنه شأن رجال قبيلته من الكهول الذين يجلسون على مشارف الأبدية . ولذا حينما يُقرر أن يتواصل مع أفراد المجموعة " فإنه يذهب مباشرةً إلى حيث كان هتلر منحنياً فوق ظله ، فينحني أمامه ويضع هديته عند أقدامه . فهو يعرف أنه لابد من تكريم الكهول ، وأن الذين بلغوا من العمر عتياً ، مثل هذا الرجل المنحني القامة ، أثمن من الأحجار الكريمة . وبعد ذلك يتقدم إليه قائلاً : «أيها الرجل القديم ، فلتوص أسلافك بي خيراً» . وحينما يسمع هتلر صوت الموسيقى لأول مرة بعد مرور ثلاثين عاماً ، فإنها تشجيه ويطلب سماع المزيد ، ولكن قناصيه يرفضون ، وكأنهم هم ممثلو الشر في هذه العلاقة . وهكذا تختلط الحقيقة مرة أخرى في شخص هتلر ذاته . من هو الجزار ؟ ومن الضحية ؟

وتتكشف أحداث القصة من خلال مجموعة من الأضداد ، أوربا مقابل الغابة ، والحضارة مقابل الطبيعة ، والزمان مقابل اللازمان . ولا يروي القصة شخص واحد ولا عدة أشخاص وإنما يلجأ الكاتب إلى عدة أساليب سردية ، فنعرف الشخصيات إما من خلال الحوار أو من خلال مختارات من مذكرات كتبتها إحدى الشخصيات ، أو حتى من خلال استجواب . ومعظم الشخصيات مهم على مستوى القصة المباشرة . ولكنها أيضاً شخصيات ذات دلالة سياسية ، ثم هي أخيراً نماذج إنسانية لا يمكن ردها إلى مستوى القصة المباشر أو حتى إلى المستوى السياسي الأقل مباشرة . ولنأخذ لايير اليهودي ، الذي اقتفى أثر هتلر ووضع الخريطة التي اهتدى بهديها القناصة ورسم الخريطة التي اتبعوها ، فلنأخذه ، كمثال على ما نقول . نحن لا نقابله مباشرةً طيلة الرواية ، وإنما نعرفه من خلال الشخصيات اليهودية الأخرى التي تتحدث عن حقده وإصراره ، وتتحدث أيضاً عن عذابه في معسكرات الاعتقال ، هذا العذاب الذي حوله إلى شخصية متعصبة لأقصى حد ، مستوعَبة استيعاباً كاملاً في أهدافها . ولذا فهم يرون أن لا وجود لهم خارج تصوراته وأحلامه وأوهامه ، وهم يظنون أن لايير في انتظارهم بعد نجاح مهمتهم ، ولذا فهم يستمرون في إرسال الرسائل عن طريق اللاسلكي دون أن يتلقوا منه أية إجابة ، إذ يبدو أنه قد مات . ومع هذا يوجد فصل كامل عبارة عن إشارة لاسلكية يرسلها لايير (بعد موته الذي لم يعرف به الآخرون) يخبرهم فيها بما يجب أن يفعلوه مع هتلر ، وكأن روحه تستمر معهم في مهمتهم حتى بعد فناء جسده : « وصلت الرسالة . هل تسمعونني ؟ لا تدعوه يتكلم ، أو فليتكلم بضعة كلمات وحسب . دعوه يعبِّر عن حاجته ، أن يقول ما يبقيه على قيد الحياة . ولكن لا تسمحوا له بأكثر من هذا . . إن نظرتم إليه باعتباره رجلاً عجوزاً ، تبلله المياه حين تسقط الأمطار ، يرتعد حتى العظام . . إذن سينتابكم الشك ،

ستظنون أنه إنسان مثلنا ، وأنه لم يرتكب ما ارتكب من جرائم . اسمعوا إلى ما أقول : إني أناديكم ، هل تسمعونني ، كمّموه إن استطعتم فهو يرتدي قناعاً إنسانيًا . أخبروني أنكم لازلتم تذكرون . جيكوب كابلان ، مؤلف **تاريخ الفكر الجبري في شرق أوربا ١٦٨٠ – ١٦٥٥** ، الذي فُرض عليه أن يرقص على جثث الموتى . راشيل نادلمان ، في وايت سبرنج ، أوهايو ، التي تستيقظ كل ليلة وفمها مبلل بالعرق لأنه منذ واحد وثلاثين عاماً مضت سحبها ثلاثة كلاب ، من كلاب الحرس الخاص » . ثم يمضي لايبر في ذكر أسماء الضحايا دون أن يكمل جملة ودون أن يقص قصصهم كاملة ، فالمهم هو التذكر ، تذكر اسم الستة مليون ضحية ، وهو تذكر يتخطى الكلمات ، وقد خُتمت الرسالة كما يلي :

« هذا لايبر ينادي

هذا لايبر

هذا » .

ونحن نعرف أيضاً الضابط الروسي نيكولاي ماكسيموفيتش جروزديف الذي تم استدعاؤه لموسكو لاستجوابه عما يعرفه عن نهاية هتلر . إذ يبدو أن هذا الضابط السوفيتي سيء الطالع ، كان ضمن القوات السوفيتية التي اقتحمت معقل هتلر الأخير . وقد عبَّر عن شكوكه حينذاك في واقعة انتحار الفوهرر ، فأُرسل إلى معسكرات العمل معظم سنوات حياته إلى أن غيَّر موقفه وتبنى الخط الرسمي . ولكن بعد أن بدأت الإشارات اللاسلكية من القناصة اليهود تخرج من الأمازون ، بدأ الخط الرسمي نفسه يهتز على ما يبدو . ولكن ماكسيموفيتش جروزديف كان قد استوعب الدرس تماماً ، ولذا فهو يُخبر مستجوبيه أنه الآن على استعداد لأن يقول أي شيء يُطلب منه .

«وفي الحديقة العامة يقترب الضابط الكهل المتقاعد من إحدى الطيور ، هو الذي يحمل في عظامه ذكريات الأحياء الموتى ، هو الذي عُذِّب كي يُنكر ما يعرف ، يضحك بصوت عال ويقول : « هتلر إذن لا يزال حياً ؟ » .

انحنى ، قائلاً تلك الكلمات للعصفور ، وكانت عيون الطائر الباهتة تلمع على بُعد عدة بوصات من قدميه . وظل يُكرر الكلمات ، همسة جامحة ، حتى طار العصفور بعيداً » .

وهناك الكاتب الإنجليزي ، السير رايدر الذي كتب كتاباً موثقاً بشكل بالغ الدقة عن

كل لحظة من أيام هتلر الأخيرة ، الذي أخذ يشك في نظريته هو الآخر . وهناك وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الذي نعرفه من خلال حديث صحفي ، وكيف يميِّع الأمور كلها ويخفيها باستخدامه المصقول للغة . وهناك البيروقراطي الفرنسي الذي يعشق النظام ولا ينطق إلا بالصيغ الجاهزة (المسيو كلشيه) ، والطيار الأمريكي الذي يود أن يحرز سبقاً صحفيًا «يبيعه» لوكالات الأنباء .

ولكن هناك أيضاً البروفسور روثلنج ، المحامي الألماني ، الذي تخصص في الجوانب القانونية لقضية هتلر ، وقد جعل كل همه أن يجد أرضية فلسفية راسخة يمكنه ، انطلاقاً منها ، أن يحاكم هتلر في محكمة عادية لا في محكمة خاصة . ففكرة المحكمة الخاصة ـ في رأيه ـ تتنافى مع روح القانون نفسها ، روح القانون التي قتلها هتلر ثم مثَّل بها . وهو يبحث عن شيء من الثبات ولذا فهو يعشق الموسيقى ، فالموسيقى حسب تصوره تنجح في خلق زمانها الخاص المختلف عن الزمان التاريخي ، فهي تخلصنا من ثعبان الماضي والحاضر والمستقبل الذي يُزرع فينا عند الميلاد ولا يتسلل مبتعداً عنا إلا عند الموت . وهناك الهندي تنكو والقناصة اليهود أنفسهم الذين نعرفهم واحداً واحداً عن قرب . إننا هنا في حضرة الجنس البشري عموماً ، والحضارة الغربية خصوصاً ، وهي الحضارة المسئولة عن الجريمة النازية ، كما تقول الرواية .

والشخصيات كلها تكشف لنا عن شيء من الحقيقة ، كل من وجهة نظرها ، ولكن نظراً لتعدد وجهات النظر تتضارب عمليات الكشف المختلفة ، وبدلاً من أن تتعمق الرؤية نجدها تتهالك وتتآكل وتكاد تختفي كليةً . وتستخدم الشخصيات لغات وأساليب مختلفة ، الأمر الذي يُثير قضية في غاية الخطورة وهي مدى جدوى اللغة كأداة للتعبير ، وهذا هو أحد الموضوعات الأساسية في الرواية . والمؤلف كما قلنا عالم لغة ، ولذا فالموضوع ولا شك يشغل باله ، وهتلر بالنسبة له ليس مجرد جزار اليهود بل هو أيضاً القائد الذي نجح في تحويل الكلمة من أداة للتعبير إلى أداة للتدمير ، هو الذي أفسد اللغة ، تماماً كما أفسد تعذيب الضابط الروسي لغته فلم يُعبِّر عن ذاته وإنما عن الخط الحزبي ، تماماً كما فعل وكيل الوزارة الأمريكي الذي استخدم كلمات عديدة معسولة ليبرالية ديموقراطية ولكنه في واقع الأمر لم يقل شيئاً . ولأن اللغة فاسدة نجد أن لايبر يُحذر القناصة من الاستماع لحديث هتلر الذي يعرف أنه سيقودهم «نحو جهنم» . ويُصغي البروفسور روثلنج للموسيقى عسى أن يصل للغة تعبيرية جديدة تقهر الزمان والفساد وتتخطى الحدود ـ لغة مبنية على التناسق ـ « هذا المحك النهائي لأرستقراطية الإنسان» .

وكما قلنا من قبل لا ترد الأحداث في الرواية حسب ترتيبها الذي تقع فيه ، وإنما يخضع ترتيبها لمنطق الرواية الداخلي ، فتبدأ القصة لا مع بداية الأحداث، وإنما مع أهمها: لحظة العثور على هتلر . وتبدأ الرواية على هذا النحو (وهذه كلمات فتى صغير كان ضمن القناصة اليهود) .

«- أنت !

الرجل العجوز يرخي شفتيه :

- أنت . أهو حقاً أنت ؟ بحق السماء أنظر إلى نفسك الآن ، أنظر إلى نفسك ، أنت . هذا الذي خرج من الجحيم . . .

إنك حقاً هو . أليس كذلك . ها نحن قد أمسكنا بك . . . سيعرفك الجميع . كل العالم . ولكن ليس بعد . إذ يجب أن نَخرج بك من هنا . أنت في أيدينا ، في أيدينا . أنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟ لقد أسلمك الإله إلى أيدينا . لم تلزم الصمت الآن ؟ يا من صوته . . يقولون إن صوتك كان قادراً على - لم يكن الصبي قد سمع هذا الصوت قط - أن يحرق المدن . يقولون إنك حينما كنت تتحدث كانت تتحوّل أوراق الشجر إلى رماد وكان الرجال يذرفون الدموع . يقولون إن النساء حينما كن يسمعن صوتك ، صوتك وحسب ، إن النساء حينما كن يسمعن صوتك . ثم توقف . فآخر امرأة رآها كانت على ضفاف نهر جيارو - على بُعد عدة مستنقعات - عجوز لا أسنان لها - جالسة القرفصاء بجوار البركة الخضراء ولم تلوح لهم .

- كن يمزقن ثيابهن ، لمجرد سماع صوتك .

ثم تملكه الغضب .

- لمَ لا تتحدث ؟ لمَ لا تجيب عليّ ؟ سيرغمونك على الكلام ، سينتزعون منك الكلمات انتزاعاً . أنت في أيدينا . نحن نمسك بك . بعد ثلاثين عاماً من محاولة اصطيادك . كابلان مات . وكذا فايس وآسل . بلى ، إنك ستتكلم . حتى يُنزع الجلد عن جسمك . وعن روحك .

كان الصبي يصيح الآن . يمتص الهواء ويصيح . نظر الرجل العجوز إليه وأغمض عينيه ثم فتحها بسرعة وقال :

- أنا » .

يبدأ الفصل الأول بسؤال ، تتبعه عدة جُمل معظمها غير مفيد أو ناقص ، كما أنه

ينتهي بسؤال ؟ والسؤالان هما في واقع الأمر سؤال واحد وكأن الروائي يريد أن يربط ـ من البداية ـ بين الصيد والصياد ، وبين الفريسة والمفترس ، وبين هتلر واليهود .

والرواية هي محاولة للوصول إلى حقيقة ما ، الذات الهتلرية واليهود ، أو الجريمة والقصاص ، أو التاريخ والأسطورة . ولكننا لا نصل إلى أية إجابة قاطعة أو غير قاطعة . وحينما نصل إلى الفصول الأخيرة تتشابك الخطوط والموضوعات كلها إذ يُقرر القناصة أن يعقدوا محاكمة هتلر على الحدود الفاصلة بين الأضداد المختلفة ـ الغابة والتاريخ ، والزمان واللازمان . وهم يُقررون محاكمته بأنفسهم خشية أن يقع في يد الحكومة الأمريكية أو الروسية أو الإنجليزية أو غيرها من حكومات الأغيار (أي غير اليهود) فيُحاكمونه على طريقتهم هم ، من وجهة نظرهم هم . ثم يصدرون عليه الأحكام ويُوقعون عليه القصاص ـ وكأنه مجرم عادي وبذا تضيع دلالته وتزول الأسطورة .

يُعد القناصة العدة لمحاكمة هتلر ، ويُعينون من بينهم مدعياً ليقرأ الاتهام ومحامياً للدفاع عنه وشاهدين ، أحدهما تنكو الهندي الذي يضع كرسياً ليجلس عليه المتهم . ثم يُعينون واحداً منهم قاضياً ليُدلي بالحكم .

ولكن تحدث المفاجأة الكبرى في خاتمة هذه الرواية التي تتناول موضوع عدم جدوى الكلمات أو حدودها الضيقة ، إذ يتدفق صوت هتلر مدافعاً عن نفسه وكأنه الرعد أو السيل ، أو اذكر ما شئت من عناصر الطبيعة التي لا يمكن لأي كائن أن يوقفها ، حتى يصبح المتهم وكأنه هو القاضي الذي يُحاكم قضاته وكأنهم هم المتهمون . والفصل الأخير من الرواية هو دفاع هتلر عن نفسه ، وسنترجم أجزاء طويلة منه لأنه أهم أجزاء القصة ، وأكثرها دلالة بالنسبة لنا . وسنكتفي بالتعليق من آونة لأخرى . يقول هتلر دفاعاً عن نفسه :

« إرستربونكت (أي النقطة الأولى) لأنه يجب أن تفهموا أنني لم أخترع شيئاً . لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر ، الذي كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى . أكاذيب . أكاذيب . . . لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك . قوة تعاليمكم الخفية . تعاليمكم أنتم . شعب مختار . شعب اختاره الله لنفسه . العرق الوحيد المختار على وجه الأرض . . . وجعله الإله فريداً دون البشر » .

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم ، ويشير خصوصاً إلى بطولات يشوع بن نون ، وهو بطل قومي/ ديني يتواتر ذكره في الكتابات الصهيونية ، ويوصف بأنه حرق المدن وخربها

كليةً وأباد سكانها ، نساءً ورجالاً وأطفالاً ، حتى الحيوانات ، هي الأخرى أُبيدت بحد السيف . ولذا فهتلر يرى أن كتاب اليهود المقدَّس تفوح منه رائحة الدم . ثم يُضيف قائلاً : « لقد تعلمت أن أي شعب لابد وأن يكون مختاراً كي يُحقق مصيره ، وألا يكون هناك أي شعب آخر في نفس مرتبته : الأمة الحقيقية سر دفين ، جسد واحد خلقه الله بإرادته ، وخلق دمها الطاهر ، خلقها سر الإرادة والاختيار . أن تهزم أرضها الموعودة وتستعبد كل من يقف في طريقها . وأن تعلن نفسها خالدة أبدية » .

ومن الواضح هنا أن المصطلح الذي يستخدمه هتلر يُذكِّر المرء بالمصطلح الصهيوني وبمفهوم الشعب العضوي (فولك) والشعب المختار . ثم يستطرد هتلر قائلاً : « لم تكن عنصريتي سوى تقليد هزلي لعنصريتكم أنت، تقليد هزيل . ماذا يكون الرايخ الذي سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية . . فلتصدروا حكمكم عليّ ولكن يجب أن تصدروا حكمكم على أنفسكم كذلك ـ أيها المختارون » .

والنقطة الثانية التي يُثيرها هتلر هي نقطة فلسفية ، فهو يتهم اليهود بأنهم هم الذين اخترعوا فكرة الإله المفارق ، وفكرة التجاوز (ترانسندنس transcendence) . ويتهم اليهودية بأنها أرسلت كذلك كارل ماركس بنزعته الطوباوية والذي بشرّ بعالم جديد خال من الطبقات ويتجاوز الأمر الواقع . واليهود بهذا المعنى هم الذين زرعوا ميكروب اليوتوبيا ، فاليهودي كالنمو السرطاني الذي يجب استئصاله ، ومن هنا كانت ضرورة الحل النهائي . ووجهة النظر التي يُفصح عنها هتلر هنا هي وجهة نظر نيتشوية نخبوية حتى النخاع لا تؤمن بأخلاق الضعفاء ولا بالعدالة ولا بالمساواة ولا بإمكانية التجاوز ، كما أن إلهها ليس إلهاً مفارقاً ولا منزهاً ، فهو إله وثني متجسد في التاريخ ، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن تصور الصهاينة لدولة إسرائيل باعتبارها القداسة المطلقة وموضع الحلول . بل إن الصهيونية في انتقادها لشخصية يهود الدياسبورا (الشتات) لتقترب إلى حدٍّ كبير من وجهة نظر نيتشه في انتقاده للمسيحية ، ومن وجهة نظر هتلر نفسه في انتقاده لليهودية . وإذا كان هتلر قد طرح الحل النهائي (بمعنى الإبادة من خلال التهجير والسخرة والتصفية الجسدية) بالنسبة لليهود وكاد ينجح في إنجازه ، فإن الصهيونية هي الأخرى تهدف إلى القضاء على يهود المنفى تماماً بترحيلهم إلى إسرائيل حيث يتخلون عن دورهم التقليدي ويصبحون أقوياء لا علاقة لهم بفكرة العدالة ويتخلون عن الإله المفارق المتسامي ويعبدون العجل الذهبي الصهيوني ، أي دولة إسرائيل .

ثم بيَّن هتلر أن ما فعله قوبل بالترحيب الخفي من الدول الأوربية . وعند هذه النقطة يُلقي هتلر في وجه محاكميه ببعض الحقائق عن الحضارة الغربية ككل : « أنا لم أخلق

القبح ، ولم أكن أسوأ القبحاء . بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك . كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك في الغابات ـ إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعاً أو من مرض الزهري حينما اغتصبوا الكونغو ؟ أجيبو عليّ يا سادة . أم يجب عليّ أن أُذكركم . عشرون مليوناً . هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد في المهد صبيا ؟ في لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين » . ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفاً وعداً .

والنقطة الثالثة والأخيرة التي يُثيرها هتلر هي أكثر النقاط أهمية ، فالنقطتان الأولى والثانية تُشيران إلى الصهيونية بشكل غير مباشر ، أما الثالثة فهي واضحة ومباشرة .

«هذا الكتاب الغريب المسمى **الدولة اليهودية** (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيوني) قرأته بعناية بالغة . إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية) ، اللغة ، الأفكار وحتى النبرة نفسها . إني أتفق معكم أنه كتاب ذكي صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة . ولكن من الذي خلق إسرائيل في واقع الأمر ، هرتزل أم أنا ؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز ؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل . . دون مذبحة الإبادة التي قمت بها . إن مذبحتي هي التي أعطتكم شجاعة الظلم التي جعلتكم تطردون العربي من منزله وحقله لأنه كان يقف في طريقكم . هذا هو الذي جعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذي قمتم بطردهم ، يجلسون يكاد يأكلهم العفن في معسكرات اللاجئين ، على بُعد أقل من عشرة أميال [من وطنهم] . مدفونين أحياء في بؤسهم » .

ثم يختتم هتلر المرافعة بهذه الكلمات :

« أيها السادة أعضاء المحكمة . لقد أخذت عقائدي منكم . . إن جرائم الآخرين فاقت جرائمي . إن الرايخ هو الذي ولد إسرائيل . هذه هي كلماتي الأخيرة . . في وسط التردد وعدم اليقين تظل الأمور معلقة حتى يحين وقت كشف كل الأسرار » .

وهنا تنتهي مرافعة هتلر « التي لم يفهم كلماتها تنكو ، وإنما أدرك معناها وحسب » ، أي أنها مرافعة من القوة واليقينية بحيث أن معناها يصل إلى الآخرين متخطياً الكلمات . ولا يجيب القضاة ولا مندوب الاتهام على هتلر ولا يُلقي المحامي بدفاعه . هل هذا يعني أن المتهم قد أفحمهم جميعاً ؟ هل هذا يعني أنه لا يوجد دفع لما يقول ؟ لا ندري ، ولا يحسم الروائي القضية ، إذ تنتهي الرواية بالعالم الخارجي يحدق بالقضاة والمحامي والمتهم . وتضيع الكلمات (وربما الحقيقة أيضاً ؟) في ضجيج المحركات إذ نسمع صوت طائرة ثم أخرى . . .

لاهوت موت الإله :

١ ـ لاهوت موت الإله :

كلمة «لاهوت» تشير إلى التأمل المنهجي في العقائد الدينية . وعلى هذا ، فإن الحديث عن «لاهوت موت الإله» ينطوي على تناقض أساسي . ومع هذا ، شاعت العبارة في الخطاب الديني الغربي ، خصوصاً في عقد الستينيات . وعبارة «موت الإله» في حد ذاتها مأخوذة من فيلسوف العدمية والعلمانية الأكبر فردريك نيتشه . ويحاول لاهوت موت الإله تأسيس عقيدة تصدر عن افتراض أن الإله لا وجود له وأن موته هو إدراك غيابه .

والحديث عن موت الإله أمر غير مفهوم في إطار إسلامي ، فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وفي المسيحية (ورغم حادثة الصلب) فإن الإله موجود من الأزل إلى الأبد . والشيء نفسه يُقال عن الطبقة التوحيدية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي . ولكن ، في إطار حلولي ، يصبح الحديث عن موت الإله أمراً منطقيّاً ، فالحلول الإلهي يأخذ درجات منتهاها وحدة الوجود حيث يتجسد (يحل) الإله تماماً في الطبيعة وفي أحداث التاريخ ويتوحد مع الإنسان ومع مخلوقاته ويصبح كامناً فيهما . ولكن لحظة وحدة الوجود هي ذاتها اللحظة التي يصبح الإله فيها غير متجاوز للمادة ، ويتوحد الجوهر الرباني بالجوهر المادي ويصبح هناك جوهر واحد ، ومن ثم يفقد الإله سمته الأساسية (تجاوزه للطبيعة والتاريخ وتنزهه عنهما) ويشحب ثم يموت ، ويصبح لا وجود له خارج الجوهر المادي . ولاهوت موت الإله هو فكر ديني مسيحي ويهودي ظهر في عقد الستينيات في العالم الغربي ، وما يهمنا هنا في هذه الدراسة هو التيار اليهودي داخله .

ويمكن القول بأن لاهوت موت الإله هو حلولية كمونية مادية ، حلولية يموت فيها الإله تماماً (وحدة وجود مادية) وتحل مطلقات دنيوية أخرى كامنة في المادة والتاريخ محله . وينطلق لاهوت موت الإله عند اليهود من فكرة قداسة التاريخ اليهودي النابعة من قداسة الشعب اليهودي ومن مركزيته الكونية ، وهي قداسة تشمل ما يقوم به هذا الشعب من أفعال ، وما يقع له من أحداث . وأهم الأحداث التي وقعت له في الماضي هي العبودية في مصر والخروج منها ، والسبي البابلي والعودة منه ، ثم سقوط الهيكل والشتات . ولكن أهم ما وقع لليهود على الإطلاق هو الإبادة النازية ليهود أوربا . وهذه الإبادة ليست فعلاً ارتكبته الحضارة الغربية ضد ملايين البشر (من يهود وبولنديين وغجر ومعوقين

وعـجـائز) ، وإنما هي جـريمة ارتُكبت ضـد اليـهـود وحـسب . وهكـذا يُنظر إلى الإبادة باعتبارها حادثة تاريخية تجسد للشر المطلق، وهي رهيبة لدرجة أنها تنفي وجود الخير والعقل واليقين والأمل ، وهي أخيراً تنفي وجود الإله . وحتى إن كان الإله موجوداً فيجب ألا نثق فيه لأنه تخلى عن الشعب اليهودي . بل إن هذه الحادثة تكاد تكون حدثاً يقف خارج التاريخ، فهي عدم تام . وهي مدلول متجاوز لا يمكن لدال أن يدل عليه ؛ فهو مرجعية ذاته ولا يمكن فهمه إلا بالعودة إليه خارج أي سياق . ويمكن القول بأن كلمة «هولوكوست» أصبحت دالاً ومدلولاً في الوقت نفسه ، فهي تشبه الأيقونة . ولذا، فالفهم غير ممكن ولا يمكن سوى التذكر .

وكما جاء خروج اليهود بعد العبودية في مصر ، والعودة بعد السبي في بابل ، جاءت وقفة الشعب اليهودي ومقاومته لما يتهدد بقاءه في أعقاب حادثة سقوط الهيكل والشتات ثم الإبادة . ولنا أن نلاحظ الثنائية الصلبة التي تسم لاهوت موت الإله : عبودية/ خروج ـ سبي/ عودة ـ شتات/ استقلال إسرائيل ـ إبادة/ بقاء الشعب ، وهي ثنائية صلبة تأخذ شكل حركة دائرية متكررة (ويتسم التفكير الحلولي بالدائرية إذ يختفي التاريخ ويتداخل القومي والديني والإنسان والإله) . ولكن هذه الوثنية الحلولية الجديدة هي وثنية بدون إله ، إذ تحل الذات القومية محل الإله تماماً ، أي أن الشعب اليهودي استوعب في ذاته كل المطلقية والقداسة الممكنة وأصبح مركز الكون والكلمة المقدَّسة (لوجوس) والغرض الإلهي (تيلوس) معاً وفي آن واحد . ولذا ، تُعدُّ مقاومة الشعب اليهودي للإبادة بمنزلة تنفيذ الأوامر والنواهي (متسفوت) في التراث القبَّالي؛ فهذه المقاومة هي التي تقوم بعملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) . وهي عملية يقوم الإله من خلالها باستعادة وحدته التي فقدها أثناء عملية تهشم الأوعية (شفيرات هكيليم) . وكلما قاوم اليهودي ، زادت عملية الإصلاح تسارعاً واكتملت استعادة الإله لوحدته . ومن ثم ، فإن الشعب اليهودي يوجد خارج التاريخ ككيان لا يخضع لقوانينه العبثية ، ويؤكد المعنى من خلال مقاومته ، أو هو بمنزلة الجسر الذي يصل بين الإله والتاريخ (على حد قول آرثر كوهين) . وكل هذا يتضمن فكرة حلولية كمونية متطرفة وهي أن الشعب هو الإله وأن هذا الإله لا يتجاوز تاريخ هذا الشعب وإنما يتجلى ويحل ويذوب فيه تماماً ويختفي !

وإذا كانت الجريمة الكبرى هي الفناء ، فالفضيلة الكبرى هي المقاومة والبقاء، وكل هذا يجسده ظهور دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة تعبِّر عن إرادة الشعب اليهودي ورغبته في البقاء ، وتثبت أن الشعب اليهودي يرفض أن يلعب دور الشعب الشاهد كما ترى المسيحية، ولا أن يكون شعباً شهيداً كما تتصور اليهودية الحاخامية التي ترى أن اليهود تم

اختيارهم ليكونوا شعباً من الشهداء والقديسين والأنبياء والكهنة لا سيادة له ، عاجز لا يشارك في السلطة (وهو الدور الذي يرى دعاة لاهوت موت الإله أنه أدَّى باليهود إلى الاستسلام للإرهاب النازي ، وعبَّر عن نفسه في اشتراك القيادات اليهودية في المجالس اليهودية التي أسسها النازيون والتي قامت بتسليم اليهود إلى قاتليهم) . لكن الدولة الصهيونية تقف على الطرف النقيض من هذا كله ، فهي تحل مشكلة العجز اليهودي الناجم عن انعدم السيادة وعدم المشاركة في السلطة ، فإسرائيل دولة ذات سيادة ولها سلطة وجيش قوي ومؤسسات عسكرية تدافع عن الإرادة اليهودية المستقلة ، وإسرائيل هي الشيء الإيجابي الذي ظهر من رماد أوشفيتس ، وهي (باعتبارها رمز بقاء الشعب) تشكل هزيمة للعدم ولهتلر (ولذا ، يُشار إلى لاهوت موت الإله بأنه «لاهوت البقاء» و«لاهوت ما بعد أوشفيتس») . بل إن إسرائيل هي حقًّا الوسيلة الكبرى لعملية الإصلاح الكوني . فمن خلال هذه الدولة يعلن المطلق عن نفسه ويُستعاد الحضور الإلهي داخل التاريخ (على حد قول الحاخام إليعازر بركوفتس) . فبقاء الشعب والدولة هو بقاء الإله ، واستمرار الشعب والدولة هو استمرار الإله . ولذا ، فإن من يقف ضد الدولة ولا يقبلها فهو كمن ينكر وجود الإله ، ومن يقبلها بلا شرط فهو وحده المؤمن (على حد قول آرثر روبنشتاين) . وقد صرح الحاخام إيوجين بورويتز أحد مفكري لاهوت موت الإله بأن الدولة الصهيونية إبان حرب ١٩٦٧ لم تكن وحدها المهددة بالخطر ، بل كان هذا الخطر محدقاً بالإله نفسه .

ويمكننا الآن أن ننتقل من عالم المعرفة والتاريخ إلى عالم الشعائر والأخلاق. والقيمة الأخلاقية المطلقة هي بقاء الشعب اليهودي ، فهذا البقاء هو نهاية في ذاته ، والحفاظ على الدولة وبقائها وبأي ثمن هو أيضاً مطلق أخلاقي (أو ليس دفاع اليهود عن أنفسهم هو دفاع عن الإله ؟) ، ومن ثم نجد أن لاهوت موت الإله يؤدي إلى ظهور أخلاقيات داروينية ، أي أخلاقيات هي في جوهرها لا أخلاقيات ، إذ أنها لا تحاكم إسرائيل بأية مقاييس أخلاقية ، وإنما تبرر كل أفعالها وتقبلها تماماً . بل إن الشغل الشاغل للشعب اليهودي هو: تذكر الإبادة وما حل بهم ، ثم الالتزام ببقاء إسرائيل وحماية سيادتها وصون بقاء الشعب اليهودي ، بأية طريقة ودون الالتزام بأية قيم .

أما الشعائر ، فهي تكتسب أبعاداً جديدة تماماً . فإن كان تذكُّر الذات اليهودية واجباً أخلاقياً ، فإن كتابات اليهود من أمثال إيلي فيزيل عن الإبادة تصبح هي الكتب المقدَّسة ، مثل متحف بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا في إسرائيل) مستودعاً للذاكرة وتصبح زيارته شعيرة دينية مقدَّسة ، والأوامر والنواهي يضاف إليها أوامر ونواه تضفي

الطابع الديني على الدولة والمؤسسات الصهيونية والإسرائيلية مثل مؤسسة اليهودية والكنيست وجيش إسرائيل .

وقد نجح اليهود ، في حوارهم مع المسيحيين ، في أن يجعلوا من الإيمان بالدولة الصهيونية أحد المطلقات التي لا يجوز في شأنها حوار ، كما لا يمكن مناقشة أفعالها .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن إدراك يهود أوربا للإبادة النازية على هذا النحو هو إدراك حلولي كموني متأثر بحادثة الصلب المسيحية (وتشويه له في الوقت نفسه) ، فالمسيح هو اللوجوس ابن الإله الذي ينزل فيُصلب ثم يقوم ويعود إلى أبيه (وهذا هو الحلول المؤقت الشخصي المنتهي) . أما في اليهودية ، فالشعب هو اللوجوس الذي يعيش بين الأمم ويتعرض للشتات والعذاب وأخيراً الصلب في حالة الإبادة النازية . وكما أن حادثة الصلب لابد أن تُقبل كما هي في الوجدان المسيحي ، فإن لاهوت موت الإله اليهودي يتطلب من اليهود والأغيار قبول حادثة الإبادة باعتبارها سراً من الأسرار. وكما أن المسيح يقوم بعد الصلب ، فإن الشعب يبقى بعد الإبادة ثم يقوم على هيئة الدولة الصهيونية !أي أن الحلول المسيحي الشخصي المنتهي يتحول إلى حلول قومي دائم ومستمر .

ولا شك في أن هذا الخطاب لا علاقة له بأي دين ، سواء أكان الإسلام أو المسيحية أو حتى اليهودية الحاخامية . وهو بالفعل يصدم أسماع كثير من الحاخامات الذين قاموا بتكفير أصحابه . ولكن التركيب الجيولوجي للعقيدة اليهودية يجعل من الممكن وجود سوابق لمثل هذه الأفكار . ففكرة الإصلاح (تيقون) في القبَّالاه اللوريانية تمنح اليهود مركزية كونية وتجعل وجود الإله أو وحدته مرهوناً بوجودهم . والقبَّالاه لم تكن هرطقات ثانوية هامشية وإنما كانت العمود الفقري لليهودية الحاخامية أو لتيار مهم داخلها .

ويمكننا ببساطة القول بأن لاهوت موت الإله (وحدة الوجود المادية) هو اللحظة التي تتم فيها صهينة اللاهوت اليهودي تماماً، إذ يختفي الإله تماماً ويموت وتموت معه شعائره وكتبه المقدَّسة ليحل محله إله جديد هو الدولة الصهيونية، وتظهر شعائر جديدة هي الدفاع عن الدولة وتَذكُّر الشعب اليهودي، أما الكتب المقدَّسة فهي سجلات هذه الذاكرة .

وكثير من الحركات الصوفية الحلولية تترجم نفسها إلى أساطير من هذا النوع ، ويخلع الأتباع القداسة على أنفسهم . ويُلاحَظ كذلك أن الحركات الفاشية تخلع القداسة على نفسها وعلى تاريخها وتعلن نهاية التاريخ . ومع هذا ، فإنها تتحرك داخل التاريخ لاغتيال الأطفال والاستيلاء على الأرض . هذا ما فعله النازيون ، وهذا ما يفعله الصهاينة . ولاهوت موت الإله ينجز ذلك أيضاً ، لكنه يحتوي داخله على تناقض أساسي ، فهو

يصر على أن يخلع المطلقية على اليهود ومؤسساتهم وتاريخهم (فالإبادة لا يمكن النقاش في معناها ، والدولة الصهيونية لا يمكن نقدها أو الحوار بشأنها ، وهكذا) ، ولكنه في الوقت نفسه يرفض دور الشاهد على التاريخ ويصر على المشاركة في السلطة ، مع أن من يتصف بالمطلقية يقف خارج التاريخ ، أما من يشارك في السلطة ويستخدمها فهو يقف داخله . ولكن هذا التناقض العميق تتصف به كل النماذج الحلولية الكمونية حينما تتحول إلى نظام حكم .

ولاهوت موت الإله هو تعبير عن العلمنة الشاملة الكاملة للنسق الديني اليهودي ، فهو شكل حاد من حالات توثن الذات القومية التي تتحول إلى مطلق يعبِّر عن نفسه من خلال مطلق آخر : الدولة . وهي مطلقات مادية لها كل صفات الغيب والميتافيزيقا دون أن تُحمِّل من يؤمن بها أية أعباء أخلاقية ، بل وتعطيه العديد من المزايا ، والتزامه الوحيد هو البقاء . ولكن البقاء بأي شرط ليس عبئاً وإنما هو حالة تتسم بها كل المخلوقات البيولوجية ، لا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان الأعجم والنبات الذي لا يتحرك ، فهذه هي أخلاقيات النظام المادي الواحدي الذي ينتظم كلاً من الإنسان والمادة ، وهذا هو ميراث عصر الاستنارة .

ولعل إدراكنا لمنطلقات لاهوت موت الإله بمطلقيته وتاريخيته ، وكذلك إدراكنا لنتائجه المعرفية والأخلاقية ، يفسر لنا شيئاً من الموقف الصهيوني والإسرائيلي تجاه العرب ، فإذا كانت الذات القومية مطلقة فلا مجال للحوار مع الآخر ولا حقوق له فهو يقع خارج الدائرة المقدَّسة . ويمكننا أن نقول إن لاهوت موت الإله هو النسق الكامن وراء الخطاب السياسي الإسرائيلي بكل علمانيته وبريقه وعنفه وقوته .

إن لاهوت موت الإله هو تعبير عن النسق المعرفي الجديد الذي يسيطر في الوقت الحالي على الحضارة الغربية ، أي نسق ما بعد الحداثة (التي يشار إليها أيضاً بالتفكيكية أو ما بعد البنيوية) وهي شكل من أشكال العدمية الكاملة التي لا تنكر وجود الإله وحسب ، وإنما تنكر أية مركزية للإنسان ، بل وتنكر فكرة الطبيعة البشرية ذاتها . وهي لا تنكر الحقيقة الدينية وحسب وإنما الحقيقة في أساسها ، ولا تتمرد على فكرة القيمة الدينية أو الأخلاقية ، وإنما على فكرة القيمة ذاتها ، أي أنها تنكر قيمة القيمة ، وهى فى هذا لا تختلف كثيرا عن الرؤية النازية للكون .

ومن أهم مفكري لاهوت موت الإله إرفنج جرينبرج وريتشارد روبنشتاين وإميل لودفيج فاكنهايم .

٢ - إرفنج جرينبرج :

حاخام أمريكي يوصف بأنه أرثوذكسي وبأنه مفكر تربوي أمريكي يهودي. وُلد في بروكلين، وعمل في جامعة برانديَز كمدير لجماعة هليل الطلابية وكمحاضر، ثم عمل أستاذاً للتاريخ في جامعة يشيفا.

وينطلق فكر جرينبرج من نقد جذري عميق لكل من الدين والحداثة من خلال واقعة الإبادة. فاليهودية والمسيحية في رأيه مسئولتان عن الإبادة لأنهما أدتا إلى عجز اليهود: المسيحية بقيامها بتجريد اليهود من السلطة وتحويلهم إلى شعب شاهد وبتوليدها كُرهاً عميقاً تجاه اليهود لدى المسيحيين، واليهودية الحاخامية بتقبلها العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة واعتباره حالة نهائية لن تنتهي إلا بمقدم الماشيَّح. فاليهود، حسب تصور اليهودية الحاخامية، شعب مختار من الكهنة والأنبياء والشهداء.

ولكن الحل لا يكمن في الاتجاه إلى العلم، فالحضارة الحديثة التي نقلت الولاء من إله التاريخ والوحي إلى إله العلم والإنسان لم تؤد إلى سعادة الإنسان وإنما إلى الإبادة، والمجتمع الحديث بكل آلياته وإمكاناته هو الذي جعل الإبادة أمراً ممكنا. بل إن كلاً من المؤسسات الدينية والحديثة مرت على الإبادة مروراً عابراً وتقاعست عن واجب تحديها بالخروج عن الصمت، أي أن جرينبرج يرفض أن ينسب أية مطلقية للعقيدة الدينية أو للمجتمع العلماني.

وحلاً لهذه المشكلة، يقترح جرينبرج أمراً جديداً تماماً فبدلاً من الحديث عن الإيمان والإلحاد، علينا أن نتحدث عن لحظات من الإيمان ولحظات من الإلحاد، وعلينا أن نتقبل كلاً من لحظات الإيمان مع لحظات الإلحاد، وبذا نتخلص من الثنائية التقليدية التي تضع الإيمان في مقابل الإلحاد، وفي هذا تَقبُّل للتعددية الحقة حيث لا يوجد مركز دائم وإنما هناك مراكز متعددة متنقلة متغيرة تماماً كعلاقة الدال بالمدلول في الفكر التفكيكي وفكر ما بعد الحداثة (فهي علاقة مؤقتة غير نهائية). وحياة الشعب اليهودي بأسره هي جدل مستمر بين لحظات الإيمان ولحظات الإلحاد، وهو ما يسميه جرينبرج «جدلية القدس» أو «جدلية أوشفيتس». فالقدس ترمز إلى لحظة الإيمان بالإله والشعب وتبعث على الأمل، أما أوشفيتس فترمز إلى الاغتراب عن الإله والناس وتبعث على القنوط. ورغم إصرار جرينبرج على عدم تفضيل الإيمان على الإلحاد، ورغم سعيه إلى نفي فكرة المركز، إلا أنه يرى أن المؤمن هو من يمارس عدداً من لحظات الإيمان والأمل يفوق عدد لحظات الإلحاد واليأس.

ويقدم جرينبرج تاريخاً لليهودية هو تطبيق لنظرية اختفاء المركز هذه، فتاريخ اليهودية

يعبِّر عن ظاهرة اختفاء الإله تدريجيًا . ولإثبات نظريته هذه، يُقسِّم تاريخ اليهودية إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى ، مرحلة العهد القديم : وهي المرحلة التي بدأت بالحديث المباشر بين الإله وموسى ثم حديث الإله للشعب من خلال الكهنة والأنبياء . والشعب في هذه المرحلة كل لا يتجزأ ، وتأخذ الشعائر شكل العبادة القربانية في الهيكل التي كان يشرف عليها الكهنة . والخطايا في هذه المرحلة جماعية ، كما أن التوبة والندم جماعيان .

المرحلة الثانية ، مرحلة التلمود واليهودية الحاخامية أو التلمودية : وهي المرحلة التي لا يتحدث فيها الإله مباشرة للشعب ، وإنما يتم الحوار من خلال الحاخامات الذين يدرسون كتاب الإله من خلال التفسيرات التي وضعها المفسرون الأوائل ، أي يدرسون التلمود . وتأخذ الشعائر هنا شكل التعبد في المعبد اليهودي تحت قيادة الحاخام ، وتصبح الخطيئة فردية ، وكذلك التوبة . ويُلاحَظ في هذه المرحلة بداية التراجع النسبي للإله (قياساً إلى المرحلة السابقة).

المرحلة الثالثة ، مرحلة الإبادة وأوشفيتس ودولة إسرائيل : وهي المرحلة التي يختفي فيها الإله تماماً وتصبح الدولة الصهيونية هي المطلق ، إذ كان الإله في المعسكرات يقول للبشر أوقفوا المذبحة ولكنها لم تتوقف ، ولم يستجب أحد . ومع هذا جاءت الاستجابة في شكل دولة إسرائيل . فكأن الإله قد حل تماماً في التاريخ و«صعد» مع الشعب إلى إسرائيل ، ومن ثم فإن هذه المرحلة تتسم بغياب الإله وحضور إسرائيل .

و الذي حدث هو والتحول من العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة إلى تأكيد السيادة والاستيلاء على السلطة ، وهو أمر لا يتم بالنسبة للمستوطنين في إسرائيل وحدهم، وإنما يحدث لجميع يهود العالم الذين يشكلون أداة ضغط متمثلة في اللوبي الصهيوني والمؤسسات الصهيونية الأخرى ، فكأن حالة النفي تنتهي فعليًا وماديًا بالنسبة إلى المستوطنين وتنتهي نفسيًا بالنسبة إلى يهود العالم . كما أن بقاء الشعب اليهودي متمثلاً في الدولة الصهيونية في فلسطين والجماعات اليهودية في العالم ، وتأكيد سيادة اليهود سواء في إسرائيل أو في خارجها ، أمر مطلق لا يجوز الحوار بشأنه . فمن يقف ضد تعبير إسرائيل عن سيادتها يكون مثل من ينكر واقعة الخروج من مصر ، ومن ثم فإنه يكون كمن ارتكب خطيئة دينية قاطعة تؤدى إلى الطرد من حظيرة الدين . ولا يمكن الحكم على إسرائيل بالمقاييس العادية ، فبقاؤها مطلق ، وهو ما يعطيها الحق في أن تستخدم أحياناً أساليب غير أخلاقية لضمان البقاء . وعلى سبيل المثال ، يمكن الحديث عن حق العرب في

تقرير المصير شريطة ألا يؤدي هذا إلى تهديد وجود إسرائيل وبقائها . فكأن جرينبرج يدعو إلى تمحور حلولي وثني حول الذات .

وينطبق الشيء نفسه على الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة التي يجب أن تتحول هي الأخرى إلى جماعة عضوية متماسكة (التمحور الوثني حول الذات مرة أخرى) لها إرادة مستقلة ، تتطهر رؤيتها تماماً من كلٍّ من الليبرالية والعالمية ، بحيث يركز اليهود لا على الأصدقاء الدائمين وإنما على المصالح الدائمة ، ويصبحون ملمين تماماً بموازين القوى وكيفية توظيفها لصالح اليهود وحدهم ولصالح الدولة الصهيونية أيضاً . وبدلاً من أن يضغط اليهود على أمريكا لخفض أسلحتها أو للانسحاب من مناطق مثل فيتنام مثلاً ، انطلاقاً من قيم أخلاقية مطلقة ، لابد وأن يدرك اليهود أن قوة إسرائيل تستند إلى قوة الولايات المتحدة ، كما أن إدراك العرب واليهود لهذا الوضع يشكل مفتاح السلام في الشرق الأوسط .

ولكن إذا كان العهد القديم هو كتاب المرحلة الأولى وكان التلمود هو كتاب المرحلة الثانية ، فما هي كتب هذه المرحلة المقدَّسة ؟ إنها النصوص التي تذكر الشعب اليهودي بالإبادة وبضرورة البقاء (ومن هنا نجد أن جرينبرج يعتبر كتابات إيلي فيزيل ، على سبيل المثال ، كتابات مقدَّسة إذ يدور معظمها حول الإبادة) . وإذا كان الهيكل هو المؤسسة الأساسية في المرحلة الأولى ، والمعبد اليهودي مؤسسة المرحلة الثانية ، فما هي مؤسسات المرحلة الثالثة ؟ المؤسسات الجديدة ليست الهيكل أو المعبد ، وإنما هي المؤسسات الصهيونية : الكنيست ، وجيش الدفاع الإسرائيلي ، والكيبوتس ، والجماعات الإسرائيلية ، ومؤسسات الجباية اليهودية ، والنصب التذكاري الإسرائيلي (ياد فاشيم) ، بل إن بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا) في إسرائيل ليس مجرد متحف وإنما هو تكرار طقوسي لقصة الدياسبورا وإعادة قص لها في أسلوب علماني تعددي في الظاهر ، ديني خفي في الباطن ، فهو مخزون الذاكرة . كما أن إيباك (اللوبي الصهيوني) ، وجماعات الجباية ، هي تعبير عن تأكيد الدياسبورا أنها تقف إلى جانب الظاهرة المقدَّسة (إسرائيل) بدعمها سياسيًا وماليًا .

وإذا كان الكاهن هو الذي يشرف على إقامة شعائر المرحلة الأولى ، ويشرف الحاخام في المرحلة الثانية ، فلابد أن يكون المشرف على إقامة شعائر المرحلة الثالثة هو النخبة الصهيونية القائدة (السياسية والعسكرية) . وبالفعل ، لاحَظ جرسون كوهين أن كثيراً من اليهود يعتقدون أن إسرائيل هي معبدهم اليهودي ، وأن رئيس وزرائها هو الحاخام الأكبر أو الكاهن الأعظم .

ويضيف جرينبرج أشياء كثيرة عن القيم الأخلاقية ، فيصرح بأن الإبادة ينبغي ألا تصبح مبرراً لليهود لأن ينسبوا للآخرين كل الشرور وأن يتجاهلوا عمليات الإبادة التي لحقت بالآخرين . ولكن ، رغم هذه الديباجات الأخلاقية ، يظل موقف جرينبرج برجماتيًا عمليًا ، فهو لا يتحدث عن التزام الدولة الصهيونية بالقيم المطلقة وإنما يتحدث عن تحالفاتها العملية لتأكيد السيادة اليهودية . ويُلاحَظ أن فكر جرينبرج ينبع من نمط ما بعد الحداثة ، فثمة إنكار لأية مطلقات أو مركز ، وإيمان باستحالة تجاوز حدود التاريخ وتصور لتطور التاريخ باعتباره تعبيراً عن الاختفاء التدريجي للإله المتجاوز حتى يصبح التاريخ مسطحاً تماماً ، دالاً بلا مدلول أو إجراءات بلا معنى ، أو معنى بلا إجراءات ، صيرورة كاملة يفرض جرينبرج داخلها مطلقاته المكتفية بذاتها كالسيادة اليهودية التي لا تقبل الحوار ، فهي دال بلا مدلول أو دال يتجاوز كل الدوال .

٣ـ ريتشارد روبنشتاين :

أحد مفكري لاهوت موت الإله . كان يدرس في كلية الاتحاد العبراني ليصبح حاخاماً إصلاحيًا ، ولكنه حينما سمع عن الإبادة النازية ضد يهود أوربا وجد أن موقف اليهودية الإصلاحية المعادي للصهيونية موقف خاطئ تماماً ، فرُسِّم حاخاماً محافظاً عام ١٩٥٢ في كلية اللاهوت اليهودية . وحصل روبنشتاين على الدكتوراه عام ١٩٦٠ حيث كانت رسالته عن الوجدان الديني تحليلاً نفسيًا للأجاداه يوضح فيها مخاوف حاخامات اليهود من إشكالية العجز اليهودي بسبب انعدام السلطة والسيادة بعد هدم الهيكل .

صاغ روبنشتاين مساهمته للاهوت موت الإله في كتابه **أوشفيتس** (١٩٦٦) والذي يطرح فيه السؤال التالي : إذا كان إله التاريخ موجوداً ، فكيف يمكن للمرء إذن أن يفسر إبادة ستة ملايين من شعبه المختار ؟ ويرفض روبنشتاين الفكرة التي يذهب إليها بعض اليهود الأرثوذكس القائلة بأن الشعب هو أداة الإله ، ومن ثم فإن إبادته ذات مغزى إلهي ، كما أنها قد تكون عقاباً للشعب على انحرافه عن الشريعة والوصايا والنواهي .

ولتفسير واقعة الإبادة ، يستخدم روبنشتاين نموذجين تفسيريين : أحدهما يغلب عليه الطابع الديني الحلولي ، والآخر علمي تاريخي بوجه عام . ولنبدأ بالنموذج الديني الحلولي . يرى روبنشتاين أن الإله أوهم الشعب اليهودي أنه شعب مختار ، وهو ما ساهم في استسلام اليهود للأحداث من حولهم ، وولَّد في نفوسهم اليقين بأن الإله سيحفظهم وسط الدمار . بل إن العذاب والشتات ، حسب هذا التصور ، هي علامات الاختيار ،

الأمر الذي شجع السلبية في اليهود فنسوا المقاومة . إذ كانت آخر مرة قاوم فيها اليهود هي فترة التمرد الحشموني . وقد هُزم اليهود وأصبح الفريسيون (الذين اختارهم الرومان) قادة اليهود رغم أنهم من دعاة الاستسلام ، وأصبح العجز وعدم المشاركة في السلطة سمة أساسية لليهودية الحاخامية . لقد بدأت حالة الدياسبورا (أي وجود اليهود في المنفى) بالهزيمة العسكرية واستمرت لأن اليهود طوروا ثقافة الاستسلام والخضوع واستوعبوها وعاشوا داخل نطاقها ، أي أن سر استمرارهم يكمن في خضوعهم وخنوعهم . وظهرت شخصية الوسيط (شتدلان) الذي يقوم بالتوسط لدى الحاكم باسم اليهود ويقدم له الالتماسات ويطلب منه استخدام الشفقة مع اليهود ويعطيه الرشاوى نيابة عن اليهود ويقوم بجمع الضرائب نيابة عنه . واستمرت هذه التقاليد حتى العصر الحديث في المجالس اليهودية في أوربا التي كانت تقوم بدور الوسيط بين الجماعات اليهودية والسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية . وقد تعاونت هذه المجالس مع النازيين ونفذت أوامرهم وتولت قيادة الجماعات اليهودية بما يكفل تعاونها مع الجلادين ، ومن ذلك إخلاء اليهود وترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال . وكان تنظيم اليهود عنصراً أساسيًا في منع المقاومة المسلحة ، وكل ما فعله النازيون هو استخدام القيادة الموجودة بالفعل . وكان خضوع اليهود رد فعل آليًا ، فيما عدا حوادث مقاومة متفرقة أهمها انتفاضة جيتو وارسو عام ١٩٤٣ ، ولكن هذه الحوادث تمثل الاستثناء ، إذ لم يقاوم معظم اليهود الذين اعتادوا الخضوع .

هذا هو التفسير الديني عند روبنشتاين . أما التفسير التاريخي الزمني ، فيذهب إلي أن الإله خلق آدم ليحكم الطبيعة ، ولكن التاريخ الإنساني الذي بدأ بآدم تزايد فيه الترشيد البيروقراطي ، وهو اتجاه يصل إلى ذروته مع انتصار التكنولوجيا النازية التي تنزع السحر عن الطبيعة ، ومع هيمنة البيروقراطية النازية التي تحيِّد العواطف الإنسانية ، أي أن الطبيعة والإنسان يصبحان مادة محضة وهو ما يعني موت الإله الذي يحرك الطبيعة والتاريخ ، والذي يمنحهما المعنى . ويتم هذا في وقت توجد فيه قطاعات كبيرة من السكان لا فائدة من وجودها . ومن ثم ، فإن النازية تُعدُّ مَعلماً أساسيًا في الحضارة الغربية ، إذ يصبح بمقدور الدولة إبادة الملايين بشكل منظم . ومن هذا العرض لفكر روبنشتاين ، نجد أن ما سقط ليس الفكر الديني وحسب وإنما الفكر العلماني أيضاً ، ولذا لا يوجد سوى فراغ وعدم ، وعالم لا دلالة له ولا معنى ولا مركز ، كله غياب بلا حضور ، كله سطح بلا تجاوز أو مُثُل .

ويطرح روبنشتاين فكرة الإله باعتبار أنه العدم المقدَّس ؛ الأم آكلة لحم البشر التي تلد البشر لتلتهمهم . والتاريخ الإنساني عبارة عن دورات متكررة ، لا يوجد فيه بعث ولا

آخرة ، فالحياة تقع بين قوس النسيان ، وما الماشيَّح سوى الموت ، وذروة التاريخ الإنساني العبثي هي انتصار التكنولوجيا والبيروقراطية النازية .

وفي قمة عجزه وإحساسه بغياب الإله يعود روبنشتاين للعقيدة الإلهية ، لا باعتبارها عقيدة دينية وإنما باعتبارها الطريقة الخاصة التي يواجه بها اليهود الأسئلة النهائية للحياة بكل أزماتها . فاليهودية هنا ليست نسقاً دينيًا ، وإنما هي تركيبة فكرية (أسطورية) ذات فاعلية نفسية تمكن اليهود من عملية المواجهة هذه .

وتشكل اليهودية الجديدة عودة للطبيعة وللإيقاعات الكونية للوجود الطبيعي . ولذا يدعو روبنشتاين اليهودي أن يعود إلى أولويات الطبيعة . ومن ثم يصبح معنى المشيحانية الحقيقي هو " إعلان نهاية التاريخ والعودة للطبيعة ولدورات الطبيعة المتكررة " . والخلاص النهائي لا يكون بغزو الطبيعة من خلال التاريخ وإنما غزو التاريخ من خلال الطبيعة والعودة إلى الأصول الكونية، وعلى الإنسان أن يُعيد اكتشاف قداسة حياته الجسدية ويرفض تماماً محاولة تجاوزها : فيجب عليه أن يستسلم لجسمانيته ويتمتع بها . والصهيونية والعودة للتربة هي بشائر عودة اليهودي الذي فصله اللاهوت اليهودي عن الأرض والطبيعة . والصهيونية بهذا المعنى تشير إلى التحرير النهائي لليهودي من سلبية التاريخ وعودته إلى حيوية التجدد الذاتي من خلال الطبيعة .

ومن ثم ، فيجب التأكيد على ما يُسمَّى طقوس الانتقال (من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى) ، ويجب الاحتفال بها مع الاحتفاظ بأصالتها الطبيعية والكونية وقدمها . ويجب أن تتناقل الأجيال التراث اليهودي دون تغيير أو تبديل ، بل ويجب التأكيد على الجوانب القربانية في اليهودية على حساب الجوانب العقيدية (يسميها روبنشتاين «البنيوية») لأن القرابين (حتى لو كانت شكلية أو إسمية أو لفظية) توجه عدوانية الشعب وتقلل من إحساسه بالذنب . وهذه عودة كاملة للحلولية الوثنية القديمة . ويُعَدُّ هذا أهم تعبير عن الحلولية بدون إله حيث يقوم الإنسان بكل الشعائر بهدف العلاج النفسي (ثيرابي thera-py)، وبهذا يتحول المعالج النفسي إلى كاهن عبادة جديدة يحل فيها محل الإله الذي تَوحَّد بالإنسان ومات . وإذا كان الأمر كذلك، فليس من الغريب أن تكون الصهيونية هي أنقى تعبير عن العقيدة اليهودية ، داخل هذه المنظومة ، ومن ثم فإن تأييدها هو جوهر الحل الذي يقدمه روبنشتاين .

نجح روبنشتاين في أن يقرن الصهيونية بالعقيدة اليهودية ، بل وفي أن يعود باليهودية إلى العبادة القربانية المركزية الوثنية . كما جعل الشعائر الدينية وسيلة للتفريغ النفسي بدلاً

من أن تكون حركات جسمانية يقوم بها المرء طاعةً للإله وأملاً في أن يُدخل على حياته قدراً من القداسة يساعده على كبح جماحها وتنظيم نفسه . ورغم تطرف أطروحة روبنشتاين ، فإنها تعبِّر عن شيء جوهرى في النسق اليهودي ، خصوصاً اليهودية المحافظة التي ترى اليهودية تعبيراً عن الشعب العضوي اليهودي .

ونشر روبنشتاين كتاباً آخر عام ١٩٧٥ بعنوان **مكر التاريخ** بدأ ينظر فيه إلى الإبادة باعتبارها مجرد برامج تدار بطريقة بيروقراطية ترشيدية تهدف إلى التخلص من الفائض السكاني الناجم عن الانفجار السكاني في العالم ، ويرى روبنشتاين أن يهود العالم محكوم عليهم بالاختفاء شاءوا أم أبوا .

٤ ـ إميل فاكنهايم :

مفكر ديني يهودي من كندا ، وأحد دعاة لاهوت موت الإله . وُلد في ألمانيا ، وتم ترسيمه حاخاماً فيها عام ١٩٣٩ ، ثم هاجر إلى كندا حيث درس الفلسفة في جامعة تورنتو وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٥ ، وعمل أستاذاً فيها ، ثم هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٨٣ حيث يعمل أستاذاً للفلسفة في الجامعة العبرية .

بدأ فاكنهايم حياته الفكرية الدينية بالتركيز على الوجود الإنساني باعتباره النقطة التي تؤدي إلى الإله ، حيث ينظر الإنسان في ذاته وينتظر الكشف الإلهي (وهذه صيغة حلولية مخففة ، فرغم أن الإله داخل الإنسان إلا أنه متجاوز له) . ويميِّز فاكنهايم بين الفلسفة العلمانية والعقيدة الدينية ، فالفلسفة العلمانية تتعامل مع ما هو واضح ومحدد وقابل للتفسير ، أما العقيدة الدينية فتتعامل مع النهائي ، ومع ما لا يمكن الإفصاح عنه : الإله . وقد يتصور المرء، انطلاقاً من هذه الأطروحات ، أن فلسفة فاكنهايم اكتسبت مركزاً متجاوزاً للحركة التاريخية والمادة الطبيعية ، ولكننا نجد أن النزعة الحلولية عميقة متجذرة، ولهذا لا يتجاوز الإله الإنسان وإنما ويحل فيه تماماً وتصبح العلاقة بين الخالق والمخلوق حوارية . وفي النهاية ، فإن علاقة الشعب اليهودي بالإله تشكل مركز علاقة الإله بالبشر .

والتاريخ اليهودي الذي يجسد الهوية اليهودية هو المجال الدنيوي الزمني الذي يفصح فيه الخالق عن نفسه . فالتاريخ اليهودي تجسيد لكل من الإرادة (الهوية) اليهودية والإرادة الإلهية ، وهذا الترادف كامن في الخطاب الحلولي .

ولهذا ، نجد أن الهوية اليهودية هي حجر الزاوية في الفكر الديني عند فاكنهايم ، فهو ينطلق من رفض ميراث عصر الاستنارة والإعتاق ، وكذلك من رفض فلسفة إسبينوزا ،

فهذه الفلسفات طلبت من اليهودي أن يصبح إنساناً بشكلٍ عام ، وأن يطرح عن كاهله يهوديته ويكتسب هوية جديدة تتفق مع معايير الحضارة الغربية الحديثة . ولكن هذه الحضارة وفلسفتها العلمانية أثبتت فشلها ، ففي أحضانها نشأت النازية وتمت الإبادة ، وقد وقف اليهود عاجزين تماماً بسبب عدم المشاركة في السلطة وانعدام السيادة ، ولهذا فقدت الحضارة الغربية العلمانية مشروعيتها ولم يعد بوسعها أن تطلب من اليهود شيئاً . ومن هنا يرفض فاكنهايم اليهودية الإصلاحية أيضاً التي تحاول أن تعيد صياغة اليهودية بما يتفق مع فكر الاستنارة .

وقد يتصور المرء أن فاكنهايم على استعداد لتَقبُّل الفكر الصوفي الحلولي اليهودي الذي يدافع عن تفرد الهوية اليهودية باعتبارها شيئاً مقدَّساً . ولكننا سنكتشف أنه يرفض مفكراً مثل روزنزفايج الذي دعا اليهود إلى أن يصبحوا كياناً فريداً موجوداً خارج التاريخ لا علاقة له بحقائق السلطة والقوة السياسية . وهو يرفض هذا لنفس السبب الذي رفض من أجله البديل الغربي ، ذلك أنه يؤدي إلى العجز بسبب عدم المشاركة في السلطة .

وانطلاقاً من هذه الأطروحات الحلولية الأساسية يقدم فاكنهايم فلسفته الدينية . فالإله يعبِّر عن نفسه في التاريخ اليهودي من خلال أحداث مهمة ودالة ، مثل : الخروج من مصر ونزول التوراة في سيناء ، وسقوط الهيكل . وهذه الأحداث هي ، في الواقع ، أحداث فريدة تبدأ عصوراً جديدة وتغيِّر مسار التاريخ الذي لا يُفهم ، منذ وقوع هذه الأحداث ، إلا من خلالها ، وهي تلقي على عاتق اليهود وكل البشر واجبات جديدة . وهذه الحوادث هي التي تميِّز بين الفترات الأصيلة التي تعبِّر عن الجوهر اليهودي والهوية اليهودية والفترات غير الأصيلة التي ينحرف فيها اليهودي عن جوهره . ويرى فاكنهايم أن الإبادة النازية من أهم هذه الأحداث ، فهي تحطيم للاستمرار ولأية علاقة بالماضي ، وهي النقطة التي انقطعت فيها العلاقة بين الإله والبشر وثبت فيها العجز الكامل لليهود .

إن شكل استجابة اليهود للأحداث يجعل منهم إما يهوداً حقيقيين أو يهوداً زائفين . فاليهودي الأصيل الحقيقي هو الذي يدرك مغزى الحدث ، فإذا كانت الأيديولوجيا النازية هي حيز العدم حيث تُفرَض على الضحية أن ينظر في هوة فارغة تماماً من المعنى ومجردة من أي أمل ، وإذا كانت الإبادة هي فناء الشعب اليهودي ، فإن الاستجابة الحقة هي إدراك هذه الحقيقة ، وهي التي تلقي على عاتق المدرك الوعي بما يسميه فاكنهايم «الأمر الإلهي الجديد» ؛ الأمر أو الوصية (المتسفاه) رقم ٦١٤ ، وهي «عام يسرائيل حي» ، أي «شعب إسرائيل حي (باق)» . وبوسع اليهودي الحقيقي أن يتجاهل الأوامر والنواهي السابقة كافة ، ولكن لا يمكنه تجاهل هذه الوصية على وجه التحديد ، فبعد الإبادة تغيَّر كل شيء .

ولكن كيف يحقق اليهود البقاء ؟ يكتشف اليهود حيزاً داخلياً يمكنهم التقهقر إليه ، حيث يمكنهم أن يدركوا معنى النازية باعتبارها محاولة القضاء على الحياة والهوية اليهودية والعقل الإنساني (ولنُلاحظ هنا الترادف بين "اليهودي " و" الإنساني ") . وهم ، هناك في هذا الحيز ، يشعرون بمقدرة على المقاومة ، وهي مقدرة من الإله – إله التاريخ اليهودي . ومقدرة اليهود على المقاومة تعني أن التاريخ اليهودي يستمر ، حتى أثناء الإبادة ، من خلال أفعال المقاومة التي تقوم مقام المتسفاه ، أي تنفيذ الأوامر والنواهي الكبرى التي كانت تُقرِّب المسافة بين اليهودي والإله حتى يتم التوحد الكامل بينهما وينصلح الخلل الكوني (تيقون) . وانطلاقاً من هذا ، يصبح الواجب الديني الأساسي لليهود هو المقاومة والبقاء ، وإلا أصبح النصر من نصيب هتلر . وهذا ما يُطلَق عليه أيضاً «لاهوت البقاء» ، فالبقاء هو التيقون .

ولكن هل للبقاء مضمون أخلاقي وإنساني ؟ تتضح الإجابة على هذا السؤال في تعريف فاكنهايم لأهم آليات إصلاح الخلل الكوني أو الدولة الصهيونية التي هاجر إليها مائة ألف ممن بقوا بعد الإبادة . فإنشاء الدولة الصهيونية لا يقل أهمية عن حادثة الإبادة ، والإيمان بالدولة الصهيونية يصبح أيضاً معياراً للتفرقة بين اليهودي الحقيقي واليهودي الزائف ، فإسرائيل هي مطلق جديد ، وهي أيضاً المكان الوحيد الذي يمكن لليهود فيه أن يعبِّروا عن هويتهم اليهودية . وهي تحل مشكلة العجز اليهودي الذي سبب هذا الانقطاع بين الإله والجنس البشري ، وتسمح لليهود بالمشاركة مرة أخرى في العملية التاريخية وبأن يصبحوا أصحاب سلطة وسيادة . وحينما يهاجم المصريون تل أبيب بعد إعلان استقلال إسرائيل ، فإن سكان كيبوتس ياد موردخاي هم الذين يقومون بالدفاع عنها ، وهو كيبوتس ينتصب فيه تمثال لأحد قادة ثوار جيتو وارسو . ويقول فاكنهايم إنه رأى صورة لأحد يهود أوربا يلبس شال الصلاة (طاليت) وهو ينحني أمام سنكي جندي نازي وبجوارها صورة لجندي إسرائيلي يرتدي الطاليت أمام حائط المبكى . وهذا هو الإصلاح (تيقون) بعينه، والذي سيستمر مادام أحد الباقين أحياء بعد أوشفيتس يستيقظ يومياً في الفجر ليصلي عند حائط المبكى ثم يعود للكيبوتس ليؤدي عمله . والصلوات التي تقيمها دار الحاخامية الكبرى في إسرائيل هي التي ستضع الدولة الصهيونية على بداية فجر الخلاص .

أما خارج إسرائيل ، فيتلخص التيقون فيما يلي :

١ ـ الإصرار على احتكار اليهود ، واليهود وحدهم ، للإبادة النازية ، فهم وحدهم الضحية .

٢ ـ تأييد دولة إسرائيل بلا شروط ، والصعود للدولة هو ضرب من ضروب الندم والإقامة فيها هو مشاركة في عملية إصلاح الخلل الكوني .

ولا يوجد جديد البتة في فكر فاكنهايم ، فهو تحديث فقط لكل أفكار الحلولية اليهودية ، خصوصاً القبَّالاه اللوريانية التي تصل إلى درجة من الحلولية تجعل الشعب اليهودي هو الامتداد للخالق في التاريخ ، وتجعل القيم الأخلاقية غير ذات موضوع . ومن ثم يصبح المطلق الديني الأوحد هو بقاء اليهود واستمرار دولة إسرائيل ، والفعل الأخلاقي السليم الوحيد هو تأييدها دون تساؤل ، حتى لو أتت بكل الأفعال الإرهابية الممكنة .

ومن أهم أعمال فاكنهايم : **البُعد الديني في فكر هيجل** (١٩٦٨) ، و**وجود الإله في التاريخ** (١٩٧٠) ، و **العودة اليهودية إلى التاريخ** (١٩٧٨) ، و **الكتاب المقدَّس اليهودي بعد الإبادة** (١٩٩١) .

لاهوت التحرير :

«لاهوت التحرير» حركة دينية في العالم الغربي المسيحي ظهرت في صفوف المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت ابتداءً من أوائل الستينيات ، لكن أطروحاته تحدَّدت وتبلورت في منتصف السبعينيات . وتصدر الحركة عن الإيمان بأن العقيدة الدينية هي في جوهرها رؤية ثورية للواقع ترى أن الإيمان الديني لا يعبِّر عن نفسه من خلال إقامة الشعائر الدينية وحسب ، وإنما أيضاً من خلال الدفاع عن قيم العدل والمساواة الاجتماعية وحقوق الأقليات والمضطهدين ضد الاحتكارات العالمية وقوى الرجعية والطغيان العالمي ، أي أنه موقف ديني يؤدي إلى تبني ما يُسمَّى «قيم التحرير» (ومن هنا التسمية) . ودعاة لاهوت التحرير يتمردون أيضاً على المؤسسات الدينية القائمة باعتبارها مؤسسات تم استيعابها في المؤسسات الحاكمة ، سواء المحلية الرجعية أو العالمية الإمبريالية ، ولهذ أصبحت هذه المؤسسات ، من منظور دعاة لاهوت التحرير ، امتداداً للسلطة توظف الدين والشعائر الدينية في خدمة مؤسسات الطغيان والظلم .

وكما هو الحال دائماً ، تأثر الفكر الديني اليهودي بلاهوت التحرير المسيحي . وكما أدَّت حركة الإصلاح الديني إلى ظهور اليهودية الإصلاحية ، وكما أدَّت الحركة المعادية للاستنارة بتأكيدها لروح الشعب وروح الأرض إلى ظهور اليهودية المحافظة ، وكما أدَّى ظهور موت الإله في المسيحية إلى ظهور مدرسة دينية مماثلة في اليهودية ، فإن ظهور

لاهوت التحرير في صفوف المسيحيين كان له صداه في صفوف أعضاء الجماعات اليهودية. ولكن، كما هو الحال دائماً، نجد أن هناك مرحلة زمنية تفصل بين الصوت والصدى، وأن لاهوت التحرير ظهر بين اليهود في الثمانينيات.

ولكن لاهوت التحرير اليهودي له خصوصية يهودية نابعة من وضعه الخاص. فلاهوت التحرير اليهودي هو تمرد على لاهوت موت الإله في صيغته اليهودية. ولاهوت موت الإله ـ كما أسلفنا ـ هو في جوهره حلولية وثنية بدون إله (وحدة وجود مادية)، وعودة إلى المطلقات القومية وإلى تقديس الذات القومية متمثلة في التاريخ القومي. لكن التاريخ القومي اليهودي هو تاريخ اليهود وحسب؛ تاريخ يستبعد الآخرين، أي أنه عودة إلى الانغلاق الوثني اليسرائيلي. ويدور تاريخ اليهود المقدَّس حول الأحداث التي تقع لليهود في التاريخ الزمني وحول الأفعال التي يأتون بها. ويرى دعاة لاهوت موت الإله أن أهم حدث هو الإبادة النازية وأن أهم فعل هو ظهور دولة إسرائيل. والإبادة ـ حسب لاهوت موت الإله ـ حدث مطلق في التاريخ ينهض دليلاً على موت الإله وغيابه، ولكن هذا الشعب يدور حول نفسه ويصبح هو ذاته المطلق الوحيد ويؤسس دولة إسرائيل التي تنهض دليلاً على مقدرة هذا الشعب على البقاء وعلى مقدرته على التخلص من عجزه. ومن ثم، فإن إسرائيل تصبح ـ بالنسبة لدعاة لاهوت موت الإله ـ القيمة المطلقة التي يصبح بقاؤها بأي ثمن هدفاً مطلقاً للشعب اليهودي.

وينطلق لاهوت التحرير من رفض هذه الحلولية الكمونية الوثنية ومن رفض إضفاء المطلقية على اليهود وتاريخهم. فالإبادة النازية حدث تاريخي مهم ولا شك، ولكنها ليست البداية والنهاية في حياة اليهود، كما أنها ليست النمط المتكرر في حياة اليهود في العالم، فقد حدثت تحولات جوهرية لليهود، ولابد من ثم التمييز بين أوضاع اليهود قبل الإبادة وبعدها. فيهود الدياسبورا يعيش معظمهم الآن في سلام في الولايات المتحدة، وهي بلد لا تعرف تقاليد معاداة اليهود ولا تمارس تمييزاً ضدهم، وقد حقق اليهود فيها قدراً عالياً من الحراك الاجتماعي والاندماج، والمنفى لم يعد منفى. غير أن لاهوت موت الإله (في تصور دعاة لاهوت التحرر) يتجاهل هذه الحقائق ويضع اليهود داخل قالب جامد: دور الضحية الأزلية الذي يحتكر الاضطهاد لنفسه، ولذا فإن لاهوت التحرير لا يذكِّر اليهود بأوضاعهم المتميِّزة في الوقت الحالي والتي تجعل من الإبادة حديثاً مملاً معاداً لا علاقة له بالواقع، وإنما يذكِّرهم أيضاً بضحايا الإبادة الآخرين، بل ويذكرهم بضحاياهم، أي الفلسطينيين (فتاريخ الفلسطينيين أصبح جزءاً من تاريخ اليهود).

وينطبق الشيء نفسه على دولة إسرائيل ، فهي جماعة يهودية مهمة ، ولكنها ليست الجماعة اليهودية الوحيدة (المطلقة) ، ولا هي مركز الوجود اليهودي ولا السمة الوحيدة للوجود اليهودي . وهي ليست مضطهدة مهددة بالإبادة ، وإنما هي دولة مسلحة تحرك جيوشها لتضرب جيرانها وبعض سكانها ، أي أن وضع الدولة ، مثله مثل وضع يهود العالم ، قد تغيَّر . ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يذهب لاهوت التحرير إلى أن اليهود واليهودية فقدا براءتهما مع احتلال إسرائيل للضفة الغربية ، ومع اندلاع الانتفاضة التي أصبحت نقطة حاسمة في التاريخ اليهودي وفي تاريخ اللاهوت اليهودي . فلم تعد الدولة تعبيراً عن رغبة اليهود في التخلص من عجزهم وفي تأكيد إرادتهم ، وإنما أصبحت تعبيراً عن إرادة البطش والعنف . بل إن استمرار بقاء الدولة أصبح متوقفاً على موت الأطفال الفلسطينيين ، أي إبادتهم ! وإذا كان لاهوت موت الإله يصر على أنه لا يمكن الإجابة على أي سؤال إلا في حضور الأطفال اليهود المذبوحين ، فإن الانتفاضة تجعل الدولة اليهودية واليهود يواجهون السؤال نفسه : إذا كان اليهود يتذكرون عذاب الإبادة وقسوتها ، فماذا عن عذاب الفلسطينيين ؟ لكل هذا لا يمكن الحديث عن مستقبل اليهود أو عن الهوية اليهودية إلا في ضوء هذا التحول التاريخي . وقد عَرَّفت الإبادة اليهود بأنهم «من ذبحهم هتلر» ، لكن الانتفاضة تطرح أسئلة جديدة : إذا كان اليهود يَعْرفون من كانوا بعد أن حُفرت الإبادة في وجدانهم ، فهل يَعْرفون ماذا أصبحوا بعد أن قامت الانتفاضة وكَسَّرت الدولة الصهيونية عظام الأطفال ؟ إن من الطبيعي أن يتذكر اليهود أوشفيتس وتربلينكا ، ولكن عليهم أيضاً أن يتذكروا صابرا وشاتيلا .

هذا على مستوى قراءة التاريخ ، وعلى مستوى تعريف الهوية ، أما على المستوى الأخلاقي ، فإن الدولة لم تَعُد مطلقاً بعد فك المطلقات الحلولية الوثنية . فإذا كانت الإبادة حدثاً مهمّاً ولكنها ليست مطلقاً – فما هو المطلق إذن ؟ يؤكد لاهوت التحرير أن المطلق الوحيد هو القيم الأخلاقية التي وردت في التراث الديني اليهودي (الذي يعرِّفونه تعريفاً إنسانيًا عالميًا) . ولذا ، فإن بقاء الدولة ليس أمراً كافياً ، والتخلص من العجز لا يَجُبُّ التساؤلات الأخلاقية ، فمن يحصل على السيادة يمكنه أن يستخدمها في الخير أو البطش . وبالمثل ، فإن السيادة ليست ميزة خالصة وإنما لها مخاطرها . ومن ينجز معجزة البقاء يمكن أن يكون خيِّراً أو شريراً ، ومن يُكلَّف بالرسالة (الاختيار) يمكنه أن يخونها . ولذا ، يقرر لاهوت التحرير أن إسرائيل ليست فوق يهود العالم أو فوق ضمائرهم . ولذا فعليهم الالتزام بالقيم الأخلاقية وحدها ، وإذا تحركوا فعليهم أن يتحركوا لا لتأكيد أهمية إسرائيل والدفاع عن بقائها ، وإنما لتأكيد القيم الأخلاقية المطلقة . ولن يتم إصلاح الخلل الكوني

(تيقون) من خلال الدولة وإنما من خلال الأفعال الأخلاقية الخيرة . ويجب على اليهود أن يقفوا لا ضد ذبح الأطفال اليهود على وجه الخصوص وإنما ضد ذبح أي أطفال ، وضمنهم الأطفال الفلسطينيين . ويجب على اليهود أن يلجأوا لكل شيء ، وضمن ذلك العصيان المدني ، لوضع القيم الأخلاقية المطلقة موضع التنفيذ .

ويُلاحَظ أن الإيقاع العام للفكر الديني اليهودي لا يزال كما كان منذ بدايته ، فقد كان هناك دائماً دعاة الوثنية أو القومية أو الحلولية (الكهنة أو الملوك) الذين يصدرون عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي ، وكان هناك دعاة الأخلاق العالمية والشاملة (الأنبياء وبعض الحاخامات) الذين يدورون في نطاق الإطار التوحيدي . كما أن التوتر بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرير هو نفسه التوتر القديم بعد أن تصاعدت حدته بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبعد أن أصبح الخطاب الوثني أكثر صَقْلاً وأكثر إلماماً بالخطاب الديني وأكثر امتلاكاً لناصيته . ويبدو أنه من الصعب للغاية حسم مثل هذا الصراع بسبب التركيب الجيولوجي لليهودية الذي يوفر لكل المتحاورين إمكانية أن يجدوا سوابق وشواهد تدعم وجهة نظرهم وتعطيهم شرعية دينية .

وقد تصاعدت حدة لاهوت التحرير مع تصاعد حدة الانتفاضة ، فالانتفاضة هي التي أثبتت أمام الجميع أن الدولة الصهيونية ليست مطلقاً وأن التاريخ اليهودي ليس مقدَّساً وأن أرض فلسطين ليست أرض ميعاد تنتظر سكانها (فهي ليست سوى أرض مأهولة بسكانها الذين يحيون ويموتون ويحبون ويجاهدون) . ويُلاحَظ في الحوار اليهودي المسيحي ، أن المحاورين اليهود كانوا يصرون على ضرورة قبول الدولة اليهودية باعتبارها مطلقاً دينيًا ، ثم أخذوا يتنازلون عن هذا المطلب . ومن أهم مفكري لاهوت التحرير آرثر واسكو ومارك إليس .

مارتن هايدجر والنازية :

في كتابه المعنون **الحداثة الرجعية : التكنولوجيا والثقافة والسياسة في جمهورية فايمار والرايخ الثالث** يُبيِّن جيفري هيرف أن الحداثة لم تكن حركة نحو اليمين أو نحو اليسار ، إذ يرى أن هناك حداثة رجعية فاشية هي حداثة انتصار الإرادة على العقل ، والروح المبدعة على الحدود . وفي إطار هذه الحداثة ترتبط الإرادة المنتصرة بالعنصر الجمالي الذي يصبح هو وحده مبرر الحياة ، ولذا تُعلَّق (أي تُعطَّل) كل المعايير الأخلاقية وتهيمن الرغبة التي لا تعرف أية حدود . وفي حديثه عن هذه الحداثة الرجعية يُبيِّن هيرف أن مصادرها متعددة ،

يذكر من بينها ما يلي : الرومانسية ـ أيديولوجية الفولك ـ المصطلح الوجودي عن الذات والأصالة ـ الداروينية الاجتماعية ـ فلسفات الحياة Lebensphilosophie ـ احتفاء نيتشه بالجمال الذي يتجاوز الأخلاق أو الذي لا علاقة له بالأخلاق (بالإنجليزية : أمورال amo-ral) ـ الاحتفال بالجمال باعتباره معياراً " أخلاقيًا " ـ تمجيد التكنولوجيا وربطها بالقيم المتجاوزة للأخلاق . ويستمر هيرف ، عبر كتابه ، في تعداد هذه العناصر وغيرها .

ونحن نرى أنه رغم دقة ملاحظاته وجدَّتها إلا أن كتالوج العناصر الذي قدَّمه يتسم بعدم الترابط . وقد يكون من الأجدى أن نرى نمطاً عامًا في الحضارة الغربية : تصاعد معدلات الحلولية الكمونية والانتقال من العقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغائية الإنسانية) إلى اللاعقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغائية الإنسانية) والتأرجح بين الذات والموضوع (وهو نمط عام يصل إلى قمته في فلسفة ما بعد الحداثة) .

وفلسفة مارتن هايدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦)، الوجودي والفينومنولوجي، هي جزء من هذا النمط العام . وهو يُعدُّ من أهم فلاسفة القرن العشرين في الغرب ، إن لم يكن أهمهم على الإطلاق ، وينزله البعض منزلة أفلاطون وهيجل . وقد تأثر هايدجر بأعمال جيكوب بومه والمعلم إيكهارت ونيتشه وكيركجارد وهوسرل ، ويبدو أن الفكر الغنوصي ترك أثراً عميقاً فيه . وكتابه الأساس : **الوجود والزمن** (١٩٢٧)، بالإضافة إلى كتبه الأخرى : **كانط ومشكلة الميتافيزيقا** (١٩٢٩) و **ماهية الحقيقة** (١٩٤٣) و**مدخل إلى الميتافيزيقا** (١٩٣٥) و **رسالة حول الإنسانية** (١٩٤٧) و **ما الفلسفة؟** (١٩٥٥) .

ونقطة انطلاق هايدجر هي الوجود ، فالسؤال الأساسي عنده هو : ما معنى الوجود ؟ فهو السؤال الذي يجب أن يسأله كل إنسان ليصبح إنساناً . ويذهب هايدجر إلى أن الخلل الأساسي في الأنطولوجيا الغربية أنها سقطت في ثنائية راديكالية فظنت أن الوجود هو كيان موضوعي مفارق للذات ثم قامت بفصل الواحد ، وبحدة ، عن الآخر ، فحولَّت العالم الموضوعي إلى مادة لا أسرار فيها ولا سحر خاضعة للحَوْسَلة منفصلة تماماً عن الذات ، كما تحوَّل الإنسان إلى عقل أداتي وذات متعجرفة متكبرة تنفصل تماماً عن واقعها وتتعالى عليه بدلاً من التفاعل معه ، تحاول أن تغزو الكون بدلاً من أن تعيشه ، وتحاول أن تفرض صورتها على الكون وتحتل مركزه وتحوسله . وتتجلى هذه الرؤية من خلال فلسفة ديكارت وفكر حركة الاستنارة والفلسفة الوضعية والنزعة التكنولوجية .

وفي محاولة تجاوز هذه الثنائية يرفض هايدجر العودة للإله ، كما يرفض أن يعود إلى الذات المستقلة ، وبدلاً من ذلك يطرح مشروعه الفلسفي الذي يصفه هو نفسه بأنه عملية

هدم (بالإنجليزية : ديستراكشن destruction ـ بالألمانية : ديستروكسيون destruktion) للفلسفات السابقة ، بل ولكل الأنطولوجيا الغربية ، أنطولوجيا الذات والموضوع (ويتحول الهدم [ديستراكش] إلى تفكيك بالإنجليزية : «ديكونستراكشن deconstruction» في خطاب دريدا الفلسفي ، الذي يدين بالكثير لفلسفة هايدجر) .

وجوهر عملية التفكيك أو الهدم هذه هو الاقتراب من الواقع بدون المنظار الديكارتي بحيث يتجاوز الدارس ثنائية الذات والموضوع وينظر إلى الوجود (شأنه في هذا شأن فلاسفة عالم الحياة) باعتباره الاثنين معاً . ومن هنا اهتمام هايدجر (ونيتشه من قبله) بالفلسفة اليونانية قبل سقراط ، وهي فلسفة لم تعان في تصوره من انقسام الذات والموضوع .

ونحن نذهب إلى أن هذا الانقسام الحاد بين الذات والموضوع هو سمة أساسية في كل الرؤى الحلولية الكمونية المادية التي ترفض فكرة المركز المفارق للمادة المنزه عنها ، وتحاول أن تعين مركزاً كامناً أو حالاً فيها ، فتجده إما في الإنسان أو في الطبيعة ، إما في الذات أو في الموضوع . وتحسم هذه الثنائية الصلبة ذاتها إلى واحدية مادية بذوبان الذات في الموضوع ، أو الموضوع في الذات (وإن كان البديل الأول هو الأكثر شيوعاً) . وهو انقسام لم تسلم منه الفلسفة اليونانية أو أية فلسفة حلولية كمونية مادية ، قبل سقراط أو بعده ، في اليونان أو خارجها . ونمط الثنائية الصلبة التي تؤدي إلى واحدية يظهر بوضوح في فلسفة هايدجر .

يتناول هايدجر قضية الوجود من خلال مفهوم «دازاين Dasein» وهي كلمة ألمانية تعني حرفياً «الوجود هناك» (بالإنجليزية : بينج ذير being there) أي «الوجود ـ في ـ العالم» . وفي سياق فلسفة هايدجر يمكن ترجمتها إلى «الإنسان» أو «حالة كون الإنسان إنساناً» (بالإنجليزية : ذي مود أوف بينج هيومان the mode of being human) . وأهم خصائص وجود الإنسان أن وجوده لا يشبه وجود الشيء ، فقانونه هو عدم التعين ، فهو كائن غير ثابت ، ليست له طبيعة محددة . وبما أن لكل فرد الحق في أن يقول « أنا » ، فإن الوجود الإنساني يتغيَّر من فرد لآخر . فهذا الأنا ليس جوهراً ، أي ليس موضوعاً ثابتاً تجرى عليه التغيرات ، بل هو ينبوع للإمكانات واستعداد لتحققها (عبد الرحمن بدوي) .

وتوجد هذه الذات الإنسانية في عالم الصيرورة والزمان ، لا فكاك لها منه ، وليس لها وجود مستقل عنه . بل إن وجودها نفسه هو ثمرة علاقتها مع العالم المادي ومع الآخرين ، ومع هذا لا تُردُّ الذات إلى واقع خارج عنها ولا تُستوعَب تماماً فيه . فالعلاقة بين الذات

والموضوع علاقة جدلية . فالواقع الذي نتفاعل معه يصوغنا بقدر ما نصوغه نحن ، ونمتلكه بمقدار ما يمتلكنا . والذات هي إمكانية دائمة ومشروع مستمر وحوار مستمر مع العالم . وعملية الحوار هذه تعني الصيرورة الدائمة ، فالواقع الذي نتفاعل معه مركب تماماً ، ولا يمكن إخضاعه لعملية الرد الفينومنولوجي أو التجريد الإيديتيكي التي تعلق الواقع (على الطريقة الهوسرلية) . ولا يمكننا استنفاد معناه تماماً ولا يمكن حوسلته أو استيعابه في مقولات منطقية مجردة عامة (ومن هنا عجز العلم الطبيعي عن فهم الوجود) .

والإنسان كائن أُلقي به في عالم ليس من صنعه ، ولكنه مع هذا عالمه الوحيد ، ولا يمكن للإنسان أن يأخذ موقفاً تأملياً محايداً من هذا العالم ، فنحن نصبح جزءاً من الأشياء التي في وعينا ، ولذا فإن الإنسان ليس كائناً عارفاً وإنما هو كائن قلق بشأن مصيره في عالم غريب عنه . ويتسم الإنسان بأنه ليس لديه ردود فعل (موضوعية) للأحداث ، فهو «يستجيب» لها ، ومن ثم فالإنسان محتم عليه الاختيار ومحاولة فهم العالم .

واللغة من أهم العناصر في الوجود الإنساني ، فهي أساسية له (بل إنها توجد قبل وجود الإنسان الفرد) ، وهي طريقة انفصال الإنسان عن الوجود ليشعر الإنسان بالدهشة تجاهه بل ويشعر بوجوده (على عكس الكائنات الأخرى ، والوجود بالنسبة لها كينونة وليس حضوراً ، فهي كائنة في الوجود لا تعيشه) . ولكن اللغة هي أيضاً أداة اتصالنا مع العالم ومع الآخرين . ولكنها أداة ليست موصلة تماماً لا يمكنها الإفصاح تماماً عما لا يمكن تسميته ، ولذا فاللغة لا يمكن أن تمثل الواقع كما أن اللغة تفقد حدتها بسبب تفاهة اللغة السائدة . ولعل هذا هو الذي حدا بهايدجر أن يحاول تطوير مصطلحه الخاص تماماً وأن ينحت كلمات جديدة ويلجأ للعب بالكلمات حتى يُفصح عن رؤيته الخاصة (كما فعل دريدا بعده متأثراً به) . كما أن هايدجر كان يذهب إلى أن لغة الشعر أكثر قدرة على التوصيل من اللغة العادية . ومع هذا كان يذهب إلى أن بعض الأفعال مثل «يستقر» و«يرى» تكشف عن الحقائق الأولية للوجود الإنساني .

لكن الإنسان كمشروع مستمر وإمكانية غير متحققة قد يفقد ذاته ويصبح «الهُم» . وهي عبارة تعني ببساطة «الشخصية المتوجهة نحو الآخر» (بالإنجليزية : أذر دايركتيد other directed) والإنسان الاجتماعي بالمعنى السلبي ، أو الإنسان المستوعَب تماماً في الأعراف الاجتماعية وآراء الآخرين (ولكن هايدجر يصر دائماً على تحاشي المصطلحات السوسيولوجية ويفضل المصطلحات الفلسفية الأنطولوجية التي ينحتها بسرعة وغزارة تسبب كثيراً من الصداع الذي لا مبرر له) .

هذا « الإنسان الهُم » هو إنسان ذو بُعد واحد يحكم على نفسه بمعايير الآخرين ويُستوعَب في الآخرين ويسقط في لغو الحديث الذي يقف على الطرف النقيض من الحوار، فالحوار هو أن ترى الآخرين باعتبارهم بشراً (دازاين) لهم وجودهم الخاص المتعين، لا باعتبارهم أشياء موضوعية (داس مان : الهُم) بحيث يمكن الدخول معهم في علاقة حميمة تكشف شخصيتهم الأصيلة والحقيقية . والإنسان الهُم هذا لا يشعر بالدهشة الحقيقية وإنما يتسم بحب الاستطلاع ، وحب الاستطلاع هو الرغبة في اقتناء الجديد والمختلف دون أي إحساس حقيقي بالدهشة .

وحتى لا يسقط الإنسان في حالة الهُم هذه فهو دائماً في حاجة إلى الإحساس بالرهبة (بالألمانية : أنجست Angst ، وبالإنجليزية : دريد dread) ويظهر هذا الإحساس عندما يدخل الإنسان في علاقة مع العدم من خلال إدراكه للموت (وهي لحظة لا يمكن للعلوم الطبيعية أن تدركها ولا يمكن للحياة اليومية أن تتعايش معها) . وعندما يمارس الإنسان الإحساس بالقلق وبتناهي الوجود الإنساني وبزمنيته ، تسقط التفاصيل اليومية ويتوارى العالم العادي ويتفتح الوجود ويكشف عن نفسه وتكتشف الذات أصالتها وإمكانياتها وضمنها إمكانية الحرية والاختيار ، حرية أن تختار الذات نفسها وأن تمسك بنفسها ، ومن ثم تكتشف الذات قدرتها على تجاوز العالم وعلى الخروج من حدودها الضيقة (الهُم) لا لتعرف العالم وحسب ولتكون فيه وإنما لتوجد فيه ، أي أن يتحقق وجودها الأصيل والحقيقي في العالم في الزمان . وتصل قمة الحرية إلى حرية الإنسان في أن يقابل الموت .

ورغم حديث هايدجر عن العلاقة الجدلية التفاعلية التبادلية بين الذات والموضوع ، ورغم محاولته المستميتة أن يحافظ على المسافة بين الذات والموضوع إلا أنهما يلتحمان (بسبب غياب المركز المفارق) بعد فترة من التأرجح (المأساوي أحياناً ، والملهاوي أحياناً أخرى) بين الذات المطلقة التي لا حدود لها ولا قيود عليها والتي تلتهم الموضوع ، والموضوع المطلق ، الذي يتجاوز كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان الفرد ، ويبتلع كل الذوات ، أي أن هايدجر يتأرجح فلسفياً بين العقل الإمبريالي النيتشوي الدارويني والعقل الأداتي البرجماتي . فلنأخذ على سبيل المثال مفهوم هايدجر للتاريخ الإنساني ، التاريخ بالنسبة له ليس تاريخاً متعيناً ، وإنما هو زمان وحسب ، تجربة ذاتية وجودية ، يصبح الوجود من خلالها حضوراً ، أي تجربة فريدة معاشة ، وهكذا يختفي أي مركز مفارق للإنسان ولا تبقى إلا الذات . (وسنرى كيف أن الذات الهتلرية تبتلع الموضوع الألماني بل وكل الوجود) .

ويحدث الشيء نفسه للذات ، إذ يذهب هايدجر إلى أن الذات لا يمكن أن تكون نفسها في أية لحظة ، فهي في حالة صيرورة مقلقة ، ولا يمكن للإنسان الفرد أن يمسك بوجوده تماماً ، فوجود الإنسان يسبقه دائماً كمشروع غير متحقق بعد ، وهو مشروع دائم لا ينتهي ، ومن ثم فالوجود الفرد إن هو إلا وهم .

وللخروج من هذه الحالة اقترح هايدجر ، كما أسلفنا ، تجربة الرهبة (أنجست) الناجمة عن مواجهة الموت والعدم والتأمل فيهما . ولكن هذا ليس هو الحل الوحيد ، فهناك الحل الألماني المثالي/ المادي المألوف ، أي افتراض أن الذات والوجود هما شيء واحد ، أو أن كليهما موضع الحلول . ولكن هذا الحل الألماني هو حل مؤقت إذ عادةً ما تنحل هذه الوحدة العضوية الكاملة إلى عنصر واحد يغلب الآخر ، وهو عادةً العنصر الموضوعي الذي يطوق الذات ويذيبها فيه ، أي أن الوحدة العضوية تتحول إلى واحدية مادية . وهذا أمر متوقع تماماً ، فالفرد القلق المنعزل المليء بالقلق والرهبة (أنجست) سيحاول بأقصى جهده أن يخرج من حالة العزلة هذه ، حالة الوهم ، وإحدى وسائل الخروج التوحد بالذات الجماعية ، بالوجود الجمعي بديل الإله (وهذا هو الحل الذي اقترحه هيجل ودوركهايم وغيرهما) .

والعنصر الموضوعي أو الكلي هنا هو الوجود . وقد لاحظ أحد مؤرخي الفلسفة أن مضمون كلمة «وجود» عند هايدجر لا يختلف كثيراً عن مضمون كلمة «إله» في الفكر البروتستانتي . ولذا فهو يتحدث عن أن « الوجود يدعونا » و «يخبئ نفسه » و « يكشف عن نفسه لنا » . ولكن هذا الإله إله مادي ، ولهذا يأخذ أشكالاً مادية مختلفة ، وهكذا نكتشف أن الوجود يصبح أحياناً الطبيعة ، ومن ثم يطرح هايدجر فكرة المجتمع العضوي الذي يلتحم فيه الإنسان بالطبيعة وبالآخرين (ومن هنا سُمِّي «فيلسوف الغابة السوداء») وتظهر عملية تطويق الموضوع للذات في أن كلمة «دازاين Dasien» لم تعد تعني «وجود الفرد بشكل متعيِّن في الواقع» بل تصبح «الوجود الفردي باعتباره شكلاً من أشكال الوجود الجماعي» . ويضيق نطاق الحلول ويتركز فبدلاً من الإنسانية ككل باعتبارها مركزاً الحلول (كما كانت تدَّعي الهيومانية الغربية) يصبح مركز الحلول هو « الوجود الألماني» . (« الألمان شعب مختار ، مفعم بقوى الأرض والدم ، وعلى الطلبة أن يعلنوا التزامهم بذلك » ـ « لقد أدَّت الثورة الاشتراكية الوطنية إلى انقلاب كامل في الوجود الألماني » ـ «الفرد في حد ذاته [أينما كان] لا قيمة له ، فأهم شيء هو مصير شعبنا » ـ « أيها الطالب الألماني ، خلال تجوالك ومسيراتك الطويلة ، تلمس بقدميك أراضي الجبال والغابات والأودية في «الغابات السوداء» فإنك تلمس الأرض التي أنجبت البطل . دونما سلاح ،

أطلق البطل نظراته متحدياً البنادق الموجهة إليه وعانق النهار وجبال موطنه حتى يموت وعيناه مثبتتان على الأرض الألمانية وعلى الشعب الألماني والرايخ ») . وتزداد درجات تركز الحلول ويضيق نطاقه وبدلاً من الشعب الألماني تصبح الدولة الألمانية هي موضع الحلول فيتحدث هايدجر عن « وجود الدولة » (بالألمانية : دازاين ديس شتاتيس -Dase in des Staates ") « أهم شيء هو مصير شعبنا في دولته » . « لقد أيقظ هتلر الإرادة لوجود الدولة في الفولك » . ونصح هايدجر الشباب بأن تنمو شجاعتهم دائماً « لينقذوا جوهر الشعب ولإعلاء القوى الداخلية للشعب في إطار الدولة » .

وهكذا يهيمن الموضوع أو الذات الجماعية تماماً ، ولكن التأرجح مع هذا لا يتوقف إذ تتزايد درجات الحلول تركزاً وضيقاً إلى أن نصل إلى الذروة وننتقل من الموضوع إلى الذات مرة أخرى حين يتم استيعاب الدولة نفسها في الإنسان الفرد الأسمى ، هتلر ، الذي « جمع إرادة الأمة في فرد واحد » . « إن الفوهرر نفسه ، هو وحده ، الحقيقة الألمانية في الحاضر والمستقبل ، وهو قانونها . . . هايل هتلر » ، أي أن المبدأ الواحد ، جوهر وحدة الوجود المادية ، يصبح أولاً الوجود الجمعي والوجود كطبيعة ، ثم يضيق نطاقه ويتركز فيصبح الشعب الألماني ، ثم الدولة الألمانية ، وأخيراً الفوهرر . وكما قال هايدجر ، إن قاعدة وجود الإنسان الألماني «يجب ألا تكون هي فرضيات أو نظريات [رفض الميتافيزيقا] ، فالفوهرر ، هو وحده ، حقيقة الحاضر والمستقبل وقانونهما ، فهو منقذ شعبنا . . . هو المعلم ورائد الروح الجديدة » (من رسالة هايدجر إلى الفوهرر) ، هو مركز الحلول ، هو الإله المادي والوثن الأعظم . لكل هذا ينحل الدازاين تماماً في الذات النيتشوية : « إن الفلسفة تقف وراء هتلر ، لأن هتلر يقف إلى جانب الوجود » .

وتظهر علمانية هايدجر الشاملة ، وماديته الراديكالية النيتشوية الجديدة ، في تحريضه الجامعة الألمانية على أن تخوض غمار حرب حاسمة بروح الاشتراكية الديموقراطية (النازية) التي يجب ألا تخنقها أية نزعات إنسانية (هيومانية) أو مفاهيم مسيحية . كما تظهر هذه العلمانية المادية الشاملة في تبنيه للحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، إذ كان يرى ضرورة توطين اليهود في فلسطين أو أي مكان آخر خارج ألمانيا وأوربا .

كان النازيون يعتبرون هايدجر فيلسوفهم ، ونحن نرى أنهم كانوا على حق في تصورهم هذا . فقد انضم هايدجر إلى الحزب النازي عام ١٩٣٣ وكان من أعز أصدقائه بيوجين فيشر ، وهو ممن دافعوا عن القتل الموضوعي أو الأداتي للمعوقين وعن إبادة اليهود. وانطلاقا من رؤيته النازية دافع هايدجر عن المشروع الصهيونى الذى يطالب بطرد

اليهود من أوطانهم (باعتبارهم شعبا عضويا) ليعاد توطينهم في فلسطين (باعتبارها وطنا قوميا لهم) . كما كانت زوجة هايدجر نفسها ترى أن الأمومة هي الحفاظ على الميراث العرقي . وقد تنكر هايدجر لأستاذه هوسرل عام ١٩٣٣ لأنه يهودي ، وكان يتجسس على زملائه لحساب السلطة النازية ، وهو ما أدَّى إلى طرد بعضُهم . (يُوثق كتاب فيكتور فـاريـاس Victor Farias [عام ١٩٨٧] هذا الجانب من حياة هايدجر الفلسفية) . ومن الجدير بالملاحظة أن أستاذاً ألمانياً اسمه جيدو شنيبرجر Guido Schneeberger نشر عام ١٩٦١ كتاباً يضم ٢١٧ نصًا نازيًا لهايدجر .

ويبدو أن هايدجر أدرك خطأه عام ١٩٣٤ ومن ثم استقال من رئاسة جامعة فرايبورج . ولكن من المعروف أنه استمر مع هذا في دفع اشتراكات العضوية في الحزب النازي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وقد كتب المفكر الألماني كارل أوديث في مذكراته أنه تحدث مع هايدجر عام ١٩٣٦ وأن هايدجر عبَّر عن إيمانه الكامل بهتلر ، وأخبره أن الطريقة النازية هي الطريقة الأمثل لألمانيا . وحتى بافتراض أن هايدجر ابتعد عن النازية السياسية ، فمما لا شك فيه أن نسقه الفلسفي ظل كما هو ، يُشكِّل تربة خصبة لظهور الأفكار النازية ، شأنه في هذا شأن كل « فلسفات الحياة » اللاعقلانية المادية .

كان هايدجر يتصور أن النازية هي روح العالم المتجسدة التي ستزاوج بين التكنولوجيا والثقافة (« رسالة الشعب الألماني ») . وهو لم يكن مخطئاً تماماً في تصوره ، فقد قام النازيون بالفعل بمزاوجة التكنولوجيا والثقافة الألمانية ، بل إنهم كانوا يرون أن التكنولوجيا هي التعبير البراني عن إرادة القوة الألمانية ، وكانوا يرون أن ألمانيا بوجودها بين روسيا والولايات المتحدة أصبح بوسعها أن تزاوج بين التكنولوجيا وروح الشعب ، فالتكنولوجيا الألمانية تنبع من أعماق الحضارة Kultur الألمانية . وهي روح مطلقة لا تتقيد بأية قيم بورجوازية ، روح لا متناهية لا تعرف سوى القيم الجمالية . وهكذا أمسك بروميثيوس الجديد بالنار ، مسلحاً بحس جمالي عميق وبشهية لا تعرف الحدود وبإدراك للذات كمطلق ، فأحرق الأخضر واليابس . وقد أدرك هايدجر تدريجيًا أن هذا الالتحام النازي بين الذات والموضوع وبين التكنولوجيا والثقافة ، خارج إطار المنظومات الأخلاقية ، هو في واقع الأمر مرض وليس حلاً . ولكن إدراكه هذا ظل مقصوراً على الحالة النازية وحسب ، ولهذا لم يراجع منظومته الفلسفية .

ولا تمثل رؤية هايدجر العلمانية الإمبريالية الشاملة انحرافاً عن مسار الحضارة الغربية الحديثة ، فهي جزء من نمط عام متكرر يتمثل في التأرجح بين الذات والموضوع ، وفي

حسم هذا الصراع لصالح الموضوع أو لصالح الموضوع متجسداً في الذات الإمبريالية ، كما يتمثل الانتقال التدريجي من العقلانية المادية إلى اللاعقلانية المادية التي تتضح في تقديس هيجل للدولة البروسية (إله يسير على الأرض !) وأفكار نيتشه الداروينية عن إرادة القوة وميول ياسبرز النازية والتوجهات النازية والصهيونية لبول دي مان تلميذ هايدجر النشيط المخلص .

والنازية ما هي إلا تجلٍ متبلور لهذا الاتجاه حين أصبح الدازاين الألماني الجمعي هو الفولك الذي تجسد في هتلر واحد وأصبح الآخرون مثل أيخمان ، منفذين عاديين تسير وراءهم الملايين .

ويمكن فهم نازية هايدجر ، شأنها شأن صهيونيته ، من خلال هذا السياق . فالنازي الإمبريالي الذي يُجسد إرادة القوة يُحوسل الآخرين ويُحركهم ليخدم مصالحه أو مصالح أمنية ، فهو ينقل اليهود إلى فلسطين (أو ينقل الفلسطينيين منها) أو إلى معسكرات الاعتقال واللاجئين ، حسبما تمليه عليه الظروف الطارئة والمصالح المادية الثابتة وموازين القوى ، دون التقيد بأية قيم أخلاقية ، إذ لا توجد إلا قيم جمالية . ومن المعروف أن النازيين تمسكوا بالقيم الجمالية أيما تمسك ، فكانت واجهات معسكرات الاعتقال من الطراز التيرولي ، كما كان الجنود الألمان يسمعون موسيقى موتسارت وفاجنر بينما كان يُساق الملايين إلى معسكرات الاعتقال التي تتسم بالانضباط الشديد .

ولعل إدراك العالم الغربي للنزعة الإمبريالية (الإبادية) الكامنة في مشروع هايدجر الحضاري الحديث هو ما يدفعه لإخفائها بشتى الوسائل والطرق ومن ذلك محاولة إخفاء الحقائق الصلبة . ولهذا تبذل جهود مضنية لإخفاء حقيقة أن دول الحلفاء (التي تتباكى الآن على ضحايا النازية) لم تفتح أبوابها للمهاجرين من المناطق التي وقعت تحت نفوذ النازي ، وأن قوات الحلفاء (بقيادة إيزنهاور) لم تكن متحمسة لضرب السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الاعتقال لتوفير الطاقة العسكرية . وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم ما حدث لجيدو شنيبرجر فقد وجد صعوبة بالغة في نشر كتابه عن نازية هايدجر ، وحينما نشره بطريقته الخاصة ، اختفى الكتاب من أرفف المكتبات ، ثم قوبل بالصمت من المؤسسات الأكاديمية (التي تلتزم الصمت أيضاً تجاه توجهات ياسبرز ودي مان النازية) ، فعدم التزام الصمت يعني فتح باب الاجتهاد فيما يتصل بالنازية ودلالتها المركزية بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة ، الأمر الذي لا يمكن لهذه الحضارة تحمله ، إذ قد تشكل ضربة في العمق .

بعض التغيرات التي طرأت على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية :

رغم كل الهستريا الإعلامية الصهيونية وغير الصهيونية ضد أية محاولة لتناول ظاهرة الإبادة بعقلانية واتزان ، يمكن أن نلاحظ تغيرات هامة بدأت تدخل على الخطاب الغربي بما يتصل بالإبادة النازية :

١ ـ بدأت محاولات إسرائيل في استخدام الإبادة لتبرير استمرارها في ارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين تصبح أمراً ممجوجاً ، وبدأ بعض المفكرين اليهود وغير اليهود يعبِّرون عن رفضهم لمثل هذا المنطق الابتزازي . كما بدأ كثير من يهود العالم يضيقون ذرعاً بجعل الإبادة هي النقطة المرجعية النهائية في رؤيتهم للكون والأغيار .

٢ ـ بدأ الخطاب السياسي في الغرب وفي إسرائيل يرفض التابو (التحريم) الذي يمنع تشبيه الإبادة النازية ليهود الغرب بأحداث مماثلة في التاريخ الماضي والوقت الحاضر . وقد تجرأ عدة متحدثين غربيين (من بينهم يهود) على تشبيه ما يحدث للفلسطينيين على يد الإسرائيليين بما حدث لليهود في أوربا على يد النازيين . فعلى سبيل المثال ، صرح الكاتب الإسرائيلي يهوشاوا بأنه يفهم الآن سبب جهل الألمان بما حدث لليهود بعد أن رأى الإسرائيليين يرفضون معرفة ما يحدث للفلسطينيين . ويشير اليهود السفارد والشرقيون إلى اليهود الغربيين بأنهم " أشكي نازي" وهو نوع من التلاعب بالألفاظ يشير إلى أن ما كان محرماً أصبح مباحاً . ووصف البروفسير لايبوفيتز سياسة إسرائيل في لبنان بأنها نازية يهودية (بالإنجليزية : جوديو/ نازي Judeo-Nazi) .

٣ ـ نعتقد أن الأمور بعد توحيد ألمانيا وتحوُّلها إلى قوة عظمى ستتغيَّر كثيراً ، وسيُنظَر إلى حادثة الإبادة النازية ليهود أوربا نظرة أكثر تفسيرية وتركيباً واتزاناً . كما أن كثيراً من الوثائق الألمانية والسوفيتية التي لم تُنشَر بعد ستجد طريقها إلى النشر . ولعل هذا يوفر جواً علميّاً أكثر استقراراً وطمأنينة ، بعيداً عن هستريا الأيقنة الكاملة للإبادة لصالح اليهود ، وعن هستريا الإنكار الكامل لها (بالمعنى العام ، أي الإبادة عن طريق التجويع والسخرة ؛ والمعنى الخاص ، أي التصفية الجسدية) .

العرب والمسلمون والإبادة النازية لليهود :

لعل من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود . أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين

فهو واضح تماماً لا لبس فيه . فالقيم الأخلاقية الدينية (الإسلامية والمسيحية واليهودية) لا تسمح بقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق . وقد جاء في الذكر الحكيم : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً » . (المائدة - ٣٢) .

ويحاول الغرب إقحام الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي ، تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوربا الجغرافية . وتحاول الدعاية الصهيونية ، بممالأة الغرب ، أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين :

١ ـ تحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصوِّر المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية ، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين . ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة . فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها ، تحت رعاية العالم الغربي ، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية (ومن النازيين أنفسهم ، كما سنبين طي هذه الدراسة) ، وفي الوقت الذي كانت الدول الغربية توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود . ومهما فعل الصهاينة (يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفُّظ) يظل حق المقاومة حقاً إنسانيًا مشروعاً بل وواجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته ، ويظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبله وعظمته ، بل وإنسانيته .

٢ ـ تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي . وهذه أكذوبة أخرى . فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فالعالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي) . كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود ، ولذا فأي تحالف مزعوم كان تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/ هتلر . وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً في اليهود أو حباً في النازيين ، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني . وهو ، على أية حال ، تعاطف يعبِّر عن سذاجة وعن عدم مقدرة على القراءة الجيدة للأحداث ، وعن عدم إلمام بطبيعة الغزوة النازية ومدى تَجذُّرها في المشروع الحضاري والإمبريالي الغربي ومدى رفضها العنصري للمسلمين والعرب . ولم يترجم هذا التعاطف العام نفسه إلى اشتراك فعلي في الجريمة النازية ، التي تحتفظ بخصوصيتها كظاهرة حضارية غربية .

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئاً من الحقائق ريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية ، الدينية والإنسانية . فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين ، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء حايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر . وهذه المحاولات تبيِّن في نهاية الأمر اتساق ب مع نفسه ، الذي يكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة وطننا العربي .

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة زية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية . فعلى سبيل ال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من بادة ، كما أن الملك الحسن الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى كومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي .

وقد لاحظت أثناء كتابة **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** تكرار كلمة «مسلم» في ال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس ، وقال مرجع آخر إن الضحايا الذين نوا يُقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم تسمية «غريبة». وقد تبيَّن بعد قراءة عدة مراجع موسوعات إلى أن الضحايا كانوا يسمون في واقع الأمر «ميزلمان Muselmann» أي سلم» بالألمانية ، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** Enyclopedia Judaic (جزء ١٢ ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨) عنوانه «مسلم» :

«ميزلمان» أي مسلم بالألمانية ، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) التي كانت تُستخدَم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت ، أي الذين بدأت ظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي . كان هذا المصطلح يُستخدَم أساساً في أوشفتس ولكنه كان يُستخدَم في المعسكرات لأخرى" .

هذه هي المعلومة ، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر ، والآخر منذ حروب الفرنجة (الصليبية) هو المسلم . ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود ، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول ﷺ وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط .

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي ، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية ، وهم مُمثِّلوا الحضارة الغربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات

الشرقية، أي الحضارة الإسلامية، وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا. كل ما في الأمر أن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم، سواء كان من الغجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «عربي» في الخطاب الصهيوني لتصبح «الأغيار»). وقد حاول كاتب مدخل «مسلم» في **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** أن يُفسِّر أصل استخدام الكلمة، فقال: إن الضحايا سُموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: «إنهم كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة «شرقية» وكان يرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة». والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» العامة محل كلمة «مسلمين» المحددة.

والإشارة لضحايا الإبادة بوصفهم «مسلمين» يثير قضيتين؛ واحدة عملية، والأخرى معرفية. فمن الناحية العملية لابد أن تتناقل وكالات الأنباء هذه المعلومة حتى يتضح الإدراك الغربي لنا، وحتى نوضح لمَ لَمْ يتوان الغرب عن حل جريمة أوشفتس عن طريق جريمة دير ياسين وكفر قاسم، فالمهم هو ضرب من سماهم «المسلمين»، أي «الآخرين». وتأكيد هذا المصطلح يقلل من احتكار اليهود لفكرة أنهم الضحية الوحيدة ويثير قضية أن ما يُنشر من معلومات هو الذي يخدم صالح فريق بعينه، وإلا فلماذا اختفى هذا المصطلح ولم يُشر إليه أحد؟

أما من الناحية المعرفية، فمن الواضح أننا تحت رحمة الغرب فنحن لا نقرأ تاريخه من منظورنا وإنما نقرأ تاريخه كما ورد لنا من منظوره، وليس هذا عيباً في الغرب وإنما فينا نحن، فكتُب التاريخ موجودة وكل من يود أن يحصل على المعلومات سيجدها هناك، وعليه أن يعيد تفسيرها وأن يستنطقها عن طريق اكتشاف تضميناتها الخفية، وعن طريق اكتشاف حقائق جديدة لم تظهر للوجود أو لم تُحرز المركزية التي تستحقها.

ملحــق
في المصطلحات والمفاهيـم

حاولت هذه الدراسة أن تُعرِّف مصطلح «الإبادة» وأن تضعه في سياقه الحضاري لتاريخي وأن تتناول بعض الإشكاليات التي ترتبط بظاهرة الإبادة. وقد استخدمنا إلى انب ذلك عدداً من المصطلحات والمفاهيم التي عرَّفناها بشكل موجز في طي الدراسة، مع هذا وجدنا أن من الضروري تعريفها بشكل أكثر تفصيلاً في هذا الفصل.

نموذج (اللحظة النماذجية والمتتالية النماذجية):

استخدمت هذه الدراسة ما يُسمَّى «النماذج التحليلية». والنموذج هو بنية تصورية جردها العقل البشري من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، بستبعد بعضها لعدم دلالتها (من وجهة نظر صاحب النموذج) ويستبقي البعض الآخر، م يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح (من وجهة نظره) مترابطة بشكل ماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع، أي أننا حينما نُجرِّد نموذجاً ما فإننا نصور أنه كامن في عناصر الواقع ينظمها ويعطيها شكلها وهويتها.

ونحن لا نزعم أن النموذج التفسيري هو ذاته الواقع، فالواقع الموضوعي، المادي الإنساني، دائماً أكثر تركيباً وتشابكاً وتَعيُّناً وتغيراً من النموذج الذي نجرِّده منه، النموذج بسيط ومجرَّد ومتبلور ومتحرر إلى حد ما من الزمان والمكان، ولذا فهو يتسم قدر أعلى من الثبات. ويزداد الأمر صعوبة حينما يكون الحديث عن «نموذج حضاري»، دراسة الأبعاد والاتجاهات الحضارية والتعميم بناءً عليها أمر محفوف بالمخاطر، فهي عناصر غير محسوسة أو ملموسة، توجد كامنة في الواقع داخل آلاف التفاصيل التي لا يكن فصلها الواحدة عن الأخرى، وهي ليست تفاصيل مادية بل ترتبط بمعنى رمزي يدركها الفاعل الإنساني من خلاله، ولذا فالتعميم بناءً على مثل هذه الأبعاد الاتجاهات أكثر خلافية وأقل يقينية من التعميم بناءً على العناصر الاقتصادية

والاجتماعية. ولذا فنحن نتحدث عن «النموذج الحضاري الغربي الحديث»، مثلاً، بكثير من الحذر والتحفظ، ولا نزعم بأية حال أن هذا النموذج المجرد هو ذاته الواقع الحضاري الغربي المتعين. فالواقع ـ والحمد لله ـ أكثر تركيباً وأكثر إنسانية من أية نماذج نجردها منه. فالحضارة الغربية ـ شأنها شأن الحضارات الإنسانية الأخرى ـ استفادت من منتجاتها وثمراتها شعوب الأرض كافة. كما أنها تضم إلى جانب النزعة الإبادية (التي سنركز على وصفها في هذه الدراسة) نزعات أخرى إنسانية.

ونحن علاوة على هذا، نميِّز دائماً بين النموذج الحضاري من جهة، والأفراد الذين يتحركون في إطاره. فالإنسان الفرد، مهما بلغ من بساطة وتَسطُّح يكون عادةً أكثر تركيباً وعمقاً من النماذج المعرفية التي يؤمن بها والنماذج الحضارية التي تدفعه وتحركه. ولذا فمن النادر أن يُردَّ إنسان في كليته إلى مثل هذه النماذج. فالإنسان يتحرك ولا شك داخل حدود مادية وإدراكية، ولكنه يظل ـ في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ـ عنصراً حراً مستقلاً مسئولاً أخلاقيًا عما يفعله. ونحن في رؤيتنا هذه نختلف عن الباحثين الذين يستخدمون النموذج في إطار الرؤية المادية الحتمية، فهم يردّون الفاعل الإنساني في كليته إلى النموذج المادي (السياسي والاقتصادي والاجتماعي) الذي يحركه. كما أننا نختلف عن الباحثين المثاليين الهيجليين الذين يردون الفاعل الإنساني في كليته إلى النموذج المثالي الذي يحركه. وكلا الفريقين ينكر على الإنسان حريته ومسئوليته الأخلاقية، ولا يرى سوى حتميات، مادية أو مثالية، اختزالية معادية للإنسان.

ولكن ذكر كل هذه التحفظات فيما يتصل النموذج لا يعني أن نلقي بهذه الأداة التحليلية الهامة من النافذة باعتبارها عديمة الفائدة. فرغم عدم تَطابُق النموذج مع الواقع إلا أن إدراك الواقع الخام مباشرةً أمر غير ممكن، إذ لابد أن نتعامل معه من خلال خريطة إدراكية تُبقي وتستبعد. ونحن نفعل ذلك في حياتنا اليومية وفي دراستنا. فإذا قلنا إن «فلان دمنهوري» أو «اسكندراني» (أي «سكندري» من أهل الإسكندرية) فنحن في واقع الأمر نستدعي صورة ذهنية تؤكد بعض الصفات وتستبعد صفات أخرى، وقل الشيء نفسه عن مفاهيم تحليلية مثل «الإنسان العادي» أو «الثورة الصناعية»، فهي مفاهيم تقوم بعملية إبقاء واستبعاد لمجموعة من السمات. ونحن في هذه الحالات كافة لا نتصور بأية حال أن «الدمنهوري» كائن موجود بالفعل في الواقع وإنما نذهب إلى أن فلان الدمنهوري هو تَحقُّق جزئي لنموذج الدمنهوري. كما لا نتصور مطلقاً أننا سنقابل «إنساناً عادياً» في الطريق، ونعرف تمام المعرفة أن «الثورة الصناعية» ليست ثورة وقعت في يوم من الأيام أو في مكان من الأماكن. إذ نعرف أننا حينما نستخدم النموذج فإننا

نستخدم بنية ذهنية تصورية لعزل بعض عناصر الواقع وتضخيمها بهدف إدراكها ودراستها بمعزل عن العناصر الأخرى (التي نراها أقل أهمية من تلك العناصر التي قمنا بتضخيمها). فاستخدام النماذج أمر حتمي للإدراك الإنساني ولإجراء أي بحث . وإذا كان الأمر كذلك فمن المستحسن أن ندرك ذلك وأن نُحسِّن من أدائنا ، شريطة أن ندرك دائماً أن ما نقوم به هو تاكتيك بحثي وحسب ، وأن النموذج إن هو إلا أداة تحليلية .

ورغم أن النموذج بنية تصورية إلا أنه ليس من تهويمات الخيال ولا هو ثمرة الرؤية الذاتية ، إذ يتم تجريده من الواقع . كما أن التحقق من مقدرته التفسيرية ممكن من خلال اختباره في تفسير الواقع ، فإذا تَمكَّن النموذج من تفسير عدد من جوانب الواقع يفوق عدد ما تفسره النماذج (والافتراضات) الأخرى فهو أكثر تفسيرية منها ، وهي بالتالي أقل تفسيرية منه .

ونحن نذهب إلى أن النموذج رغم انفصاله النسبي عن الزمان يأخذ عادةً شكل متتالية متعددة الحلقات ، تتحقق تدريجيًا عبر الزمان ، ومن المفروض أن يصل النموذج إلى تَحققُّه الكامل أو شبه الكامل في آخر السلسلة . ولكننا ـ كما أسلفنا ـ ندرك تماماً أن أي نموذج لا يمكن أن يتحقق بشكل كامل في الواقع . ومع هذا هناك لحظات نادرة يُفصح فيها النموذج عن هويته وعن مرجعيته النهائية إفصاحاً يكاد يكون كاملاً . هذه اللحظة النماذجية النادرة هي لحظة تعيُّن النموذج وتبلوره بحيث يكاد يتطابق مع الواقع . وهذه اللحظة ـ رغم ندرتها وتفرُّدها ـ قد تعبِّر عن جوهر النموذج أكثر من اللحظات أو الحلقات الأخرى العادية . ونحن نذهب إلى أن من المفيد للغاية ، من الناحية التحليلية ، دراسة اللحظات النماذجية رغم أنها لحظة نادرة ، بل قد يكون من المفيد افتراضها باعتبارها لحظة مثالية (لحظة ذهنية داخل نموذج ذهني) فافتراضها يساعدنا على رصد الواقع بطريقة ذكية تساعدنا على ترتيب تفاصيله في إطار ما هو مهم وما هو أقل أهمية ، وفي تَجاوُز الموضوعية المتلقية .

وعادةً ما يحاول حملة نموذج ما أن يُهِّمشوا اللحظة النماذجية الكاشفة الدالة باعتبارها مجرد انحراف عن الجوهر (كما تفعل الحضارة الغربية مع اللحظة النازية) . ويمكن للدارس من خلال عملية التفكيك وإعادة التركيب المتأنية أن يكشف طبيعة النموذج ، ومن ثم علاقته الوثيقة (بل العضوية) باللحظة النماذجية . ودراسة اللحظة النماذجية ـ من هذا المنظور ـ لا تختلف كثيراً عن دراسة الحالة ، ولكنها حالة نماذجية . وإذا كانت دراسة الحالة العادية ، هي دراسة لحالة ممثِّلة متكررة ، فإن دراسة الحالة أو اللحظة النماذجية هي

أيضاً دراسة لحالة ممثِّلة ، وإن كانت فريدة ، وهي ممثِّلة لا بالرغم من تفرُّدها ، وإنما بسببها. وهذا لا يختلف كثيراً عن دراستنا لشخصيات نماذجية، ترمز لعصر أو لفكرة . ففاوستوس هو رمز عصر النهضة والحلم الإنساني الهيوماني بابتلاع العالم وكل المعرفة (والخوف من هذا الطموح في ذات الوقت) ، وفرانكنشتاين هو رمز الخوف الإنساني من العقل المادي والتكنولوجيا . أما الكاوبوي فهو رمز الإنسان الذي يخرج إلى الواقع الإنساني فلا يُفرِّق بين الإنساني والطبيعي ويحسم كل مشاكله بفوهة البندقية، فيصيد البقر ويصرع الهنود بنفس البساطة والحس العملي الذي يتجاوز سائر المنظومات الأخلاقية! وهتلر نفسه أصبح رمزاً للعقل الإمبريالي المادي ، والسوبرمان (superman) النيتشوي الذي يتألَّه ويمنح الحياة ويقرر الموت ويقرر ما هو الخير وما هو الشر . أما أيخمان فقد أصبح رمزاً للجلاد البيروقراطي ، السبمان (subman) ما دون الإنسان ، الذي يُنفِّذ ما يصدر له من أوامر دون أي تساؤل .

الطبيعة/ المادة والمطلق العلماني الشامل :

كل نسق معرفي يدور حول مطلق بمعنى «ركيزة نهائية» أو «أساس نهائي». ويمكن تعريف المطلق بأنه المركز الذي يتجاوز الأجزاء جميعاً ولا يتجاوزه شيء، وبأنه ما يؤدي وجوده إلى تماسك أجزاء النسق ، فهو مصدر الوحدة والتناسق ، وهو الركيزة النهائية للنسق أو الصورة المجازية والمبدأ الواحد والمرجعية النهائية والميتافيزيقا المسبقة . والمطلق في المنظومات الكمونية هو مركز الكون الكامن فيه . وأي نسق فلسفي لابد أن يكون له مركز يشكل مطلقه ويقبله أتباع هذا النسق دون تساؤل بشأنه ودون نقاش .

والأنساق الفكرية العلمانية (وهي أنساق كمونية) قد تنكر أية نقطة مرجعية متجاوزة لهذه الدنيا ، إلا أنها تستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية كامنة في المادة (الطبيعة أو الإنسان أو التاريخ) ، ولذا فهي مرجعية نهائية مادية ، مركز مطلق أو مركز يشكل مصدر التماسك في الكون والمجتمع ويزوده بالهدف والغاية ويشكل أساس وحدته ويتجاوز كل الأجزاء (من الناحية التفسيرية) وإن كان لا يتجاوزها أنطولوجيًا بسبب كمونه فيها . هذا المطلق في أقصى درجات تعميمه هو المبدأ الواحد . وقد يأخذ أشكالاً كثيرة ، ولكنه في التحليل النهائي هو الطبيعة ، التي نشير إليها عادةً بـ «الطبيعة/ المادة» .

ومفهوم الطبيعة مفهوم أساسي في الفلسفات المادية التي تدور في إطار المرجعية الكامنة ، ولا سيّما في الغرب . وهو تعبير مهذب يحل محل كلمة «المادة» . فعبارة مثل

«القانون الطبيعي» ، على سبيل المثال ، تؤكد حتمية هذا القانون دون أن تبين صفاته الأساسية الأخرى . وعبارة مثل «الإنسان الطبيعي» عبارة مبهمة رومانسية تستدعي للأذهان طرزان والنبيل الوحش وأبطال الأدب الرومانسي وقصص الحب والغرام والهيام . ولعل كثيراً من اللغط الفلسفي ينكشف إذا استخدمنا كلمة «مادي» بدلاً من كلمة «طبيعي» ، فبدلاً من «المذهب الطبيعي» نقول «المذهب المادي» ، وبدلاً من «القانون الطبيعي» نقول «القانون المادي» ، وبدلاً من «الإنسان الطبيعي» يمكننا أن نقول «الإنسان المادي» . وحينئذ ، فإننا نؤكد أن الإنسان الطبيعي ، في واقع الأمر ، شخص يُعرَّف في إطار وظائفه الطبيعية البيولوجية ويعيش حسب قوانين الحركة المادية ويُردّ إليها ، ولذا فهو في براءة الذئاب وفي تلقائية الأفعى وفي حياد العاصفة وفي تَسطُّح الأشياء وبساطتها . وحينما نقول «العودة للطبيعة» ، فنحن نقصد أن العودة ستكون لقوانين الطبيعة ، أي قوانين المادة . ويمكن القول بأن كلمة «طبيعة» داخل السياق الفلسفي لا تشير إلى الأحجار والأشجار والسحب والقمر والتلقائية والحرية ، وإنما هي كيان يتسم ببعض الصفات الأساسية التي تشكل في مجموعها أساس الفلسفة المادية ، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

أ) الإيمان بوحدة الطبيعة ، فالطبيعة شاملة لا انقطاع فيها ولا فراغات ، فهي الكل المتصل وما عداها مجرد جزء ناقص منها ، فهي لا تتحمل وجود أية مسافات أو ثغرات أو ثنائيات .

ب) الإيمان بقانونية الطبيعة (لكل ظاهرة سبب وكل سبب يؤدي إلى نفس النتيجة في كل زمان ومكان) ، أي أن الطبيعة بأسرها متسقة مع نفسها ، خاضعة لقوانين واحدة ثابتة منتظمة صارمة مطردة حتمية وآلية ، قوانين رياضية عامة واضحة .

جـ) الطبيعة لا تكترث بالخصوصية ولا بالتفرد أو الظاهرة الإنسانية ولا بالإنسان الفرد أو اتجاهاته أو رغباته . ذلك لأن الإنسان ليست له مكانة خاصة في الكون ، فهو لا يختلف في تركيبه عن بقية الكائنات . والإنسان الفرد (أو الجزء) يذوب في الكل (الطبيعي / المادي) ذوبان الذرات فيها .

د) الإيمان بأن الطبيعة تتحرك تلقائيًا بقوة دفع كامنة فيها ، وبأن الحركة أمر مادي . ومن ثم ، لا توجد غائية في العالم المادي (حتى ولو كانت غائية إنسانية تسحب خصوصيات النشاط البشري على الطبيعة المادية) .

هـ) الإيمان بأنه لا توجد غيبيات ولا يوجد تَجاوُز للنظام الطبيعي من أي نوع ، فالطبيعة تحوي داخلها كل القوانين التي تتحكم فيها وكل ما نحتاج إليه لتفسيرها ؛ فهي علة ذاتها ، تُوجَد في ذاتها ، مكتفية بذاتها وتُدرك بذاتها ، وهي واجبة الوجود .

يُلاحَظ أن الطبيعة ، حسب هذا التعريف الفلسفي ، هي نظام مادي واحدي ، مغلق، مكتف بذاته ، توجد مقومات حركته داخله ، لا يشير إلى أي هدف أو غرض خارجه ، يحوي داخله كل ما يلزم لفهمه . وهو نظام ضروري كلي شامل تنضوي تحته كل الأشياء، وضمنها الإنسان الذي يُستوعَب في عالم الطبيعة ويُختزَل إلى قوانينها بحيث يصبح جزءاً لا يتجزأ منها ويختفي ككيان مركب منفصل نسبيًا عما حوله وله قوانينه الإنسانية الخاصة. وهذه هي الصفات الأساسية للمذهب المادي . ولذا ، فنحن نرى أن كلمة «المادة» يجب أن تحل محل كلمة «الطبيعة» أو أن تُضاف الواحدة للأخرى، وذلك لفك شفرة الخطاب الفلسفي الذي يستند إلى فكرة الطبيعة ، ولكي نفهمه حق الفهم وندرك أبعاده المعرفية المادية .

والطبيعة/ المادة ، هذا المطلق العلماني الأساسي الكامن ، هو وحده المطلق النهائي والثابت ، وما عداه متغيِّر ، مجرد تنويعات عليه . فيقول المرء : "قانون الطبيعة أو قانون الحركة هو كذا " أو يقول : " إننا توصلنا إلى كذا وهو ما يتفق مع القوانين الطبيعية/ المادية " ـ ومن هنا الحديث عن «الإنسان الطبيعي» ، أي «الإنسان الطبيعي المادي» الذي يعيش حسب قوانين الطبيعة/ المادة ويستمد منها وحدها المعرفة والقيم الأخلاقية والجمالية . وقد عبَّر هذا المطلق النهائي (هذه المرجعية النهائية المادية الكامنة) عن نفسه في بداية الأمر بشكل واضح مباشر ، فكان هوبز يشير إلى الدولة/ التنين ، وإلى الأخلاقيات الذئبية للإنسان باعتبارها تعبيراً عن الطبيعة/ المادة ، كما تحدث لوك عن عقل الإنسان والصفحة البيضاء التي لا تختلف عن الطبيعة/ المادة في أي شيء ، وقام كثير من فلاسفة الاستنارة بمحاولة رؤية الإنسان باعتباره آلة وحسب ، وبسّط بنتام المنظومة الأخلاقية وجعلها تدور حول المنفعة واللذة بشكل آلي . ويمكن أن نضم إلى هؤلاء دعاة النظرية العرْقية الغربية التي زودت الإمبريالية الغربية بإطار نظري لإبادة الملايين ، إذ ترى هذه النظرية أن ما يميِّز البشر ومرجعيتهم النهائية (المادية الكامنة) هو انتماؤهم العرقي (الطبيعي/ المادي) ومن ثم يمكن تفسير تفاوتهم بالعودة إلى القوانين البيولوجية (الطبيعية/ المادية) .

ويُسمِّي الماركسيون هؤلاء الفلاسفة بالماديين الآليين أو الماديين السُذج أو السوقيين ، وهم بالفعل أصحاب رؤية مادية واحدية للإنسان ، يتحدثون عن الدوافع الإنسانية وعن الطبيعة البشرية بشكل تافه ساذج أحادي البُعد . وقد أدَّى ذلك إلى ردة فعل في الفكر الغربي وظهرت محاولة لاستعادة مفهوم أكثر تركيبية للإنسان ولعقله ولعلاقته بالطبيعة

والمجتمع ، فظهرت مطلقات ومرجعيات نهائية مادية كامنة أكثر تركيبية وإن لم تكن أقل كمونية مثل : اليد الخفية عند آدم سميث ـ المنفعة عند بنتام ـ وسائل الإنتاج عند ماركس ـ الجنس عند فرويد ـ إرادة القوة عند نيتشه ـ قانون البقاء عند داروين ـ الطفرة الحيوية عند برجسون ـ الروح المطلقة عند هيجل والتي تتوحد بالطبيعة في نهاية التاريخ ـ روح التاريخ ـ روح الحضارة ـ روح العصر ـ عبقرية المكان ـ التقدم اللانهائي ـ عبء الرجل الأبيض باعتباره عبئاً حضارياً . . . إلخ . ولكن ، رغم التركيبية الظاهرة لهذه المفاهيم ، إلا أنها مجرد تنويع مركب على نفس مفهوم الطبيعة / المادة ، فالمنفعة والجنس والطبقة لابد أن تُفسَّر تفسيراً ماديًا في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير .

والمطلق العلماني النهائي والمرجعية النهائية المادية ، كما أسلفنا ، هو الطبيعة/ المادة ، ولكن ثمة تطابقاً شبه كامل بين الصورة الكامنة وراء الطبيعة/ المادة باعتبارها مفهوماً فلسفيًا وصورة السوق/ المصنع :

أ) السوق/ المصنع شامل لا انقطاع فيه ولا فراغات ، فهو يمتد ليشمل الوطن بأسره وها هو قد امتد ليشمل العالم .

ب) السوق/ المصنع شيء منتظم متسق مع نفسه ، خاضع لقوانين ثابتة منتظمة مطردة واضحة بسيطة رياضية حتمية وآلية .

جـ) السوق/ المصنع لا يكترث بالفرد ولا بالإنسان ، ولا بالخصوصيات ولا بالغائيات أو القيم الإنسانية ، فهو يتجاوز الإنسان ولا يتجاوزه الإنسان .

د) السوق/ المصنع يتحرك بشكل تلقائي آلي حسب قوانين العرض والطلب الآلية الرياضية الصارمة الكامنة في السوق ذاته .

هـ) السوق/ المصنع يحوي داخله قوانينه وكل ما نحتاجه لفهمه ، وهو واجب الوجود في النظم الرأسمالية والنظم الاشتراكية على حدٍ سواء .

ولا ندري هل تبنَّى المفكرون العلمانيون الشاملون آليات السوق/ المصنع كمقولات لإدراك الطبيعة كنظام واحدي آلي شامل وكمرجعية نهائية مادية ، أم تمت دراسة الطبيعة/ المادة واستُخدمت مقولاتها لتأسيس السوق/ المصنع وتنظيمه على هديها . وعلى كلٍّ ، فهذا أمر ثانوي إذ يظل هناك هذا التطابق المدهش بين الطبيعة/ المادة والسوق/ المصنع ، والإنسان الاقتصادي هو الإنسان الطبيعي حينما يذهب إلى السوق والمصنع فيذعن لقوانينه التي لا تختلف عن قوانين الطبيعة/ المادة .

ولا يختلف وصف دعاة الداروينية الاجتماعية للسوق عن وصفهم للطبيعة/ المادة ، فالواحد يكاد يكون هو الآخر ، والصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح هي قيم نهائية مادية تهيمن على السوق هيمنتها على الطبيعة/ المادة . وعملية التطور هي عملية مندفعة من داخل المادة تماماً مثل آليات السوق . وحينما تتم عملية الترشيد والحوسلة (التي تفرض الواحدية على المجتمع) ، فهي تتم في إطار مفهوم الطبيعة/ المادة والسوق/ المصنع . وقد فك هتلر شفرة الخطاب الفلسفي الغربي بكفاءة غير عادية حينما قال يجب أن نكون مثل الطبيعة ، والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة .

والسلعة من المطلقات العلمانية والمرجعيات النهائية المادية الأخرى ، وكذلك رأس المال (مراكمة المال باعتبارها المعيار المادي النهائي الذي لا يمكن تجاوزه) . وفي المنظومة القومية العضوية ، يصبح الشعب العضوي هو هذا المطلق . أما في المنظومة الإمبريالية فالمطلق هو الحضارة الغربية وعبء الرجل الأبيض (أو شيء من هذا القبيل) . والمطلق العلماني كامن ولكنه ليس ساكناً، ولذا فهو يتغيَّر ويتلون حسب المرحلة التاريخية .

ومنذ منتصف الستينيات أُضيف عنصر ثالث وهو مؤسسات اللذة بحيث أصبحت دورة الإنسان ثلاثية : الإنتاج في المصنع ، الاستهلاك في السوق ، اللذة في الملهى الليلي (أو أي معادل موضوعي) ولكن هذه الإضافة لم تغيِّر من البنية الأساسية الواحدية الشاملة .

وتبدَّى المطلق العلماني على المستويين التاريخي والسياسي في شكل مؤسسة الدولة المطلقة التي أصبحت أهم آلية من آليات العلمنة داخل أوربا في المراحل الأولى ، ثم قامت جيوشها الإمبريالية بإشاعة النموذج العلماني في بقية العالم منذ نهاية القرن التاسع عشر . ويرى بشير نافع أن الدولة هي أكثر المؤسسات التي صنعتها يد الإنسان قرباً من حالة الطبيعة (من الناحية البنيوية الفلسفية بطبيعة الحال) ، فالدولة تتبع قانوناً شاملاً ومستمراً يشمل الوطن بأسره . وهو قانون ثابت مطرد حتمي وآلي ، كامن في الدولة . وهي لا تكترث بالفرد أو بالإنسان ، فهو مجرد وسيلة لتحقيق غاياتها ومصلحتها . والدولة «واجبة الوجود» في النظم الحديثة ، وبهذا المعنى تُعدُّ الدولة هي التحقق الكامل والأمثل للمطلق العلماني (ومع هذا نلاحظ أن السوق والمصنع واللذة تنازعها المطلقية والمرجعية النهائية) .

ونحن نذهب إلى أن الإنسان الحديث تم تدجينه وتحويله إلى سبمان متكيف مع المجردات المطلقة اللاإنسانية (مصلحة الدولة - قانون الحركة . . . إلخ) من خلال

شعارات مثل « العودة للطبيعة » . فمثل هذا الشعار هو في واقع الأمر دعوة للإنسان لأن يعود لحركة المادة ويقبلها ويذعن لها ، متجاوزاً بذلك وجوده المتعيِّن وحسه الخُلقي وخصوصيته وفرديته وفطرته الإنسانية ، أي أن عملية تنميط الإنسان وبرمجته وتَشيُّئه تتم من خلال تدريب وجدانه على قبول الطبيعة/ المادة ، هذا الكيان غير الإنساني المتجاوز للإنسان ، باعتبارها المرجعية النهائية .

وقد بدأت المتتالية العلمانية بأن جعلت الإنسان هو المطلق العلماني ومركز الكون والمرجعية النهائية المادية ، فهو العنصر الذي يتجسد من خلاله المركز الكامن في النموذج ، ولذا أصبح الإنسان مطلقاً لا يمكن محاكمته ، فهو تجسيد للمبدأ الواحد (التمركز حول الذات) . ومع تَصاعُد معدلات الترشيد والحوسلة ، بدأ الإنسان يتراجع كنقطة مرجعية ، وظهرت مطلقات مادية علمانية غير إنسانية ، مثل الدولة المطلقة (التمركز حول الموضوع)، تشكل هي نفسها المرجعية النهائية المادية . وكان كل هذا يعني أن يظل الكون في حالة تماسك وذا بنية واضحة يمكن للعقل تفسيرها ، ولذا تظل هناك ميتافيزيقا ومرجعية نهائية . ولكن هذا يتنافى مع طبيعة النسق المادي ، وكان لابد من تَجاوُز هذه المطلقات لتسود الواحدية المادية تماماً . وتتصاعد معدلات العلمنة، وينتشر المركز في كل عناصر النموذج ويتجسد من خلالها جميعاً بلا تمييز ولا تفرقة ، فتتساوى فيما بينها وتتم تسويتها . وفي هذه الحالة ، يختفي المركز ويتلاشى وتختفي المرجعيات النهائية المادية إلى أن يصبح المطلق هو الإجراءات . فيظهر ما يُسمَّى «أخلاقيات الإجراءات أو الصيرورة» (بالإنجليزية : إثيكس أوف بروسيس ethics of process) ، أي أن يتم الاتفاق بين الجميع على أن المركز والمرجعية النهائية وما لا يقبل النقاش هو الإجراءات وحسب ، قوانين اللعبة ، أما محتوى اللعبة والهدف منها فهي أمور يمكن مناقشتها والتفاوض بشأنها .

والحضارة العلمانية الغربية ، بهذا المعنى ، حضارة فريدة تماماً . فلأول مرة في تاريخ الإنسان يُلغَى الهدف والغاية ويتحرر المطلق منهما (فيصبح لوجوس بلا تيلوس وميتافيزيقا بدون أخلاقيات) . وهذا هو الإدراك الأساسي الكامن وراء عالم ما بعد الحداثة ، فهو عالم صُفِّي وطُهِّر تماماً من المطلقات والمرجعية النهائية ، فلا مركز ولا هامش ، وإنما عالم أفقي متساو مسطح لا يوجد فيه وضع خاص أو متميِّز لأي شيء ، ويشمل ذلك الإنسان ، ولذا فهو عالم خال من المعنى ، لا يمكن أن يرتبط الدال فيه بالمدلول لأنه عالم لا يحتوي على أي مطلق يربط بين التفاصيل كلها ؛ عالم نسبي تماماً ولكنه مع هذا يخلع المطلقية على النسبية . فالمرجعية النهائية هي إنكار المرجعية ، والمطلق الثابت الوحيد هو النسبي المتغيِّر ، وهذا ما يعبِّر عنه الفكر المادي بالقول « لا ثبات إلا لقوانين التغير » .

العقلانية المادية واللاعقلانية المادية :

«العقلانية» هي الإيمان بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة من خلال قنوات إدراكية مختلفة من بينها الحسابات المادية الصارمة دون استبعاد العاطفة والإلهام والحدس والوحي. والحقيقة حسب هذه الرؤية يمكن أن تكون حقيقة مادية بسيطة، أو حقيقة إنسانية مركبة، أو حقائق تشكل انقطاعاً في النظام الطبيعي. ومن ثم يمكن لهذا العقل أن يدرك المعلوم وألا يرفض وجود المجهول. وهذا العقل يدرك تماماً أنه لا « يؤسس» نظماً أخلاقية أو معرفية، فهو يتلقى بعض الأفكار الأولية ويصوغها استناداً إلى منظومة أخلاقية ومعرفية مسبقة.

ولكن هناك من يذهب إلى أن العقلانية هي الإيمان بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة بمفرده دون مساعدة من عاطفة أو إلهام أو وحي، وبأن الحقيقة هي الحقيقة المادية المحضة التي يتلقاها العقل من خلال الحواس وحدها، وبأن العقل إن هو إلا جزء من هذه الحقيقة المادية فهو يُوجَد داخل حيز التجربة المادية محدوداً بحدودها (لا يمكنه تجاوزها)، وأنه بسبب ماديته هذه قادر على التفاعل مع الطبيعة/ المادة، ويمكنه انطلاقاً منها (ومنها وحدها) أن " يؤسس " منظومات معرفية وأخلاقية ودلالية وجمالية تهديه في حياته ويمكنه على أساسها أن يفهم الماضي والحاضر ويفسرهما ويُرشِّد حاضره وواقعه ويخطط لمستقبله.

والعقل، بهذا المعنى، عقل مادي يقوم بإعادة إنتاج العالم المادي من خلال مقولات الطبيعة/ المادة وحسب (لا من خلال أية مقولات إنسانية). فيرصد الواقع باعتباره كمّاً وأرقاماً وسطحاً بسيطاً خالياً من الأسرار والتفاصيل المتناثرة. وهو عقل قادر على وصف ما هو عام ولكنه لا يستطيع أن يرصد ما هو خاص وفريد، وهو قادر على رصد ما هو كائن ولكنه غير قادر على إدراك ما ينبغي أن يكون، فـ «ما ينبغي» مقولة أخلاقية مثالية متجاوزة لعالم الطبيعة/ المادة. ولذا، فإن العقل المادي يتعرف على الحقائق المادية فقط (يعرف ثمنها أو حجمها أو كثافتها، أي صفاتها المادية وحسب) ولكنه لا يعرف قيمتها، فالقيمة شيء متجاوز لعالم المادة. ومن ثم، لا يُوجَد بالنسبة للعقل المادي التفكيكي خير وشر أو عدل وظلم. وحتى إن أدرك العقل المادي قيمة شيء، فإنه سرعان ما يرده إلى عالم المادة، فهو عقل تفكيكي عدمي قادر على تفكيك الأشياء ونزع القداسة عنها ولكنه غير قادر على تركيبها. وهو، لكل هذا، عقل لا يملك إلا أن يساوي بين الطبيعة/ المادة والإنسان وأن يسوّي بينهما، فيمحو ثنائية الإنسان والطبيعة لتسود الواحدية المادية، أي

أن العقل المادي يصبح أداة الطبيعة/ المادة في الهجوم على الإنسان بدلاً من أن يكون رمزاً لانفصاله عنها .

وقد يبدو هذا الحديث الفلسفي وكأنه غير ذي صلة بالتاريخ المتعيِّن . ولكن الأمر ليس كذلك ، فهناك من يرى أن الإبادة النازية للملايين (من الغجر والسلاف واليهود والأطفال المعوقين ومن المسنين) ممن صُنِّفوا باعتبارهم «أفواهاً غير منتجة useless eaters » إنما هو أحد إنجازات العقلانية المادية التي « حرَّرت » النازية من أية أعباء أخلاقية مثالية (غير مادية) وتعاملت مع البشر بكفاءة بالغة ومادية صارمة كما لو كانوا مادة استعمالية نسبية تخضع لقوانين الطبيعة/ المادة ، فمن يحيد عنها (مثل الأطفال المعوقين والرجال المسنين) لابد من التخلص منه في أسرع وقت وبأكثر الطرق كفاءة . أي أن العقل المادي هنا قام بتفكيك البشر بصرامة بالغة وكفاءة مدهشة ، ونظر للجميع بعيون زجاجية وكأنه كمبيوتر متألِّه ، في غاية الذكاء ، لا قلب له ولا روح ، يُحيي ويُميت .

ويمكننا القول بأن هناك نمطاً من الحكام الإرهابيين الثوريين لا يختلفون كثيراً عن هتلر ويدورون في إطار العقلانية المادية ؛ مثل روبسبيير الذي قام بتفكيك البشر في إطار «مصلحة الشعب» التي يقررها هو ، فأباد الملايين من غير النافعين ، ومثل ستالين الذي قام بتفكيكهم في إطار علاقات الإنتاج ومعدلات النمو فأباد ملايين الفلاحين (الكولاك) الذين كانوا يعوقون عملية الإنتاج المادية الحتمية . ويرى بعض مؤرخي الثورات التي تدور في إطار النماذج العقلانية المادية أن ظهور مثل هذا الكمبيوتر المتأله هو مسألة حتمية ، وأنه قد يأخذ (بعد استقرار الثورة وتحوُّلها إلى مؤسسات) شكل لجان خبراء ومستشارين . بل ويرون أن هذه ظاهرة حتمية لصيقة بالمجتمعات الحديثة التي تُعرِّف النمو والتقدم والإنسان من منظور عقلاني مادي ، وأن التكنوقراطية ونظريات التلاقي ووحدة العلوم والاتجاه نحو التنميط والكوكلة والعولمة إنما هي تعبير عن هذا الاتجاه .

ويمكننا الآن أن نتعرض لنقطتين أساسيتين تتصلان بالعقلانية المادية :

١ ـ نحن نذهب إلى أنه لا توجد علاقة ضرورة بين العقلانية والمادية ، فهناك نظم سياسية مادية عقلانية وأخرى مادية لاعقلانية . فالنظام السياسي الأمريكي مبني على الفصل بين الدين والدولة ، وقد نجح الأمريكيون ، في بعض مراحل تاريخهم على الأقل ، في تطوير نظام عقلاني يُعبِّر عن مطامح الشعب الأمريكي بشكل معقول . والنظام النازي ، هو الآخر ، كان نظاماً ماديًا شرساً في ماديته ، ولكنه كان لاعقلانيًا بصورة تامة ، وكان يتحرك في إطار نظريته العرْقية الشمولية التي شكلت مرجعيته المادية الكامنة .

والنظام الستاليني ، كان هو الآخر نظاماً ماديًا نماذجياً ، ولكن لا يمكن لأحد أن يزعم أنه كان نظاماً عقلانيًا . وهناك نظم عقلانية تستند إلى عقائد دينية يذخر بها تاريخ الإنسان .

٢ ـ بل إننا نذهب إلى أن العقلانية المادية تؤدي في مراحلها المتقدمة إلى اللاعقلانية المادية ، وهذا ما سنتناوله في بقية هذا الجزء .

أشرنا إلى أن العقل المادي عقل تفكيكي عدمي غير قادر على التركيب أو التجاوز . ويتضح هذا من أنه عقل قادر على إفراز قصص (نظريات) صغرى مرتبطة بفضائها الزماني والمكاني المباشر على أحسن تقدير (كما يقول دعاة ما بعد الحداثة) ، أي أنه قادر على إفراز مجموعة من الأقوال التي ليست لها أية شرعية خارج نطاقها المادي المباشر والضيق والمحسوس (فالعقل المادي يُدرك الواقع بطريقة حسية مباشرة) . ومن ثم فهو عقل عاجز عن إنتاج القصص الكبرى أو النظريات الشاملة وعاجز عن التوصل للحقيقة الكلية والمجردة التي تقع خارج نطاق التجريب . ولذا فالعقل المادي لا يُنكر الميتافيزيقا وحسب وإنما يُنكر الكليات تماماً وينتهي به الأمر بالهجوم على العقل الإنساني والعقل النقدي لأنهما يتوهمان أنهما يتمتعان بقدر من الاستقلال عن حركة الطبيعة/ المادة . وبذلك يختفي الإنسان كمرجعية نهائية ثم تختفي سائر المرجعيات وتصبح الإجراءات هي الشيء الوحيد المتفق عليه . وهكذا لا يتحرر العقل المادي من الأخلاق وحسب وإنما يتحرر من الكليات والهدف والغاية والعقل ، ومن ثم تتحوَّل العقلانية المادية إلى لاعقلانية مادية .

وإذا كانت العقلانية المادية قد أفرزت فكر حركة الاستنارة والوضعية المنطقية والكل المادي المتجاوز للإنسان ، فقد أفرزت اللاعقلانية المادية النيتشوية والوجودية والفينومونولوجية وهايدجر وما بعد الحداثة . والانتقال من التحديث إلى الحداثة وإلى ما بعد الحداثة هو الانتقال من العقلانية المادية التي تربط بين التجريب والعقلانية (في مرحلة المادية القديمة ومرحلة الثنائية الصلبة) إلى اللاعقلانية المادية التي تفصل بينهما ، فيتم التجريب دون ضابط ودون إطار (في مرحلة المادية الجديدة والسيولة الشاملة) . وتسود الآن في مجال العلوم نزعة تجريبية محضة ترفض الكليات العقلية (إنسانية كانت أم مادية) وتلتصق تماماً بالمادة وحركتها وعالم الحواس .

ومع هذا يمكن القول بأن العقلانية المادية كثيراً ما تتعايش مع اللاعقلانية المادية وترتبط بها . فالوضعية العلمية المنطقية هي تعبير عن العقلانية المادية حيث لا يؤمن الإنسان إلا بالتجريب والأرقام ، ولكنها في الوقت ذاته تعبير عن اللاعقلانية المادية ، فهي لا تشغل

بالها بالكليات والمنطلقات الفلسفية . وقد أشرنا إلى أن النازية ، كما يراها بعض المؤرخين ، هي قمة العقلانية المادية ، ونحن نتفق معهم في هذا ، ونضيف أن هذا لا يمنع من أن تكون قمة اللاعقلانية المادية أيضاً ، فهي تعبير عن تَبلوُر نزعة تجريبية محضة ترفض الكليات الإنسانية والعقلية وأي شكل من أشكال الميتافيزيقا وتلتصق تماماً بحركة المادة وعالم الحواس ، وتُمجِّد الإرادة الفردية على حساب أية مفاهيم إنسانية كلية . ولعل الفلسفة العلمانية الشاملة الأساسية ، أي الداروينية الاجتماعية ، هي تعبير عن هذا التعايش والترابط بين العقلانية واللاعقلانية المادية .

الحلولية الكمونية الواحدية والرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة :

يمكن القول بأن معظم الرؤى الإنسانية (إن لم تكن جميعاً) تحدد مبدأ واحداً (مطلقاً) يُشكِّل مركز الكون ومصدر وحدته وتماسكه وحركته . هذا المبدأ الواحد في العقائد التوحيدية هو الإله ، وهو متجاوز للإنسان والطبيعة والتاريخ ، منزه عنها ، مفارق لها ، ولكنه لم يهجرها ، فهو خالقها ومحركها وهو الذي يزودها بالغرض والغاية .

أما في الرؤى الحلولية الكمونية الواحدية فالمبدأ الواحد ليس مفارقاً للمادة أو العالم (أي للطبيعة أو الإنسان) ، وإنما كامن وحال فيها ، فهو جزء عضوي لا يتجزأ منها ولا وجود له خارجها ، أي أنه مطلق لا يتجاوز الإنسان أو الطبيعة أو التاريخ ، ومع هذا لا يمكن تفسيرهم إلا من خلاله .

ويُسمَّى المبدأ الواحد في الرؤى الحلولية بأسماء مختلفة :

١ ـ ففي المنظومات الحلولية الكمونية المثالية (وحدة الوجود الروحية) يُسمَّى «الإله» أو «نفس العالم» . أما في المنظومات شبه المثالية (شبه المادية) فيُسمَّى «روح التاريخ» أو «القوة الدافعة» أو «الوثبة الحيوية» أو «العقل المطلق» أو «إرادة القوة» . . . إلخ . وقد تفنن هيجل وأتباعه في تطوير هذه المصطلحات المثالية (الروحية اسماً ، المادية فعلاً) .

٢ ـ في المنظومات الحلولية الكمونية المادية (وحدة الوجود المادية) يُسمَّى المبدأ الواحد «قانون الحركة» أو «قوانين الطبيعة» أو «القوانين العلمية» أو «القوانين المادية» أو «قوانين الضرورة» .

والرؤى الحلولية الكمونية ، المثالية أو المادية ، تنظر للكون باعتباره مُكوَّناً من جوهر واحد ، مكتفياً بذاته ، يحتوي على مركزه وركيزته الأساسية (مطلقة) داخله ، لا

يحتاج إلى أي شيء خارجه لفهمه أو تفسيره . ويمكن رد جميع الظواهر الموجودة فيه ، مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها ، إلى هذا المبدأ الواحد المطلق الكامن/ الحال في العالم . وهو عالم متماسك بشكل عضوي ، لا تتخلله أية ثغرات ، ولا يعرف الانقطاع أو الثنائيات ، فهو عالم يتسم بالواحدية الصارمة ، وهي واحدية مثالية (في حالة وحدة الوجود الروحية) أو واحدية مادية (في حالة وحدة الوجود المادية) .

ولنركز هنا على الواحدية المادية (أو وحدة الوجود المادية) باعتبار أنها الرؤية المهيمنة على الحضارة الحديثة ، ولا سيما في الغرب . يستبعد عالم الواحدية المادية من منظوماته المعرفية والأخلاقية أي عنصر من عناصر التجاوز (الإله ـ القيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة ـ الغائيات المتجاوزة لحركة المادة) وينظر للعالم من خلال قانون طبيعي مادي واحد، لا يسري على الطبيعة/ المادة وحسب وإنما يختزل الواقع بأسره إلى مستوى مادي واحد ، يسري على الإنسان سريانه على الطبيعة/ المادة ، ومن ثم فالرؤية الواحدية المادية تُوحِّد بين الإنسان والطبيعة ، وتستبعد المقدسات والغائيات (الإلهية والإنسانية) كافةً باعتبارها أموراً مفارقة للمادة وقوانينها . وفي داخل هذا الإطار يصبح الإنسان إنساناً طبيعيًا/ ماديًا تحركه الدوافع الطبيعية/ المادية (الاقتصادية والجنسية) فهو إنسان اقتصادي أو إنسان جسماني ، ولكنه اقتصاديًا كان أم جسمانيًا ، يظل إنساناً طبيعيًا/ ماديًا .

في هذا الإطار تصبح المعرفة مسألة تستند إلى الحواس وحسب ، ويصبح العالم الطبيعي هو المصدر الوحيد أو الأساسي للمنظومات المعرفية والأخلاقية ، وتُردُّ الأخلاق إلى الاعتبارات المادية (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) ، وتنفصل الحقائق المادية تماماً عن القيمة ، ويظهر العلم المنفصل عن الأخلاق وعن الغائيات الإنسانية والدينية والعاطفية والأخلاقية ، وتصبح الحقائق المادية (الصلبة أو السائلة) المتغيرة هي وحدها المرجعية المعرفية والأخلاقية المقبولة ، وتصبح سائر الأمور (المعرفية والأخلاقية) نسبية صالحة للتوظيف والاستخدام . بل إن هذه الرؤية الواحدية المادية ، في مراحلها المتقدمة ، بإنكارها أي ثبات ، ينتهي بها الأمر إلى إنكار وجود الماهيات والجوهر ، بل والطبيعة البشرية ذاتها ، باعتبارها جميعاً أشكال من الثبات والميتافيزيقا .

وقد يكون من المفيد أن نُفرِّق بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة . فالعلمانية الجزئية ، في تَصورُنا ، هي رؤية جزئية للواقع تنطبق على عالم السياسة وربما على عالم الاقتصاد ، وهو ما يُعبَّر عنه بفصل الدين (الدين وحده) عن الدولة أحياناً ، وأحياناً أخرى عن بعض جوانب الحياة العامة وحسب ، لا كلها . وهذه الصيغة هي الصيغة الشائعة بين

معظم الناس في الشرق والغرب ، بل وبين كثير من المفكرين العلمانيين . وهي صيغة تملك استعداداً للتصالح والتعايش مع القيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة ، بل والقيم الدينية مادامت لا تتدخل في عالم السياسة (بالمعنى المباشر والمحدد) . وهناك بعض المفكرين الإسلاميين ممن يرون أن هذه العلمانية الجزئية لا تتناقض بأية حال مع المنظومة الدينية الإسلامية وأنهما يمكنهما التجاور والتعايش .

أما الثانية ، فهي رؤية شاملة للكون بجميع مستوياته ومجالاته ، لا تفصل الدين عن الدولة فقط أو عن بعض جوانب الحياة العامة وحسب ، وإنما تفصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية جميعها عن الدولة وعن جوانب الحياة العامة (بل والخاصة) كافةً ، أي أنها في واقع الأمر تفصل سائر القيم عن العالم (الطبيعة والإنسان) وتنزع عنه كل قداسة . وعالم العلمانية الشاملة هو ذاته عالم الحلولية الكمونية الواحدية المادية ، فالعالم مكتف بذاته ، وهو مرجعية ذاته ، المبدأ الواحد حال وكامن فيه لا يتجاوزه . وعادةً ما يتم الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة من خلال عمليات تاريخية طويلة مركبة ، تأخذ شكل متتالية تاريخية متعددة الحلقات ، بعضها واضح ومحدد والبعض الآخر يصعب إدراكه وتحديده .

هذا هو جوهر النموذج الحضاري الغربي الحديث (والنموذج كما أشرنا ليس هو ذاته الواقع المركب المتعين) . وقد عيَّن هذا النموذج في بداية الأمر عنصرين أو ركيزتين أساسيتين جعلهما موضع الحلول والكمون والإطلاق ، أحدهما هو الإنسان الذي يمكن أن يكون مرجعية ذاته ، والذي يمكنه أن يولِّد معياريته من داخل ذاته أو من الطبيعة/ المادة؛ والركيزة الأخرى هي المادة التي يُشار إليها بتعبير «الطبيعة» ، ونشير لها نحن بتعبير «الطبيعة/ المادة» التي يمكن أن تكون مرجعية ذاتها والمصدر الوحيد للمعيارية .

وقد منح هذا النموذج (في مراحله الأولى) الإنسان مركزية في الكون وأسبقية على الطبيعة/ المادة ، وقدراً من المطلقية باعتباره كائناً عاقلاً ، قادراً على استخدام عقله في دراسة الطبيعة/ المادة وفهمها وتجاوزها وتسخيرها لصالحه ، وعلى توليد معيارية إنسانية مستقلة عن قوانين الطبيعة ، ومن ثم ظهرت الفلسفة الإنسانية (الهيومانية) وأصبحت الرؤية الأساسية للإنسان الغربي في بداية مشروعه التحديثي .

ورغم أن الفلسفة الهيومانية تدور في إطار مادي (واحدي بسبب ماديته) ، إلا أنها بإعلانها انفصال الإنسان عن الطبيعة/ المادة واستقلاليته عنها ومقدرته على تجاوزها ، بل وعلى تجاوز تاريخه ، خلقت قدراً من الثنائية داخل النموذج المادي الواحدي ، بل

واستعادت مفهوم القداسة للإنسان وقدراً من الميتافيزيقا الإنسانية ، ومن ثم أصبح من الممكن تأسيس منظومات أخلاقية . ولكن سرعان ما حدثت تحولات أساسية نابعة من منطق النموذج الواحدي المادي (ومن التطور التاريخي للحضارة الغربية) أودت بالإنسان كمقولة مستقلة عن عالم الطبيعة/ المادة . وأهم هذه التحولات تَصاعُد معدلات العلمنة والحلولية وانتقال المجتمع من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة . وبدأت هذه العملية بانفصال المجال الاقتصادي عن المنظومات القيمية والغائيات الدينية ثم الإنسانية . إذ تحرر المجال الاقتصادي من هذه المنظومات والغائيات ومن أية معيارية مستمدة منها ، بحيث أصبح هو ذاته موضع الحلول والكمون ، فهو يحوي داخله معياريته وغائيته وكل ما يكفي لتفسيره ، وأصبح يُحكَم على عالم الاقتصاد بمقدار ما يحققه من الأهداف الاقتصادية (مُهمِّشاً الديني والأخلاقي والإنساني) ، أي أن الإنسان يتحوَّل من كونه غاية ومرجعية ليصبح مجرد آلة أو وسيلة . ثم تنفصل مجالات الحياة العامة الواحدة تلو الأخرى فينفصل المجال السياسي عن المنظومات القيمية والغائيات الإنسانية ، لتصبح الدولة نهاية في حد ذاتها (وفي مرحلة لاحقة تصبح الإجراءات السياسية الخالية من أي مضمون أخلاقي هي الغاية) . ثم تنفصل الفلسفة ويصبح العقل المنفصل عن القيم والغائيات المسبقة هو معيارية ذاته . وتتالى المجالات وتتساقط إلى أن يصبح العلم مستقلاً عن القيم والغائيات الإنسانية . ويُحكَم على مدى نجاح العلم أو فشله بمقدار ما يحققه من أهداف علمية محضة ، مثل مراكمة المعلومات وإجراء التجارب " الناجحة " (بمقاييس علمية ، بطبيعة الحال) . وتتغلغل عمليات العلمنة الشاملة وتنتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، فتتم علمنة الرغبات والجسد ، فيتحرر الجنس من سائر المعايير والغائيات ليصبح معيارية ذاته ، ويُحكَم على مقدار نجاحه أو فشله بمقدار ما يحققه من أهداف جنسية محضة مثل اللذة ، خارج أي نطاق اجتماعي أو أخلاقي . وهكذا تتفتت الحياة الإنسانية وتتحول جوانبها المختلفة إلى مجالات غير متجانسة غير مترابطة ويصبح العالم بالفعل مادة نسبية محايدة خاضعة لحركة المادة وحسب .

عبَّر هذا الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة عن نفسه في تزايُد تهميش الإنسان وتفكيكه وتزايد هيمنة النماذج الواحدية المادية . فبعد تأكيد مركزية الإنسان في الكون وأسبقيته على الطبيعة يكتشف الإنسان أن قوانين العقل الإنساني هي ذاتها قوانين الطبيعة/ المادة (فعقله جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة) ، وأنه هو نفسه كائن طبيعي/ مادي . وهذا الكائن الطبيعي/ المادي عقله طبيعي/ مادي ، لا يمكنه تجاوز الطبيعة/ المادة ، والحيز الوحيد الذي يتحرك فيه هو الحيز الطبيعي/ المادي ، وآفاقه المعرفية

والأخلاقية تحدها حدود الطبيعة/ المادة ، ومهمته من ثم هي معرفة الطبيعة/ المادة وقوانين حركتها المنفصلة عن العقل الإنساني وعن الغائيات الإنسانية وعن القيم الإنسانية ، التي تحولت إلى مجرد أوهام ولَّدها الإنسان في اللحظات الهيومانية التي توهم فيها استقلاله عن الطبيعة/ المادة . فالعقل الإنساني المادي لا يُولِّد معياريته وقيمه وغائيته من داخل ذاته وإنما يستمدها من الطبيعة/ المادة . وهي معيارية وقيم وغائيات متحررة تماماً من أوهام الإنسان عن نفسه وعن مركزيته .

وقد اكتشف العقل المادي أن أهم القيم والغائيات هي البقاء وأن أهم المعايير والآليات هي القوة . عند هذه النقطة ينقسم العقل المادي إلى قسمين :

١ ـ العقل الإمبريالي أو عقل السوبرمان superman (بالألمانية : أوبر منش Uber-mensch) : يمكن للعقل المادي أن يرى نفسه باعتباره تجسيداً لقوانين الطبيعة/ المادة ، وللمعيارية المشتقة منها والتي تتجاوز القيم والغائيات الأخلاقية والإنسانية . ولذا يتخلى هذا العقل تماماً عن مفهوم الإنسانية العامة أو المشتركة باعتباره مفهوماً غائيًا أخلاقيًا ميتافيزيقيًا يمثل شكلاً من أشكال الثبات داخل حركة المادة وصيرورتها ، وشكلاً من أشكال التجاوز لقوانين الطبيعة/ المادة . ويصبح من حق العقل الإمبريالي المطلق أن يفعل ما يشاء للدفاع عن مصالحه وتحقيقها ، وضمن ذلك توظيف الآخرين وحوسلتهم . هذا العقل الإمبريالي هو عقل السوبرمن من أعضاء النخبة ، ممن هم فوق الإنسان . ولكن العقل الإمبريالي الذي يُوظِّف يفترض وجود المادة التي تُوظَّف ، ومن هنا يظهر العقل الثاني .

٢ ـ العقل الأداتي أو عقل السبمان subman (بالألمانية : أونترمنش Untermensch) : يمكن للعقل المادي أن ينظر إلى نفسه باعتبار أن وظيفته الأساسية هي التكيف مع المعيارية الطبيعية/ المادية والإذعان لقوانين الطبيعة/ المادة ، وحينئذ يصبح العقل المادي عقلاً أداتيًا ، عقل السبمن من أعضاء الجماهير ، ممن هم دون الإنسان ، وهم الذين يؤدون ما يوكل لهم من أعمال ويُوظَّفون في خدمة السوبرمن من دون تساؤل عن المضمون الأخلاقي والإنساني للأوامر التي أتتهم من عل . ولهؤلاء السبمن أسماء مختلفة : الإنسان البرجماتي ـ الإنسان الوظيفي ـ الإنسان الاقتصادي ـ الإنسان ذو البُعد الواحد ـ الإنسان المرشَّد أو المُدجَّن ـ الإنسان المُتشيِّء ، وهو إنسان يمكن توظيفه وحوسلته بسهولة ويسر ، فهكذا يدرك هو ذاته وهكذا يرى نفسه .

ويمكن القول بأن جُمَّاع هذين العقلين ، العقل الإمبريالي والعقل الأداتي، أدَّى إلى

ظهور ما يمكن تسميته «النفعية (أو الموضوعية) الداروينية» . فالعقل الأداتي عقل يتعامل مع الواقع المادي بكفاءة عالية يرصده ويقبله ويدونه ، فهو عقل موضوعي محايد يذعن للواقع المادي والموضوعي . ولكن توجد إلى جانب ذلك المنظومة الداروينية الإمبريالية التي تهدف إلى توظيفه لصالح صاحب المعرفة والقوة ، فهي نفعية داروينية . وقد ترجم هذا النمط نفسه إلى الواقع السياسي والتاريخي في العالم ، فبعد أن كان الإنسان ككل هو مركز الكون (وموضع الحلول) ، كما أعلنت الإنسانية (الهيومانية) الغربية في بداية المشروع التحديثي ، أصبح الإنسان الغربي هو وحده هذا المركز (فالإنسانية جمعاء هي مفهوم ميتافيزيقي ، ماهية وجوهر ، متجاوز لعالم الطبيعة/ المادة) وأصبحت الأمم الغربية هي السوبر أمم . وبدلاً من توظيف الطبيعة وتسخيرها للإنسانية جمعاء ، أصبح الهدف هو توظيف الطبيعة وبقية البشر وتسخيرهم لصالح السوبرمان الغربي الذي هو تجسيد لمبادئ الطبيعة/ المادة والتحقق الأسمى لها وتحوَّلت الشعوب كافةً إلى « سب » أمم . وهكذا تحوَّلت الإنسانية الهيومانية إلى إمبريالية غربية ، وهكذا وُلدت الإمبريالية والعنصرية وفلسفات القوة من رحم الواحدية المادية والعلمانية الشاملة .

الترشيد في إطار العلمانية الشاملة (العقلانية التكنولوجية أو المادية) :

من المفاهيم الأساسية التي استُخدمت لدراسة المجتمعات الحديثة مفهوم الترشيد . ولكلمة «يُرشِّد» عدة معان :

أ) يسوِّغ أو يبرر ، وتعني : يفسِّر المرء سلوكه بأسباب معقولة أو مقبولة ولكنها غير صحيحة .

ب) ومن المعاني الأخرى المتواترة لكلمة «يُرشِّد» : يُوظِّف الوسائل بأكثر الطرق كفاءة لخدمة أهداف معينة .

وهذان المعنيان للكلمة ينصرفان إلى الوسائل وحسب . ولكن هناك معنيين آخرين يؤكدان أن الترشيد ليس مسألة خاصة بالوسائل وحسب ، بل يخص الموضوع أيضاً :

جـ) يستعيض عن التفسير الغيبي لشيء ما بتفسير طبيعي (مطابق للمبادئ العقلية ولقوانين الطبيعة/ المادة) .

د) يجعل الشيء مطابقاً للمبادئ العقلية والمادية .

وقد ميَّز ماكس فيبر بين نوعين من الترشيد :

أ) «فيرت راتيونيل wertrationell» ، وتُترجم بعبارة «رشيد في علاقته بالقيم» (أو «الترشيد المضموني») ، وهو يعادل (تقريباً) «الترشيد التقليدي» الذي يعني أن لا يتعامل المرء مع الواقع بشكل ارتجالي وجزئي وإنما يتعامل معه بشكل منهجي متكامل ، ومتسق مع مجموعة من القيم الأخلاقية المطلقة والتصورات المرجعية المسبقة التي يؤمن بها . والواقع أن عملية بناء الهرم الأكبر والفتح الإسلامي من العمليات التي لا يمكن إنجازها إلا من خلال هذا النوع من الترشيد .

ب) «زفيك راتيونيل zweckrationnel» ، وتُترجم بعبارة «رشيد في علاقته بالأهداف» (أو «الترشيد الشكلي أو الإجرائي» أو «الترشيد الأداتي») ، وهو الترشيد (المادي) الحديث المتحرر من القيم ، والموجَّه نحو أي هدف يحدده الإنسان بالطريقة التي تروق له أو حسبما تمليه رغباته أو مصلحته . والترشيد الشكلي يتعلق بالكفاءة التكنولوجية وتوفير أفضل الوسائل والتقنيات لتحقيق الأهداف (أية أهداف) بأقل تكلفة ممكنة وفي أقصر وقت ممكن ، وكلما كانت الوسائل أكثر فعالية كان الفعل أكثر رشداً من الناحية الشكلية أو الإجرائية . فالترشيد التقليدي (المضموني) يتم في إطار المطلق الديني أو الأخلاقي أو الإنساني والمرجعية المتجاوزة ، أما الترشيد الحديث (الشكلي) فهو متحرر من القيمة (الدينية والأخلاقية والإنسانية) ويدور في إطار المرجعية المادية الكامنة ، فلا علاقة له بأي مطلق . وهو منفصل عن الأهداف والمشاعر والغائيات الإنسانية (خيِّرة كانت أم شريرة) .

ولكن هذا ادعاء أيديولوجي ليس له ما يسانده ، فثمة منظومة أيديولوجية (معرفية وأخلاقية) كاملة تتم في إطارها أية عملية من عمليات الترشيد . وفي حالة الترشيد الذي يدَّعي التجرد من القيمة فإنه عادةً ما يفترض الطبيعة/ المادة مرجعية نهائية له .

ويمكن القول بأن الترشيد المادي يتم في خطوتين :

أ) سحب الأشياء من عالم الإنسان ووضعها في عالم مستقل يُسمَّى عالم الأشياء المادية : الاقتصاد ـ السياسة ـ السلع (ترشيد البنية المادية والاجتماعية) .

ب) ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد إذ يتم سحب الإنسان ذاته من عالم الإنسان ووضعه هو الآخر في عالم الأشياء . ثم يسود منطق الأشياء على الأشياء والإنسان معاً ، ويسري قانون طبيعي مادي واحد على الإنسان والطبيعة (ترشيد الإنسان) . (وهذا هو التَشيُّؤ الذي تشير إليه بعض الأدبيات الغربية التي تتناول ظاهرة التحديث ، ولكن هذا هو أيضاً العلمانية الشاملة) .

ويمكن أن نتناول هذه العملية بشيء من التفصل ولنبدأ بترشيد المجتمع الإنساني في الإطار المادي . يمكن القول بأن الترشيد المجرد من القيمة هو في واقع الأمر إعادة صياغة للمجتمع كله عن طريق تفكيكه واستبعاد سائر العناصر المركبة التي تستعصي على القياس (العناصر الإنسانية أو الربانية) التي يتركب منها ، وإعادة تركيبه على هدي المعايير العقلية والعلمية الواحدية المادية ، ومن ثم يتوافق هذا الواقع الاجتماعي مع القوانين العلمية الواحدية الصارمة ويخضع للاختبارت والإجراءات الكمية وللقياس ، فهو يمحو سائر الثنائيات (التي تفترض وجود أكثر من جوهر وأكثر من قانون) ويستبعد كل الخصوصيات والمنحنيات الخاصة للظاهرة (التي تتحدى القانون العام) ويرفض كل المطلقات (التي تشكل تجاوزاً للقانون المادي الواحد العام وخرقاً له وتشكل عدم استمرار في الكون) وينكر كل المعايير الأخلاقية الثابتة (فهي خارجة عن الظاهرة المادية موضع الدراسة) ويتعامل مع المحدود ومع ما يُقاس (فاللامحدود وغير المقيس لا يمكن تطبيق النماذج الكمية عليه) .

ثم يتم الشيء نفسه على مستوى الإنسان الفرد ، باطنه وظاهره ، فرغم أن العقل الإنساني هو الذي يقوم بعملية التفكيك والتركيب إلا أنه عقل مادي مرجعيته هي الطبيعة/ المادة . ولذا قد تبدأ عملية الترشيد في إطار الطبيعة/ المادة بتأكيد العقل ، ولكن مع تَزايُد هيمنة المرجعية الموضوعية المادية واختفاء المرجعية الإنسانية تماماً ، يختفي العقل وتظهر مرجعيات مادية عديدة متساوية متصارعة . فكل مجال من مجالات النشاط الإنساني يصبح مرجعية ذاته ، وتكون له قيمه المستقلة الذاتية ومنطقه الداخلي المتميِّز ، ويصعب على المرء تمييز أي مبدأ واحد أو مجموعة من المبادئ ذات المقدرة التوحيدية التي بوسعها تزويد الإنسان برؤية متكاملة . وبالتالي ، تَبعُد دوائر النشاط الإنساني بعضها عن البعض ، حيث يصبح لكل منها مركزها ومعياريتها ومرجعيتها ، فيختفي المركز ويظهر عالم بلا مركز ولا معايير ولا مرجعية . وهنا تستقل قواعد الترشيد عن الإنسان ، وتصبح مرجعية ذاتها وتتحول الوسائل إلى غايات ، ويتم الترشيد في إطار مجموعة من القيم النسبية المتغيرة التي لا مطلق فيها ، أو التي توجد فيها مطلقات غير إنسانية (تنويع على الطبيعة/ المادة) وبذلك تتحول عملية الترشيد وتفقد أية مرجعية ويصبح الترشيد هو أن يركز الإنسان تماماً على الإجراءات (كيف يُنجز هذا ؟) وأن يُسقط الأهداف (لماذا يُنجز هذا ؟) .

وتنتقل عملية الترشيد المادية من المجتمع وظاهر الإنسان الفرد إلى باطنه ، أي تُطبَّق عليه هو الآخر الواحدية المادية فتستبعد أية خصوصية أو تركيبية أو عناصر إنسانية (غير

طبيعية/ مادية) متميزة عن حركة الطبيعة/ المادة . ولذا تؤدي عملية الترشيد إلى أن يُحيِّد الإنسان نفسه ويُسكت أية تساؤلات أخلاقية تتصل بالخير والشر ، وما هو مشروع أو غير مشروع . ونظراً لانشَغال الإنسان بالإجراءات فهو لا يُعمِل ضميره ولا حتى عقله (أي أن عملية الترشيد تؤدي إلى فقدان الإنسان لرشده !) .

إن الترشيد الإجرائي يفترض عالماً مادياً تماماً الإنسان فيه مادة سلبية تكاد تكون ميتة ، مفعولاً به وليست فاعلاً ، (ولذا فنحن نسمي هذا النوع من الترشيد «تدجين») ، ونظراً لأن الترشيد ليست له أية غائيات إنسانية فإن الإنسان يدرك بالتدريج أنه أصبح مجرد وسيلة بعد أن كان غاية ، وأن عقله عقل أداتي إجرائي ، عالم تكون فيه قوانين اللعبة (أو أخلاقيات الصيرورة) أكثر أهمية من نوع اللعبة أو الهدف منها (وهذا النوع من الترشيد هو الذي سيُهيِّمن على عصر ما بعد الحداثة واختفاء المركز) .

في هذا الإطار أصبحت الطبيعة غير الواعية هي المرجعية والمركز ، فانفصلت النزعة التجريبية (التي مركزها المادة) عن النزعة العقلية الإنسانية (التي مركزها الإنسان) إلى أن تحررت تماماً منها ، وحقق العلم الغربي انتصاراته الضخمة بسبب حياده وموضوعيته الرهيبة ، وانفصاله عن القيم التي هي في واقع الأمر تَجاهُل للإنسان وغائياته وقيمه ومثالياته ومطلقاته وتبني لمُثُل النفعية الداروينية . ولعل مصطلح «العقلانية التكنولوجية أو المادية» يصف إلى حد ما ما نحاول الإفصاح عنه . وقد طرح العلم نفسه باعتباره القادر على الإتيان بالحلول العلمية الأكيدة لكل المشاكل المادية وغير المادية (وهي غير مادية بشكل ظاهر وحسب ، فكل شيء في نهاية الأمر مادي) . وادعى العلم أنه مصدر القيمة وأنه القادر على تزويد الإنسان بالرؤية السليمة للأشياء ، وأنه سيحقق للإنسان السعادة والخلاص والتحكم الكامل في الطبيعة وتسخيرها لصالحه بل وهزيمتها تماماً . ولكن كل هذا لن يتحقق إلا إذا قَبل الإنسان العلم هادياً ومرشداً ودليلاً ، وسلم له أمره وتبنى منهجه ومعاييره وقيمه وغائياته وطبّقه على واقعه بشكل منهجي متكامل وتخلى عن أية غائيات إنسانية أو تساؤلات أو محاولات للتجاوز ، ومن هنا تم تهميش العقل البشري . وبدلاً من أن يحاول الإنسان تَجاوُز ذاته الطبيعية والطبيعة المادية ، أصبحت مهمته أن يتبعها ، وأن يعيد صياغة الواقع الإنساني حسب قوانين الطبيعة/ المادة التي يتلقاها جاهزة من العلم والعلماء . وتم تحييد الإنسان وتدريبه على قبول المبادئ العامة المجردة المتجاوزة للإنسان دون تساؤل ، وضمنها المبادئ العلمية وغيرها من المجردات ، بحيث يخضع العقل تماماً لمنطق الأشياء ويرى أن لكل شيء منطقه ومرجعيته الذاتية التي تتفق مع

المرجعية المادية العامة ، التي تَجُبّ سائر المرجعيات ، وضمن ذلك المرجعية الإنسانية نفسها . ولا يمكن للإنسان أن يحقق لنفسه قدراً من الحرية إلا من خلال الخضوع لهذه المرجعية الموضوعية المادية (وهذا ما افترضه إسبينوزا من البداية من خلال عالمه الهندسي المحايد وافترضه من بعده داروين والماركسيون والوضعيون المنطقيون) .

ويرى ماكس فيبر أن ثمة عناصر فريدة داخل الحضارة الغربية (غائبة في الحضارات الأخرى) جعلتها تتجه نحو مزيد من الترشيد ، وأن هذا الاتجاه هو السمة الأساسية لهذه الحضارة ، وما يميزها عن غيرها من الحضارات . ويُعرِّف فيبر عملية الترشيد المادي المستمرة بأنها عملية تنميط تفرض النماذج الكمية والبيروقراطية على الواقع (المادي والإنساني) حتى يمكن توظيفه ، وهي عملية ستزداد وتائرها إلى أن يصل الترشيد إلى قمته الشاملة الإمبريالية فتتم السيطرة على كل جوانب الحياة ويتحكم الإنسان في الواقع وفي نفسه ، ويتحول المجتمع إلى آلة بشرية ضخمة (ولذا يُعرِّف فيبر الترشيد بأنه تَحوُّل المجتمع بأسره إلى حالة المصنع ، وهذه هي لحظة نهاية التاريخ والفردوس الأرضي) . عندما تجبر هذه الآلة الأفراد على أن يشغلوا أماكن محدَّدة لهم ومقررة مسبقاً ، ويقوموا بأدوار مرسومة . وهذه البيئة الآلية ستزيد ولا شك الفعالية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع زيادة كبيرة ، ولكنها تهدد الحرية الفردية وتُحوِّل المجتمع إلى «قفص حديدي» ، خصوصاً وأن الفرد في المجتمع الحديث هو فرد مفتقد للمعنى ، ومن ثم فهو شخصية هشة من الداخل لا تشعر بالأمن ولا بالمقدرة على التجاوز ، فهي لا تقف على أرضية صلبة من المعنى . (وقد وردت عبارة «القفص الحديدي» بأشكال أخرى في كتابات جورج لوكاتش وجورج زيميل . كما أن صورة العالم كقفص حديدي صورة متواترة في الأدب الحداثي) .

ويرى أعضاء مدرسة فرانكفورت أن تَصاعُد معدلات الترشيد في المجتمع أدى إلى اختفاء الفرد والقيم الثقافية والروحية والعقل النقدي القادر على التجاوز حتى أصبح الإنسان كائناً ذا بُعد واحد (هربرت ماركوز) يرتبط وجوده بالاستهلاك والسلع (فهو إنسان مُتسلِّع مُتشيِّئ) . عقله أداتي ، ينشغل بالوصف والرصد وإدراك الآليات ، عاجز تماماً عن إدراك الأغراض النهائية . أما هوركهايمر وأدورنو ، فذهبا في كتابهما **ديالكتيك الاستنارة** إلى أن الترشيد المتزايد للعلاقات الاجتماعية في العصر الحديث قد أدى إلى تآكل استقلال الفرد وتنميط الحياة . وأدى ، في نهاية الأمر إلى الشمولية والعنصرية وإلى الواقع المتمثل في أن الرأسمالية ترجمت مُثُل الاستنارة إلى واقع معسكرات الاعتقال ، المنضبط والتي تمت فيها الهيمنة الكاملة على الإنسان .

ويرى أدورنو أن الترشيد كان من المفترض أن يؤدي إلى الحرية والعدالة والسعادة ولكنه أدَّى إلى نتيجتين متناقضتين (انعتاق الإنسان من أسر الضرورة المادية ، وتَسلُّعه وتَشيُّئه في ذات الوقت) . بل إن العقل ذاته (أداة الترشيد) تحوَّل إلى قوة غير عقلانية وغير رشيدة تسيطر على الطبيعة والإنسان كليهما ، أي أن ترشيد الحياة الاجتماعية أدَّى إلى نفي الحرية تماماً ، كما يتبدَّى ذلك في قوى التسلط الرشيدة الحديثة .

ويرى هابرماس أن الحضارة الحديثة تتسم بالتركيز الشديد على التكنولوجيا (كأداة للتحكم) بدلاً من التركيز على الهرمنيوطيقا أو التفسير ، وتوسيع نطاق التفاهم والتواصل بين الناس . لكل هذا ، تم تهميش الاتجاهات التأملية والنقدية والجمالية في النفس البشرية . ولهذا يرى هابرماس أن هذا التركيز الأحادي (الذي هو في جوهره سيادة للعقل الأداتي) يعني أن الإنسان لا يستخدم كل إمكانياته الإنسانية (النقدية والجمالية . . . إلخ) في تنظيم المجتمع ، ويركز على الترشيد على هدي متطلبات النظم الإدارية الاقتصادية والسياسية التي يُفترَض أنها ستزيد من تَحكُّمه في الواقع . ويؤدي كل هذا بالطبع إلى ضمور حياة الإنسان ويصبح الترشيد هو «استعمار عالم الحياة» ، على حد قول هابرماس .

ومؤخراً أشار المؤلف المسرحي (ورئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا) فاكيلاف هافل إلى ما سماه «إسكاتولوجيا اللاشخصي» ، وهو اتجاه نحو ظهور القوى اللاشخصية والحكم من خلال آليات ضخمة مثل المشروعات الضخمة والحكومات التي لا وجه لها والتي تفلت من التحكم الإنساني وتشكل تهديداً كبيراً لعالمنا الحديث . ويبيِّن هافل أنه لا يوجد فارق جوهري بين شركات كبيرة مثل شل وآي . بي . إم . والشركات الاشتراكية الكبرى ، فكلها آلات ضخمة يتزايد غياب البُعد الإنساني منها . ولذلك ، تصبح مسألة شكل الملكية هنا (أي ما إذا كانت فردية أم اجتماعية ، رأسمالية أم اشتراكية) إشكالية غير ذات موضوع .

وحينما سُئل هافل عن الأسباب التي أدَّت إلى هذا الوضع أجاب قائلاً : « هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري . فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعَى القيم الميتافيزيقية العليا ، والتي تمثل شيئاً أعلى مرتبة منهم ، شيئاً مفعماً بالأسرار . وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي ، إذ أنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز . هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس ، وأفقاً لهم ، ولكنها فُقدت الآن . وتكمن المفارقة ، أننا بفقداننا إياها نفقد قبضتنا على المدنية ، التي

أصبحت تسير بلا أي تحكُّم من جانبنا . فحينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى ، في هذه اللحظة نفسها ، بدأ العالم يفقد بُعده الإنساني » .

الحوسلة :

نستخدم في هذه الدراسة اللفظة المنحوتة «حوسل» اختصاراً لعبارة «تحويل الشيء إلى وسيلة» (بالإنجليزية : إنسترومنتاليزيشن instrumentalization) . والنحت هو اشتقاق كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون هناك تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت له والمنحوت منه . وقد أجازت المجامع اللغوية في الوطن العربي النحت عندما تُلجئ الضرورة إليه ، وقد وجدنا أن من الضروري نحت كلمة «حوسلة» لدواعي الإيجاز اللغوي ، ذلك لأن عبارة «تحويل كذا إلى وسيلة» عبارة طويلة ولا يمكن توليد مصطلحات منها . و«حوسل» فعل متعد بمعنى حوَّل الشيء أو الإنسان إلى وسيلة ، ومنها «الحوسلة» ، على غرار «بَسْمَلَ» وَ«بسملة» من «بسم الله الرحمن الرحيم» ، و«حَوقَل» و«حَوقَلة» من «لاحول ولا قوة إلا بالله» و«حَمَدل» و«الحمدلة» من «الحمد لله» . وفي كتب الفقه الإسلامي أنه يجب ترديد كلمات الأذان كما هي «إلا في الحيعلتين فيُحوقل» ، و«الحيلعتان» هما العبارتان «حي على الصلاة» و«حي على الفلاح» . ومن الأمثلة الأخرى التي شاعت ، اصطلاح «البرمائي» من «البر والماء» . وكذلك نقول «تَحوْسَل الشيء» أي «تَحوَّل إلى وسيلة» ، وهو مطاوع «حَوسَل» ، ومنها «التَحوسُل» .

والحوسلة مرتبطة تماماً بالواحدية المادية ، والترشيد (الإجرائي) وبالعقل الأداتي وبالعقلانية المادية وبالرؤية العلمانية المادية . فالواحدية المادية تَرُد العالم بأسره إلى مبدأ واحد هو الطبيعة/ المادة وتراه في إطار المرجعية المادية الكامنة ، والترشيد هو إعادة صياغة الواقع في هدي القانون الطبيعي/ المادي ثم إدارته انطلاقاً من هذا المبدأ الواحد . والرؤية العلمانية المادية هي أيضاً رؤية تَرُدُّ العالم إلى مبدأ واحد ، وترى الإنسان والطبيعة باعتبارهما مجرد مادة استعمالية يمكن توظيفها في أي هدف أو غرض يحدده الإنسان (صاحب القوة) وهذه هي الحوسلة . والحوسلة تصف العلاقة بين المجتمع المضيف والجماعة الوظيفية وبين المواطن والدولة العلمانية المطلقة .

الداروينية الاجتماعية :

«الداروينية الاجتماعية» هي أهم الفلسفات العلمانية الإمبريالية الشاملة .

و«الداروينية» ترجمة لكلمة «داروينيزم Darwinism» الإنجليزية ، والمشتقة من اسم تشارلز داروين (١٧٣١ - ١٨٢٠) . وهي فلسفة واحدية مادية كمونية تنكر أية مرجعية غير مادية مفارقة ، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفية والأخلاقية وترد العالم بأسره إلى مبدأ مادي واحد كامن في المادة وتدور في نطاق الصورة المجازية العضوية والآلية للكون . والآلية الكبرى للحركة هي الصراع والتقدم اللانهائي وهو صفة من صفات الوجود الإنساني ، أما الغائية الكبرى فهي البقاء المادي . وقد حققت الداروينية الاجتماعية ذيوعاً في أواخر القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي تعثر فيها التحديث في شرق أوربا ، وبدأ فيها بعض يهود اليديشية في تبني الحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، كما بدأ التشكيل الإمبريالي الغربي يتسع ليقتسم العالم بأسره . ويمكن القول بأن الداروينية هي النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة ، إن لم يكن وراءها جميعاً .

ويرى دعاة الداروينية الاجتماعية أن القوانين التي تسري على عالم الطبيعة والغابة هي ذاتها التي تسري على عالم الإنسان والمجتمع . وهم يذهبون إلى أن تشارلز داروين وصف هذه القوانين بدقة في كتابيه الكبيرين : **حول أصل الأنواع من خلال الانتخاب الطبيعي** و **بقاء الأجناس الملائمة في عملية الصراع من أجل الحياة** . وذهب داروين إلى أن الكون بأسره سلسلة متواصلة في حالة حركة من أسفل إلى أعلى وأن الإنسان إن هو إلا إحدى هذه الحلقات ، قد يكون أرقاها ولكنه ليس آخرها . ويرى داروين أن تَقدُّم الأنواع البيولوجية الحية يعتمد على الصراع من أجل البقاء والذي ينتصر فيه الأصلح .

وهذا هو تصور داروين أو فرضه . ولكنه كان في واقع الأمر عاجزاً تماماً من الناحية العلمية عن إثبات كثير من فروضه . ولذا فهناك حديث عن «الحلقة المفقودة» ، وهي تعني وجود مسافة بين القرود والإنسان ، وعن «الطفرة» ، بمعنى أن ثمة ثغرة في الزمان تم سدها بدون سبب واضح . وبهذه الطريقة تم فرض الاستمرارية والواحدية دون وجود شواهد مادية علمية . وأصبح عالم داروين عالماً مستمراً ومغلقاً لا ثغرات فيه ولا فراغات ولا مسافات ، فكل حلقة تؤدي إلى التي تليها ، تماماً كما هو الحال مع عالم إسبينوزا ونيوتن حيث تحرك كل عجلة العجلة التي بجوارها (وبالفعل ، وصف أحدهم داروين بأنه نيوتن العلوم البيولوجية) . وهكذا تؤدي اليرقة إلى القرد ، والقرد إلى الإنسان بطريقة آلية (تماماً كما تتحرك الأجسام تحت تأثير قانون الجاذبية وكما تتحول الأفكار الجزئية إلى أفكار آلية بطريقة آلية في منظومة لوك) .

وذهب دعاة الداروينية الاجتماعية إلى أن فرض داروين هو في واقع الأمر نظرية

وحقيقة علمية ، ثم نقلوا هذا الفرض من عالم الطبيعة إلى عالم الإنسان ، وقرروا أن العلاقة بين الكائنات الحية في الطبيعة لا تختلف عن العلاقات بين الأفراد داخل المجتمعات الإنسانية ، ولا عن العلاقات بين المجتمعات والدول . وعلى هذا ، لم يُستخدَم النموذج الداروينى لتفسير الطبيعة/ المادة فقط ، وإنما لتفسير حياة الإنسان الفرد في المجتمعات ، وتفسير العلاقات بين الدول والمجتمعات على المستوى الدولي .

ويمكن تلخيص الأطروحات الأساسية في الداروينية الاجتماعية على النحو التالي :

أ) ظهرت الأنواع العضوية كافةً من خلال عملية طويلة من التطور ، وهي عملية حتمية شاملة تشمل جميع الكائنات (ومنها الإنسان) وكل المجتمعات في كل المراحل التاريخية .

ب) العالم كله في حالة تطور دائم ، وهذا التطور يتبع نمطاً واضحاً متكرراً إلا أنه قد يكون بطيئاً وغير ملحوظ أحياناً ، وقد يأخذ شكل طفرة فجائية واضحة أحياناً أخرى .

جـ) تتم عملية التطور من خلال صراع دائم بين الكائنات والأنواع . فالصراع دموي حتمي ، وهو صراع جماعي لا فردي .

د) السبب الذي يؤدي إلى تَغيُّر الأنواع هو الاختيار الطبيعي الذي يؤثر في جماعات الكائنات العضوية ويترك عليها آثاراً مختلفة .

هـ) الكائن أو النوع الذي ينتصر على الكائنات والأنواع الأخرى ، ويحقق البقاء المادي لنفسه ، يثبت بالتالي أنه نوع أرقى من الأنواع الأخرى ، إذ حقق البقاء على حسابها ، فبقي هو بينما كان مصيرها الفناء .

و) تحقق الكائنات البقاء إما من خلال التكيف (البرجماتي) مع الواقع فتتلون بألوانه وتخضع لقوانينه ، أو من خلال القوة وتأكيد الإرادة (النيتشوية) على الواقع ، والبقاء من نصيب الأصلح القادر على التكيف والأقوى القادر على فرض إرادته . ومن أشكال التكيف ، الانتقال من التجانس (البسيط) إلى اللاتجانس (المركب) .

ز) مهما كانت آلية البقاء ، فلا علاقة لها بأية قيم مطلقة متجاوزة ، مثل الأمانة أو الأخلاق أو الجمال ، فالبقاء هو القيمة المحورية في المنظومة الداروينية التي تتجاوز الخير والشر والحزن والفرح .

ح) النوع الذي ينتصر يورث الخصائص التي أدت إلى انتصاره (سر بقائه) إلى بقية أعضاء النوع ، أي أن التفوق يصبح عنصراً وراثياً .

ط) هذا يعني استحالة وجود مساواة مبدئية بين الأنواع أو بين أعضاء الجنس البشري .

ي) مع تَزايُد معدلات التطور ، تصبح هناك كائنات أكثر رقياً من الكائنات الأخرى بحكم بنيتها البيولوجية ، ومن ثم يصبح للتفاوت الثقافي أساس بيولوجي حتمي .

ولعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية ، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية الشاملة للكون أكثر من الفلسفة الداروينية :

أ) رسَّخت الفلسفة الداروينية أفكار الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالم إن هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء ، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية ولا توجد داخلها مطلقات متجاوزة من أي نوع . فالعالم طبيعة ، والطبيعة محايدة لا تعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال . ولا توجد أية ثغرات في الكون ، إذ إن المنطق المادي حتمي شامل يشتمل على كل شيء . ولا تُوجَد ثنائيات في الكون إذ يُردُّ كل شيء إلى المادة ويُفسَّر كل شيء بالتطور المادي . ومن ثم يمكن القول بأن الداروينية هي أساس اليقينية العلمية الزائفة التي ظهرت في القرن التاسع عشر والإطار الذي ظهرت من خلاله فكرة نهاية التاريخ .

ب) ليس الإنسان إلا جزءاً من هذه الطبيعة وهذه المادة ، وقد صدر عنهما من خلال عملية التطور ، إذ لا يوجد سوى قانون طبيعي واحد يسري على الإنسان والأشياء ، فالوجود الإنساني ذاته يتحقق من خلال الآليات التي يتحقق من خلالها وجود جميع الكائنات الأخرى . وهو وجود مؤقت ، تماماً مثل مكانته في قمة سلم التطور ، فهو حتماً سيفقد مكانته هذه من خلال سلسلة التطور التي دفعت به إلى القمة . بل يمكن القول بأن الأميبا ، من منظور تطوري صارم ، تُعتبَر أكثر تَميُّزاً من الإنسان لأنها حققت البقاء لنفسها مدة أطول من الإنسان . والإنسان ، شأنه شأن الأميبا ، لا يتمتع بأية حرية ولا يحمل أية أعباء أخلاقية ، فالقوانين الأخلاقية هي مجرد تطور لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطوراً والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي . وهذا يعني أن القانون الأخلاقي ، وكل القوانين ، هي قوانين مؤقتة نسبية ، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها ، ولذا يتم الاحتفاظ بالقوانين مادامت تخدم المرحلة . ومن ثم فإن الأخلاق المطلقة تقف ضد التقدم العقلاني المادي الرشيد ، ولا سيما إذا كانت هذه الأخلاق أخلاقاً دينية تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة وإلى الإشفاق عليه والعناية به . وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تماماً ولا توجد أية مطلقات ، ولذا يمكن القول بأن النظرية الداروينية هي الأساس العلمي للفكر النسبي . وإذا كان التطور يتم أحياناً عن طريق الصدفة ، وتحدده

الحوادث العارضة ، فمن الممكن القول بأن النظرية الداروينية هي أساس الفكر العبثي أيضاً .

جـ) إذا كان الأمر كذلك ، فلا يمكن تفسير سلوك الإنسان ووجوده إلا من خلال النماذج الطبيعية المادية ، ومن هنا حتمية وحدة العلوم . وإذا كان للظاهرة تاريخ ، فهو تاريخ مادي يمكن دراسته من خلال دراسة بنية الظاهرة المادية . وقد قام داروين نفسه بتفسير الظواهر البيولوجية من خلال دراسة تاريخها البيولوجي . ويرى أحد الباحثين أن هذا يعني في واقع الأمر عدم وجود أي فارق أساسي بين مجموعة من الشبان يختطفون فتاة صغيرة ويغتصبونها ثم يقتلونها وقطيع من الذئاب يهاجم ظبياً ويلتهمه (أو يهاجم فتاة صغيرة ويلتهمها) . فكلاهما تدفعه غريزة طبيعية مادية قوية . ولعل الفارق الوحيد ، وهو على كلٍ فارق ثانوي ، أن الشبان قد هاجموا عضواً من نفس نوعهم ، وهو الأمر الذي يعوق عَملية البقاء (وهذا هو المنطق الوحيد المقبول في إطار دارويني عقلاني مادي) .

د) رغم شمولية الواحدية المادية في النظام الدارويني إلا أن هناك ثنائيات صلبة مثل ثنائية الإنسان والطبيعة والأقوياء الضعفاء والأثرياء والفقراء والأسياد والعبيد . ولكن هذه الثنائيات يحسمها شيء واحد هو الصراع والقوة . فمن يقدر على أن يصرع الآخر هو الأقوى والأبقى ، ومن يفشل في ذلك هو الأضعف ومصيره إلى الفناء .

هـ) ورغم الواحدية المادية التي تَصدُر عنها الداروينية ، ورغم رفضها لأن تكون أية نقطة متجاوزة للمادة مصدراً للحركة ، ورغم أنها تفترض أنه لا يوجد مخطط إلهي وراء الكون ، إلا أنها مع هذا كله تفترض وجود غائية طبيعية كالتطور باعتباره حركة من نقطة أدنى إلى نقطة أعلى ومن التجانس البسيط إلى اللاتجانس المركب ، وهي حركة حتمية تماماً مثل التقدم الحتمي الذي تفترضه معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة . والغائية التي يطرحها داروين غائية غير متجاوزة تأخذ شكل إيمان بأن هناك غاية كامنة في الطبيعة ذاتها . لكن هذه الغائية قد تكون زيادة في التركيب والتطور من البسيط إلى المركب ، وقد تكون شيئاً يُسمَّى «إرادة الحياة» أو «القوة» ، وقد تكون شكلاً من أشكال الوعي ظهر بالصدفة من خلال عملية كيماوية زادت من تركيب المادة . ومهما بلغ التطور بالكائنات من ارتفاع ورقي ، فإنه لا يؤدي إلى الإيمان بأي تَجاوُز ، فكل شيء (وضمن ذلك الإنسان) ذو أصل مادي ويُردُّ إلى المادة . وينطبق نفس الشيء على نظرية الأخلاق ، فالبقاء هو القيمة الوحيدة ، والصراع هو الآلية ، والأنانية وحب الذات هما مصدر

الحركة، ولذا فالعالم هو ساحة قتال بين الذئاب من البشر (والإنسان ، كما هو معروف لدى أتباع هوبز وداروين ونيتشه ، ذئب يفترس أخاه الإنسان) . والعلم كذلك هو ساحة قتال بين الأمم التي لابد وأن تصرع بعضها بعضاً لغاية البقاء ، فهيَ حرب الجميع ضد الجميع . ولا توجد قيمة مطلقة لأي شيء ، إذ أن ما يحدد القيمة هو القدرة على الصراع والبقاء . ويمكن القول بأن النظرية الداروينية هي خليط من الصورة المجازية العضوية والصورة المجازية الآلية ، فالكون في حالة تطور عضوي مستمر ، يتبع نمطاً ثابتاً لا يتغيَّر ، ومن ثم لا يختلف التطور العضوي عن الحركة الآلية في النمطية أو الرتابة .

وقد تبدَّت هذه المنظومة الداروينية بشكل واضح في الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، من إنكار لقيمة أي شيء أو أية مرجعية متجاوزة إلى تأكيد ضرورة التنافس والصراع والإصرار على حرية السوق وآلياته وعدم تَدخُّل الدولة بحيث يهلك الضعفاء ولا يبقى سوى الأقوياء . والإمبريالية هي تدويل للرؤية الداروينية حيث أصبح العالم كله سوقاً ، مسرحاً لنشاط الإنسان الأبيض المتفوق الذي أباح لنفسه قتل الآخر ضماناً لبقائه وتأكيداً لقوته . وقد وُظِّفت الداروينية الاجتماعية في تبرير التفاوت بين الطبقات داخل المجتمع الواحد وفي الدفاع عن حق الدولة العلمانية المطلقة وفي تبرير المشروع الإمبريالي الغربي على صعيد العالم بأسره . فالفقراء في المجتمعات الغربية وشعوب آسيا وأفريقيا (والضعفاء على وجه العموم) هم الذين أثبتوا أن مقدرتهم على البقاء ليست مرتفعة ، ولذا فهم يستحقون الفناء أو على الأقل الخضوع للأثرياء ولشعوب أوربا الأقوى والأصلح .

كما تبدَّت الداروينية في التجارب الخاصة بتحسين الأجناس والنسل والقتل العلمي والموضوعي (الذي يُقال له «القتل الرحيم») بأساس علمي . وقد هيمنت النظرية التطورية (ذات الأصل الدارويني) على العلوم الاجتماعية في الغرب (ثم في العالم) . فالإيمان بالتقدم والحتمية التاريخية يعتبر شكلاً من أشكال التطورية . وهناك كثير من النظريات التاريخية والاجتماعية تُعدُّ تطبيقات لمبدأ التطور من التجانس البسيط إلى اللاتجانس المركب . فهربرت سبنسر درس التاريخ باعتباره تطوراً من المجتمع العسكري إلى المجتمع الصناعي ، ورآه دوركهايم تطوراً من التضامن الميكانيكي إلى التضامن العضوي ، ورآه ماركس تطوراً من الشيوعية البدائية إلى الشيوعية المركبة (عبر حلقات متتالية : المجتمع العبودي فالإقطاعي فالرأسمالي فالاشتراكي) . أما التطور في نظر أوجست كونت فهو تطور من مجتمع يستند إلى السحر والدين إلى مجتمع يستند إلى الميتافيزيقا وصولاً إلى المجتمع الحديث الذي يستند إلى العلم (المرحلة اللاهوتية ـ المرحلة الميتافيزيقة ـ المرحلة

الوضعية) . ويُلاحَظ أن الحلقة الأخيرة في سلم التطور هي دائماً اللحظة التي تسيطر فيها القيم العلمية (المنفصلة عن القيمة) والغائية الإنسانية ويطرح فيها الإنسان حلولاً نهائية لمسألته وينتهي فيها التاريخ الإنساني .

والفكر العرقي الغربي هو الآخر فكر تطوري ، إذ يرى أن الإنسان الأبيض هو آخر حلقات التطورِ وأعلاها ، ولذا فإن له حقوقاً مطلقة تَجُبُ حقوق الآخرين ، الأقل رقيًا . وقد تبلور الفكر التطوري العرْقي في الأيديولوجيا النازية التي تبنت تماماً فكرة وحدة العلوم وطبقت القوانين الطبيعية المنفصلة عن القيمة بصرامة على الجميع ، وحاولت الاستفادة من قوانين التطور من خلال قواعد الصحة النازية (إبادة المعوقين والمتخلفين عقلياً وأعضاء الأجناس الأخرى) ومن خلال محاولات تحسين النسل عن طريق التخطيط وعقد زيجات أو تنظيم علاقات إخصاب تؤدي إلى إنجاب أطفال آريين أصحاء .

والفكر الصهيوني ، مثله مثل الفكر النازي ، هو ترجمة للرؤية الداروينية ، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التي تَجُبُ حقوق الآخرين ، كم جاءوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية يحملون عبء الرجل الأبيض . وهم ، نظراً لقوتهم العسكرية ، ذوو مقدرة أعلى على البقاء . أي أنهم جاءوا من الغرب مسلحين بمدفعية أيديولوجية وعسكرية داروينية علمانية شاملة ثقيلة ، وقاموا بتسوية الأمور من خلال المدفع الدارويني النيتشوي ، فذبحوا الفلسطينيين وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم ، وهي أمور شرعية تماماً من منظور دارويني علماني شامل ، بل وواجبة . ولعل تَأثُّر معظم المفكرين الصهاينة بنيتشه أمر له دلالته في هذا المقام .

نهاية التاريخ والحل النهائي :

«نهاية التاريخ» (بالإنجليزية : إند أوف هستوري end of history) عبارة تعني أن التاريخ ، بكل ما يحويه من تركيب وبساطة ، وصيرورة وثبات ، وشوق وإحباط ، ونبل وخساسة ، سيصل إلى نهايته في لحظة ما ، فيصبح سكونياً تماماً ، خالياً من التدافع والصراعات والثنائيات والخصوصيات ، إذ إن كل شيء سيُردُّ إلى مبدأ عام واحد يُفسر كل شيء (لا فرق في هذا بين الطبيعي والإنساني) . وسيُسيطر الإنسان سيطرة كاملة على بيئته وعلى نفسه ، وسيجد حلولاً نهائية حاسمة لكل مشاكله وآلامه .

ونحن نرى أن هذا المصطلح ينتمي إلى عائلة كاملة من المصطلحات الأخرى التي

تصف بعض جوانب منظومة الحداثة الغربية والتي تعني انتهاء شيء ما والقضاء عليه ، وهذا الشيء في غالب الأمر هو الجوهر الإنساني ، كما نعرفه ، وكما ظهر مُتعيِّناً في التاريخ . وقد أشرنا لبعضها في دراستنا ، ولكن أهمها هو مصطلح «دي كونستراكت deconstruct» بمعنى «يفكك» أو «يقوض» . كما يمكن أن نضع مصطلح «نهاية التاريخ» مع المصطلحات التي تبدأ بالكاسحة «post» والتي تعني حرفيًا «بعد» ولكنها تعني في واقع الأمر «نهاية أو تَحوُّل جوهري كامل» مثل : «بوست مودرن post-modern» بمعنى «ما بعد الحداثة» ، و«بوست إندستريال post-industrial» بمعنى «ما بعد الصناعي» ، و«بوست كابيتاليست post-capitalist» بمعنى «ما بعد الرأسمالي» وأخيراً «بوست هيستوريكال post-historical» بمعنى «ما بعد التاريخ» والتي تعني في واقع الأمر «نهاية التاريخ» .

وتجب ـ ابتداءً ـ ملاحظة أن ثمة اختلافاً عميقاً بين مفهوم نهاية التاريخ (الحلولي الدنيوي) ومفهوم يوم القيامة (التوحيدي) . فيوم القيامة هو نقطة تقع خارج الزمان ، في الآخرة ، وهو ما يعني أن الزمان التاريخي لن يصبح في يوم من الأيام خالياً من الصراع والتدافع ، أي أن ثمة ثنائية لا تُمحى ولا تُرد إلى غيرها . أما نهاية التاريخ ، فتتحقق داخل الزمان الإنساني وعلى الأرض ، حين يؤسس الإنسان الفردوس (صهيون ـ مملكة المسيح ـ المهدي المنتظر ـ اليوتوبيا التكنولوجية) على الأرض وداخل الزمان ، فهو فردوس أرضي .

والنظم الحلولية نظم مغلقة ، تُفضي إلى نهاية التاريخ ، ففي وحدة الوجود الروحية يحل الإله في الطبيعة وفي الإنسان فيستوعبهما في ذاته ويصبح كل شيء تعبيراً عن الإله وتجسيداً له (ولا موجود إلا هو) فينتهي التاريخ ويُلغى الزمان ويتحول إلى دورات متكررة؛ بداياته تشبه نهاياته ، وتشبه كل دورة كونية الدورات الأخرى (فهو عود أبدي رتيب) . أما في إطار وحدة الوجود المادية ، فيحل الإله في الإنسان والطبيعة ويُستوعَب هو نفسه فيهما ، ويصبح لا وجود له إلا من خلالهما . ثم تُعاد تسميته ليصبح «قانون الحركة» أو «قانون الضرورة» أو «قوانين الطبيعة/ المادة» ، التي يُردُّ لها كل شيء ، وضمن ذلك الظواهر الإنسانية (ولا موجود إلا هي) . ومن يعرف هذه القوانين يصل إلى المعرفة التي تمكِّنه من التحكم في العالم وفي تأسيس الفردوس الأرضي وفي إنهاء التاريخ والزمان . فكأن وحدة الوجود الروحية تتحول ، من خلال إعادة التسمية ، إلى وحدة وجود مادية ، معادية للإنسان ولاستقلاله عن عالم الطبيعة/ المادة من حوله ، ومعادية للتاريخ ، مجال حرية الإنسان وساحة نجاحه وفشله .

وتتضح وحدة الوجود الروحية في العقائد المشيحانية (المهدوية) الدينية ، فالعقيدة المشيحانية ـ على سبيل المثال ـ تضع اليهود في مركز التاريخ ، ويدور التاريخ البشري بأسره (تاريخ اليهود وتاريخ الأغيار) حولهم . ويتركز الغرض الإلهي في اليهود (شعب الله المختار) الذين سيُعانون كل الآلام إلى أن يأتي الماشيَّح ويقضي على أعدائهم ويضع حداً لآلامهم فيجمعهم من شتات الأرض ويعود بهم إلى صهيون ليؤسس مملكته هناك حيث يتحقق السلام الكامل والفردوس الأرضي .

إلا أن التاريخ ، كما يقول المفكر الصهيوني موسى هس ، سيصبح مثل الطبيعة في العصر المشيحاني (سبت التاريخ أو نهايته) ، ويصبح الإنساني والتاريخي في بساطة الطبيعي . وبالفعل لن يشهد العصر المشيحاني الألفي إصلاح المجتمع الإنساني وحسب ، وإنما سيشهد أيضاً تَحوُّل قوانين الطبيعة ليتم التوافق الكامل بين الطبيعة والإنسان .

وتضع النظم الواحدية المادية ، هي الأخرى ، نهاية للتاريخ ، فمن البداية يُفسَّر التاريخي والاجتماعي والإنساني في إطار الطبيعي/ المادي ويُردُّ كل شيء إلى الطبيعة/ المادة . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن الرؤية اليونانية القديمة للتاريخ كانت رؤية هندسية دائرية تُنكر على التاريخ أي هدف أو غاية . ولكن هناك أيضاً مشيحانية دنيوية ، علمية أو علموية . فهناك من يرى أن المعرفة العلمية هي المعرفة التي ستمكننا من السيطرة على قانون الضرورة وتأسيس صهيون العلمية ، أي اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية . ويصدر هؤلاء من رؤية علمية (أو علموية) ضيقة تدور في إطار السببية الصلبة ، ويتصورون أن العلم سيؤدي إلى معرفة يقينية شاملة كاملة . (ومن المفارقات أن هذه التصورات جميعاً فقدت مصداقيتها في الأوساط العلمية التي أصبحت تدرك لاتحدد واحتمالية العلوم الطبيعية . ومع هذا ، لا تزال مثل هذه التصورات سائدة بين بعض الأوساط في العلوم الإنسانية التي لا تزال تَصدُر عن تصور علمي سببي صلب عفى عليه الزمان) . وفي إطار النظم المادية (الرواقية والأبيقورية على سبيل المثال) نجد أن ثمة جبرية كاملة ، فالعالم كله مادة واحدة ، جوهر واحد خاضع لقانون ثابت شامل لا استثناء فيه ، ولذا ليس من المتوقع تَغيُّر أي شيء ، ومن ثم يأخذ التاريخ شكل دورات كونية متكررة متشابهة .

إن إشكالية نهاية التاريخ إشكالية كامنة في الفكر الديني والفلسفي الغربي ، ولكنها تتحول إلى موضوع أساسي في الحضارة الغربية منذ عصر النهضة ، فالفكر المادي الرياضي الآلي يرفض تنوع التاريخ وجدليته ويحل محله عالماً بسيطاً آلياً يتحرك كالآلة أو

الساعة الدقيقة (صورة نيوتون المجازية)، وتتحرك فيه الأجسام الإنسانية كالأحجار المندفعة (صورة إسبينوزا المجازية) ، ويصبح عقل الإنسان صفحة مادية بيضاء (صورة لوك المجازية) ، ويصبح الإنسان في نسق الآلة وبساطتها (صورة جوليان دي لامتري المجازية). وتتضح إشكالية نهاية التاريخ بشكل متبلور مع ظهور فكرة اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية ، التي تنسلخ عن التاريخ الإنساني لأنها تُدار وفق العقل الذي يُدرك القانون أو العلم الطبيعي الذي لا علاقة له بالقوانين الاجتماعية والتاريخية والإنسانية (لأن قوانين العقل تماثل قوانين الطبيعة) ، فاليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية ، من ثم ، تعبير عن رغبة حقيقية وصادقة في وضع الحلول النهائية لكل المشاكل وتأسيس الفردوس الأرضي وإنهاء التاريخ .

ويوتوبيا عصر النهضة في الغرب هي إرهاصات لهذا الفكر التكنوقراطي الحديث والرغبة في التحكم الكامل النابعة من الرؤية الواحدية المادية . ومن أهم هذه اليوتوبيات يوتوبيا سير توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) الذي وصف نظاماً تسوده الملكية العامة وعلاقات المساواة والتسوية وتُلغَى فيه مؤسسة الأسرة . ومن اليوتوبيات الأخرى ، يوتوبيا توما كمبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩) الذي صور مجتمعاً طوباوياً اشتراكياً في كتابيه **دولة المسيح** و **مدينة الشمس** تسقط فيه الملكية الخاصة وتنتهي الأسرة وتقوم الحياة الجماعية وتنتهي الفردية تماماً ، إذ يتم تخطيط كل شيء ومراقبة كل الأفراد والوفاء بحاجاتهم المادية والروحية ، وهو ما يريح الإنسان من عبء المسئولية والاختيار ويحل المشكلات والتناقضات الاجتماعية والتاريخية كافةً . ومدينة الشمس هي انعكاس لعالم الطبيعة ، التي لا يحكمها سوى القوانين الطبيعية ، وأعظم الرجال هو من يفهم هذه القوانين ويوظفها . ويحكم كل هذا الساحر/ الكاهن (العالم والتكنوقراط) الذي يوجه حياة المدينة لتكون على وفاق تام مع الكون والطبيعة . ولذا ، كان من الهموم الأساسية للمدينة تحديد اللحظة المناسبة (من الناحية الفلكية) التي يعاشر فيها الذكر الأنثى حتى تضمن أن يُولَد طفل صحيح (من الناحية البدنية) متوازن (من الناحية النفسية) ، أي أن مدينة الشمس هي يوتوبيا علمية كاملة ، رحم اجتماعي جمعي ، يتم فيه التحكم في ظاهر الإنسان وباطنه (ومن المثير أن كامبانيلا كان يؤمن بمقدراته المشيحانية ، فكان يعتقد أن النتوءات السبعة على وجهه تمثل السماوات السبع ، أي أنه على علاقة بالقوى الكونية . كل هذا يجعل من كامبانيلا رائداً للشخصيات الكاريزمية النيتشوية الحديثة مثل روبسبيير وهتلر وستالين المرتبطين باليوتوبيا التكنولوجية والتكنوقراطية) . أما يوتوبيا سير فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) **أطلانطيس الجديدة** ، فهي يوتوبيا علمية نماذجية إذ يحكمها العلماء وأصحاب

الخبـرة (من بيت سليمـان) حيث تُوجِّه الدولة كل شيء ولا يوجد مـجال للتناقضـات والاختلافـات . (ورغـم أن كل هذه اليوتوبيات متفـائلة إلا أنهـا وثيقة الصلة بكتاب هوبز **التنين** ، حيث قـدَّم هو الآخر رؤية للـدولة التي يمكنهـا أن تتـحكم في كل شيء ، وتُوجِّه كل شيء ، وتضع حلولاً نهائية لسائر المشاكل ، ولذا فهي تحل محل الضمير الشخصي ، والفارق أن هـوبز كـان يرى أن إمكانيـة الإنسـان للشـر ضـخمـة ، أمـا اليـوتوبيون فـلم تكن عندهم نظرية في الشر) .

ويظهر رفض التاريخ بطريقة أكثر تركيباً في فكر حركـة الاستنارة في لحظات تمركزه حول العـالـم وتهـميشه للإنساني والخاص . وينطلق هذا الفكر من تأكـيد أن التـاريخ هو نشاط إنسـاني ، فهو ثمرة جهد عقل الإنسـان وهو مستودع حكمته . ولذا فـهناك نزعة في فكر الاستنارة لتمـجيد التـاريخ . ولكن قـوانين العـقل هي نفسـهـا قـوانين الطـبيعـة والمادة والحركة ، والعقل المستنير لا يستمد معياريته إلا من دراسة الطبيعة والمادة والحركة . ولذا بدلاً من الغائية التقليدية التي ترى أن التاريخ يسير بتوجيه إلهي ، طُرحت فكرة جديدة تماماً على الفكر البشري وهي أن التاريخ يتحرك إما دون غائية فهو حركَة دون هدف (تماماً مثل الطبيعة/ المادة) أو أن غـائيته مثل معياريته مستمـدة من الطبيعة/ المادة . وغني عن القول أن الرؤية الأولى تنسف فكرة التاريخ تماماً . أما المفـهـوم الثاني فتفرعت عنه رؤية للتاريخ تراه في حالة تَقَدُّم دائمة . ولكنه تَقَدُّم مرجعيته النهائية هي الطبيعة/ المادة ، وهدفه النهائي هو تحقق قـوانينها في التاريخ ، ومن ثم يصبح التقـدم هو تزايد تطبيق القـوانين الطبيعية إلى أن تسود هذه القوانين تماماً (ويصبح المجتمع الإنساني في بساطة عالـم الطبيعة) . وانطلاقاً من هـذه الرؤية ، التي تسـاوي بين العـقلي والطبـيـعي وبين الإنسـاني والمـادي ، وضع كوندروسيه مخططاً بسيطاً لتقدم العقل البشري بيَّن فيه أن قـانون التقدم اللانهائي هو خير مبدأ لتفسير التاريخ ، ومن هنا ظهرت فكرة المراحل التاريخية التي سيطرت على الفكر الغربي ، وهي تشكل في جوهرها ابتعاداً عن الغائيات التقليدية وتحققاً للغائيات الحديثة : المرحلة اللاهوتية ـ المرحلة الميتافيزيقية ـ المرحلة الوضعية وهي مـرحلة سيادة العـقل والعلم ، ولكنهـا أيضـاً ، في نهـاية الأمـر وفي التـحليل الأخيـر ، مـرحلة سيطرة القـانون الطبيعي ، وهذا هو قـمة التقـدم وهذه هي غـايته . فكأن رؤية عصر الاستنارة التي بدأت بالتمـركـز حـول العـقل الإنسـاني والتـاريخ الإنسـاني ، تنتهي بـالتمـركـز حـول الطبيعـة والقانون المادي ، وهو مـا يعني التحرك بخطى حثيثة نحو نهـاية التاريخ . فـالتـاريخ ، من هذا المنظور ، يصبح مجرد تعبير عن القانون الطبيعي ، والتقـدم إن هو إلا عملية تراكمية مادية آلية تتم حسب قوانين الطبيعة الكامنة في المادة ، وليس لها غرض إلهي أو إنساني ،

وما يُحرك التاريخ (باعتباره جزءاً من الطبيعة/ المادة أو لصيقاً بها) ليس الإرادة الإنسانية وإنما العناصر المادية مثل وسائل الإنتاج ورغبة الإنسان الطبيعي في التملك أو القتال . وعلى الإنسان أن يخضع لمسار التاريخ الصارم وحتمية التقدم باعتباره تعبيراً عن القانون العام الذي يحكم الإنسان والطبيعة والكون . ومن هنا شاع الحديث عن «الحتمية التاريخية» (التي تحركها قوى علاقات الإنتاج المادية) وعن «قوانين التاريخ الصارمة» (التي لا تختلف عن القوانين الطبيعية/ المادية) .

وانطلاقاً من هذا المفهوم المادي للتقدم التاريخي ظهرت عدة مواقف تبدو كما لو كانت متناقضة ، ولكنها تضرب بجذورها في هذه الرؤية المعادية للتاريخ :

أ) يرى البعض أن عملية التقدم المادية التراكمية ستصل إلى منتهاها يوماً ، حين يسود العقل تماماً ويتحكم الإنسان في المادة وفي نفسه ، فيسيطر على الطبيعة المادية ويصلح الطبيعة البشرية ويصل إلى الحكم التكنوقراطي الرشيد ، أي نهاية التاريخ . والتطور التاريخي بهذا المعنى يؤدي إلى إلغاء التاريخ ، وإلغاء التاريخ يؤدي إلى إلغاء ظاهرة الإنسان تماماً (أوليس الإنسان ظاهرة تاريخية فقط كما تعلمنا من مفكري عصر الاستنارة أنفسهم ؟) ولذا ، كان تفاؤل المستنيرين الخاص بتطور التاريخ ينقلب في بعض الأحيان إلى تشاؤم عميق ، وكان التبشير به يتحول إلى تحذير منه ، ذلك لأنهم أدركوا أنه تطور قد يؤدي إلى إلغاء الإنسان الفرد لصالح حركة التاريخ الحتمية وتقدمه المادي اللا متناهي ، وأن بروميثيوس تحول إلى فرانكنشتاين الآلي (في منتصف القرن الثامن عشر) ، ثم إلى دراكيولا العضوي (في منتصف القرن العشرين) ثم إلى مجموعة من المخلوقات المخيفة التي تحاصر الإنسان وتقضي عليه (في روايات الخيال العلمي وأفلام هوليود) .

ب) كان يُنظَر للتاريخ الإنساني كما نعرفه باعتباره تاريخاً مزيفاً ، مجرد تراكم لمعلومات وحقائق حضارية مصطنعة تُبعد الإنسان عن حالة الطبيعة الأولى (المرجعية النهائية) . وهنا يصبح التقدم اغتراباً عن جَوهر الإنسان (الطبيعي) ، وتُطرَح أفكار معادية للتاريخ ، مثل النزعة البدائية التي تطالب بالعودة للطبيعة وللإنسانية البدائية (المرحلة الشيوعية الافتراضية قبل أن تسود الحضارة وينتشر التفاوت بين الناس) . وظهرت نظريات للتاريخ تُبيِّن أن مسار التاريخ إنما هو تعبير عن التدهور المستمر للإنسان .

جـ) ظهر الفكر الثوري ذو النزعة الجذرية الذي يحاول نسف التاريخ " الزائف " تماماً بهدف تغيير مساره ! وتأسيس التاريخ " الحقيقي " على أسس علمية طبيعية (ومن هنا يشير ماركس على سبيل المثال إلى أن التاريخ الإنساني كما نعرفه ليس إلا مرحلة ما قبل التاريخ ، وأن التاريخ الحقيقي سيبدأ بعد الثورة الشيوعية أو الاشتراكية) .

وقد عبَّرت هذه الرؤية الاستنارية للتاريخ عن نفسها في فلسفة هيجل (التي تؤكد فكرة التقدم والغائية الطبيعية/ المادية) وفي الفلسفات التي ثارت على الهيجلية (التي تنفي عن التاريخ أية غائية) . والفلسفة الهيجلية في تصورنا تشكل وحدة وجود روحية/ مادية ، أو هي بالأحرى فلسفة مادية تستخدم ديباجات روحية بذكاء شديد لا تُفرِّق بين الروح والطبيعة وبين العقل والتاريخ . إذ تفترض الهيجلية أن ثمة فكرة ليس لها وجود مادي أو نسبي ، هي التي تحرك التاريخ والمجتمع والإنسان والطبيعة . ويُطلَق على هذه الفكرة عدة أسماء : الفكرة المطلقة - العقل المطلق - الروح بشكل عام (جايست) - الروح اللامتناهي . ولكن المطلق ليس سكونياً ، فهو لن يُدرك نفسه إدراكاً كاملاً ولن يتحقق تحققاً كاملاً إلا في الطبيعة والزمان والتاريخ ، وذلك عبر عملية جدلية تتداخل فيها المتناقضات وتتحدد من خلالها الأضداد ، إلى أن يصبح الفكر طبيعة ، وتصبح الطبيعة فكراً . وهذه الوحدة الكونية النهائية ممكنة لأن قوانين الفكر هي في واقع الأمر قوانين المادة ، وقوانين المنطق (العقل) هي في واقع الأمر قوانين الطبيعة .

كل هذا يعني أن الفلسفة الهيجلية ، رغم كل حديثها عن الجدل والتناقض ، فلسفة واحدية تسد الثغرة التي تفصل بين الإنساني والطبيعي وتلغى ثنائية الفكر والمادة ، ومن ثم تمحو الإنسان كظاهرة متفردة مستقلة عن الطبيعة . ولهذا قيل عن حق إن الهيجلية فلسفة لا تعرف الثنائيات ولا تفصل بين المادي والمثالي ، أو بين الطبيعي والإنساني ، أو بين المقدَّس والزمني ، إذ سيُردُّ كل شيء إلى عنصر واحد ، مادي فعلاً روحي اسماً .

والرؤية الهيجلية لا تنظر إلى الواقع إلا من منظور نهاية التاريخ حين يتجسد العقل الكلي . ولهذا ، لا يرى العقل الهيجلي إلا الفكرة المطلقة ، بينما يهمل التفاصيل والظواهر المختلفة (فما هي إلا تجسدات متساوية في الدرجة والقيمة) . والفكرة المطلقة المجردة غير محسوسة ، ومع هذا يمكن لبعض البشر إدراكها وتجسيدها (طليعة الطبقة العاملة ـ العلماء والمتخصصون والتكنوقراط - الفوهرر) ومثل هؤلاء يعرفون أن التفاصيل والتناقضات في جوهرها غير حقيقية ، وأنها ، مهما كان عمقها ليست إلا حلقة مؤقتة في سلسلة تؤدي إلى لحظة تتحقق فيها الفكرة المطلقة (الدولة البروسية أو الدولة النازية أو الدولة الصهيونية أو ديكتاتورية الطبقة العاملة أو اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية) ، وهي لحظة ينتهي فيها الجدل وتنتهي المعاناة الإنسانية ، إذ يصل الإنسان إلى الحل النهائي لكل مشاكله ، فتنتهي هذه المشاكل ويُحكم السيطرة على كل شيء . وباسم هذه المعرفة سيقوم هؤلاء العارفون بقوانين التاريخ والطبيعة بفرض حلمهم النهائي على الواقع

الإنساني المركب وبذا يصلون إلى نهاية التاريخ . ولكن من المفارقات أن لحظة السيطرة الكاملة هذه هي أيضاً لحظة انتصار البسيط على المركب والطبيعي على الإنساني .

ثم قامت الثورة على الهيجلية التي تبدأ مع كير كجارد وغيره وتتبلور في فكر نيتشه وتصل إلى ذروتها في فلسفة ما بعد الحداثة . وهي ثورة تنكر فكرة الجوهر والمركز والغاية والسببية وأي شكل من أشكال اليقينية . ولذلك ، سُمِّيت الفلسفات المعادية للهيجلية «فلسفات معادية للفلسفة» ، أي معادية للعقل . ومثل هذه الفلسفات معادية للتاريخ بشكل جذري وواضح . فكأن كلاً من الهيجلية والثورة عليها ، رغم تناقضهما ، يصبان في نفس المصب .

وقد استخدمت مصطلح «نهاية التاريخ» لأول مرة عام ١٩٦٥ حينما كنت أكتب رسالتي للدكتوره عن الشاعر الأمريكي وولت ويتمان الذي وصفته بأنه شاعر حلولي صوفي مادي يعادل بين الروح والمادة ويقرن بينهما (على طريقة هيجل) . وهو يتغنى بالمادة والجنس والكهرباء والجاذبية الأرضية التي يرى أنها تشبه الجاذبية الجنسية . فالإنسان إن هو إلا جزء لا يتجزأ من الكون ووعيه لا يتجاوز الطبيعة ، بل عليه أن يتكيف معها ويذعن لها . كما أن إيمان ويتمان المطلق بالطبيعة (وعداؤه للإنسان المركب التاريخي) يترجم نفسه إلى عداء للتاريخ يتضح في محاولته الوصول إلى نهاية التاريخ وإلى اليوتوبيا التكنولوجية . وكان ويتمان يرى أن أمريكا هي هذا الفردوس الأرضي الذي تسود فيه قوانين الطبيعة/ المادة ، قمة التطور التاريخي السابق كله ، فهي دولة العلم والتكنولوجيا التي ستهدم التاريخ وتعلن نهايته (وذلك قبل أن يتحدث فوكوياما في نهاية الثمانينيات عن التلاقي الكامل أو عن انتصار الليبرالية التي تؤدي إلى نهاية التاريخ) . وكما يقول ويتمان " جوهر المثالية [الأمريكية] هو علموة to scientize الروح والشرائع اليونانية " ، أي صبغها بالصبغة العلمية أو فرض قوانين علمية (تم استخلاصها من عالم الطبيعة) عليها حتى يدير الإنسان حياته من خلالها بطريقة علمية (وهذا هو أساس فكرة وحدة العلوم واليوتوبيا التكنولوجية) . ويظهر التاريخ كجثة هامدة في شعر ويتمان الذي تسود فيه رؤية واحدية يُردُّ فيها التاريخ بأسره إلى مبدأ واحد هو الطبيعة/ المادة - " القانون الذي لا يتغيَّر " ؛ الحتمي مثل قوانين الشتاء والصيف ، والنور والظلام ! " .

وشعر ويتمان مفعم بهذه " الرغبة في العودة " الحرفية والمادية والدائمة إلى الطبيعة . وكثير من قصائد ويتمان تبدأ بالابتعاد التدريجي عن الحضارة والاقتراب المتزايد من الطبيعة إلى أن يلتحم بها تماماً ، ويصل إلى اللحظة النماذجية ، لحظة ذوبان الذات

الإنسانية في الطبيعة المادية ، وهي عادة ما تكون لحظة قذف جنسية (مع محب من جنسه) يُعلن فيها تحرره من عبء التاريخ ومن التدافع ومن الحضارة والهوية ، فهي لحظة نهاية التاريخ وتحقُّق الفردوس الأرضي .

ثم استخدمت مصطلح «نهاية التاريخ» بشكل أكثر شمولاً في كتابي **نهاية التاريخ** (عام ١٩٧٢) ، لوصف النماذج الحلولية الواحدية المادية الشاملة التي تترجم نفسها في عالم السياسة إلى نظم طوباوية شمولية فاشية . وبيَّنت أن مثل هذه النماذج تحوي داخلها دائماً « قابلية لإعلان نهاية التاريخ ، فما هو مجهول ليس بغيب وإنما هو أمر غير معروف بشكل مؤقت . إذ من المتوقع أن يكتشف الإنسان بالتدريج قوانين الحركة خلال عشرات السنين من المحاولة والخطأ ، وستنكمش رقعة المجهول تدريجيًا وتتسع رقعة المعلوم ، وسينحسر الجهل بالتدريج مع تَزايُد الترشيد والاستنارة إلى أن نصل في التحليل الأخير وفي نهاية الأمر والتاريخ » إلى نقطة التوهج الأخيرة والرشد الكامل بحيث يصبح كل شيء واضحاً وتوضع الحلول النهائية لجميع المشاكل ويتم التحكم في كل شيء ، ويتم تفسير كل شيء في ضوء القانون العام فتُمحى الثنائيات والمطلقات ويختفي الإنسان . ومن ثم ، فإن نقطة التوهج هي في الواقع نقطة الاحتراق ، وهي أيضاً نقطة نهاية التاريخ ونهاية الإنسان باعتباره كائناً مركباً متعدد الأبعاد لا يمكن رده إلى الطبيعة/ المادة ، وهي أيضاً النقطة التي سيظهر فيها إنسان جديد رشيد يعيش حسب قوانين الطبيعة المادية العلمية ، ومن ثم فهو خاضع للتحكم العلمي .

وتناولت الموضوع مرة أخرى في مقدمة كتاب **الفردوس الأرضي** (١٩٧٩)، حيث تحدثت عن الإنسان الطبيعي والإنسان التاريخي ، وبيَّنت أن الإنسان الطبيعي إنسان لا حدود له ، يرفض الحدود التاريخية ، هو إنسان روسو الحر الفرح الآمن الذي يتحول إلى إنسان داروين المتجهم الذي تأكله الذئاب من الحيوانات الطبيعية أو من البشر الطبيعيين (وقد تحول أخيراً إلى كلب بافلوف المسكين ، القابع في المعمل ، لا باطن له ، والذي لا يتحرك إلا بعد تلقي الإشارات البرانية) . وأشرت إلى أن الإنسان التاريخي يتسم بالثنائية " فالإنسان يعيش في التاريخ ، يفصل بين المطلق والنسبي ويبحث عن المطلق خارج التاريخ ، إذ أن التاريخ لا نهاية له ، ولن نصل بتاتاً إلى لحظة السكون التي يتحقق فيها الفردوس الأرضي والتي ينتفي فيها الجدل ويتداخل فيها المطلق والنسبي ويصبح التاريخ دائرياً مثل الطبيعة " . وقد ربطت هذه النزعة الفردوسية اللاتاريخية بما سميته حينذاك «الغيبية العلمية» التي تدَّعي لنفسها احتكار الحقيقة المطلقة والتي تنسب لنفسها القدرة

على تحقيق الفردوس « الآن وهنا » بإشباع كل رغبات البشر ، ذلك إن استسلم الناس لها « وأسلموا لها القياد ، متبعين آخر الأساليب العلمية التي لا يعرفها بطبيعة الحال إلا العلماء » .

وهذه الرؤية الفردوسية العلمية رؤية « ميكانيكية بسيطة تفترض أن الإنسان كمٌ محض لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى » يعكس بيئته بشكل مباشر وبسيط . وقد وجدت أن هذا التيار ليس مقصوراً على العالم الرأسمالي بل يوجد أيضاً في العالم الاشتراكي . حيث عبَّرت هذه المفاهيم جميعاً « عن نفسها في فكرة «التقدم» السريع والدائم نحو الفردوس العلمي المنظم (اليوتوبيا التكنولوجية) الذي يعيش فيه الإنسان كالأطفال في تناسق تام مع الطبيعة وكأنه آدم قبل السقوط وقبل أن يكتسب معرفة الخير والشر » .

ويمكن القول بأن النموذج الكامن وراء جميع الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية ـ الماركسية ـ الليبرالية ـ الصهيونية) هو ما يُسمَّى «التطور أحادي الخط» (بالإنجليزية : يوني لينيـــار unilinear) ، أي الإيمان بأن ثمة قانوناً علميًا وطبيعيًا واحداً للتطور تخضع له المجتمعات والظواهر البشرية كافةً ، وأن ثمة مراحل تمر بها كل المجتمعات البشرية تصل بعدها إلى نقطة تتلاقى عندها سائر المجتمعات والنظم بحيث يسود التجانس ، وهذا ما يُسمَّى أيضاً «نظرية التلاقي» (بالإنجليزية : كونفيرجانس ثيري convergence theory) . والتلاقي هو تَوحُّد النماذج كلها بحيث تتبع نمطاً واحداً وقانوناً عامًا واحداً هو قانون التطور والتقدم بحيث يصبح العالم مكوناً من وحدات متجانسة ؛ ما يحدث في الواحدة يحدث في الأخرى .

ويرى بعض المؤرخين أن العصر الحديث هو عن حق عصر نهاية التاريخ ، فالحضارة الحديثة المرتبطة بآليات السوق ، وبالعرض والطلب ، هي حضارة مرتبطة بآليات بسيطة لا تعرف تركيبية الإنسان وتنكر مقدرته على التجاوز ، فهو إنسان ذو بُعد واحد (يعيش في مجتمعات أحادية الخط) ، وعقله عقل أداتي (يغرق في التفاصيل والإجراءات ، ولا يمكنه إدراك الأنماط التاريخية أو تطوير وعيه التاريخي) . فالسوق (والمصنع) بآلياتهما البسيطة يتطلبان إنساناً طبيعيًا ماديًا بسيطاً ، ليست له علاقة بالإنسان الإنسان ، الإنسان المركب . والمجتمعات الاستهلاكية التي لا تحكمها إلا آليات العرض والطلب والاستهلاك والإنتاج تزعم أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان المادية والروحية من خلال مؤسساتها الإنتاجية والتسويقية والترفيهية .

ويُلاحَظ في العصر الحديث تَزايُد هيمنة البيروقراطية والتكنوقراطية والتحكم في البشر من خلال الهندسة الوراثية والبيولوجيا الاجتماعية وعمليات الترشيد المتحررة من القيمة، وهذا علامة على شيوع فكرة نهاية التاريخ. وكما قال ألدوس هكسلي متهكماً، واصفاً إمكانيات تكنولوجيا اليوتوبيا والفردوس الأرضي: «في عام ٥٢٠٠ سيحكم الأرض عالم جديد شجاع، مبادئه المساواة والتماثل والاستقرار. وسيكون علم البيولوجيا هو العلم الرئيسي في هذا العالم، سيُمكِّن الإنسان من الحصول (من الحاضِنة) على كائنات بشرية متشابهة وفق معايير مُوحَّدة. وسيعمل آلاف من التوائم على الآلات نفسها، ويقومون بالأعمال نفسها... ». ويُعلق علي عزت بيجوفيتش (المفكر المسلم ورئيس جمهورية البوسنة) على ذلك بقوله: «في هذا العالم الرائع لن يوجد أناس خاطئون، قد يوجد بعض الأفراد المعاقين، ولكنهم لا يكونون مسئولين عن إعاقتهم، ولا يعاقبون عليها [ولذا] سيتم فكهم من الآلة ببساطة. في عالم كهذا، لن يكون هناك خير ولا شر... ولن يكون هناك إلهام ولا مشكلات ولا شكوك ولا عصيان. هنا يتم القضاء على الدراما وعلى الإنسان وتاريخه، ويرتفع صرح اليوتوبيا».

بل إن نهاية التاريخ أصبحت لأول مرة في تاريخ البشرية إمكانية قائمة بالمعنى الحرفي، فالتلوث الكوني يتزايد إلى درجة تهدد الحياة على وجه الأرض، وقد تراكم لدى البشر كمٌّ من الأسلحة يكفي لتدمير العالم أكثر من عشرين مرة. وهذه آلية تكنولوجية رائعة لإنهاء التاريخ والجغرافيا بطريقة رشيدة بسيطة شاملة حديثة لا تسبب ألماً كبيراً ولا تستغرق سوى لحظات، وهي من ثم تحقق حلم الإنسان العلماني الشامل بالتأله الكامل والتحكم الشامل في كل شيء، وضمن ذلك يوم القيامة!

ورغم مركزية فكرة نهاية التاريخ (والحلول النهائية والفردوس الأرضي واليوتوبيا التكنولوجية) إلا أن حدة الحمى الطوباوية المشيحانية التكنولوجية تختلف من عقيدة لأخرى. فهي خافتة مثلاً في الفكر الليبرالي، ولكنها ولا شك كامنة فيه، فهو فكر يدور حول فكرة التقدم والإيمان بأن ما هو مجهول لابد وأن يصبح معروفاً (فلا مجال للمجهول أو للغيب)، الأمر الذي يعني تَزايُد التحكم (الإمبريالي) في الواقع، إلى أن يصل الإنسان إلى قدر عال من المعرفة العلمية لقوانين الطبيعة، بحيث يمكن تحقيق ما يشبه السعادة الكاملة المخططة المُبرمَجة، أي الفردوس الأرضي.

وإذا كانت الحمى المشيحانية التكنولوجية خافتة في النموذج النفعي العقلاني الديموقراطي الليبرالي، فهي تزداد سخونة في الفكر الماركسي لدى حديثه عن المجتمع

الشيوعي ، حيث تزول كل الحدود ويتطابق الداخل والخارج ويتحقق الفردوس الأرضي . وتصل السخونة إلى درجة الغليان والانصهار في الستالينية حيث يتم إصلاح العالم بقرارات وزارية وعسكرية مادية جدلية علمية رصينة تطرح الحلول النهائية التي تكفل إزالة جميع العناصر المُقاومة للتقدم وسائر الانحرافات التي تخرج عن المسار الحتمي والواضح المؤدي إلى السعادة الكاملة وإلى تحقيق المجتمع الشيوعي العادل (وقد شبَّه أحدهم نهاية التاريخ بأنه بوليس سري يطرق على باب المعارضين) . وفي ألمانيا النازية ، كان الرايخ الثالث هو الترجمة المباشرة للعقيدة الألفية ذات الطابع المشيحاني (وكان المفترض فيه أن يستمر لمدة ألف عام) . ففي الرايخ الثالث كان سيتم القضاء على كل آلام الشعب الألماني ويتم تحقيق الرخاء الأزلي ، الأمر الذي كان يتطلب إزالة بضعة ملايين من الأطفال المعوقين والعجزة والغجر والسلاف واليهود ممن لا نفع لهم ، فنهاية التاريخ تتطلب بطبيعة الحال الحل النهائي .

ونحن نذهب إلى أن المجتمعات الاستيطانية من أكثر المجتمعات عداءً للتاريخ ومن أكثرها طموحاً نحو إعلان نهايته ، كما أن المجتمعات الاستيطانية الإحلالية داخل التشكيل الاستيطاني هي أكثرها تطرفاً . فالبيوريتان (المستوطنون البيض الأوائل في الولايات المتحدة) كانوا ينظرون إلى أمريكا الشمالية باعتبارها صهيون الجديدة ، وباعتبارها أرضاً عذراء ، بلا تاريخ ولا ذاكرة ولا بشر ، وكانوا يعتبرون أنفسهم العبرانيين الجدد الذين « يصعدون » من أوربا الكافرة إلى إرتس يسرائيل الأمريكية . وكان هذا يعني ضرورة وضع حل جذري ونهائي للمشكلة الديموجرافية ، أي مشكلة وجود السكان الأصليين في أرض الميعاد ، وضرورة استئصال شأفتهم تماماً .

ويزعم التجمع الصهيوني الاستيطاني الإحلالي أن تاريخ بلد مثل فلسطين توقف تماماً برحيل اليهود عنه ، وأن تاريخ اليهود أنفسهم في المنفى توقف هو الآخر برحيلهم عن فلسطين . وتحاول الحركة الصهيونية أن تضع " حلاً نهائيّا" لكل هذا وتقوم بتجميع المنفيين في صهيون أو إسرائيل لاستئناف تاريخهم اليهودي ، ولكن هذا التاريخ الفردوسي المقدَّس هو في جوهره نهاية لتاريخ اليهود في المنفى (أي تواريخ كل أعضاء الجماعات اليهودية عبر الزمان) ، كما أن استئناف هذا التاريخ الفردوسي يعني بطبيعة الحال إنهاء التاريخ العربي .

الترانسفير :

يتواتر مصطلح «ترانسفير transfer» في هذه الدراسة ، وهو مصطلح مرتبط تمام الارتباط بالداروينية والعلمانية الشاملة . و«ترانسفير» كلمة إنجليزية تعني حرفيًا «النقل» ، وتُستخدَم عادةً للإشارة إلى طرد عنصر سكاني من محل إقامته وإعادة توطينه في مكان آخر . وهي تُستخدَم في الخطاب السياسي العربي للإشارة إلى المحاولة الدائبة من قبل الصهاينة لطرد العرب ونقلهم (ترانسفير) من فلسطين ، إلى أي مكان خارجها ، ونَقل (ترانسفير) اليهود إليها .

ولكننا نذهب إلى أن الترانسفير ، في واقع الأمر ، يعبِّر عن شيء جوهري وبنيوي في الحضارة الغربية الحديثة يتجاوز المستوى السياسي ، ويتجاوز الصراع العربي الإسرائيلي . فنحن نرى أن الحضارة الغربية حضارة علمانية شاملة تدور في إطار المرجعية المادية (وإنكار التجاوز ونزع القداسة) ولذلك ، تتبدَّى جميع ملامح هذه الحضارة في مفهوم الترانسفير ، سواء من ناحية الرؤية أو من ناحية الممارسة . فهذه الحضارة ترى العالم مادةً استعماليةً لا قداسة لها يمكن تحريكها وتوظيفها ، وذلك لأنه لا توجد قيمة مطلقة لأي شيء ، فالطبيعة قد وُجدت ليهزمها الإنسان ويُسخِّرها ، والإنسان ذاته لابد أن يخضع للمرجعية المادية ، فهو الآخر كيان مادي حركي لا يختلف عن الكيانات الأخرى ، ويمكن نقله وتوظيفه وهزيمته وتسخيره باعتباره مادة استعمالية نافعة . ومن ثم ، فإن الترانسفير ذاته ليس مجرد فعل سياسي أو رغبة أيديولوجية ، وإنما هو مؤشر على نموذج حركي مادي يصيب الإنسان في الصميم ويعيد تعريفه تعريفاً يودي به تماماً . ويمكن أن نعيد النظر في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة باعتبارها حضارة الترانسفير . أي أننا ، هنا ، سنقوم بعملية تفكيك وتركيب لبعض ظواهر هذه الحضارة ، ومن خلال هذه العملية نوضح إجابة النموذج العلماني الشامل على الأسئلة الكلية ونوضح المرجعية النهائية المادية لهذه الحضارة :

أ) بدأت هذه الحضارة بترانسفير أوَّلي هو حركة الاكتشافات حيث انتقل الإنسان الغربي من عالم العصور الوسطى في الغرب إلى أماكن أخرى في العالم ، وفي هذا علمنة كاملة للمكان والحيز حيث يصبح المكان مجرد حيز محايد يُستخدَم ويُوظَّف . كما واكب هذا ما نسميه «الثورة التجريدية» ، وهي ثورة جعلت الإنسان قادراً على التعامل مع الأشياء من منظور مجرد عام حيث يهتم الإنسان بالقيمة التبادلية للأشياء لا بالقيمة المتعينة لها . ومن أهم مظاهر الثورة التجريدية ظهور قطع الغيار التي تتسم بالقياسية والتشابه التام

استبدال (ترانسفير) قطعة غيار بدلاً من الجزء التالف في أي زمان ومكان . ولعله من المهم أن نشير إلى أن حركة الاكتشافات (الترانسفير من مكان إلى آخر) ، والثورة التجريدية (الترانسفير من الخاص إلى العام) ، وقطع الغيار (الترانسفير من قطعة إلى أخرى) ، ترتبط جميعاً بالتطور العسكري لأوربا بشكل أو آخر . فعلى سبيل المثال ، تم تطوير قطع الغيار في أتون الحرب ، حيث كان من الضروري أن يقوم الجندي بتغيير التالف من بندقيته بسرعة حتى يمكنه استئناف القتال .

ب) بعد هذا الترانسفير الوجداني أو الفكري أو الإبستمولوجي (المعرفي) الأوّلي ، بدأت عملية الترانسفير الحقيقية . وتبدت عقلية الترانسفير في الحل الإمبريالي لمشاكل أوربا ، أي تصدير هذه المشاكل من أوربا إلى الشرق ومن بينها المشاكل الاجتماعية .

جـ) تبدَّت عقلية الترانسفير في تصدير المشاكل الاقتصادية لأوربا ، فكان يتم تصدير البضائع الفائضة والبضائع الكاسدة والبضائع الرديئة (مثلما تم تصدير المجرمين واليهود والساقطين سياسيّا) إلى الشرق . واستمر النمط ، فأخذ أشكالاً مختلفة لعل أهمها في الوقت الحاضر الشركات المتعددة الجنسيات التي تشيد الصناعات التي تسبب بدورها نسبة عالية من التلوث في العالم الثالث . كما يقوم الغرب بدفن العوادم الصناعية الملوثة في العالم الثالث (أي أنه يقوم بعملية ترانسفير لها) .

د) من الأشكال المهمة للترانسفير ما تم في عصر الإصلاح الديني ، إذ قام المصلحون الدينيون البروتستانت بنقل المفاهيم الدينية من المستوى المجازي الذي يفترض وجود مسافة أو ثغرة بين الدال والمدلول (فالدال كلمة محددة ، أما المدلول فإنه يضم المعلوم والمجهول ، والمحدود واللامحدود ، والمقدَّس والمدنَّس) إلى المستوى الحرفي المادي . ومن ثم تحوّلت «صهيون» إلى رقعة جغرافية اسمها فلسطين ، وتحول التطلع الديني لها (حب صهيون) إلى حركة نحو استيطانها ، وتحولت أورشليم السماوية (مدينة الإله) إلى القدس الأرضية (عاصمة فلسطين) التي يجب الاستيلاء عليها . وهذا الترانسفير اللفظي هو المقدمة للترانسفير الفعلي (الحركة الصهيونية - الأصولية البروتستانتية المتطرفة) .

هـ) تبلور الترانسفير ، كنمط إدراكي ، مع هيمنة عقيدة التقدم على الإنسان الغربي . فالتقدم هو حركة دائمة ، انتقال من مكان إلى آخر ومن حالة إلى أخرى ، وأصبح الهدف من الحياة هو التقدم/ الترانسفير الدائم . ويُلاحَظ أن لفظ التقدم هو دال بلا مدلول تقريباً ، إذ إن الإنسان الغربي لم يُعرِّف على وجه الدقة الهدف النهائي من التقدم وكل ما هناك أهداف مرحلية لامتناهية . وبالتالي ، فإن الترانسفير ، مثل التقدم ، كلمة تشير إلى حركة بلا مضمون .

و) ويُلاحَظ أن فكرة الترانسفير تجذرت تماماً في الوجدان الغربي الحديث بحيث لا يستطيع الإنسان الغربي رؤية الطبيعة البشرية ذاتها إلا في إطار الترانسفير . ولعل قمة العقلية الترانسفيرية تظهر في تعريف البروفسور ماكس لرنر (وآخرين) للإنسان الحديث بأنه إنسان قادر على تغيير منظومته القيمية بعد إشعار قصير ، أي أن الإنسان كائن حركي يمكنه أن ينجز الترانسفير من منظومة قيمية إلى أخرى بسرعة ، ولا يمارس أي ولاء عميق لأي شيء ، ولا يشعر بأي ألم أو وخز ضمير إن غيَّر ولاءاته وهويته وشخصيته وأهواءه (ومن المعروف أن المغنية مادونا ، قمة ما بعد الحداثة ، تقوم بتغيير شخصيتها مرة كل ثلاث سنوات) . ونحن نعرِّف التحديث بأنه رفض كل العلاقات الكونية والثابتة (مثل علاقات القرابة) والقضاء عليها ، ورفض كل المطلقات والثوابت ، وإخضاع كل العلاقات للتفاوض وكل القيم للتداول (الترانسفير) ، الأمر الذي يحقق للإنسان الحديث حركية عالية وكفاءة منقطعة النظير في أداء أية مهمة توكل إليه .

ز) بل ويمكن القول بأن الترانسفير انتقل كذلك إلى المنظومة المعرفية فيما يُسمَّى «النسبية المعرفية» ، حيث يرفض الإنسان أي يقين معرفي ويرضى بالجزئيات ، فينقل إيمانه من حقيقة إلى أخرى . ومن ثم ، فإن ما يشكل المعرفة بالنسبة له ليس الحقيقة الكلية وإنما حقائق جزئية متغيرة متلاحقة .

ح) يُطبَّق الترانسفير على الذات حينما يتحرك المسنون في المجتمعات الغربية في إطار المرجعية المادية ويقبلون أن يُنقلوا إلى بيوت المسنين ، أو إلى مدن تشكل جيتوات خاصة بهم ، حين يبلغون السن القانونية ويستنفدون عمرهم الإنتاجي الافتراضي . وهم ينتقلون إلى هذه المدن ليمكثوا فيها حتى تحين ساعتهم . وهم يفعلون ذلك عن طيب خاطر ويسعون إليه ويسعدون به طالما كانت المنازل التي سيودعون فيها مكيفة الهواء وتحتوي على كل وسائل الراحة المادية . وبحسب رأينا ، فإن الترانسفير الذي يُطبَّق على العجائز في الغرب يَصدُر تقريباً عن نفس المقولات الترانسفيرية التي تصدر عنها الإبادة النازية لليهود والعجزة والغجر والسلاف وغيرهم . فالنازية كانت تنظر للبشر في إطار المرجعية المادية وفي ضوء مدى «نفعهم» فمن كان نافعاً منتجاً أصبح من حقه البقاء وغير قابل للترحيل ، أما غير النافعين فهؤلاء «أفواه لا يمكن إطعامها» (بالإنجليزية : يوسليس إيترز useless eaters) ، وكان يتم تدريب غالبيتهم في معسكرات الاعتقال ليصبحو نافعين منتجين . أما هؤلاء الذين لا أمل في تحولهم لمنتجين ، فكانوا يُصنَّفون باعتبارهم قابلين للترحيل (بالإنجليزية : ترانسفيرابل transferable) ويمكن التخلص منهم (بالإنجليزية :

ديسبوزابل disposable) . وقد سُوِّيت حالة هؤلاء عن طريق التسخين السريع في أفران الغاز ، وهذا لا يختلف كثيراً عن ترحيل العجائز إلى بيوت المسنين عند انتهاء عمرهم الافتراضي الإنتاجي ، حيث يُتركون في أمان ليموتوا عن طريق التبريد البطيء المريح .

ط) يتبدَّى الترانسفير ، على مستوى الممارسة ، بشكل متبلور فيما يُسمَّى بتنميط المجتمع (بالإنجليزية : ستاندردايزيشن standardization) ، أي أن يتم تنميط السلع في المجتمع وإخضاعها للنموذج الميكانيكي . وبعد أن يتم تنميط الحياة المادية (البرانية) ، يبدأ تنميط الحياة النفسية (الجوانية) . ويظهر هذا فيما نسميه «صناعة اللذة» التي تقوم بتنميط أحلام الإنسان ورغباته وتطلعاته وشهواته من خلال الأفلام والإعلانات والمجلات الإباحية وغير الإباحية . وعملية التنميط هي تعبير منطقي عن عمليات الترشيد في إطار المرجعية المادية. ومع تنميط حياة الإنسان البرانية والجوانية ، نكون قد وصلنا إلى الترانسفير الكامل للإنسان ، ليصبح كزجاجة الكوكاكولا أو قطعة الغيار ، فيمكن نقله من مكان إلى آخر ، ويمكن التخلص منه دون أية أحاسيس بالمأساة أو الملهاة ، وهذه هي اليوتوبيا التكنولوجية الكاملة أو الفردوس الأرضي أو نهاية التاريخ .

ي) ويصل الترانسفير إلى قمته ويتم تكريسه تماماً عندما يختفي مفهوم الطبيعة البشرية في العلوم الإنسانية الغربية (كيف يمكن أن يقوم مثل هذا المفهوم في مثل هذا المجتمع ؟) ويصبح من الرجعية بمكان الاهتمام بأية مطلقات أو ثوابت إنسانية أو مرجعية . فالإنسان هو مجموعة من العلاقات المادية المتغيرة التي يمكن تعريفها إجرائياً وحسب .

ك) والنظام العالمي الجديد هو تعبير عن تصور العالم الغربي ، والقائم على أن إبستمولوجيا الترانسفير والمرجعية المادية هيمنت تماماً على العالم بأسره ، وأنها غزت كل البلاد والشعوب والعقول (أو على الأقل عقول النخب الحاكمة) وأن الجميع على استعداد لأن يغير قيمه بعد إشعار قصير ، وعلى استعداد لاستبعاد القيم الأخلاقية مثل الكرامة والتمسك بأرض الأجداد والدفاع عن المطلقات . فمثل هذه القيم تجعل نقل الأنماط الاستهلاكية ، وانتقال الرأسمال (في شكل الشركات متعددة الجنسيات) ، وتنفيذ توصيات البنك الدولي ، أمراً صعباً . ويتوهم الغرب أننا وصلنا لهذه المرحلة التي تُستبعد فيها القيم الثابتة بسهولة ليتبنى المرء أية قيم أخرى . وقد جاء شمعون بيريس ، حينما كان يشغل منصب وزير خارجية إسرائيل ، إلى القاهرة وجلس مع بعض المثقفين المصريين وأخبرهم أن المسألة كلها تجارة في تجارة ، فالجميع يدور في إطار المرجعية المادية . فالديموقراطية تجارة ، والأوطان بوتيكات وفنادق ، والإنسان وحدة اقتصادية يمكن نقلها

(ترانسفير) . وكما قال أحد المثقفين المصريين « كل الدول تود أن تكون سنغافورة » ، وهي بلد لا تشتهر بهويتها أو قيمها أو إسهاماتها الحضارية ، وإنما بالسوبرماركتات والمقدرة المذهلة على البيع والشراء ، أي أنه بلد يدور تماماً في إطار المرجعية المادية ، حيث ينتقل الإنسان بحركية بالغة من المصنع إلى السوق ومن السوق إلى الملهى الليلي أو وكالات السياحة ، وبالعكس .

ل) ومادمنا نتحدث عن الترانسفير المعرفي الإبستمولوجي ، فيمكننا أن نُعرِّف الترانسفير بأنه أولاً هيمنة المرجعية المادية (في عصر الثنائية الصلبة) ثم اختفاء المرجعية والمركز ، أية مرجعية وأي مركز ، بحيث لا يكون هناك هامش أو مركز ، ولا قمة ولا قاع ، ولا داخل ولا خارج ، ولا فارق بين إنسان وحيوان ، ولا علاقة ضرورية بين دال ومدلول (يتحدث أنصار ما بعد الحداثة عن رقص الدوال) . وهذا وصف دقيق لعالم ما بعد الحداثة حيث لا يمكن لكائن أن يشغل مكاناً متميِّزاً ، وحيث تصبح كل الأمور متساوية وكل الظواهر نسبية ، وحيث الأصل والصورة هما نفس الشيء ، وحيث يمكن لشيء أن يحل محل شيء آخر وتحل كلمة محل كلمة أخرى . وبهذا المعنى ، يمكن القول بأن ما بعد الحداثة هي أيديولوجيا النظام العالمي الجديد حيث ينزلق الجميع من السوق إلى المصنع ، ومن المصنع إلى السوق مروراً بالملهى الليلي ، تماماً كما بشَّر وزير خارجية إسرائيل .

اللحظة العلمانية الشاملة النماذجية :

أشرنا من قبل إلى اللحظة النماذجية كمفهوم تحليلي ، كما أشرنا إلى اللحظة النازية باعتبارها لحظة تَعيُّن النموذج العلمانية الشاملة وتَحقُّقه شبه الكامل . ونحن نشير إلى اللحظة العلمانية الشاملة النماذجية باعتبارها «لحظة الصفر العلمانية» لأن أسطورة الأصل العلمانية الشاملة تذهب إلى أن العالم ظهر بالصدفة المحضة من مادة أولية سائلة غير مُشكَّلة ومن خلال تفاعل كيمائي بسيط أنتج خلية واحدة لزجة تطورت بالصدفة حسب قانون صارم ، ثم نمت وتطورت إلى أن أصبحت الإنسان الطبيعي (المادي) ذا العقل الذي يشبه الصفحة البيضاء الشمعية والذي لا يتمتع بأي انفصال عن الطبيعة . فهو بغير هوية محددة ولا يمكنه تَجاوُز ذاته الطبيعية أو الطبيعة/ المادة ، وهو يعيش خاضعاً تماماً لقوانين الضرورة والصيرورة لا يملك فكاكاً منها ، فكأن كل لحظات وجوده هي سيولة دائمة ، فهي لحظة رحمية (نسبة إلى الرَحِم) كاملة .

ولكن نقطة الصفر لا تنصرف إلى الأصل وحسب ، وإنما تنصرف إلى النهاية (التي تميل إلى الصلابة في بعض جوانبها وحسب) ، فنهاية النموذج العلماني تفترض أن الإنسان سيكون متحكماً تماماً في واقعه متمركزاً تماماً حول ذاته ، فهو كالإله يتجاوز الخير والشر والبكاء والضحك ، ومن ثم يصل إلى نقطة نهاية التاريخ وقمة التقدم والفردوس الأرضي . ولكن هذه اللحظة ، رغم صلابتها، هي أيضاً لحظة رَحميّة يفقد فيها الإنسان مركزيته وحدوده وهويته واستقلاله عن الطبيعة ويصبح جزءاً لا يتجزأ من الكل : الدولة ـ المجتمع ـ الطبيعة ـ الطبقة العاملة . وتسود الواحدية المادية، فيصبح الكون واحديًا ماديًا تماماً ، متساوية أجزاؤه ، ولهذا السبب تكون لحظة النهاية لحظة سيولة كاملة (مثل لحظة البداية) . ولحظة البداية ، شأنها شأن لحظة النهاية ، هي أيضاً لحظة ترانسفير حيث يمكن لأي شيء أن يحل محل أي شيء آخر ، ويصبح قابلاً للاستعمال والتنقل والنقل والترحيل . وهي لحظة تَشَيُّؤ وتَسلُّع وتَوثُّن ، إذ تسري على الإنسان القوانين نفسها التي تسري على الأشياء وتصبح الطبيعة/ المادة هي مرجعيته النهائية المادية فيصبح كائناً طبيعيًّا وشيئاً يشبه الآلة

ويمكن للحظة النماذجية أن تكون لحظة فكرية ، أي أن تتحقق في نسق فلسفي يصل صاحبه إلى جوهر الأمور ، فلا تغشو عيونه غشاوة ، ويمكن أن تكون لحظة فعلية ، أي أن تتحقق في الواقع ذاته ، حين يحاول شخص أو نظام اجتماعي أن يحقق النموذج بحذافيره ويفرضه فرضاً على الواقع .

ولعل من أهم الفلاسفة العلمانيين الشاملين ، من منظور اللحظة النماذجية الفكرية ، الفيلسوف توماس هوبز الذي تشكل كتاباته لحظة تَعيُّن للنموذج العلماني الشامل ولواحديته المادية الصارمة ولمرجعيته المادية الصراعية الوحشية ولإنكاره حرية الإنسان وإرادته ومقدرته على التجاوز . وقد تبعه إسبينوزا بخطابه الهندسي المادي الصارم حيث تختفي أية غائية أو تَجاوُز ويغيب الإنسان تماماً في المجردات اللاإنسانية . وقد أثار هذا الوضوح والتبلور في النماذج قلق كثير من الفلاسفة العلمانيين ، فقاموا بمحاولات يائسة لإضافة محسنات فلسفية وثنائيات ظاهرية واهية . ولعل الجدل الهيجلي هو أهم محاولة في هذا المضمار ، إذ يصر على جدلية الواقع وعلى التجاوز المستمر للمعطيات الحسية للواقع ، ولكنه مع هذا ينحدر إلى نقطة الصفر العلمانية مرة أخرى مع التحام الذات بالموضوع ، ومع نهاية التاريخ حين يتحقق العقل الكلي والمطلق في التاريخ والطبيعة ، وهي النقطة التي ينتهي فيها التجاوز .

وفي الفلسفات الماركسية ، تطل نقطة الصفر العلمانية في عبارة «في التحليل الأخير وفي نهاية الأمر» . فأمام التنوع اللامتناهي للعالم ، أدرك أصحاب النموذج العلماني الشامل أن هناك عالماً من الأفكار والأحلام والاختيار الحر والقيم وكان عليهم رده إلى الطبيعة/ المادة حتى تسود الواحدية . ولذا سُمِّي عالم الأفكار والقيم بـ «البناء الفوقي» ، ووُصف بأنه ليس له وجود حقيقي ، فهو مجرد ظاهرة تابعة (بالإنجليزية : إبي فينومنون epiphenomenon) ، وتعبير باهت عن البناء التحتي ليس إلا ، ويصبح الجهد المعرفي هو فك شفرة البناء الفوقي من خلال البناء التحتي . ويمكن تفسير سلوك الإنسان بهذه الطريقة ، من خلال فهم حركة المادة ، فهي المرجعية النهائية ، فيُفسَّر سلوك الإنسان من خلال العناصر الاقتصادية أو من خلال الجنس أو من خلال ما يُسمَّى «إرادة القوة» ، فكل شيء « في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إن هو إلا مادة » يُردُّ إلى المطلق العلماني النهائي (الطبيعة/ المادة) فيُردُّ الباطن (الروحي الفوقي) إلى الظاهر (المادي التحتي)، وتُردُّ الهوية (الخاصة) إلى القانون العام ، ويحل ما هو غير إنساني محل ما هو إنساني (ترانسفير) . ويتضح لنا أن العقل (في التحليل الأخير) ليس إلا مادة تتراكم عليها الأحاسيس ، وأن الإنسان (في نهاية المطاف) ليس سوى جزء من الطبيعة ، وأن عقله (في نهاية الأمر) ليس غير صفحة مادية بيضاء تتراكم عليها الأحاسيس المادية التي تسجلها الأعصاب ، فتصبح كل الأمور متساوية نسبية خاضعة للقياس ، ويتم كشف كل شيء (أي تفكيكه) . ومن ثم ، يتحقق النموذج تماماً في اللحظة النماذجية وتطل الميتافيزيقا العلمانية الشاملة بوجهها العدمي القبيح حيث يُقوَّض الإنسان تماماً ويُردُّ إلى ما هو دون الإنسان ، وتختفي أية صلابة وتظهر السيولة الكاسحة . وما كان كامناً في النموذج يصبح واضحاً . ويظهر أن الفكر العلماني الشامل ليس فكراً تفكيكيًا بطبيعته وحسب وإنما هو فكر تقويضي كذلك . (وفكر إبادي ، كما نبيِّن في هذه الدراسة) .

وتتضح نقطة الصفر العلمانية في فلسفة نيتشه الذي بلور النموذج العلماني الشامل وحقق السيولة شبه الكاملة واقترب به مرة أخرى من لحظة التَعيُّن الكامل والواحدية المادية الصارمة هذه . فقد أنكر نيتشه الكل والمطلق والمركز والمرجعية والتجاوز والغرض ، وحارب بشراسة ما سماه «ظلال الإله» في الكون وطالب بمحوها تماماً حتى يصبح العالم بلا مرجعية وحتى تنتهي إمكانية التجاوز وحتى تكتسح دوامة الصيرورة كل شيء في طريقها .

وعبَّر ماكس فيبر عن إحساسه بنقطة الصفر العلمانية بعبارة «القفص الحديدي» حيث يدخل كل شيء شبكة السببية الصلبة والمطلقة ، وتصبح المرجعية النهائية مرجعية مادية

صرفة هي القوانين اللاشخصية الصلبة . وفي الخطاب ما بعد الحداثي ، تُستخدَم كلمة «أبوريا aporia» للإشارة إلى نقطة الصفر العلمانية ، وهي كلمة يونانية تعني «الهوة التي ليس لها قرار» ، حيث يصبح العالم هوة من الثقوب السوداء تبتلع كل شيء ، فتسقط المطلقات العلمانية وغير العلمانية كافةً ، وتسقط المطلقات الدينية والمادية على حد سواء ، حتى نصل إلى عالم سائل لا نسق فيه ولا مرجعيات ولا تَجاوُز .

ويمكن القول بأن ما بعد الحداثة هي تحقُّق للعوامل التفكيكية داخل المنظومة التحديثية وأنها تحقُّق للنسبية الكامنة في النموذج التحديثي بحيث تصبح نسبية كاملة وصيرورة تامة وسيولة شاملة . وإذا كانت المنظومة التحديثية أدَّت إلى تفكيك الإنسان وإحساسه باللامعيارية (الأنومي) ، وإذا كانت الحداثة هي احتجاج الإنسان على ما يحدث له ، فإن ما بعد الحداثة هي تطبيع كامل لهذه اللامعيارية وتعبير عن تقبُّل الإنسان لحالة التشيُّؤ الناجمة عن التحديث .

وحتى نزيد من المقدرة التحليلية لمفهوم نقطة الصفر العلمانية سنشير إلى ثلاث لحظات علمانية شاملة نماذجية مختلفة أقل عمومية من لحظة الصفر العلمانية هي ما يلي :

أ) اللحظة السنغافورية ويظهر فيها الإنسان الاقتصادي .

ب) اللحظة التايلاندية ويظهر فيها الإنسان الجسماني .

جـ) اللحظة النازية (والصهيونية) ويظهر فيها الإنسان الطبيعي/ المادي أو الإنسان كمادة محضة .

والإنسان في هذه الحالات جميعاً ، إنسان طبيعي وظيفي ، يُعرَّف في إطار وظائفه البيولوجية والاجتماعية .

أ) اللحظة السنغافورية : نسبة إلى سنغافورة ، وهي بلد صغير في آسيا يتسم بأنه بلا تاريخ ولا ذاكرة تاريخية ولا تقاليد حضارية أو منظومات قيمية راسخة ، ولذا يمكن ببساطة تجاهلها كلها أو تهميشها حتى يتحول الإنسان إلى وحدة اقتصادية قادرة على الإنتاج والاستهلاك والبيع والشراء ، وتصبح البلد كلها مجموعة من المحلات والسوبر ماركتات والفنادق والمصانع ، وينظر الناس إلى أنفسهم لا كبشر وإنما كوحدات إنتاجية استهلاكية . وقد أصبحت سنغافورة حلم كثير من أعضاء النخب الحاكمة في العالم الثالث التي تفهم التنمية في إطار اقتصادي محض . والرؤية السنغافورية هي الرؤية المهيمنة على المنظمات الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدولي والتي تعطي القروض في

هذا الإطار الاقتصادي السنغافوري المحض . وقد اقترح أحد كبار الخبراء في البنك الدولي ذات مرة أن تتخلص الدول الغربية من نفاياتها النووية والعوادم الكيميائية وغيرها من العوادم بإلقائها في البلاد الأفريقية نظير إعطائها بعض المعونات الاقتصادية ، وهذه رؤية سنغافورية كاملة ترى البلاد لا باعتبارها فنادق وأسواقاً ومصانع وإنما باعتبارها مقلب نفايات .

والحظة السنغافورية لحظة أمسكت بتلابيب مجتمع بأسره ، ولكن اللحظة السنغافورية يمكن أن تظهر على هيئة أفراد . ففي الاتحاد السوفيتي ظهرت فكرة أبطال الإنتاج ، وهم بشر (مثل ستهانوف) كانوا يكرسون حياتهم كلها لعملية الإنتاج بشكل يفوق حدود طاقة البشر (وقد انتهت حياة ستهانوف بأن أصيب بالعديد من الأمراض ، كما ظهر أن كثيراً من بطولاته كانت مجرد أكاذيب إعلامية) . كما أن كثيراً من نظريات الإدارة في الولايات المتحدة ذات طابع سنغافوري كامل ، فهي نظريات تدعو إلى إخضاع جميع حركات العامل وسكناته للدراسة حتى يمكن توظيفها تماماً في خدمة الإنتاج لكي يصبح الجميع أبطال إنتاج . وتقوم الإعلانات التليفزيونية بتحويل الجميع أيضاً إلى أبطال استهلاك . والدعوة إلى السوق الشرق أوسطية في عالمنا العربي الإسلامي هي دعوة لتحويل الإنسان العربي الإسلامي إلى إنسان سنغافوري بحيث تتحول كل بلادنا إلى بوتيكات وسوبرماركتات .

ب) اللحظة التايلاندية : نسبة إلى تايلاند ، وهي بلد آسيوي أصبح قطاع البغاء فيه من أهم مصادر الدخل القومي وتكوَّن فيه لوبي قوي من ملوك البغاء والمخدرات حتى أصبح من المستحيل الآن تَخيُّل تايلاند بدون هذا القطاع المهم للغاية . واللحظة التايلاندية تعبير عن الإنسان الجسماني حيث يتحول الإنسان تماماً إلى أداة للمتعة (في عصر ما بعد الحداثة والاستهلاكية العالمية) . وإذا كانت الدعوة إلى تحويل كل البلاد إلى تايلاند مسألة صعبة ، إذ يفزع الناس من نزع القداسة تماماً عنهم ، إلا أن الحديث عن السياحة وتطوير القطاع السياحي يخبئ عادةً نزعة تايلاندية عميقة يتحاشى الجميع مواجهتها .

جـ) اللحظة النازية (والصهيونية) : وهي أهم اللحظات النماذجية وأكثرها مادية ، لأنها تعبير مباشر عن الإنسان الطبيعي/ المادي ، الإنسان كمادة محضة وكقوة إمبريالية مادية كاسحة . فالمجتمع النازي كان يعتبر الإنسان كائناً طبيعيًا مرجعيته النهائية هي الطبيعة/ المادة ومرجعيته الأخلاقية المادية هي إرادة القوة ، ولهذا نظر إلى البشر جميعاً باعتبارهم مادة استعمالية يمكن توظيفها ويقوم الأقوى والأصلح (من الناحية

الطبيعية/ المادية) بهذه العملية لصالحه . ومن هنا ، تم تقسيم البشر ، من منظور مادي رشيد ، إلى أشخاص نافعين وأشخاص غير نافعين ، وتَقرَّر إبادة بعض غير النافعين منهم ممن لا يمكن إصلاحهم وتحويلهم إلى عناصر منتجة ، وذلك بعد دراسة علمية تمت من منظور مادي علمي رشيد .

ويمكن القول بأن معسكر الاعتقال النازي هو مجتمع واحدي مادي نماذجي تم التحكم في كل شيء داخله ، وضمن ذلك البشر ، وطُبِّقت عليهم نماذج رياضية صارمة ذات طابع هوبزي وإسبينوزي تم تطهيرها تماماً من ظلال الإله ، فلا رحمة فيها ولا تراحم ، ولا مجال فيها لأية غائيات أو مرجعيات إنسانية لأن المرجعية الوحيدة هي المنفعة المادية وإرادة القوة . ولذا أُعطي كل إنسان رقماً حتى يمكن إدارة المعسكر بكفاءة شديدة ، وتحوَّل الإنسان إلى مادة استعمالية تُولَّد منها الطاقة (عمالة رخيصة) أو سلع (تحويل العظام إلى سماد ، والشحوم الإنسانية إلى صابون ، والشعر البشري إلى فُرَش . . . إلخ) . وعلى هذا النحو ، تم تعظيم الفائدة وتقليل العادم .

وبالمثل ، لا تُعتبر اللحظة الصهيونية انحرافاً عن الفكر العلماني الشامل الإمبريالي ، بل تمثل تبلوراً حاداً له . فانطلاقاً من الطبيعة/ المادة باعتبارها المرجعية النهائية المادية ومن إرادة القوة وأخلاق الغاب (باعتبارها المرجعية الأخلاقية المادية) نظرت الصهيونية إلى فلسطين باعتبارها أرضاً بلا شعب (أي أنها استبعدت العنصر الإنساني منها) وحوَّلت كل شيء إلى مادة : فأصبحت فلسطين أرضاً تُستغل ، وأصبح الفلسطينيون أنفسهم مادة بشرية تُنقل وتُباد وتُستغل ، وأصبح اليهود أيضاً مادة بشرية يتم تخليص أوربا منها عن طريق نقلها . ولحظة تَبلوُر النموذج العلماني هي عادةً ـ كما أسلفنا ـ لحظة ترانسفير ، حيث يصبح كل شيء قابلاً للاستعمال والنقل .

واللحظات النماذجية الثلاث (السنغافورية والتايلاندية والنازية) ليست منفصلة تماماً ، فهي جميعاً لا تعترف إلا بالطبيعة/ المادة وتحول الإنسان إلى مادة نافعة وتنزع عنه القداسة وتعريه من إنسانيته (بالإنجليزية : دي نيود denude) ، وهو ما نسميه «الإباحية المعرفية» حيث لا حرمات ولا مطلقات ، وحيث يُترك الإنسان عارياً تماماً أمام مؤسسة قوية تدور في إطار المرجعية المادية الكامنة والنفعية الداروينية التي تقوم بحوسلته وتوظيفه . فإذا كان العالم مادة ، وإذا كانت كل الأمور متساوية ، والإنسان مادة لا قداسة لها ليس إلا ، ولا توجد سوى مرجعيات أخلاقية مادية ، فإن النشاط الجنسي ـ عل سبيل المثال ـ مجرد نشاط مادي ، شأنه شأن النشاط الاقتصادي ، ومن ثم يمكن النظر للطاقة الجنسية للإنسان

باعتبارها طاقة طبيعية/ مادية يمكن توظيفها داخل إطار السوق والمصنع ، أي أن تصبح الطاقة الجنسية مادة إنتاجية استهلاكية . ومن ثم ، يمكن أن تظهر تجارة/ صناعة البغاء ، وتصبح البغيّ من أدوات الإنتاج ، وهي في الماخور (في تايلاند أو في أي مكان) لا تختلف كثيراً عن أبطال الإنتاج في المصانع السوفيتية أو الأمريكية ولا عن اليهودي أو السلافي أو المعوقين في معسكرات الاعتقال ، إذ يتحول الجميع إلى مادة استعمالية وإلى طاقة محضة . فالإنسان في اللحظة السنغافورية يتحول إلى طاقة إنتاجية وإلى قدرة شرائية تصب في عملية الإنتاج والاستهلاك القومي . بينما يتحول ، في اللحظة التايلاندية إلى طاقة جنسية تقدم خدماتها للمستهلكين من السياح ، فتحسِّن الدخل القومي وتعدِّل ميزان المدفوعات لحساب الوطن . وفي اللحظة النازية والصهيونية ، يتحول الإنسان غير النافع (اليهودي كمادة بشرية فائضة) إلى مادة استعمالية تزداد إنتاجيتها في معسكرات الاعتقال والسخرة أو في الدولة الصهيونية أو يتم التخلص منها في معسكرات الإبادة حسب مقتضيات الأمور (الأمر الذي يفيد الاقتصاد الوطني كثيراً) .

ونحن نعرف تماماً ، من خلال معرفتنا بالترشيد الإجرائي أو الأداتي ، وأخلاق الصيرورة ، أن طبيعة العمل والهدف منه ليست لهما أية أهمية ، فالمهم هو كيفية إدارته (الأداء والإجراءات) وكيفية توظيف الطاقة البشرية بأقل التكاليف لتحقيق أعلى عائد . ويبدو أن المجتمع الأمريكي الرشيد يشارك في هذه الرؤية ، أو على الأقل قطاعات هامة فيه ، فحينما قُبض على السيدة سيدني بيدل باروز Sydney Biddle Barrows (وهي سيدة من أسرة باروز الأرستقراطية العريقة ، التي أتى مؤسسها على سفينة الماي فلاور ، أول سفينة نقلت المهاجرين الإنجليز إلى الولايات المتحدة) ، وحينما وُجِّهت إليها تهمة إدارة حلقة دعارة في نيويورك ، كان خط دفاعها أن الدعارة هي عبارة عن عمل استثماري ، بيزنس business (وهذا لا يختلف عن خط دفاع أيخمان عن نفسه ، وهو أنه موظف حكومي ينفذ ما يصدر له من أوامر) . وبعد فترة قصيرة من التردد ، نفض الناس عنهم أية مرجعيات ميتافيزيقية متخلفة واستطاعوا أن ينظروا إلى سيدة الماي فلاور بشكل موضوعي، وتحولت قصتها من قصة صاحبة ماخور ، إلى قصة صاحبة عمل ناجح . وهو ما دفعها إلى نشر سيرتها الذاتية تحت عنوان **قصة حياة الماي فلاور مدام** ، أو **حياة سيدني بيدل باروز السرية** . وأصبح هذا الكتاب من أهم الكتب المُتداوَلة وحققت المؤلفة أرباحاً خيالية منه (كما هو الحال دائماً مع مثل هذه الكتب في عصر الفضائح والترشيد الإجرائي) . وبعد ذلك بعامين ، صدر كتاب لنفس السيدة ، وكان أكثر إجرائية ، فقد

كان يُسمَّى آداب الماي فلاور : إتيكيت للراشدين المثقفين **Mayflower Manners : Etiquette for Consenting Adults** . وعبارة « كونسنتج أدلتس » التي ترد في العنوان هي عبارة قانونية تشير إلى أي شخصين بلغا سن الرشد قررا ممارسة الجنس سوياً ، ولذا فعملهما شأن خاص بهما . وفي هذا الكتاب قامت المدام بتعليم النساء كيفية التصرف بلباقة في الفراش ، باعتبار أنها راكمت الكثير من المعرفة في مجال تَخصُّصها. وبعد ذلك بعام واحد ، قامت نفس السيدة الرائدة في مجالها بتدريس مقرر في إحدى المدارس الحرة عن هذا الموضوع . ولا ندري هل ستنتقل إلى المعاهد العليا وأكاديميات البحوث المتخصصة أم لا ؟ وهل ستؤسس تخصصاً أكاديميّا جديداً ؟ وعلى كلٍّ تقوم إحدى مؤسسات الرفاه الخيرية (المجانية) في أستراليا، وهي إحدى المؤسسات المدنية الطوعية غير الحكومية داخل المجتمع (NGO) ، بترتيب دورات تدريبية للبغايا حتى يمكنهن تحسين أدائهن في ساعات العمل الشاقة والمضنية . وحينما سُئل أحد مسئولي الدورة عن الحكمة من وراء ذلك، أجاب بحياد شديد رشيد بأن التخصص هو إحدى سمات العصر وأن كثيراً من عاملات الجنس لا يعرفن قواعد الصحة التي يجب مراعاتها ومناهج الأداء المختلفة وحقوقهن وواجباتهن (وهذا هو قمة الترشيد الأداتي) .

ويُلاحَظ علمنة المصطلحات المستخدمة في وصف عملية تَحوُّل الإنسان المتكامل المركب إلى إنسان طبيعي وظيفي ـ اقتصادي سنغافوري ـ جسماني تايلاندي ـ إمبريالي نازي أو صهيوني . وهذا أمر مُتوقَّع تماماً متسق مع نفسه ، فاللحظة العلمانية الشاملة النماذجية هي لحظة تَشيُّؤ كامل ، ولذا فإن ما يَصلُح لوصف الأشياء ، يَصلُح لوصف الإنسان ، واللغة المحايدة تجعلنا ننسى إنسانية الإنسان . فلم يكن النازيون يتحدثون مطلقاً عن « الإبادة » وإنما عن « الحل النهائي » ، ولم تكن « أفران الغاز » سوى « أدشاش» تُستخدم من أجل الصحة العامة . ولا يتحدث الصهاينة عن فلسطين وإنما عن الأرض التي جاءوا « لزراعتها » (لا لاغتصابها) . ولا يتحدث أحد أثناء اللحظة السنغافورية عن توظيف الإنسان وتَسلُّعه وإنما عن « تحسين مستوى المعيشة وزيادة الإنتاج ، وتوفير الرفاهية والرخاء لأكبر عدد ممكن » ، دون أية إشارة للأبعاد الكلية والنهائية . وتحييد المصطلحات في حالة اللحظة التايلاندية يستحق قدراً من التوقف فإذا كان تحييد المصطلح في حالة اللحظة النازية مأساوياً ، فهو هنا ولا شك كوميدي . إذ يتحول البغاء إلى أهم القطاعات الاقتصادية (كما هو الحال في بعض الدول الآسيوية) . ومن ثم ، تصبح البغيّ (التي يُقال لها في اللغة التقليدية «بروستيتيوت prostitute») في بداية الأمر مجرد عاملة جنس

(بالإنجليزية : سكس وركر Sex worker) ، عضو في البروليتاريا الكادحة تقوم بنشاط اقتصادي منتج ، ثم تتحول بالتدريج إلى بطلة قومية . وبعد قليل ، قد يصبح من واجب الجميع أن يؤدوا واجبهم القومي (والعياذ بالله) .

ولكن لا يمكن لأحد أن يتحلى بمثل هذه الشجاعة وهذا الحياد (إلا فيما ندر) فالبشر ـ والحمد لله ـ لا يمكنهم نزع القداسة عن ذواتهم تماماً وببساطة .

الجماعة التراحمية والمجتمع التعاقدي :

ترد في هذه الدراسة عبارة «الجماعة العضوية التراحمية أو التكافلية» وعبارة «المجتمع التعاقدي» ، وهما مصطلحان من وضع عالم الاجتماع الألماني فردناند تونيس (١٨٥٥ - ١٩٣٦) ، الذي وضع كتاباً بعنوان **جماينشافت أوند جيسيلشافت Gemeineschaft und Gessellschaft** وتُرجمت الكلمة الأولى (جماينشافت) إلى الإنجليزية بكلمة «كوميونتي community» ، أي «جماعة» ، أما الكلمة الثانية (جيسيلشافت) فَتُرجمت بكلمة «سوسايتس society» أي «مجتمع» وأحياناً «أسوسيشن association» أي «رابطَة» . ونحن نترجم الكلمة الأولى إلى العربية بعبارة «الجماعة التراحمية العضوية» أو «الجماعة التكافلية» (ويمكن أن نضيف «المترابطة التقليدية» لزيادة الإيضاح) . أما الكلمة الثانية فنترجمها بعبارة «المجتمع التعاقدي» (ويمكن أن نضيف عبارة «الذري الحديث» لزيادة الإيضاح أيضاً) .

وكلٌّ من الجماعة العضوية والمجتمع التعاقدي هي نماذج مثالية ذات قيمة تحليلية لدراسة البناء الاجتماعي ، وهي نماذج لا تتحقق بصورة كاملة في الواقع .

وفي مجال مقارنة الجماعة العضوية (أ) بالمجتمع التعاقدي (ب) ، يمكننا أن نشير إلى بعض المفاهيم المحورية لكلّ ، وإن كانت السمة الأساسية للمجتمع التراحمي هي أن الإنساني يسبق الطبيعي ، أما في المجتمع التعاقدي فإن الطبيعي يسبق الإنساني ، ويقف الإنسان الطبيعي (الوظيفي) في المركز .

١-أ) الكل الاجتماعي موجود قبل الفرد (أسبقية الكل على الجزء) .

ب) الفرد موجود قبل الكل الاجتماعي (أسبقية الجزء على الكل) .

٢-أ) الكل الاجتماعي عبارة عن تركيب بسيط وُجِد بشكل تلقائي عضوي تاريخي وتتسم عناصره بالتجانس .

ب) الكل الاجتماعي عبارة عن تركيب صناعي مُعقَّد لم يُوجَد بشكل تلقائي وإنما بشكل تعاقدي واعٍ يتكون من وحدات كثيرة وعناصر ليست بالضرورة متجانسة .

٣-أ) يُولَد الفرد فيجد الروابط الاجتماعية العضوية قائمة مستقرة فلا يملك إلا أن يقبلها ، فهي ليست ثمرة إرادته وليست نتيجة تعاقد بينه وبين بقية أعضاء المجتمع . فالمجتمع مُعطًى تاريخي عضوي .

ب) الروابط الاجتماعية هي نتيجة دخول الأفراد في علاقات إرادية تعاقدية (عقد اجتماعي يقررون بموجبه تأسيس المجتمع) ومن ثم يمكنهم رفض العقد في أي لحظة ويمكنهم إخضاع أي شيء للنقاش والتفاوض . فالمجتمع هو إذن عملية تعاقدية آلية .

٤-أ) تقوم مؤسسات الجماعة التراحمية العضوية (التي قامت بشكل تلقائي عضوي) بتشكيل الأفراد وتنشئتهم وترويضهم وفقاً لرؤية تفترض أسبقية الكل العضوي على الجزء .

ب) يتم بناء المؤسسات والمنظمات المختلفة بشكل إرادي واعٍ ، وهي مؤسسات تحكمها الرؤية التعاقدية وتقوم بتنشئة الأطفال وترويض الأفراد في ضوء هذه الرؤية .

٥-أ) العلاقات الاجتماعية علاقات مباشرة أولية بين أفراد دون وساطات، وهي علاقات تراحم دافئة تسودها روح التضامن والمشاركة والتعاون التلقائي ، وهي تستند إلى الإيمان بمنظومة دينية مشتركة وأعراف اجتماعية .

ب) العلاقات الاجتماعية علاقات غير مباشرة (ثانوية) تتم من خلال وسائط معينة ، وهي علاقات تستند إلى علاقات تعاقد قائمة على الحذر والمنفعة الخاصة وإخضاع السلوك لقوة القانون .

٦-أ) من أهم الأمثلة على الجماعة التراحمية التكافلية العضوية ما يلي : الأسرة الممتدة ـ العشائر ـ البطون ـ القرى ـ المجتمعات الصغيرة ـ الطرق الصوفية . ويمكن أن نضيف إليها الجماعات الوظيفية حينما تنظر إلى نفسها من الداخل .

ب) أهم مثال على المجتمع التعاقدي هو المجتمعات الحديثة ، خصوصاً في المدن الكبرى ، ويمكن أن نضيف إليها الجماعات الوظيفية حينما يَنظُر إليها المجتمع وحينما تَنظُر إلى نفسها من الخارج .

وحينما طوَّر تونيز هذا المفهوم قدَّم إطاراً تصنيفيًا وتفسيريًا جيداً لشكلين من أشكال

الاجتماع الإنساني ، ويعود اهتمامه بهما إلى أنهما يصفان عناصر هامة في كلٍّ من المجتمع التقليدي (الجماعة العضوية) والمجتمع الحديث (المجتمع التعاقدي) .

والتمييز بين الجماعة التراحمية العضوية والمجتمع التعاقدي هو تمييز له جانبان؛ أحدهما معرفي وأخلاقي ينصرف إلى رؤية الإنسان وطريقة إدراك الكون ، والآخر سياسي واقتصادي واجتماعي ينصرف إلى طريقة تنظيم المجتمع . والجانبان هما تعبير عن الفكرة الواحدة نفسها في مجالين مختلفين . ومن الواضح أن من استخدموا هاتين الفكرتين ، كأداة تحليلية ، كانوا يفضلون الجماعة المترابطة التي ينتمي إليها المواطن الذي يصبح جزءاً من كل يفقد ذاته فيه بحيث تختفي مصلحته الشخصية الأنانية الضيقة وتحل محلها مصلحة الدولة أو الجماعة ، ولا يصبح له وجود خارجها . ونظراً للارتباط العضوي للإنسان بجماعته ، وتَطابُق مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة ، فإن الجماعة تعبِّر عن جوهر الإنسان بدلاً من أن تشكل اغتراباً عنه . والقانون البشري لا يشكل في هذه الحالة حدوداً على الإنسان أو قيداً ، ولا يتعارض مع إدراكه لنفسه ، وإنما يعبِّر عن جوهره ويحقق إمكاناته الكامنة ، ومن هنا فإن الرابطة بين الإنسان والجماعة رابطة عضوية ورابطة داخلية (جوانية) لا تتناقض فيها الذات والموضوع .

كل هذا يقف ضد المجتمع التعاقدي (الحديث) الذي يتألف من أشخاص أنانيين فرديين (إنسان طبيعي) ، لكلٍّ مصلحته الشخصية المحدَّدة التي قد تتفق مع مصلحة المجتمع أو تختلف عنها . وكل فرد يحاول أن يحقق مصلحته ومنفعته هو دون الالتفات إلى الآخرين أو إلى الكل الاجتماعي ، ومن ثم فإن المجتمع مبني على التنافس بوصفه قيمة مطلقة . والمجتمع هنا لا يعبِّر عن جوهر الإنسان وإنما يجابهه باعتباره شيئاً غريباً عنه . ويصبح القانون لنفس السبب قيداً على الإنسان لا وسيلة لتحقيق جوهره . والرابطة بين البشر رابطة تعاقدية خارجية برانية موضوعية . ولذا ، فإن انتماء الإنسان إلى مثل هذا المجتمع هو انتماء ذرة منغلقة على نفسها ؛ تُجاور الذرات الأخرى ولا تلتحم بها ، ومن ثم ينشأ تناقض حاد بين الذات والموضوع . وهذا التمييز بين شكلين من أشكال التنظيم الاجتماعي ورؤية الكون يُعبِّر عن نفسه في التمييز بين فكرين ، فكر عصر الاستنارة (القرن الثامن عشر) وفكر معاداة الاستنارة (القرن التاسع عشر) . وكلاهما يُعدّ أساساً للفكر الغربي الحديث رغم تناقضهما .

ويمكن أن نرى أصداءً لهذا التمييز في كتابات كثير من علماء الاجتماع الغربيين :

١ ـ يميِّز ماكس فيبر الرأسمالية التقليدية (العضوية) عن الرأسمالية الرشيدة (التعاقدية) .

٢ ـ يميِّز أليكس دي توكفيل بين المجتمعات الديموقراطية والمجتمعات التقليدية والمجتمعات العسكرية .

٣ ـ يميِّز هربرت سبنسر بين المجتمعات المبنية على التضامن الآلي (البسيط) وتلك المبنية على التضامن العضوي (المركب) .

٤ ـ يميِّز سير هنري مين بين المجتمعات التي تقوم على أساس المكانة والمجتمعات التي تقوم على أساس التعاقد .

وهذه كلها محاولات لرصد هذا التقابل بين نوعين من المجتمعات شعر بوجودهما الإنسان الغربي وشعر بأنه ابتداءً من عصر النهضة بدأ الانتقال من الجماعة التراحمية أو التكافلية العضوية إلى المجتمع التعاقدي وأن عملية الانتقال تسارعت في القرن الثامن عشر وزادت حدتها وقسوتها مع الثورتين الصناعية والفرنسية في بدايات القرن التاسع عشر . وعملية الانتقال هذه هي عملية الانتقال من المجتمع الديني (والمرجعية المتجاوزة) إلى المجتمع العلماني (والمرجعية المادية الكامنة) ، أي أنها وصف لتزايد معدلات العلمنة!

وما يجدر ذكره أن هذا التمييز الذي تغلغل في الفكر الاشتراكي الغربي ، يكمن وراء الهجوم على اليهود واليهودية باعتبار أن اليهودي جزء من الاقتصاد التجاري (الموضوعي التعاقدي) في مقابل الاقتصاد الزراعي (العضوي المبني على الارتباط الداخلي) . ولا يمكن أن نفهم تحليل ماركس للمسألة اليهودية دون أن نأخذ هذا البُعد في الاعتبار . ومفهوم الشعب العضوي هو إحدى تجليات الحلم بالعودة إلى الجماعة التراحمية .

الشعب العضوي (فولك) :

من الظواهر التي نلاحظها في الحضارات العلمانية الشاملة تأرجحها بين قطبين متناقضين . وإذا كانت الداروينية والترانسفير تمثلان قطب الحركة والنسبية ، فإن مفهوم الشعب العضوي يقف على الطرف النقيض من ذلك ، فهو يمثل الثبات والمطلقية .

وتعبير «الشعب العضوي» هو ترجمتنا للكلمة الألمانية «فولك ظعقب» . والشعب العضوي هو البديل والمقابل العلماني لفكرة الجماعة الدينية أو الأمة بالمفهوم الديني . والنموذج الكامن وراء هذه الفكرة هو نموذج عضوي مادي واحدي . ومفهوم الشعب العضوي يلغي إرادة الإنسان الفرد وحريته وقدرته على الحركة . وقد ظهرت فكرة الشعب العضوي في الغرب ، خصوصاً في ألمانيا في القرن التاسع عشر ، تحت تأثير الفكر المعادي للاستنارة . و تدور فكرة الشعب العضوي في إطار الأفكار التالية :

أ) الشعب هو كل عضوي متماسك تشبه علاقة أعضائه ، الواحد بالآخر وبمجموع الشعب ، علاقة أجزاء الكائن الحي بعضه بالبعض الآخر ، ومن ثم فإن الشعب الحقيقي لا يقبل التفتيت ولا يمكن فصل أحد أعضائه عنه . وإذا غيَّر أحد أعضاء الفولك مكانه وانتقل من ألمانيا إلى روسيا مثلاً فهو يظل ألمانيًا .

ب) الانتماء القومي لهذا الشعب ليس مسألة اختيار أو دعاية وإنما رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها (إن لم تكن كذلك بالفعل) تربط بين الفرد والجماعة التي يتبعها . ولهذا ، فإن الانتماء لشعب معيَّن مسألة تورَّث ولا تُكتسَب .

جـ) لا تقتصر الرابطة العضوية على العلاقة بين الفرد والشعب وإنما تمتد لتربط بين الشعب ككل والأرض التي يعيش عليها وبها . فالشعب العضوي يستمد الحياة من أرضه وتربته ، وهي أيضاً تستمد منه الحياة ، فهو وحده القادر على تعميرها .

د) تمتد العلاقة العضوية لتشمل أيضاً الأشكال الثقافية والاجتماعية التي تسود بين أعضاء هذا الشعب العضوي والتي أبدعها أعضاؤه على مر التاريخ . فهذه الأشكال تعبِّر عن عبقرية هذا الشعب وروحه (بالألمانية : فولكس جايست Volksgeist) ، ولهذا السبب فإن الآخر الغريب لا يمكنه أن يمتلك ناصية الخطاب الحضاري لهذا الشعب مهما بذل من جهد ، فثقافة الشعب العضوي مسألة موروثة تجري في الدم تقريباً ولا يستطيع الآخر اكتسابها مهما بلغ من ذكاء ومهارة .

هـ) والشعب العضوي يحوي داخله (وداخل أرضه وتراثه) عناصر قوته وانحلاله وتطوره ورقيه ، كما أن قوانين حركته التي ينمو على أساسها كامنة فيه أيضاً ، أي أنه يدور في إطار الحلولية الكمونية والمرجعية المادية الكامنة . ويُلاحَظ اختفاء جميع المسافات بين الشعب ومصادر قوته وأرضه وتراثه ، فالجميع يكونون كلاً متماسكاً مستمراً عضويًا لا ثغرات فيه ولا انقطاع .

و) ويمكننا أن نقول إن فكرة الشعب العضوي (والقومية العلمانية) ككل هي حلولية مرحلة وحدة الوجود المادية . فالمطلق حل في المادة (الأرض والشعب والتراث أو الشعب المرتبط بأرضه وتراثه) وفقد تَجاوُزه وتنزُّهه وذاب في الشعب ، بحيث أصبح الشعب هو ذاته القيمة المطلقة ومرجعية ذاته. ولعل النمط الكامن الأساسي لفكرة الشعب العضوي هو النمط الذي ورد في أسفار موسى الخمسة ، فالعبرانيون أمة أو قبيلة اختارها الإله وحل فيها أو سكن في وسطها ، وهو إله مقصور على أعضاء هذه القبيلة ، ولذا كان ينتقل معهم في ترحالهم (أو كانوا يحملونه معهم في سفينة العهد) وكان يساعدهم (وحدهم

دون سواهم) ضد أعدائهم ويغار عليهم ، وكانوا لا يترددون في الضغط عليه كي يستجيب إلى طلباتهم . وتعدَّلت هذه الصورة قليلاً بعد ذلك في كتب الأنبياء . ولكن أسفار موسى الخمسة ظلت أكثر أسفار العهد القديم قداسة ، وأصبح تاريخها المقدَّس ، وما جاء فيها من صور حلولية كمونية عضوية من أهم مفردات الوجدان الغربي . ومع تَصاعُد معدلات العلمنة ، أُعيد إنتاج هذه الصورة القبلية العضوية الحلولية على هيئة الفكر العلماني الشامل القومي . وأحل هذا الفكر ، محل الإله الواحد المتجاوز (المنزَّه عن الطبيعة والتاريخ ، مركز الكون ، المفارق له) ، كياناً عضويًا متماسكاً هو الشعب أو الأمة التي تحوي مركزها داخلها ، فهي موضع الحلول والكمون وفوق الجميع . وأصبحت الأمة ، ذلك الكيان العضوي المنغلق على ذاته ، هي مصدر السلطات وموضع التقديس ، وأصبحت الهوية القومية والحفاظ عليها (بغض النظر عن أية قيم) قيمة مطلقة ومرجعية نهائية (تَوثُّن الذات كما سماه أحد المفكرين العرب) . بل وأصبح تراب الوطن أو أرضه موضع التقديس ، فهو الرقعة التي تتحقق عليها الذات القومية المقدَّسة . وقد تم التعبير عن هذا من خلال مفهوم الدم والتربة : الدم الذي يجري في عروق أبناء الشعب والتراب أو التربة التي يعيش عليها ، وهما العنصران اللذان يجسدان فكرة الوطن . وأصبح الصالح العام لهذا الوطن، وهذه الدولة التي تمثله وتمثل الشعب ، هو المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو الخير الأعظم والمطلق الأوحد، ولهذا فإن العمل ضد صالح الدولة وإفشاء أسرارها (المقدَّسة المطلقة) خيانة عظمى عقوبتها عادةً الإعدام . وباختصار شديد ، أصبح الوطن المقدَّس (والشعب المقدَّس) مرجعية ذاته وأصبحت مصلحته قيمة نهائية ، ومن ثم أصبح من المستحيل محاكمة أي شعب من منظور منظومة قيمية خارجة عنه .

ز) أفرزت فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية مجموعة شعارات ومفردات ذات طابع عضوي حلولي كموني واحدي (شبه صوفي) عنصري ، مثل : «أمتنا فوق الجميع» ، و«الأمة ذات الرسالة الخالدة» ، «المصير القومي الواحد المحتوم» ، «المجال الحيوي للشعب» .

ح) مفهوم الشعب العضوي مفهوم استبعادي ، نسق مغلق لا يسمح بأي شكل من أشكال عدم التجانس ويفصل بحدة بين أعضاء الشعب العضوي والشعوب الأخرى . كما أن أعضاء الأقليات الذين يعيشون بين أعضاء هذا الشعب يصبحون بالمثل شعباً عضويًا ، ولكنهم شعب عضوي منبوذ .

ط) عادةً ما تُترجم فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية إلى فكر عرقي يؤكد التفاوت بين الناس والأعراق ، فينسب التميز للأنا الجماعية العضوية والتدني للآخر . فالأنا تجسِّد للمركز الكامن في العالم ، والآخر مجرد مادة وحسب ، والأنا هي المرجعية النهائية والمقدَّس ، والآخر هو التابع والمباح . ويشكل الفكر العضوي الاستبعادي الأرضية الفلسفية للرؤية العنصرية في داخل أوربا وللرؤية الإمبريالية خارجها . وقد حقق المفهوم شيوعاً كبيراً في أوربا ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر . وكانت الكتب العنصرية هي أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في تلك الفترة . ومن هنا ، يُعدُّ الفكر الإمبريالي ، والفكر النازي والصهيوني ، وكذلك فكر أعداء اليهود ، فكراً عضوياً .

ي) يعبِّر الشعب العضوي عن إرادته من خلال الدولة القومية المطلقة مرجعية ذاتها ، ويعبِّر عن هذه الإرادة في حالة النظم الشمولية من خلال إرادة الزعيم .

ويميِّز بعض المؤرخين بين القومية العضوية من جهة والقومية الليبرالية (التعاقدية) من جهة أخرى . فإذا كان أعضاء القومية العضوية لا يختارون مسألة انتمائهم القومي بل يرثونه بشكل يكاد يكون بيولوجيًا ، فإن أعضاء القومية الليبرالية ـ حسب هؤلاء المؤرخين ـ يختارون هذا الانتماء ويدخلون في تعاقد يمكن فكه على الأقل من الناحية النظرية . ويُصنَّف الفكر القومي الألماني والسلافي باعتباره فكراً عضوياً يبشر بقومية عضوية ، وذلك على عكس النظريات القومية في كلٍّ من فرنسا وإنجلترا . ونحن نرى أن التمييز قد يفسر بعض نقاط الاختلاف ، ولكنه يخبئ نقاط تشابه ذات أهمية محورية . ونحن نذهب إلى أن الحضارة الغربية العلمانية الشاملة ككل تدور في إطار عضوي وفي إطار المرجعية المادية الكامنة ، فالنموذج يحوي مركزه داخله ، وقد تقل درجة تماسكه واستبعاديته وحلوليته في حالة التشكيلين الحضاريين الفرنسي والإنجليزي (والقومية الفرنسية والإنجليزية) ، وقد تزيد هذه الدرجة في حالة التشكيلين الألماني والسلافي (الجامعة الألمانية والجامعة السلافية) وفي حالة الصهيونية . ولكن الإطار الذي يدور في إطاره الجميع هو المرجعية المادية الكامنة والحلولية العضوية ، فتصبح الأمة هي مرجعية ذاتها ، وتصبح هي نفسها مصدر شرعيتها ، وإرادتها هي مصدر وحدتها وتماسكها (تماماً كما أن إرادة القوة في المنظومة النيتشوية هي مصدر تماسك الفرد ووحدته وهويته) .

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة :

في محاولتنا تعريف الصهيونية توصلنا إلى ما سميناه «الصيغة الصهيونية الأساسية

الشاملة» التي تحتوي على العناصر الأساسية المكونة لتعريف الصهيونية بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات المستخدمة . ويمكن تلخيصها فيما يلي :

أ) اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع ، يجب نقله خارج أوربا ليتحوَّل إلى شعب عضوي نافع .

ب) يُوظَّف هذا الشعب لصالح أوربا التي تقوم على دعمه وضمان بقائه واستمراره - داخل إطار الدولة الوظيفية الاستيطانية في فلسطين - التي ستُوظِّف يهود العالم لصالحها ولصالح العالم الغربي .

والصهيونية تستند إلى رؤية علمانية إمبريالية شاملة تعتبر اليهود والفلسطينيين (الإنسان) وفلسطين (الطبيعة) مادة استعمالية يمكن توظيفها وحوسلتها . فاليهود مادة بشرية تأخذ شكل شعب عضوي متماسك . ولكن هذه المادة لا نفع لها في العالم الغربي بل تشكل عبئاً عليه لأنها لا تنتمي إليه (فهو شعب منبوذ) ، ولذا لابد من أن يُخلِّص الغرب منهم وأن يُخلِّصوا هم منه . والصهيونية ، في وصفها لوضع اليهود ، تتفق تماماً مع الرؤية المعادية لليهود ، ولكنها تختلف عن هذه الرؤية في طبيعة الحل المطروح إذ ترى أن التخلص من اليهود (المادة البشرية غير النافعة) لا يتم عن طريق الإبادة أو الطرد (بشكل عشوائي) ، وإنما يجب أن يتم بشكل علمي ومنهجي عن طريق نقلهم (ترانسفير) خارج العالم الغربي فيتحوَّلوا من مادة غير نافعة إلى مستوطنين يشكلون دولة وظيفية تخدم مصالح الغرب ، على أن يقوم هو بالدفاع عنها وضمان بقائها واستمرارها ، وبذلك يصبحون مادة نافعة ، أي أن اليهود الذين فشلوا في الاندماج في الغرب عن طريق التشكيل الحضاري الغربي سيحققون هذا الاندماج عن طريق التشكيل الإمبريالي الغربي . وبعد أن كانوا سبمن في الحضارة الغربية (إنسان أداتي) فإنهم يصبحون سوبرمن في الشرق (إنسان إمبريالي) . ويُلاحَظ أن الجزء الثاني من الصيغة أصبح هو الجزء الفعَّال بعد دَمْج يهود الغرب وتَناقُص أعدادهم واستقرار أحوالهم .

ولكن الحركة الصهيونية اضطرت إلى تهويد هذه الصيغة حتى تزيد من مقدرتها التعبوية عن طريق إضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) لها دون الإخلال بثوابتها وبنيتها . فالشعب العضوي المنبوذ يصبح «الشعب المقدَّس» ، وتصبح أوربا «المنفى» ، وعملية النقل إلى فلسطين تصبح «العودة تنفيذاً للوعد الإلهي» ، وتصبح فلسطين ذاتها «أرض الميعاد» ، أما الدولة الوظيفية فتصبح «دولة الخلاص» التي يُحقِّق الشعب من خلالها هويته ورسالته للعالم . ورغم كثافة الديباجات ، تظل الثوابت كما هي وتظل الصيغة الصهيونية

الأساسية الشاملة كما هي . كما أن النتيجة النهائية واحدة وهي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى مهاجرين. وبالتالي ، فإن عملية نقل اليهود من المنفى إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفى) .

الجماعة الوظيفية :

من المفاهيم الأساسية التي ترد في هذه الدراسة مفهوم الجماعة الوظيفية . وهي مجموعة بشرية صغيرة يوكل إليها المجتمع وظائف شتى يرى أن أعضاءه لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة . وقد تكون هذه الوظائف مشينة أو متميِّزة من وجهة نظر المجتمع (البغاء ـ الربا ـ القتال) ، وقد يتطلب الاضطلاع بها قدراً عالياً من الحياد والتعاقدية لأن المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحمه ومثالياته (التجارة والربا) . وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى (الحاجة لمستوطنين جدد لتوظيفهم في المناطق النائية ـ خبرات غير متوفرة ـ الحاجة إلى رأس مال) . كما أنه يوكل لهم الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك ـ طبيبه ـ السفراء والجواسيس) ، وقد تكون الوظيفة مشينة ومتميِّزة وحساسة في آن واحد (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم) . كما أن المهاجرين عادةً ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد) لأن الوظائف الأساسية عادةً ما تكون قد شُغِلَت من قِبَل أعضاء المجتمع المضيف .

ويتوارث أعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها بل ويتوحَّدون بها وفي نهاية الأمر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم منها، وهي عملية يساعد عليها مجتمع الأغلبية لأنه يُعرِّف عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته الكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية إنساناً ذا بُعد واحد ، يمكن اختزال إنسانيته إلى هذا البُعد أو المبدأ الواحد وهو وظيفته .

ويعد أن يتم استيراد أو تجنيد العنصر الوظيفي يحدث ما يلي :

أ) يدخل المجتمع المضيف في علاقة تعاقدية نفعية حيادية رشيدة مع أعضاء الجماعة

الوظيفية وهي علاقة يُحوسل كل طرف فيها الطرف الآخر ، وينظر إليه باعتباره وسيلة لا غاية ؛ مادة نافعة يتم التعاملَ معها بمقدار نفعها (التعاقدية) .

ب) ويتم عزل أعضاء الجماعة الوظيفية (عن طريق الزي أو المسكن أو اللغة أو العقيدة أو الانتماء الإثني) حتى يصبح العنصر الوظيفي غريباً مميَّزاً ويظل بلا قاعدة جماهيرية أو أساس للقوة ، وفي حالة خوف دائم من الجماهير ، لا يطمح في المشاركة في السلطة (وهذه ميزة كبيرة من منظور النخبة الحاكمة) . ولذا ، يتعمق ولاء أعضاء الجماعة الوظيفية للنخبة الحاكمة التي استوردته والتي تستخدمه كأداة وتضمن بقاءه واستمراره . وغالباً ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفيًا بوطن أصلي (صهيون ـ الصين ـ القبيلة ـ العائلة) يصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة . ولكن الجماعة الوظيفية (والوظيفة ذاتها) هي ، في واقع الأمر ، موضع الولاء الفعلي والمباشر لعضو الجماعة الوظيفية ، فهي أساس وجودهم وهويتهم . وينتج عن هذا أن أعضاء الجماعة الوظيفية يشعرون بالغربة نحو المجتمع المضيف ، يعيشون فيه دون أن يكونوا منه (العزلة والغربة والعجز) .

جـ) ينتج عن هذا انفصال أعضاء الجماعات الوظيفية عن الزمان والمكان اللذين يعيشون فيهما ، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ) ، وهي هوية تكون في معظم الأحيان وهمية ، فهم لا يعرفون معجماً حضاريًا سوى معجم المجتمع المضيف (الانفصال عن الزمان والمكان والإحساس بالهوية الوهمية) .

د) ويُطوِّر طرفا العلاقة (أعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) رؤية أخلاقية ثنائية ، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر ، باعتبار أن الآخر في هذه العلاقة يقع دائماً خارج نطاق الحرمات والمطلقات الأخلاقية . ويحاول كل طرف أن يُحقق منفعته ولذته مستخدماً الآخر (ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية) .

هـ) لكل هذا ، يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحركية البالغة (الترانسفير) ، فهم آلة لا وطن لها ولا انتماء إلا الوظيفة (الحركية) .

و) ينجم عن هذا الوضع تَأرجُح شديد بين تَمَركُز حول الذات (الوظيفة باعتبارها الذات والهوية) وتَمَركُز حول الموضوع (الوظيفة باعتبارها خدمة تؤدى للمجتمع) . فعضو الجماعة الوظيفية قد يكون عضواً في شعب مختار ولكنه أيضاً أداة في يد المجتمع (التمركز

حول الذات والتمركز حول الموضوع)، وتظهر عقدة الاختيار ، الذي يواكبه شعور عميق بالحتمية .

ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات الوظيفية شخصيات متحوسلة منعزلة مغتربة لا جذور لها ولا ولاء ، ينظرون لأنفسهم باعتبارهم كياناً هامّاً مستقلاً ولكنهم ، في الوقت نفسه ، ينظرون لأنفسهم في علاقتهم بالمجتمع المضيف باعتبارهم مادة تُوظَّف ، وهم يدخلون في علاقات تعاقدية مادية مع المجتمع لا تراحم فيها . وتكون رؤية أعضاء الجماعات الوظيفية في الغالب رؤية حلولية كمونية واحدية ، فالحلولية تجعل من عضو الجماعة الوظيفية عضواً في شعب مختار (وهو ما يجعل من السهل عليه تَحمُّل وضعه المؤلم) . ورغم هذا أو ربما بسببه ينظر أعضاء الجماعة الوظيفية للعالم ولأعضاء مجتمع الأغلبية باعتبارهم مادة نافعة يمكن استغلالها والاستفادة منها . وعضو الجماعة الوظيفية هو إنسان اقتصادي محض له بُعد واحد (وظيفة محدَّدة) متحرر من القيم الأخلاقية ، يُكرِّس ذاته لمنفعته ولذته ويؤمن بالنسبية الأخلاقية وبازدواجية المعايير وبالحتمية ، ومرجعيته النهائية في علاقته بالمجتمع المضيف مرجعية مادية . ولكل ما سبق نجد أن أعضاء الجماعة الوظيفية يكونون عادةً من حملة الفكر العلماني الشامل . وما يجمع كل هذه النماذج أنها تؤدي في نهاية الأمر إلى الواحدية وإلى استيعاب الجزء والتفاصيل في الكل ، والخاص في العام ، والإنساني في الطبيعي .

ويرتبط بمفهوم الجماعة الوظيفية مفهوم الدولة الوظيفية ، وهي الدولة التي تشكل إعادة إنتاج لدور الجماعة الوظيفية في العصر الحديث . ونحن نذهب إلى أن الدولة الصهيونية هي دولة وظيفية . كما نذهب إلى أن الدولة العصرية الحديثة بعد تَغوُّلها ، وبعد تَصاعُد قوة مؤسساتها الأمنية وقطاع اللذة ، تُحوسِّل كل المواطنين ، بحيث يصبحون شيئاً يشبه أعضاء الجماعة الوظيفية ، وظيفةً تُؤدَى ودوراً يُلعَب بدلاً من أن يكونوا بشراً متعددي الأبعاد ، يؤمنون بمنظومة أخلاقية ويشعرون بالحرية والمسئولية .

اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي :

«التركيب الجيولوجي التراكمي» عبارة نستخدمها لنصف عدم التجانس العميق الذي تتسم به العقيدة/ العقائد والهوية/ الهويات اليهودية ، ولنُشير إلى أن نقط الاختلاف بين هذه العقائد والهويات أهم من نقط التشابه بينهما وإلى أن التركيز على الاختلاف له قيمة تفسيرية أعلى . ويتسم التركيب الجيولوجي بأنه يتكون من طبقات جامدة مستقلة ،

تراكمت الواحدة فوق الأخرى ولم تُلغ أية طبقة جديدة ما قبلها ، ولذا تتجاور الطبقات وتتزامن وتتواجد مع بعضها ولكنها لا تتمازج ولا تتفاعل ولا تلغي الواحدة الأخرى .

ورغم تعدد الطبقات الجيولوجية داخل العقيدة اليهودية ، إلا أننا نرى أن أهم الطبقات على الإطلاق هي الطبقة الحلولية الكمونية التي كانت روحية حتى عصر النهضة في الغرب (مع هيمنة القبّالاه) ثم أصبحت حلولية كمونية مادية (أي علمانية شاملة) ابتداءً من ذلك التاريخ .

المراجـع

تجب الإشارة ابتداءً إلى أن الحظر الصهيوني الغربي على دراسة ظاهرة الإبادة النازية دراسة متحررة بشكل معقول من التحيزات الصهيونية الغربية ليس حظراً شاملاً ، إذ ظهرت مجموعة من الدراسات العلمية الجادة التي تقدِّم وجهة نظر مغايرة للرؤية الصهيونية الغربية ، وتم نشرها في مجلات علمية ومن خلال دور نشر تجارية معروفة . ولعل أهم مثل على هذا دراسات إدوين بلاك Edwin Black وليني برنر Lenni Brenner (انظر قائمة المراجع) . وقامت دار ماكميلان في الولايات المتحدة بنشر الكتاب الأول بينما قامت دار زيد في إنجلترا بنشر الكتاب الثاني . وقد اعتمدنا بالدرجة الأولى على المراجع الغربية (الصهيونية أو المتعاطفة معها)، وهي مراجع لا نتفق مع كثير مما ورد فيها من آراء وتفسيرات ، ولكنها لحسن الحظ تحتوي على قدر كبير من الحقائق الصلبة والوثائق الهامة . ومما لا شك فيه أن هذه الحقائق والوثائق تم تضمينها في هذه الدراسات ، وتم استبعاد ما سواها ، انطلاقاً من نموذج تفسيري محدد له تحيزاته الواضحة . ولذا حاولنا قدر استطاعتنا أن نفصل الحقائق الصلبة عن النموذج التفسيري ، وهو أمر ، كما يدرك القارئ ، ليس سهلاً ، فالحقائق التي ترد في مثل هذه الدراسات هي حقائق جزئية للغاية (يُطلق عليها عبارة «أكاذيب حقيقية» [بالإنجليزية : ترو لايز true lies]) (ويمكن أن نطلق عليها بالعربية «حقائق كاذبة»، أي كلمة حق يراد بها باطل) . فمثل هذه الحقائق حقائق صلبة لا مراء فيها، فهي «حقيقية»، ومع هذا تم توظيفها بطريقة لا تتفق مع الحقيقة الكلية ومن ثم فهي « أكاذيب » .

ولتجاوز هذا الوضع قمنا بقراءة عدد كبير من المراجع حتى يمكننا استخلاص عدد هائل من الحقائق الجزئية المتناثرة والتي أمكننا من خلالها التوصل إلى صورة أكثر تكاملاً وأكثر شمولاً وتركيباً من الصورة التي وردت في المراجع التي استفدنا منها . وقد تَطلَّب هذا جهداً غير عادي وبحثاً دائباً ، يشبه إلى حدٍّ ما لعبة تكوين الصورة (بالإنجليزية : جيجسو jigsaw) حيث يختار اللاعب قطعة من القطع المتناثرة أمامه فيجربها ويضعها بجوار قطعة أخرى فإن وجدها غير مناسبة جرب قطعة أخرى إلى أن يجد القطعة المناسبة . ويستمر اللاعب في هذه العملية إلى أن تظهر الصورة النهائية . وإذا كانت كل قطعة في حد ذاتها هي «أكذوبة حقيقية» فإنها حين تُربَط بالأكاذيب الحقيقية الأخرى تظهر معالم الحقيقة الكلية التي تعبِّر بشكل معقول عن الواقع التاريخي . وقد استخدمنا نفس الأسلوب في عملية التوثيق المضاد (انظر المقدمة) . ولجأنا لهذا الأسلوب لأن المراجع الغربية تحتوي على قدرٍ هائل من هذه الحقائق . **فالموسوعة اليهودية**

(جـودايكا) Encyclopedia Judaica تحتوي على قدر لا يُستهان به من الأكاذيب الحقيقية ، وقل الشيء نفسه عن **موسوعة باتاي Patai** . ولكن الأهم من هذا ، أن الباحثين الغربيين قاموا بالاطلاع على المصادر الأولية (وثائق وزارة الخارجية الألمانية ـ المجلات الألمانية والصهيونية الصادرة إبان حكم النازي ـ كتابات وتصريحات الصهاينة أثناء نفس الفترة ـ محاكمات مجرمي الحرب الألمان في نورمبرج) ، الأمر الذي لم يقم به كثير من الباحثين العرب ولا مراكز البحوث العربية . ومع هذا لابد من التنويه بكتابات صبري جريس ومحمود عباس (أبو مازن) وعلي محافظة وبجهودهم الرائدة في هذا المضمار .

وقد اكتفينا بادراج أهم المراجع ، لأننا لو ادرجناها كلها وأدرجنا بيانات التوثيق الخاصة بها ، لبلغت قائمه المراجع عشرات الصحفات وبسبب نفسه استبعدنا من هذه القائمة المراجع التى تتعامل مع الجوانب التاريخية والنظرية العامة والتى لا علاقة لها بالظاهرة النازية بشكل مباشر .

أولاً ـ المراجع العربية :

* بدوي ، عبد الرحمن . **موسوعة الفلسفة** ، جزآن ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٤ .

* جارودي ، رجاء (روجيه) . **البنيوية ، فلسفة موت الإنسان** ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٩ .

. . ـــــــــــــــ **في سبيل حوار الحضارات** ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٧٨ .

* جريس ، صبري . **تاريخ الصهيونية** (١٩١٨ - ١٩٣٩) ، الجزء الثاني ، **الوطن القومي اليهودي في فلسطين (١٩١٨ - ١٩٣٩)** ، بيروت ، مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٦ .

* صايغ ، أنيس (إشراف) ، ولطفي العابد وموسى عنز (ترجمة) ، والدكتور أسعد رزوق (تعريف) ، وهلدا شعبان صايغ وإبراهيم العابد (مراجعة) . **الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية** ، بيروت ، مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٧٠ .

* عباس ، محمود (أبو مازن) . **الوجه الآخر : العلاقات السرية بين النازية والصهيونية** ، عمان ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .

* زكريا ، فؤاد . **نيتشه** ، القاهرة ، دار المعرف ، ١٩٨٠ .

* محافظة ، علي . **العلاقات الألمانية - الفلسطينية ، من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية**

حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ١٨٤١ – ١٩٤٥ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١ .

.. ———— **نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني** ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٢ .

* المسيري ، عبد الوهاب . **الفردوس الأرضي : دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ .

.. ———— **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية** ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٥ .

.. ———— **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد** ، ٧ أجزاء ، القاهرة ، دار الشروق ، مايو١٩٩٧ .

.. ———— **موسوعة العلمانية الشاملة** ، ٤ أجزاء ، تحت الطبع .

* هتلر ، أدولف . **كفاحي** ، بيروت ، دار المعرفة ، بدون تاريخ .

ثانياً ـ المراجع الأجنبية :

* Abramson. Glenda, *ed.*. **The Blackwell Companion to Jewish Culture**, Oxford, Blackwell, 1989 .

* Arendt, Hannah. **Eichmann in Jerusalem : A Report on the Banality of Evil**, New York, The Viking Press, 1983.

* Aschheim, Steven. **Culture and *Catastrophe* : German and Jewish Confrontations with National Socialism and Other Crises**, London, Macmillan, 1996.

* Audi, Robert, ed. **The Cambridge Dictionary of Philosophy**, Cambridge, Cambridge University Press, 1996.

* Bauman, Zygmunt. **Modernity and the Holocaust**, Cambridge, Polity Press, 1989.

* Black, Edwin. **The Transfer Agreement : The Untold Story of the Secret Pact between the Third Reich and Jewish Palestine**, New York, Macmillan, 1984.

* Brenner, Lenni. **The Iron Wall : *Zionist* Revisionism from Jabotinsky to Shamir**, London, Zed Books, 1984.

.. ---------------- **Zionism in the Age of the Dictators : A Reappraisal**, London, Croom Helm, 1983.

* Burleigh, Michael. **Death and Deliverance : Euthanasia in Germany 1900-1945**, Cambridge, Cambridge University Press, 1994.

* Burrin, Philippe. **Hitler and the Jews : The Genesis of the Holocaust**, London, Edward Arnold, 1989.

* Elmessiri, Abdelwahab. **The Land of Promise : A Critique of Political Zionism**, New Brunswick, N.J., North American, 1977.

* Elon, Amos. **The Israelis : Founders and Sons**, New York, Holt, Rinehart and Winston, 1971.

* Fisch, Harold. **The Zionist Revolution : A New Perspective,** New York, St., Martin's Press, 1980.

* Frankel, Joseph. "German Documents on Zionism", **Herzl Year Book : Essays in Zionist History and Thought,** New York, Vol. V, ed. Raphael Patai, Herzl Press, 1971.

* Garaudy, Roger. **The Founding Myths of Israeli Society,** Paris, 1996.

* Glicksman, W., "Social Stratification in the Concentration Camps", **YIVO Annual of Jewish Social Sciences,** VIII.

* Goldmann, Nahum. **The Autobiography of Nahum Goldmann; Sixty Years of Jewish Life,** New York, Holt, Rinehart and Winston, 1969.

* Grossman, Kurt. "Zionists and Non-Zionists under Nazi Rule in the 1930's". **Herzl Year Book : Essays in Zionist History and Thought,** New York, Vol. IV, ed. Raphael Patai, Herzl Press, 1961-1962.

* Herzl, Theodor. **The Complete Diaries of Theodor Herzl,** 5 volumes, (ed.), Raphael Patai, New York, Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960.

* Herf, Jeffrey. **Reactionary Modernism : Technology, Culture, and Politics in Weimar and the Third Reich,** Combridge, Cambridge University Press, 1984.

* Landman, Isaac, (ed.). **The Universal Jewish Encyclopedia,** 10 vols., New York, Ktav, 1969.

* Laqueur, Walter. **A History of Zionism,** New York, Holt, Rinehart and Winston, 1972.

* Matovu, Benamin. "The Zionist Wish and the Nazi Deed", **Issues,** XX, Winter 1966-67.

* Michaelis, Meir. **Mussolini and the Jews : German-Italian Relations and the Jewish Question in Italy, 1922-1945,** Oxford, The Clarendon Press, 1987.

* Muller-Hill, Benno. **Murderous Science : Elemination by Scientific Selection of Jews, Gypsies, and Others, Germany 1933-1945,** Trans. George Fraser, Oxford, Oxford University Press, 1988.

* Orr, Akiva. **Israel, Politics, Myth, and Identity Crises,** London, Pluto, 1989.

* **New Encyclopedia Britannica,** 19 volumes, Chicago, Encyclopedia Britannica, 1974.

* Patai, Raphael, ed. **Encyclopedia of Zionism and Israel,** 2 volumes, New York, Herzl Press and McGraw Hill, 1971.

* Polkehn, Klaus. "The Secret Contacts : Zionist-Nazi Relations, 1933-1941", **Journal of Palestine Studies,** Vol. V, Nos. 3-4, Issues 19 and 20, 1976 .

.. "Zionism and the Kaiser's Germany : Zionist Diplomacy with the Empire of Kaiser Wilhelm", **Journal of Palestine Studies,** Vol. IV, No.2, Issue 14, 1975.

* Poppel, Stephen. **Zionism in Germany, 1897-1933 : The Shaping of a Jewish Identity,** Philadelphia, The Jewish Publication Society, 1977.

* Proctor, Robert. **Racial Hygiene : Medicine Under the Nazis** London, 1988.

* Rackman, Emmanuel. **Israel's Emerging Constitution,** 1948-1952, New York, Columbia University Press, 1955.

* Roth, Cecil, (ed.). **Encyclopedia Judaica,** 16 volumes, Jerusalem, Keter House, 1972.

* Schleunes, Kerl. **The Twisted Road to Auschwitz : Nazi Policy Toward German Jews 1933-1939,** Urbana, Illinois, University of Illinois, 1970.

* Seltzer, Robert. **Jewish Peopl, Jewish Thought : The Jewish Experience in History,** New York, Macmillan, 1980.

* **Trial of the Major War Criminals before the International Military Tribunal : Nuremberg, 14 November 1945-10 October 1946,** Nuremberg, Germany, 1948 (Official Text in the English Language, Proceedings, April 8, 1946-April 17, 1946).

* Uriel, Tal. "on Modern Lutheranism and the Jews," **Leo Baeck Institute Yearbook,** Vol xxx, 1985.

* Weber, Eugen, "Revolution, Counterrevolution. What Revolution?" **Journal of Contemporary Histoty**, 9 (1974).

* Wigoder, Geoffrey. **Dictionary of Jewish Biography**, New York, Simon and Schuster, 1991.

* **Readings on Fascism and National Socialism**, selected by members of the Department of Philosophy, University of Colorado; Chicago, The Swallow Press, 1952.

قد يكون من المفيد أن نبيِّن مصادر بعض الحقائق والقضايا ذات الأهمية الخاصة. اعتمدنا على الموسوعات والمعاجم المختلفة خصوصاً **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** **Encyclopedia Judaica** في مناقشة قضية المصطلح. وقد وضح كتاب جارودي Garaudy مسألة المدلول الحقيقي لعبارة «الحل النهائي». أما في موضوع السياق الحضاري فقد استفدنا بالتواريخ العامة للحضارة الغربية وخصوصاً التاريخ الألماني وبالموسوعات المختلفة، خاصةً **الأنسيكلوبيديا بريتانيكا** **Encyclopedia Britannica**. وكانت دراسات باومان (خصوصاً كتاب **الحداثة والهولوكوست**) من أهم الدراسات التي استفدنا منها، والتي ساعدتنا في تطوير نموذجنا التفسيري. كما استفدنا بكتاب هيرف Herf، وبعشرات الدراسات الأخرى التي لم نوردها في قائمة المراجع. وقد أفادنا كتاب أشايم Aschheim في عرضنا للأدبيات الغربية الخاصة بالإبادة.

أما المعلومات الخاصة بعلاقة الفاشية بالصهيونية فوردت في ميكاليس Michaelis وبرنر Brenner. والتصريحات المعادية لليهود التي صدرت عن بعض القيادات الصهيونية في ألمانيا قبل وبعد ظهور النازي وردت في برنر Brenner وبولكين Polkehn وماتوفو Matovu.

وتُعدُّ دراسة محمود عباس (أبو مازن) من أهم الدراسات العلمية الرصينة بأية لغة في موضوع التعاون بين الصهاينة والنازيين (وقد استقينا منه الكثير من الحقائق خصوصاً بعض الحقائق الخاصة بنوسيج، والذي يُعدُّ من أصعب الشخصيات من منظور توفير المعلومات اللازمة عنه).

ولكن يُعدُّ كتاب إدوين بلاك Edwin Black أهم الكتب على الإطلاق في موضوع محدد وهو موضوع اتفاقية الهعفراه (وقد وجدنا معلومات قيمة عن نفس الموضوع في دراسات برنر Brenner وصبري جريس وعلي محافظة). كما أن مقالي جروسمان Grossman وفرانكل Frankel مهمان للغاية في هذا الصدد. أما المعلومات الخاصة بالمجالس اليهودية فوردت في عدة مراجع، خصوصاً المعاجم. أما رابطة الثقافة اليهودية فالمصدر الأساسي للمعلومات عنها هو موسوعة لاندمان Landman. ويوجد مدخل عن مستعمرة تيريس أينشتات في **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** يحوي الكثير من المعلومات.

وكان كتاب شليونيس Schleunes مصدراً أساسياً للمعلومات الخاصة بمشاريع النازيين الصهيونية، أي الخاصة بتوطين اليهود في مدغشقر وغيرها من الأماكن. وورد نص إعلان الاتحاد الصهيوني الخاص بوضع اليهود في الدولة الألمانية الجديدة في برنر Brenner وبولكن Polkehn. واعتمدنا على برنر Brenner ولاكير Laqueur وباتاي Patai لجمع المعلومات عن عصبة

الأشـداء ، وعلى برنر Brenner في الجزء الخاص بجماعة ستيرن . أما بخصوص بلومنفلد فقد اعتمدنا على باتاي Patai وبوبل Poppel . واعتمدنا بخصوص كاستنر على العديد من الدراسات الصهيونية واليهودية من بينها كتاب Orr ، كما حصلنا على ترجمة لمحاكمته في إسرائيل . وكان المصدر الأساسي للمعلومات عن رومكوفسكي وتشريناكوف هو معجم ويجودر Wigoder وإن كنا قد استفدنا من برنر Brenner أيضاً ، الذي بيَّن لنا انتماءهم الصهيوني ، الأمر الذي لم يذكره ويجـودر Wigoder (وهذا مثل جيد على كيفية تجميع المعلومات وربطها حتى نصل إلى الصورة الكلية) .

واستفدنا من معجم **بلاكويل** ومن **الموسوعة اليهودية (جودايكا)** في الأجزاء الخاصة بهايدجر وبليفي وكوزينسكي وشتاينر ولاهوت موت الإله ، وإن كنا قد قرأنا عشرات الكتب الأخرى في هذه الموضوعات ، خاصةً حين تصدينا لعلاقة هايدجر بالنازية .

وقد استفدنا من العشرات من الحوليات والمجلات والصحف من أهمها : **جـويش جـورنال أوف سوسيولوجي Jewish Journal of Sociology – جويش سوشيال ستديز Jewish Social Studies – جـودايزم Judaism – كـومنتاري Commentary – ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس The New York Review of Books – تـايم Time – نيـوزويك Newsweek – الجيرو سـاليم ريـورت Jerusalem Report – الجيروساليم بوست Jerusalem Post – نيـويورك تايمز New York Times – واشنطن بوست Washington Post** .

فهـــرس

تقديم : بقلم الأستاذ محمد حسنين هيكل ٧
مقدمــة ١١

الفصل الأول : الإبادة النازية والحضارة الغربية

مشكلة المصطلح ٢١
الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة . . . ٢٤
تحوُّل الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية ٣٦
السياق الحضاري الألماني للإبادة ٤٤
النازية والحضارة الغربية ٤٩
السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة ٦١
السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة ٦٦

الفصل الثاني : بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا

إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والغائية الإنسانية
عن العلم والتكنولوجيا ٧٥
توظيف الإبادة ٨٩
احتكار الإبادة ٩٤
إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي ٩٦
إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسي ١٠٥
معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) ١٠٩
ستة ملايين من اليهود : عدد الضحايا النازية ليهود أوربا ؟ ١١٣
اختفاء وموت الشعب اليهودي ١١٥
إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين : ١١٨
١ ـ محاكمة أيخمان ١٢٠

٢ ـ محاكمة كلاوس باربي ١٢٢
٣ ـ حادثة فالدهايم ١٢٣
٤ ـ محاكمة ديمانجوك ١٢٥

الفصل الثالث : التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

مقاومة الجماعات اليهودية للنازية ١٢٧
الفاشية والصهيونية ١٣٠
أصول النازية والصهيونية الفكرية المشتركة ١٣١
النيتشوية والصهيونية ١٣٥
قانون العودة الصهيوني ١٤١
العلاقة الفعلية بين النازيين والصهاينة ١٤٤
معاهدة الهعفراه (الترانسفير) ١٥١
أشكال أخرى من التعاون بين النازيين
وبعض أعضاء الجماعات اليهودية ١٥٦
١ ـ المجالس اليهودية ١٥٦
٢ ـ رابطة الثقافة اليهودية ١٥٨
٣ ـ تيريس أينشتات ١٦٠
٤ ـ جيتو وارسو ١٦١
٥ ـ جماعة ستيرن ١٦٣
٦ ـ عصبة الأشداء ١٦٥
شخصيات صهيونية تورطت في التعاون مع النازيين : ١٦٦
١ ـ ألفريد نوسيج ١٦٦
٢ ـ مردخاي رومكوفسكي ١٦٧
٣ ـ آدم تشرنياكوف ١٦٨
٤ ـ حاييم كابلان ١٧٠
٥ ـ كورت بلومنفلد ١٧١
٦ ـ رودولف كاستنر ١٧٢

الفصل الرابع : الإبادة النازية في الوجدان الغربي

متاحف الإبادة ١٧٥

قائمة شندلر النفعية ١٨٣
رؤية جديدة للإبادة في كتابات بريمو ليفي وجيرزي كوزينسكي ١٨٦
محاكمة هتلر في رواية جورج ستاينر ١٨٨
لاهوت موت الإله : ١٩٩
١ ـ لاهوت موت الإله ١٩٩
٢ ـ إرفنج جرينبرج ٢٠٤
٣ ـ ريتشارد روبنشتاين ٢٠٧
٤ ـ إميل فاكنهايم ٢١٠
لاهوت التحرير ٢١٣
مارتن هايدجر والنازية ٢١٦
بعض التغيرات التي طرأت على الخطاب الغربي
فيما يتصل بالإبادة النازية ٢٢٥
العرب والمسلمون والإبادة النازية لليهود ٢٢٥

ملحق : في المصطلحات والمفاهيم

النموذج (اللحظة النماذجية والمتتالية النماذجية) ٢٢٩
الطبيعة/ المادة والمطلق العلماني الشامل ٢٣٢
العقلانية المادية واللاعقلانية المادية ٢٣٨
الحلولية الكمونية الواحدية والرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة ٢٤١
الترشيد في إطار العلمانية الشاملة (العقلانية التكنولوجية أو المادية) . . ٢٤٦
الحوسلة ٢٥٢
الداروينية الاجتماعية ٢٥٢
نهاية التاريخ والحل النهائي ٢٥٨
الترانسفير ٢٧٠
اللحظة العلمانية الشاملة النماذجية ٢٧٤
الجماعة التراحمية والمجتمع التعاقدي ٢٨٢
الشعب العضوي (فولك) ٢٨٥
الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ٢٨٨
الجماعة الوظيفية ٢٩٠
اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي ٢٩٢

المراجع ٢٩٥

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا الكتاب

وهنا يجيء دور رجال من نوع الدكتور عبد الوهاب المسيري ، يملكون حكمة تجاوز اللحظة ، وجسارة البحث عن الحقيقة ، وشجاعة الاقتراب من آفاقها والمشي بالفعل على تخومها وتضاريسها.

لثلاثين سنة والرجل شبه منقطع لهذه المهمة ، حتى أوشك أن يصبح موسوعة حية للموضوع ، بل استقر أخيراً على أن يودع ما يعرفه في موسوعة بالفعل أوشكت أن تصل مطبوعة إلى عامة المهتمين والقراء .

وإذا يتقدم عبد الوهاب المسيري بهذا الكتاب الذي اختار له عنوان الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ - فإنه بذلك يشير إلى عمل عظيم على الطريق يستحق جهده ، ويستحق الذين ينتظرونه .

محمد حسنين هيكل

يتناول الكتاب الظاهرة النازية ، إنطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي، يتجاوز السرد التاريخي والمستوى السياسي ، لما يتجاوز منطقة مراكمة المعلومات والحقائق ، ويستخدم منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية .

يبدأ الكتاب بتعريف الإبادة ، وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها ، ثم يتناول ظاهرة الإبادة فى سياقها الحضارى الغربى ، ثم فى سياقها السياسى والألمانى ، وبعض الإشكاليات السياسية والفلسفية التى تثيرها إبادة [illegible] على يد النازى مثل : إشكالية انفصال العلم عن القيمة ، وتوظيف الإبادة [illegible] وانكارها ، وإشكالية الحل النهائى ، وقضية عدد ضحايا الجريمة النازية [illegible] مجرمى الحرب النازيين.

ويثير الكتاب واحدة من أهم القضايا الخلافية ، وهى قضية التعاون [illegible] أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة) مع النازيين ، ويتن[illegible] كذلك المكانة التى تشغلها الإبادة النازية فى الوجدان الفلسفى والأدبى الغ[illegible]